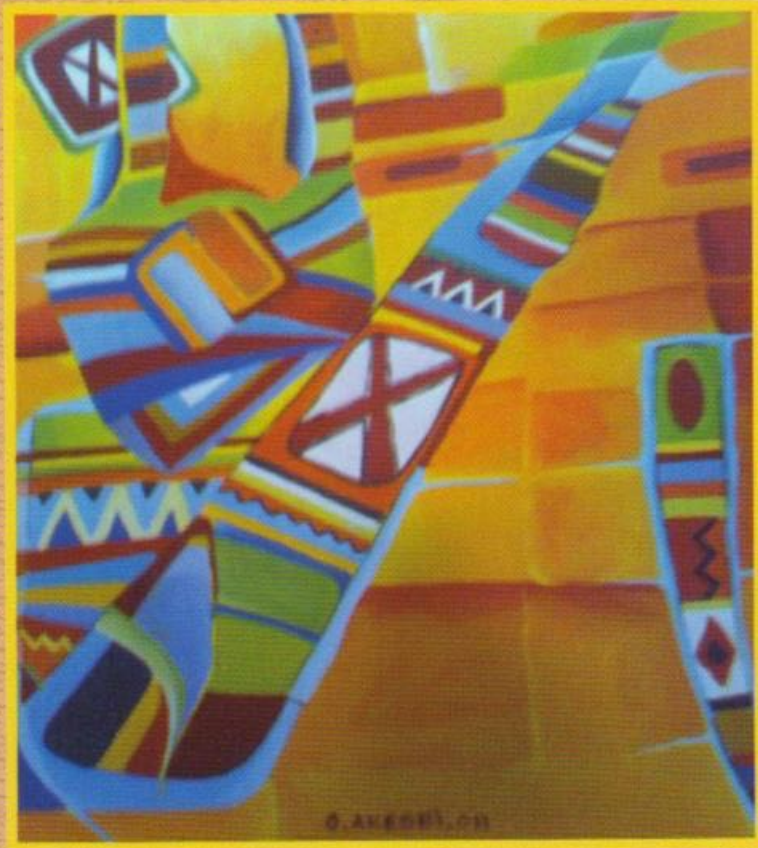


محمد العمري

زمن الطلبة والعسكر

سيرة ذاتية



نشر مركز محمد بن سعيد أيت إيدر

الدار البيضاء

محمد العمري
زمن الطلبة والعسكر

الكتاب: زمن الطلبة والعسكر
سيرة ذاتية
المؤلف: محمد العمري
الناشر: مركز محمد بن سعيد أيت إيدر. الدار البيضاء
مطبعة الناجاح الجديدة
الطبعة: الأولى 2012
الإيداع القانوني: رقم 0005 MO 2012
الترقيم الدولي:
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.
صورة الغلاف للفنان التشكيلي عمر أقصي

محمد العمري

زمن الطلبة والعسكر

سيرة ذاتية

مركز محمد بن سعيد أيت إيدر

الدار البيضاء 2012

إهداء

ستقفُ مراتٍ وتقول: يا إلهي، إنها رحلةٌ شاقة!
ذلك أنك تفترضُ أنني سيرتُها وحدي بكل ذلك العناد والإصرار!
لم يكن ذلك ممكناً.. إلّا بقلبين وإرادتين وعنادين: هارذوير وصُوفتوير..
هذه سيرتي وسيرتُها... سیرتان بقلم واحد..
ضميرٌ ظاهرٌ، وضميرٌ مستترٌ.. تقديره: هي.
هذه السيرة حكيثُها لفاطمة أولاً.. لرفيقة العمر ولكل امرأةٍ مستعدةٍ للمغامرة من
أجل الاستحمام بنور القمر.. والتنشُّف بأشعة الشمس..
ومن خلالها، ولسانها، أحكيها لحباتِ قلبها: كمال وسامي وطارق..
ولكل الشباب المتّحدي...

تقديم

لماذا نكتب سيرة ذاتية؟

الفرجة على الذات

بعد الانتهاء من كتابة الجزء الأول من سيرتي الذاتية، تحت عنوان: أشواق درعية، بدأتُ أراودُ موضوعَ الجزء الثاني فاستعصى، وتمنّع سنواتٍ. كانت "الأشواق" مطبوعة بالحنين إلى فضاءات الطفولة على ضفاف وادي درعة، وذاكرات المراهقة بالمعهد الإسلامي، ومصبوغة برهبة الموت الزاحف مع المرض العضال الذي ألمَّ بي نهاية القرن الماضي، كانت المسافة الفاصلة بيني وبين زمن الطفولة والمراهقة مثاليةً. ومع المرض العضال رصيتُ من الغنيمة بالذاكرات، فكتبتُ خطبةً وداع، ثم كتب لي أن أعود.

أمّا "زمنُ الطلبة والعسكر"، زمنُ "ما بعد الأشواق"، فقد كان في مُعظمه زمنَ أشواكٍ ما يزالُ أكثرُها ملتصقاً بنا التصاقاً مستفزاً يمنعُ الرؤية الواضحة: الالتصاقُ بالماضي واجتراره اشتباكٌ يمنع الفرجة. وبعد مغادرة العمل في الجامعة سنة 2005، والابتعاد عن الممارسة السياسية والنقابية اليومية والميدانية بدأ المرّجل يهدأ شيئاً فشيئاً، فعادت الرغبة إلى البوح، إلى الكتابة.

وقتها تساءلتُ: لماذا نكتبُ سيرةً ذاتيةً؟ هل الكتابةُ مجردُ تأييدٍ لزمَن
ننفصلُ عنه؟ هل نكتبُ لننسى ما وقعَ فعلاً، لصالحِ روايتنا الخاصة،
وصياغتنا المتميزة؟ هل نكتبُ لنصدمَ الآخرين مبرزين أمام العالم ما نختلف
معهم فيه؟

الحقيقة أننا نكتبُ لأسبابٍ مُباشرةٍ عديدة - يمكن الحديثُ عنها بالنسبة
لكل سيرة على حده - ولكننا نكتبُ، خلفَ ذلك ووراءه، لسببٍ بعيدٍ يحكمُ كلَّ
تلك الأسباب القريبة، هو السببُ نفسه الكامنُ وراءَ القراءة، هو لذةُ المعرفة.
وما سوى ذلك هَدَرٌ. نقرأ لكي نَعْرِفَ، ونكتبُ لكي نَعْرِفَ ونُعرِّفَ.

نقرأ لمعرفة ما عندَ الآخرين، ونكتبُ لمعرفة ما عندنا. وحين نعرفُ ما
عندنا ونجدُه مختلفاً عما عندَ الآخرين، أو نتوهمُ ذلك لقوة ما نرغبُ فيه،
وقتها تتكون لدينا رغبةٌ في الوشاية بأنفسنا. ننقل لمستوى العَجَبِ، مستوى
الفرجة. فحيناً نقول: أنظروا من أين جئنا، وكم تخطينا من حواجز! أو كم
ضاع منا، وأخرى نقول: أنظروا ما فُعل بنا! إلى آخر الاحتمالات، حسبَ
الأوضاع والاستراتيجيات. ولكن لا سيرة بدون عَجَب. ولا عجب بدون
اختيارٍ واختزالٍ، تذكُّرٍ ونسيان.

القراءة فُرجة على الآخرين، والكتابة الذاتية استدعاءً للمشاركة في
فرجة المرء على نفسه وهو يقدم روايته ظالماً أو مظلوماً.

ثم أليست الكتابةُ، بعدَ القراءة، مُطالعةً ومُلاونةً، أي استعراضَ قاماتٍ
وألوانٍ؟ ألا يتحدثُ الجميعُ عن التجديد والتفرد؟

ثم أليس مُؤدَّى ذلك كلُّه التميُّز، أي الانفصال؟

إنّ نحن نقرأ ونكتب لنتصل ونفصل. وكل قراءة أو كتابة لا يتعاقب فيها الاتصال والانفصال بشكل عجيب، أو مُعجِب، جثّة هامة جاهزة للدفن.

والكتابة بهذا المعنى "بحث" لا علاقة له بالنسخ والتوثيق، ولا بالثرثرة وطول اللسان.

غير أنه لا بُدّ، في الكتابة الذاتية، من مسافة بين العين الراصدة والموضوع المرصود. شيءٌ شبيهٌ بانفصام الشخصية. فحين يضيق مجال الرؤية بعدم القدرة على وضع مسافة كافية، تلتصق العدسة بالمشهد فلا نرى شيئاً، وحين نبتعد أكثر من اللازم لا نرى شيئاً غير البرودة: تختلط الحَيَوات، فندنو من الحيوان: دورة الحيوانات متشابهة.

لا بد أن نكون على مسافة مثالية من الموضوع، وهذا هو السؤال الذي أترك للقراء مهمة قياس مَداه، فقد بذلتُ أقصى ما أستطيع للانفصال من أجل فُرجة جماعية، ولكن ذلك كان صعباً هذه المرة، وفي بعض اللحظات منها. وبلغت التجارة لقد قمتُ بتخفيضات soldes كبيرة، وكأني بصدد تصفية نهائية liquidation totale، تنازلت إلى أقصى حد، ولكن الآخر كان شحيحاً ...

يصعب على عامة الناس أن يفهموا معنى أن نكتبَ لننسى، وذلك رغم أننا نسمعهم يقولون للمضيوم: "فرِّغ عليّ قلبك لتستريح"، أو كما يقول المصريون: "فضفض". السيرة "العسيرة" تصفية حساب، وأخذٌ بثأر. لقد أدهشني ما لاحظته من أن الأحداث التي ظللتُ أحتفظُ بكل تفاصيلها زمناً ومكاناً ورائحة ونبرة صوتٍ وقسماتٍ وجهٍ أخذت تتلاشى من ذاكرتي بمجرد ما صُغتها في صورٍ وألوان لغوية بديلة. ويتمادى هذا المحو كلما أعدتُ القراءة وغيرتُ الصياغة. لدرجة أن صار يساورني الشك في واقعية بعض

التفاصيل التي كنت أجزم بها قبل الكتابة، فحذفت بعضها. حتى العبارات الحادة التي وصفتُ بها بعض السلوكات الدنيئة لبعض الأشخاص صارتُ تخذشُ ذوقي فعدلتُ منها ما أمكن تعديله، وأبقيتُ أقلَّ ما يمكن على مَضض احتراماً للواقع. إني لأجتهِد في كَبْح نزعة المؤرخ التي تَوَدُّ أن تفهم وتَفْهَم، وتجد العُذر للجميع وتتسامح، لأن هذه النزعة ستسلبني حقي في أن أكون طرفاً منازعاً، في أن أكون إنساناً مختلفاً.

الكتابة اختيارٌ، اختيارٌ من بين الأحداث، واختيارٌ من بين الألفاظ، واختيارٌ من بين الصور، واختيارٌ من بين الأصوات... اختيار ممتد، وحين نُحس بتراجع الرغبة في تغيير ما نكتب نكون قد خَطَطْنَا أثراً مثل أثر ذنب سَحْلِيَّة فوق رمال الصحراء، أي حَقَّقْنَا ما يسمونه "الأسلوب"، الذي هو "نحن".

ليس مألوفاً في الكتابة المغربية، والعربية عامة، أن يتحدث الناس عند نقطة الوصول عن **الآخر الذي كانوه**، عن خطواتهم الأولى: فقيهُنا وُلِدَ فقيهاً، وحاكماً وُلِدَ نزيهاً، ومتقناً في منزلة بين المنزلتين؛ ينتظر أن يرسو المزاو ليحط الرجال، ويصوغ الماضي المناسب للحاضر. **نظرتنا للحياة قدرية لا وجودية**: إنساننا "ما كان" لا "ما يكون". ولذلك نسعى دائماً لصياغة ماضينا على مَقاس الحاضر وما نتوخاه من مستقبل. وحين يقع تَغْيِيرُ حادٍّ في القيم (الدينية مثلاً) والمفاهيم (السياسية مثلاً) تصبح هذه المهمةُ صعبة، كما وقع في العقود الأخيرة. لذلك ساد شعار: "إذا ابتليتُم فاستتروا". صار ماضِي النخبة أَوَّلَ الضحايا: كلُّهم ملائكة ومن سلالة الأنبياء والصالحين. وعليه يصعبُ أن نُنتجَ سِيراً ذاتية حقيقية، نَتَضَمَّنُ شيئاً من مِلْح السيرة: "الاعتراف". حاولتُ أن أجتاز هذه العتبة، فمعدرةً لكل من ذكَّرنَاه بأنه كان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. لن ننتِفِ لحيةً أحدٍ حتى ولو سدت عين الشمس.

زمن الطلبة والعسكر الذي أنتج كلَّ المآسي والفضاعات التي يُحاول الجميع التطهُّر منها الآن، بعدَ عدة عقود، زمنٌ فريد، لن يتكرر برغم كل مخاوف الردة التي تساورنا! هو زمنُ الانقلابات: انقلابُ الطلبة على أنفسهم، ثم على الأحزاب السياسية تمهيداً لما بعدَ "ذلك"، وانقلابُ العسكر على المخزن وصولاً إلى "ذلك". إنه زمن العُقوق وقتلِ الأب قبلَ أن يتحول إلى زمن خيبة وانكسار، الشيءُ الذي مهَّد الطريق للخطاب الأصولي وصناعة الزنابير.

زمنُ الطلبة والعسكر "زمنٌ مُقتطع" - كما يُقال في لغة كُرة السلة - من مُسلسل الصراع بين المخزن وبين طليعة "الحركة الوطنية" التي ناضلت من أجل الاستقلال ثم تحولت إلى معارضةٍ تجر ذيول الخيبة.

عاشنا المخزن، على مدى طفولتنا ومراهقتنا، وهو يُرمِّم صفوفه اعتماداً على المؤلفة قلوبهم والمرترقة القادمين من النظام التقليدي شبه الإقطاعي، من جهة، ومن الجهاز الإداري والعسكري الذي خلفه الاستعمار، من جهة أخرى. وعاشنا المعارضة المتفرعة عن المقاومة وجيش التحرير وهي تتلقى رياح الفكر التحرري القومي والاشتراكي الذي كان يهب بقوة على العالم الثالث، ومنه العالم العربي. في الهوة العميقة الواسعة بين الطرفين قضينا طفولتنا وشبابنا، فكان لا بد أن نكون كما نحن.

وصلَ هذان الفاعلان الرئيسيان، بعدَ موت محمد الخامس، وبعدَ تصفية شيخ العرب واغتيال المهدي بن بركة، إلى الباب المسدود، إلى القطيعة. ولذلك كان لسانُ حالِ الطلبة والعسكر يقولُ للطرفين، أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات: "كفى من هذا الحب المستحيل"! آخرُ الدواء

الكي: "الثورة" الماركسية أو "الانقلاب" العسكري. إنه شيء أشبه بالاتفاق على خلع علي ومعاوية. ولكن عَمَرُو بن العاص كان حاضراً على الدوام.

وفي صراع المخزن مع الحركة الوطنية ثم مع الطليعة الماركسية وما وقع من تصدع داخل مكون من مكوناته (العسكر) لم يجد بُدّاً من تربية الزنابير في جميع المجالات ابتداءً من المجال السياسي حيث صنع الأحزاب المزورة وصولاً إلى زرع الأصولية والسهر على نموها حتى شبت على الطوق فصارت تتناوشه. وفي هذا السياق انتشر الزنابير في جميع مناحي حياتنا، حتى في الجامعات والمساجد والمكتبات، في كل مكان...الخ

تَحكي هذه السيرة كيف عَبَرْتُ ذاتُ حاضرةً وغائبة، مؤمنةٌ ومرتابة، جماعية ومفردة، هذه المسالك الوعة الشائكة قادمة إليها من الهامش. إنها إحدى الروايات عن حياة جيل الاستقلال في ملتقى العقدين السادس والسابع من القرن الماضي وما بعده: جيل الخيبة والمغامرة والانكسار. رواية حمراء تشتاق إلى روايات بألوان أخرى ...

الأشواق هروب إليك، يا وطني، و ما بعد الأشواق خوفٌ عليك.

فاس - المحمدية. 2011/11/20

الفصلُ الأولُ:

رحلة في زمن الانقلابات

1968 . 1972

العسكرُ دينيَّة

عسكرُ الدينِ نمطُ حياةٍ عشناه "طلبةً" في المعهد الإسلامي بمدينة تارودانت وفروعه (1959-1968). كان حراسُ الداخلية بالمعهد يقومون بعملٍ شبيه بعمل الشرطة الدينية في بعض البلاد الإسلامية في المشرق العربي. كان عدد الداخلين في المعهد حوالي الألف.

قضينا أكثر حركتنا داخل المعهد الإسلامي في صفوف طويلة؛ نسيرُ نحو المسجد، أو نحو المطعم، أو نحو حُجرات الدرس، أو نحو قاعات النوم. وقضينا أكثرَ سكوننا في صفوف عرضية؛ صفوف الصلاة، و صفوف الأكل، و صفوف النوم... الخ

أصواتُ السيِّ حَمَادُ والسيِّ مُحَمَّدَادُ (الراي) تخرق سكونَ الليل، قبل الفجر بكثير: "توضوا... أنوضوا... نوضوا نوضوا... خرجوا... أخرجوا!" (انهضوا، انهضوا لتتوضؤوا).

كان السيِّ مُحَمَّدَادُ دائمَ الظهور بلباسه الفضفاض والسجادة على كتفه الأيمن، فشبهه التلاميذ "بالرَّاي" في لعبة الورق (الراي: الملك بالإسبانية): السيِّ محماد الراي. كان رمزاً للغموض والأقاويل لأنه يعيش عزوبة في سن متقدم، وهو لطيف، "يدفع بالتي هي أحسن"، كما يقول التلاميذ. أما السيِّ حَمَادُ المؤذُنُ فهو بدوي عنيف لساناً ويَدًا. ضربني مرة بعصى رقيقة حارة

حارقة على ظهري؛ كان جلدي ما يزال نائماً، ولم يكن على جسمي غير قميصٍ من النيلون الأبيض الخفيف الشفاف، لا شيء غير أننا تأخرنا قليلاً في المرحاض فُيئِلَ الفجر بسبب الزحام.

وقفَ بباب المرحاض فلا يمر تلميذٌ إلا أشعلَ النارَ في جلده. حفظُها له، وحين جاءت الفرصة، ذات صباح، تركته يتوجّع في ظلام الحديقة. وهو غيرُ السي مُحَمَّاد "المخريق" فهذا رجل من طينة أخرى طيبٌ ومؤدب. والمؤدب عند بعض المغاربة مغفلٌ أو "مخريق". وهناك حارسٌ آخرٌ بذِيءُ اللسان كان التلاميذ يستقزون به بالنداء: "وَا بَكَرَ عَلالٌ"، فيُرعِد ويُزِيد، يسبُّ ويلعن. وكان خصومُ حزب الاستقلال يُنبِزون المنتمين إليه بهذا اللقب: "بقر علال"، نسبةً إلى الزعيم التاريخي للحزب علال الفاسي. كان ذلك الحارس على وشك التقاعد عند وصولنا للمعهد. سمعتُ التلاميذ يقولون إنه من "أولاد الحلوف"، فكنت اعتقد أنهم يسبُّونه، قبل أن اكتشف أنها مجرد نسبةٍ واقعية إلى منطقة في طريق الخارج من تارودانت نحو هوارَة، تسمى بهذا الاسم، لم يعد سكانها يتذكرون من الحُلوف غيرَ حروفه.

ما أقساها من أصواتٍ عنيفةٍ تكسرُ سَكينةَ الليل، في أحلى لحظات النوم، في فصل الشتاء والربيع والخريف، تنطلق في الثالثة ليلاً لتنتشل من النوم أجساداً مرهقة مُرهقة. تنطلق من أشداق المؤذن والحراس، من أفواه أناس قضوا نهارهم نائمين، أو أدركتهم الشيخوخة فلم يعدْ النومُ مطلباً لأجسادهم. حين نذهب نحن التلاميذ إلى الأقسام يخلُدون هم للنوم في أماكن مظلمة استعداداً لجولة قادمة من "الجهاد"، جهاد يتجاهل الإنسان.

مجتمع المعهد الإسلامي مُجتمعٌ ذُكوري، لا أذكر أن أنثى دخلت المعهد الإسلامي قطُّ، عدا نساء الطيور المحلقة، والقطط المتسلقة؛ حتى الكلاب لم تكن تُقبَل في خدمة المعهد إلا أن يُشهد لها بثبوت الذكورة ونُضوب الفحولة.

لم يكن البرنامج، التعبوي الديني، يختلف كثيراً عن البرنامج الذي أنتج طالبان في باكستان. الحمد لله على أن أساتذة المعهد كانوا من طينة أخرى، كانوا علماء فضلاء. والحمد لله، بعد ذلك، أن طلبة المعهد لم يُوجَّهوا، بعدَ تخرجهم من المعهد، إلى ثورابورا لمقاتلة الروس الشيوعيين، بل توجهوا إلى كلية الآداب بفاس ليقوموا بـ"خطوتين إلى الأمام" نحو "الدولة والثورة" (التحقوا، في جمهورهم العام، بـ"الجبهة" الماركسية الصاعدة أواخر الستينيات، وأوائل السبعينيات) وخطوة إلى الوراء نحو حقهم البيولوجي، نحو الجنس الآخر الذي حُرِّموا من التعرف عليه عفويا وبشكل تدريجي. ما إن خرجنا من هذا القالب الضيق الحرج حتى "تعوَّجنا"، ولا أقول انحرفنا، وتشعبت مساراتنا؛ كلُّ حسب الجهة التي أشرقَتْ منها شمسُه، أو هبَّت منها ريحُه، أو نطق بها بُرجُه، أو لمَحَتْ إليها قارئُه فنجانُه.

الخروج الأول

في نهاية السنة الدراسية 67 - 1968، سنةِ الهزيمة العربية، انتقلنا، نحنُ طلبةَ المعهد الإسلامي المرشحين لاجتياز البكالوريا، من تارودانت إلى مراكش حيث يوجد مركزُ الامتحان بمدرسة ابن يوسف. انتقلنا من جنوب الأطلس الكبير إلى شماله عبر تيزي نُّتاست. ركبنا الحافلة من تارودانت في الصباح الباكر، كان جزءٌ من الطريق، عند قمم الأطلس، ما يزال غيرَ مُعَبَّد. عندما علونا قمة الأطلس تسابق حذاق التلاميذ إلى إثارة انتباهنا إلى أطلال الموحدين. أطلال مسجد تينمل تصارع عوامل التعرية. لا شيء يُثير الانتباه في ذلك المكان غيرُ حيوانات مأسورة في قفص المقهى الوحيد الموجود على القمة. رحلةُ نصفِ يومٍ، ولكنها تفصلُ بين عالمين؛ عالم سوس المحافظِ الأقربِ إلى الفطرة، وعالم مدينة مراكش المهيبة بساحتها التاريخية الصاخبة: جامع الفناء. لا بدَّ للمتوجه نحو

مراكش من الوجه الجنوبي للأطلس أن "يجمع أطرافه" وإلا عبث به المحتالون. كانت المسافة النفسية والاجتماعية بين جنوب الأطلس وبين مدينة مراكش أكبر بكثير من المسافة المحسوبة بالكلومترات.

فمما يُحكى عن أهل مراكش، في الجنوب وفي محيط المدينة عامة، أنهم يستطيعون أن يُعيدوا إليك حمارك الهرم المتعب جدّاً، أي في غاية النشاط والحيوية. فتشتريه منهم في المساء بأضعاف ثمنه الزهيد الذي بعته به في الصباح. كل ما يفعلونه هو أنهم يعرضونه على "طبيب الأسنان" والحلاق المزّين؛ يبرّدون أسنانه حتى تصبح بيضاء كالليب، ويغسلونه بالغاسول الطيني الطبيعي، ويمشطون شعره ويهدّبون حاجبيه. فإن لاحظوا عليه، بعد ذلك، تكاسلا "عكرو له" بالفلل السوداني ليصبح أكثر توتراً وحيوية لبضع ساعات، ثم لا يلبث أن تنفد بطاريته وبنهار نهائيا بين يديك قبل أن تبلغ مأمنك، بل قبل أن ينفذ بك من أحد الأبواب خارج سور المدينة. وتُنسب هذه الحكاية لجهات أخرى قريبة من مدينة مراكش أو بعيدة منها، نوع من التنازع الإقليمي الفرجوي.

مراكش مدينة عركها التاريخ، هي عاصمة الجنوب، بعد أن كانت عاصمة المغرب. هذه هي صورتها في متخيّل محيطها البدوي. أما من نام في فنادقها أو قال في مقاهيها فله حكايات أخرى، تبدأ بسرقة متاعه، وتنتهي باقتحام جلبابه. وتلك سنّة قديمة في المدن الكبرى. فمما جاء في كتاب "معيّار الاختيار في ذكر المعاهد والديار" لابن الخطيب (ت 1374م) أن في مراكش "ما شئت من انفساح السكك، وسبوغ الشكك، وانحلال التّكك، وامتداد الباع في ميدان الانطباع، وتجديد فنون المُجون بالمدّ والإشباع".

والتّكك، رعاك الله: جمع نكّة، خيط يُشد به السروال: حزام. و"انحلال التّكك": كناية عن التّهتك.

وقد أوردَ ابنُ الخطيب في معياره ما تمتاز به كل مدينة من مدن الأندلس والمغرب وتشتهر. وأطال كثيراً في ذكر مزايا مراكش قبل أن يعرِّج على هذه الخصوصية الحضارية. وذلك نفسُ ما فعله مع فاس غريمة مراكش في مباهاة المتباهين، نورده تسويةً للميزان بين المدينتين في باب الإساءة والإحسان، فهما حبيبان، أو حبيبتان، على كل حال. ونحن في سياق الانتقال من هذه، بعد الحصول على الباكلوريا، إلى تلك، للدراسات العليا. فلا بد من العدل ما استطاع المرء إلى ذلك سبيلاً. بعد التتويه بمزايا فاس، والإفصاح عن عظيم الإعجاب بها، قال ابنُ الخطيب: "بلدُ نكاحٍ وأكل، وضرب وركل، وامتنياز من النساء بحسن زِيٍّ وشكل، ينتبه بها الباه، وتتلّ الجباه [تصرع]، وتوجد للأزواج الاشتباه... إلا أن حرَّ هذه المدينة مذهب، وساكنها ذيب، ومسالكها وعرة، وظهائرها مُستعرة".

والباهُ معروف، وليس موضع اشتباه. وإن التبس عليك أمره فراجع كتاب: عودة الشيخ إلى صباه في القوة على الباه، للإمام أحمد بن سليمان الشهير بابن كمال باشا، فهو مرجع "سري" معتمد عند فقهاء المدينتين، بل مستعمل عند فقهاء المدن الكبرى على طول الوطن العربي وعرضه، يتداوله طلبة المدارس الدينية كما يتداول الماركسيون، في السبعينيات، دليل الثورة المسلحة وحرب العصابات.

كانت الرهبة ظاهرة على صغار التلاميذ، أما أنا فقد سبق لي أن استأنستُ بمدينة مراكش عابراً من ورزازات إلى المحمدية وعائداً إليها منذ أواخر الخمسينيات. وعموماً فإننا لم نكن نحمل همّاً كبيراً، لا مادياً ولا معنوياً، لتلك الرحلة من جنوب الأطلس إلى شماله. فقد تكفّلت "جمعية علماء سوس" بإيوائنا في مقر الزاوية الدرقاوية، بالرميلة، بباب دكالة. وهي الزاوية التي ينتمي إليها الوالد، رحمه الله، وكنتُ أحفظُ وردها وأذكّارها منذ الطفولة الأولى. كان صاحبُ المعسول، وسوس العالمة، المشمولُ برحمة

الله، العلامة المختار السوسي قد دأب على وضع ذلك المقرّر رهن إشارة الجمعية لإيواء "طلبة" المعهد.

مضت الأيام التي سبقت الامتحان في توتر شديد. كنت أقضي النهار، مع بعض الأصدقاء، في الحقائق العمومية نراجع المقررات، ونحملق في الغاديات الرائحات، ونحن في قمة المراهقة، ثم نعود في المساء إلى الزاوية، لأداء الصلوات الخمس وما يتقدم بعضها من نوافل، مع قراءة الحزب قبل الخلود إلى النوم، لنستيقظ في الصباح، قبيل الفجر لإعادة نفس الطقوس. كنا نؤدي هذه الطقوس مقابل الإقامة والأكل، فنحن لم نتعوّد على العبادة طوعاً وربة، بل تحت السياط.

المقررات الدراسية مُستوعبة، وبعضها، مثل الجغرافيا والبلاغة والفلسفة، محفوظ عن ظهر قلب. ولإبقائها طرية كنا نقوم بعملية استنكار، أو استظهار، حسب المادة. كانت لي قراءات حرة موازية كثيرة، خاصة في الأدب والفلسفة، استفدت منها في التوسع في الأجوبة.

أذكر أن السؤال الذي طُرح في مادة الأدب كان يتعلق بـ"مفهوم النقد"، فوظفت في الجواب عنه مادة علمية وفيرة مستقاة من كتاب النقد الأدبي لأحمد أمين، وهو من أقدم ما أُلّف في هذا المجال وأدقّه. وما زلت، إلى الآن، أحفظ فقرات من ذلك الكتاب، خاصة تلك المتعلقة بالتعريفات المنقولة من كتب التراث. مثل حديث الجرجاني عن الذوق:

"اعلم أيها الناظر في كتابي هذا أن مدار حكم البيان على الذوق السليم الذي هو أجدى من ذوق التعليم..الخ".

كما أذكر أن الأستاذ الذي اخترني شفويا في مادة البلاغة لم يخف إعجابه بحفظي لكل التعاريف والأمثلة الواردة في كتاب علوم البلاغة للمراغي، إذ تنقل بي من هذه القاعدة إلى تلك، ومن هذا الشاهد إلى ذاك، ما سابقتي إلا سبقته، حتى وقفنا عند قول الشاعرة في رثاء أخيها ابن طريف:

أيا شَجَرَ الخابورِ مالكَ مورقاً! كأنك لم تَجْزَعْ على ابنِ طَريف!

فأعجبَ به أيُّما إعجاب، وشرع يترنم به، ثم هنأني، وأذن بالانصراف. ولأنني كنتُ من أوائل الممتَحِنين عنده فقد اعتبَر ذلك تحدياً لمن جاء بعدي من التلاميذ، كما ذكر لي.

كنا قد شرعنا، منذ السنة الخامسة، في تهيئِ مادة الفلسفة رغم شُح المراجع، كان بعض التلاميذ الذين أخالطهم، وأراجع معهم، يستعدون للتقدُّم إلى البكالوريا أحراراً من السنة الخامسة في تكتُم شديد. وكنتُ أسايرهم "كالأطرش في الزفة"، كما يقال. وفي لحظة تقديم الملفات انكشف أمرهم فحاولتُ الالتحاق بهم. كان علينا أن نُزوِّر الشواهد المدرسية، فاجتاز حمارهم العتبة ووقفَ حماري دونها. فعلَ الله في ذلك خيراً: في الموسم الدراسي اللاحق ظهر كتابان كان لهما أثرٌ حاسم في مسار جيل كامل: "دروس الفلسفة لطلاب البكالوريا" في جزأين: الجزء الأول في الأخلاق والميتافيزيقا، والثاني في مناهج العلوم وعلم الاجتماع وعلم النفس، كانا من تأليف الأساتذة محمد عابد الجابري وأحمد السطاتي ومصطفى العمري. ثم تلاهما كتاب في الفكر الإسلامي.

أحدثتُ هذه الكتب انقلاباً في ذهني، بل في ذهن جيل كامل من الشباب المغربي. لقد فتحتُ نوافذَ في عقولٍ كانت مغلقة. قال لي أحدُ التلاميذ، ونحن نراجع المنزع التوفيقي في الفلسفة الإسلامية: "هذا ابن رشد دوخني، أصبحت أشكُّ في أمور كثيرة، ما تركته الفلسفةُ سيذهب به الفكر الإسلامي...".

كانت وزارة التعليم قد تبنت هذه المؤلفات، ثم انتبَهِت الدولة، بعد فوات الأوان، إلى خطورة هذه الكتب في نشر الفكر النقدي المحرَّر للفكر. ولذلك بذلت مجهوداً كبيراً في مَحْو أثرها باستيراد مدرِّسين من الشرق العربي وفتح

شُعَب الدراسات الإسلامية. وقد ذكر لي أحد الزملاء الذين كان لهم اتصال بالمرحوم الدكتور سامي النشار أنه قال: "لقد جننا نحن المشاركة إلى المغرب لغرض واحد: إفسادُ برامج الفلسفة...".

بعد الانتهاء من الامتحانات، هدأتُ أمعائي من الاهتزاز الذي أصابها جرّاء شدة الانفعال. وقّع لي نفسُ ما وقع عند اجتياز الشهادة الابتدائية. ومن ذلك الوقت وأمعائي تهتزّ إلى أن صارت اليوم تنزف. تحررنا من أعباء ثلاث سنوات، بل تسع سنوات من العمل المتواصل. الباكلوريا هي سدرَةُ المنتهى، أو هي قابُ قَوْسَيْنِ أو أدنى منها، عندها تُعطى الأعطيات وتتشعبُ المسارات. تنقّسنا الصُّعداء، فأصبحَ من حقنا أن نسمع صوتَ مراهقتنا، وحديثَ أجسادنا. التحقّت بطليعة المشاغبين الباحثين عن المشاكل.

بدأنا في استكشاف الزوايا الظليلة والمعتمّة من المدينة القديمة. ومن أول يوم جاء كلُّ تلميذ من المجموعة بحكاية. في المساء حكى أحد التلاميذ، من أبناء تارودانت، بعد قراءة الحزب، أن "عملاقاً" أسودَ أمسك بيده بقوة في إحدى زوايا جامع الفناء طالبا منه مصاحبته للحصول على مائة ريال، فبدأ يصيح حتى تجمهر المارة وألقي القبض على المعتدي. ونُقل الطرفان إلى قسم الشرطة لتحرير محضر. وفي لحظة الاستماع إليهما، انطفأ الضوء لحظةً، وعندَ عودته كانت الزاوية التي يقف فيها المعتدي فارغة. ولعل هذا ما جعل ذاك التلميذ يوقفُ دراسته ويلتحقُ بالشرطة بمدينة أكادير. كان صديقاً حميماً لي، هو الذي علمني القواعد الأولى للفرنسية نطقاً وتصريفاً ونحواً. كانت بدايته في التعليم العصري، ثم التحق بالمعهد. فقد التقى في معهد جمعية علماء سوس وفروعه من جاء من الكتاتيب والمدارس العتيقة ومن تعثرت مسيرته في التعليم العصري لسبب من الأسباب، وكان صديقي من الصنف الثاني.

تلك حكاية صديقي ب. س، أما أنا فقد كنتُ أتجولُ مع تلميذ يُدعى و. ز
بباب الخميس حين أشارت علينا سيدتان ملتحفتان بلحافين أسودين باتباعهما
فلم نتردد، كان معهما طفلان صغيران للتعمية. دخلنا أزقة ضيقة، ومن زقاق
إلى زقاق نتبعهما عن بعد، انسللنا وراءهما إلى قبو؛ نصفُ بابهِ ظاهرٌ في
الزقاق، والنصفُ الآخرُ مغرورٌ في الأرض. تبخر الطفلان عند المدخل.
كانت البدايةُ سعيدةً، غيرَ أن غرورنا جعلنا نعتقد أننا ذئبان وسط نعاج.
كانت الدار من طابقين أو أكثر، تعجُ بالنساء. فجأة "ظهرت أذنا الحق"، كما
تقول قصةُ النعجة والذئب، فخرجنا من ذلك القبو كما خرج الثعلب من البوعةِ
جنةِ المشمش تاركاً بعضَ جلده على جدار البالوعة الضيقة. الحمد لله أن
الأمر وقف عند حصة النقود التي كنا نحملها. وضع "عبد الحق" يده في
جيوبنا وقلبها إلى الخارج فسمعنا لآخر مرة صوت رياتنا ترن فوق الإسفلت،
في حين كانت مجموعة من الفتيات شبه العاريات يُطلن من الدور الأول، من
عين الدار، واحدة منهن تحمل في يدها مجمرًا متوهجاً تُلَوِّح به، خِلْتُ أنها
ستصبه فوق رؤوسنا. خرجنا من ذلك الفخ نحثُ الخُطَا نحو ملجأ "الفقراء"،
وملتقى الصوفية، نحو "الزاوية الدراوية"، ومن الزاوية إلى محطة شركة النقل
الساتيام، هو إلى أكادير وأنا إلى المحمدية حيث سأنتظر نتيجة الامتحان وأنا
في غاية الاطمئنان، ولم نلتقِ إلى اليوم.

التباس

عندما علم الفقيه، أخي الأكبر الذي أقيمُ عنده في مدينة المحمدية، أن
نتيجة الباكلوريا لسنة 1968 ستظهر على صفحات الجرائد أوصى مُرَوِّد
متجره بالنعناع أن لا يُريه وجهه، كلَّ صباح، إلا والجريدة في يده، إلى أن
تظهر النتيجة. أما أنا فقد نسيْتُ الموضوعَ وانغمستُ في أجواء البحر.

وذاث صباح فوجئتُ به وهو يناديني، بضجر غير معهود، رافعاً
الجريدة في وجهي، جريدة المُحرر أو العلم، لا أذكر، وكان هو يشتري
عادة جريدة التحرير إلى أن توقفت سنة 1963. فصار يشتري العلم إلى أن
وافيته مرة بجريدة المحرر فعاد إليه ابتهاجه. كان الفقيه البصري عنده في
صف جمال عبد الناصر والمهدي المنتظر:

ها هي نتائج الباكلوريا! اسمك غير موجود... أين اسمك ...
سقطت...؟

مذّها إلي ببرودة طالبا مني إثبات العكس. فليئتُ الجريدة قليلاً فلم أجد
اسمي بين الناجحين. عمّ جوٌّ من الحزن. أنا لا أصدق ما أرى، وهو لا
يستطيع أن يكذب الجريدة..

لمعتُ فكرة ما على جبينه! استعادَ الجريدة من يدي، نظر فيها ملياً.
تأكد أن أحدَ زملائي، من أبناء الحارة، ممن اجتازوا معي الامتحان، غيرُ
موجود بدوره: حتى الطيب ساقط(!؟)

ناولني الجريدة بسأم وانصرفَ إلى رُبنائه دون أن يكلفني بمهمة يومية
تعبيراً عن رضاه. بدأتُ أبحثُ عن أسماء الزملاء الآخرين مبتدئاً
بالمتفوقين، فلم أجد اسمَ أحد منهم. تأكدتُ أن في الأمر سرّاً.

ورغم أن المصيبة عمت فإنها لم تهنُ. بقينا ننتظر بين الأمل والحيرة ما
ستتطق به الأعداد القادمة. وفي الغد لم أنتظر صاحبَ النعناع بل قصدتُ
القسبة مع طلوع الشمس في انتظار وصول الجرائد مستعداً للتضحية بست
ريالات ثمنِ الجريدة، توقعتُ أن يكون هناك ملحقٌ أو أي بيان أو احتجاج.
وفعلاً طلعتُ نتائجُ التعليم الأصيل. أما النتائجُ التي نُشرتُ بالأمس فكانت
تخص التعليم العصري. حملتُ إليه النتيجة قائلاً بِرَهْوَ:

ها هو اسمي، ناجح بميزة حسن...

نقحّص الاسم، أعاد قراءة عنوان الصفحة وتاريخ الصدور، أحصى عدد الحاصلين على هذه الميزة على المستوى الوطني مُنقلاً إصبعه فوق اللائحة بعناية، وجد أنه لا يتجاوز أحدَ عشر، فلم يستطع أن يكتّم فرحته، أو يحجب هديته. كانت وسائل الاتصال وقتها من التخلف بحيث لا يمكن الاستعلام عن نتيجة الباكلوريا إلا من المكتب الوحيد الذي تتركّز به النتائج في الرباط، بزينة ابن تومرت. والنفادُ إلى مركز المُخابرات الأمريكية في المنطقة الخضراء ببغداد أيسرُ من النفادُ إلى ذلك المكتب بالنسبة إلى أمثالنا من البدو.

محاولة اختطاف

كانت وجهتُنا نحن طلبةَ التعليم الأصيل والمعربَ عامةً، بعدَ الباكلوريا، مرسومةً: لا شيءَ غيرُ المدرسةِ العليا للأساتذة، لم يكن لنا أي تصوّرٍ لمسارٍ آخر. فنحنُ لم نسمع بموجّه ولا مُرشد. أضفُ إلى ذلك الإغراء الماديّ، فقد كانت منحةُ الطالب المنتسب إلى المدرسة العليا للأساتذة تساوي أجرَ معلم. كنْتُ اعتبرُ الطريقَ نحو المدرسة العليا سالكا بدون حُفر أو عوائق. لم يساورني شك في أن مقعدي مضمون، مهما كانت المقاعد قليلة، ومهما كانت شروط الاختيار عسيرة، فالمحصلون على ميزة حسن قليلون. ولكن ما دُمت في المغرب فلا تستبعدُ أيّ احتمال غير احتمال واحد، وهو أن تأخذ حقك كاملاً بدون أن يكون لك حائط عالٍ تتكئ عليه. وهذا ما وقع! لقد فوجئتُ مرة أخرى بأن اسمي غيرُ مدرج في لائحة المقبولين بالمدرسة العليا للأساتذة، لقد حوّل عن مجراه الطبيعي لاعتباراتٍ كانت غائبة عني. لم أصدق عيني وأنا استعرضُ لائحة الطلبة المقبولين في المدرسة العليا صعوداً وهبوطاً. هل يتعلق الأمرُ بخطأ أم بتدبير أُتخذ بعيداً عن علمنا وإرادتنا؟

طرقتُ باب ديوان وزير التعليم مباشرة. ملأتُ ورقة الزيارة. اتصلتُ
كاتبةً من ديوان الوزير بالمدرسة العليا للأساتذة، سمعتها تتحدث إلى
"خديجة" .. التفتت نحوي:

" قالت لك خديجة: هذا ما وصلهم، وعليك الاتصال بنيابة التعليم
الرباط/سلا بحسان، فهناك توجد الملفات، وهناك يمكنك أن تجد معلومات
عن توجيهك".

توجهتُ نَوًّا إلى نيابة التعليم. خرج الموظف المكلف بالملفات من مكتبه
إلى الرواق، وهناك فتح دُرْجا حديديا مزدحما بملفات محشوة بأوراق متعددة
الألوان رقيقة وشفافة. قال لي باختصار، وهو يضع سبابته على سطر
منها: "أنت مُوجَّه إلى لينيس بفاس. سيرُ شوفُ أشْ تَيَرُونُوا عاودُ ثاني
فالوزارة". (إذهب إليهم فانظر ماذا يُخلطون مرة أخرى). سألته: ما "الإينيس"
هذه؟ قال: L'ecole normale supérieure، ثم أضاف بضجر: (E N S
المدرسة العليا للأساتذة. بفاس).

أدركني المساء دون نتيجة. عُدْتُ إلى المحمدية منكسرا أجْرُ أذيال
الخيبة، ماذا سأقول للفقير؟ هل أقولُ له، إن الشهادة "الكبيرة" الباكلوريا التي
انتظرناها سنواتٍ طويلاً لا تساوي شيئاً، وهو يرى زملائي في الابتدائي
والإعدادي قد وُظِّفوا مُعلمين بالشهادة الابتدائية، بل وبدونها، فما بالك
بالشهادة الثانوية (البروفي) وما بالك بالباكلوريا؟

أيُّ يد آثمة امتدت إلى شهادتنا نحن طلاب التعليم الأصيل أبناء البراري
والقفار، فأفقدتها سحرها؟

كتبْتُ أولَ رسالةٍ إدارية في حياتي إلى وزير التعليم شاكيا مُحتجاً
ومُتهماً. من سرق استحقاقي وغيَّرَ توجيهي؟.. وَضَعْتُها في البريد، وبقيتُ
أنتظر في شُبّه يأس، بدون جواب.

وبعد أيام، وأنا في حيرة وتوتر، جاء بعض الأمل. مرَّ بي بالمحمدية أحد زملاء الدراسة بالمعهد، قيروش عبد العزيز. هو، بالمناسبة، أخو باكو عبد الرحمن المشهور ضمن مجموعة ناس الغيوان. وكان آية الله في حل المشكلات الرياضية والألغاز الهندسية في المعهد. أخبرني عبد العزيز بأنهم علّقوا بالمدرسة العليا لائحة أولية تضم حوالي سبعة عشر طالبا، هم أصحاب الميزات، وأن اسمي موجود من بينهم. والباقي في الانتظار. عليّ الآن أن أتم ملف التسجيل بالمدرسة العليا في ظرف ثلاثة أيام، وإلاّ وجدوا عذرا للتخلص مني مرة أخرى. لقد كاد ذلك يقع فعلا، ففي آخر لحظة أخبرني الموظف الذي يستقبل الملفات أن عقود الازدياد التي أدليت بها غير مقبولة، لأن القائد الذي وقّعها في قيادة سكرة بورزازات لم يُسجل اسمه بجانب التوقيع. اقترح علي بعض الطلبة كتابة أي اسم عند أي كاتب عمومي، ولكنني كنتُ مرعوبا من تهمة التزوير، ولذلك قضيتُ أربعاً وعشرين ساعة في الحافلة ذهاباً وإياباً بين الرباط وورزازات.

ما الذي وقع لملفاتنا وتوجيهنا؟

كل ما علمته هو ما سمعته في لحظة قيلولة وتسكّع بالحديقة العمومية بالرباط حسان من بعض التلاميذ البيضاويين. ومؤداه أن المرحوم علال الفاسي (هكذا قيل) طلب من الوزارة أو الحكومة توجيه تلاميذ التعليم الأصيل إلى كلية الشريعة بفاس وكلية أصول الدين بتطوان! وأنهم اتصلوا برئيس ديوان وزير التعليم الأصيل فأخبرهم أن الوزير في رحلة إلى الخارج. وهم ينتظرون عودته. ولعل هؤلاء التلاميذ قد وقعوا في خلط بين علال الفاسي الذي كان وقتها أستاذاً بكلية الشريعة وبين محمد الفاسي الذي عُيّن وزيراً لوزارة فارغة سُميت وزارة التعليم الأصيل، ولكل منهما اتصال بالملف.

هنا وقفت قصتي مع رفض التسجيل بالمدرسة العليا، ولم أكن أعلم أن الأمر كان يتطور عند طلبة القرويين بفاس ليصير أزمة وطنية.

حين انتهيت من تحرير الفقرات السابقة أخبرني الزميلان بوشتى السكيوي ومحمد حمّيش، وهما من نفس الجيل والدّفعة من طلبة القرويين بفاس، أن المرحوم علال الفاسي اجتمع بممثلي الطلبة المتضررين "بدار مكوار" بفاس بحضور أعيان من حزب الاستقلال، وحاول إقناعهم بالتوجه إلى كلية الشريعة. يتذكر من حضر تلك الجلسة أنه تحدث عن "الإنسية المغربية"، عن ضرورة الاهتمام بالإسلام واللغة العربية والتمكين لهما. ولكنه عندما لاحظ تشبّثهم بحقهم في التسجيل في المدرسة العليا، لأن حالتهم المادية لا تسمح لهم بمتابعة الدراسة بدون منحة، وقد فات أوان طلبها من جهة، ولضآلتها من جهة ثانية. تبنى قضيتهم، وجعلها إحدى مهام أجهزة الحزب في فاس والرباط. فأصبحت قضية إقصاء طلبة التعليم الأصل تحتل الصفحة الأولى من جريدة العلم. وقد نتج عن ذلك استقبال ممثلي الطلبة من طرف وزير التعليم عبد اللطيف الفيلالي ومعه مسؤولون كبار بالجامعة والوزارة بدون جدوى. ولذلك طرّقوا باب الديوان الملكي وسلّموا عريضة في الموضوع لمديره الذي أحسن استقبالهم، وحدثهم على مواصلة المطالبة بحقهم. غادروا الديوان الملكي مقتنعين بعدالة مطلبهم وتوجهوا إلى وزارة التعليم الأصل المكلفة بهم فوجدوها قاعاً صفّافاً.

يحكي الزميل الأستاذ بوشتى السكيوي، الذي أفادني بهذه المعلومات، أنه عندما تقدم مع خمسة من زملائه، التلاميذ نيابة عن تلاميذ القرويين، وجدوا مدير الديوان المرحوم الأخضر غزال في مكتب بسيط في إحدى الفيلات، وليس معه غير كاتبة واحدة، وبصعوبة وقّر لهم مجموعة من الكراسي الخشبية البسيطة للجلوس عليها في انتظار حضور الوزير. وعندما سمعوا بوصول الوزير التقوا نحو الباب فأروه يحمل سطلا صغيرا من

النحاس ويُشمر عن ساعديه ويشرع في الوضوء بين أشجار حديقة الوزارة، بدون إزعاج أو انزعاج. فالوزارة، كما قال لهم المرحوم الأخضر غزال، لا تتوفر على أية إمكانيات، ليس لديها حتى القدر الكافي من الورق لتدبير شؤونها الإدارية اليومية.

وضع الطلبة رسالة التظلم التي حملوها إلى الوزير وخرجوا بوعد غريب ولكنه حقيقي: سيُلحقون بمدرسة لتخريج الممرضين. ومع توالي الضغط فُتح باب التسجيل ثلاثة أيام، قدّم خلالها وزير التعليم لائحة خاصة به تحتوي سبعة وعشرين طالبا، منهم المجموعة المترزمة للاحتجاج بفاس، ومنهم أصحاب الميزات. وقضى من فاته هذه الفرصة سنة كاملة في مدرسة الممرضين، منهم أحد أصدقاء الطفولة من أبناء درعة. ليلتحقوا بنا في السنة الموالية. كانت كلية الآداب تتكفل بتكوين طلبة المدرسة العليا للأساتذة من البداية، وفي الموسم الموالي 1969-1970 توقّف العمل بهذا النظام، وأصبح الطلبة يلتحقون بالمدرسة العليا بعد الحصول على الإجازة. صادفت عملية اعتصام ممثلي طلبة القرويين بالرباط انعقاد مؤتمر الاتحاد العام للطلبة التابع لحزب الاستقلال، فكان طلبة فاس المعتصمون ضيوفا عليه باعتبارهم أعضاء في شبيبة الحزب. اعتبروا كذلك موقتا. كان من جملة المتدخلين في هذا المؤتمر عبد الواحد الفاسي نجل المرحوم علال الفاسي. وقد صُدم هؤلاء الطلبة حين أعلن أن ابن الزعيم سيتحدث باللغة الفرنسية لأنه "لا يعرف العربية"، وهم يتذكرون حديث الإنسية المغربية بدار مكوار، وتكفل أحد الطلبة بالترجمة.

لقد كنتُ، كما سبق، على هامش هذه المعركة، أتحرك مفردا، وأحمل الهم وحيدا، ولذلك أحسست أنني تعرضت لعملية اختطاف، عملية أشبه بتهريب حيوانات التجارب. ولكن، الحمد لله على أن عملية تجريب الحجام في

رؤوس اليتامى" توقفت عند هذا الحد، ولم تتم إحالتنا على مُختبرٍ للتجارب البيولوجية. ومن بصمات هذه المحاولة الظالمة أن منحتي ظلت تحمل عنوان تطوان، إلى حين التخرج، برغم التراجع عن عملية الاختطاف.

كانت عملية إلحاقى بكلية "أصول الدين"، لو وصلت إلى نهايتها، ستكون كارثة علي وعلى الدين، فقد كان ميلي الأول المريح إلى الهندسة والرياضيات، ثم إلى الأدب والفلسفة. وأتحمّل بقية مواد التعليم الأصل: الفقه وتاريخ السنة والحديث والتوحيد والفرائض، وقواعد النحو أيضاً، على مَضَضٍ، من أجل الامتحان. كانت النتيجة الحتمية للالتحاق بأصول الدين أو الشريعة، أو أي مؤسسة دينية، لو حصلت، هي الاصطدام بمخلوقات غريبة عن العلم وعن الدين تسلفت إلى هذا الفضاء وزاحمت أهله الحقيقيين - أهل العلم والورع والوقار الذين يخافون الله - مجموعة من الأغبياء تصول وتجول في المجال الديني بدون علم، وأحياناً بدون أخلاق.

أحمد الله على أن ما احتفظت به من الدين، وعن الدين، هو ما علمني والذي، وكان شعاره صوفياً: "مَنْ سَبَقَتْ لَهُ الْعَنَاءُ لَنْ تَضُرَّهُ الْجَنَانَةُ"، وما شاهدته من سلوك جماعة خيرة كريمة من علماء سوس ورجالها الكرام، ثم لقائي العاطفي العارم مع الصوفية السلفية المناضلة في فكر وسلوك اليوسي وتلاميذه. لقد كره إلي أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي وتلاميذه المخلصون لمنحاه الأغبياء المتستترين بالدين؛ أولئك الذين شبههم الإفرائي بالبغال الشيب، همهم ومنتهى أملهم الاقتراب من أموال الأحباس لسرقتها بشتى الطرق:

يَرَوْنَ الْعِلْمَ فِي حُبْسٍ وَشَيْبٍ وَدَاكَ عَلَيْهِمُ بِالْجَهْلِ يَفْضِي

وَكَمْ مِنْ أَشْهَبٍ كَالْبَغْلِ يَمْشِي، وَلِحَيْثُ اللَّجَامِ لَهُ، يَرْكُضِ

أولئك الذين شبههم الشيخ ياسين في رسالته الأولى (الإسلام أو الطوفان)، فيما أذكر، بالديان التي تتغذى من النجاسة. وهي صورة في منتهى الصدق

والروعة. إن أسوأ أنواع الارتزاق، في نظري، هو الارتزاق بالدين، وأسوأ رجال الدين هم الأغبياء الذين يُبوّوهم الحكام المستبدون المناصب العليا لاستعمالهم في تبرير تجاوزاتهم والتستر على نزواتهم وسوء خلقهم.

في قبو الحي الجامعي

كان من عواقب تأخري في الالتحاق بكلية الآداب بفاس، بسبب المناورة السالفة الذكر، أنني وجدت صعوبة في الحصول على غرفة في الحي الجامعي. ولذلك اعتبرت نفسي محظوظاً حين حصلت على غرفة في القبو .la cave

أذكر أنني كنت واقفاً مع أحد الطلبة أمام مكاتب إدارة الحي، وقد أخبرنا بأن الحي قد امتلأ، وليست هناك إمكانية للحصول على غرفة. كان الطلبة المحظوظون يمرون أمامنا إلى المطعم أو إلى غرفهم غير مباليين، فنشعر بكثير من الغبن. ومع القلق الذي كان يساورنا كنا نُنكّث على ما سيؤول إليه حالنا عند نفاذ الزاد. وفي هذه اللحظة انصرف بصري إلى كلبٍ يعبر الحديقة، كان مشغولاً بتشمم العُشب. توقف فجأة. همّ برفع رجله لوضع بصمته على سياج أزيز المحيط بها. لعله يستعد للجواب عن رسالة تركها ابن عم له هناك. نسي صاحبي ما هو فيه من هم السكن، وعاد إلى سليقته المغربية، أو بداوته، وبدأ يستأسد على الكلب زاجراً متوعداً. وبعض الناس أكلب من الكلب. المهم، بدا لي صاحبي وكأنه ينظر إلى الأرض بحثاً عن حجر يضربه به، قلت له بلهجتنا الجنوبية ما ترجمه: احفظ الود، سلّم لرجال البلد، فقد تكون ضيفاً عليه ذات مساء، حين ينفذ الزاد.. صادف ذلك الكلام البدوي مرور أحد عمال الحي، سمع ما دار بيننا. مد يده وأخذ ملفيناً دون كثير كلام، وحلّ المشكل.

القبو أحسن من لاشيء، بل أحسن حتى من أوطيل "بوجلود" الذي كان يستنزف الميزانية. عرفتُ، فيما بعد، أن اسم هذا العامل هو خاتم، وأنه جنوبي مثلنا، من ناحية طاطا، ولعله التقط لهجتنا فتعاطف معنا. هذا هو المغرب! "سبابها كلب"، ومديرها شاوش. ولذلك تجدني احترم الكلاب أكثر من احترام الكثير من لابسِي الثياب، وذلك قبل أن أطلع على كتاب: فضل الكلاب على الكثير ممن لبس الثياب، لـ الإمام العلامة أبي بكر محمد بن خلف. الكلب الذي يرافقني الآن، في آخر العمر، اسمه إيگو، وكُنِيَّته بيبيش، نسخة مطابقة لكلب أشواق درعية، ذكاء وحرارة عاطفة لا ينقصه إلا اللسان.

كان السكُنُ مشكلاً حقيقياً، ولكنه لم يكن مأساة بالنسبة لي، لأن الفقيه، رحمه الله، كان قد زودني بما يكفي من المال، بآلاف من الريالات، بما لم أتوقعه، وهو مستعدُّ أن يزيدَ إلى أن تظهر المنحة. المهمُّ بالنسبة إليه أن أخاه الأصغرَ وسميَّه لم يُخَيَّبَ أمله ولن يُخَيَّبَه. بل ربما بالغ في الإكرام تكفيراً عن سوء الظن الذي بدَّرَ منه حين تعثَّرتِ المسيرةُ بتأخر النتيجة.

سأعيشُ، من الآن فصاعداً، حرّاً طليقاً بعيداً عن الحياة العسكرية في التي عشَّتها في المعهد، وبعيداً عن حياة العزلة التي أعيشها في المحمدية أثناء العطل. فقد فشلتُ كل محاولاتي للتواصل، في المحمدية، مع أقراني من أبناء الجيران؛ كنا من عالمين مختلفين. كنتُ أجدُ فيهم ميوعةً وجرأةً لا تُطاق، وربما رأوا في نموذجنا للترمُّت والبداوة، والأمور بخواتمها. نلتقي أحيانا كأن لم نلتق قبل.

الخروج الثاني: الجامحون

في كلية الآداب بفاس، اختارَ أكثرُ الطلبة القادمين من المعهد الإسلامي بتارودانت السكُنَ خارجَ مؤسستين: خارج الحي الجامعي، وخارج الأحزاب السياسية القائمة. حتى من وَجَدَ نفسه في الحي لضرورة ما، في بداية أمره،

فإنه سرعان ما غادره بمجرد ربط الصلة بأبناء قريته أو جهته، أو زملائه السابقين القاطنين خارج الحي الجامعي. ومن تأخر به حظُّه، مثلي، خرج مع تسلم أول منحة تسمح له بالكراء. والقلَّة القليلة التي بقيت في الحي الجامعي لاعتبارات خاصة كانت تجد لها امتدادا خارجَه.

كانت المنحة حقيقة لا مجازا كما هو حالها اليوم(2009). لم تُقلَّب حروفها بعد لتصير مِحنة، كانت تساوي أجرة معلم، يوم كان المعلمون يشتررون الدُور والسيارات ويُنشئون أطفالهم في أحسن الظروف. كما عرفناهم وصادقناهم عند التعيين بالفقيه بنصالح سنة 1972.

بصدد المنحة التي صارت محنة، أذكر أني دخلتُ أحدَ الأقسام في ثانوية الكندي بالفقيه بن صالح، بعد امتحانات نهاية السنة الدراسية (1973)، فأثار انتباهي وجودُ صورتين لطائرتين مقاتلتين على السبورة بلمسات فنية رقيقة، وأمامهما لافتة كُتِبَ عليها: "في اتجاه الرباط"! تبادر إلى ذهني أن الأمر يتعلق بإحياء ذكرى المحاولة الانقلابية الثانية حيث استعملت الطائرات، سنة 1972. وعندما دققت النظر ظهرت تضاريسُ الخُبرة الطويلة، الباكيث أو الكُوميرا"، وقد زُوِّدت بأجنحة الطائرة المقاتلة F5. المنحة كانت تعني للداخليين من التلاميذ شيئا واحداً: الخُبرة. ومن رسب في الامتحان طارت خبزته إلى الرباط بسرعة الطائرة النفاثة.

وجد طلبية المعهد الإسلامي، كما وجد غيرهم، الإمكانات المادية، ومنهم ميسورون أصلاً. منهم من جاء إلى الكلية بسيارة R16 الفخمة، وخرج منها بدون وضعية أو بأضعف الإيمان. ولكنهم وجدوا شيئاً آخر أكثر أهمية من المال، وجدوا البُعد عن الديار السوسية المحافظة، البُعد عن "أدى حماد وخالي مُحَمَّاد"، البُعد عن "تمزُغيدا"، أي المسجد، فركبوا، بل ركبنا جميعاً، جواداً جامحاً بلا سرج ولا لجام. وقد تأكد لي دورُ هذه الرقابة العائلية والاجتماعية بالاتصال بهؤلاء الطلبة، وملاحظة أحوالهم بعد عودتهم إلى

الجنوب من أجل العمل وتكوين حياة عائلية. لقد عادوا لتطبيق ألفبائيات البيئة السوسية المحافظة. وظهر من بينهم أئمةٌ وعَاطٌ، وشيوخٌ ينتظرون من يَبْرِك ببركتهم، ويتيمم بصعيدهم. بعضهم استنبتَ لحيةً تنيرُ الضحك حين أحاول تثبيتها على وجه ذلك الشخص الذي عرفته شاباً منطلقاً بفاس.

كان الانتقالُ من الحياة العسْكَرِيَّةِ العنيفة التي عشناها في المعهد واضحا للعيان. في حي لوريان، في أسطور، في شارع محمد الخامس، في الأطلس، في الليبو... في كل المواقع الحساسة من المدينة الجديدة بفاس منازلٌ وديارٌ عامرةٌ تعرفُ رواجاً كبيراً بالليل والنهار، الداخلُ أكثر من الخارج، و"الطايح أكثر من النايض".

بادرَ الصديقُ ح. ب مرةً، وهو من سكان مركز الأطلس، بفتح سِجِلٍّ لتسجيل "الواردات" و"الصادرات" وما يتصل بهن من دقائق المعلومات. سِجِلٌّ رسمي مثل الذي تستعمله الإدارات العمومية. ومن حين لآخر كان يُعلن لنا عددَ الزوار. وصل مؤشرُ تلك البورصة البشرية أعلى درجات ارتقاعه يومَ عيد العرش 1971، حيث بلغ عدد المترددات على تلك الدار، في أربع وعشرين ساعة، ستاً وعشرين "عاملة جنسية"، على حد تعبير الباحث السوسيولوجي عبد الصمد الديالمي، وبلغ عددُ من قضين الليل داخل الدار سبع عشرة عاملةً. ولا مشاحة في الاصطلاح حتى وإن كنتُ أَسْتَبْشِعُ هذا الاسم.

وربما يكون الأخ ح. ب قد سبقَ الديالمي إلى الوعي بالانتماء الطبقي العُمالي لهذه الفئة. ولذلك أنجز، في تلك الظروف الصعبة سياسياً، استفتاءً في صفوف العاملات - وكُنَّا نحن "المناضلين الثوريين" نسترشدُ بماركس ولينين في تصنيفهن ضمن حُثالةِ المجتمع التي لا يرجى منها خير - استفتاهن لمعرفة الجهة التي ستقومُ بالثورة في المغرب بحسب نظريتهن. وكان قيامُ الثورة محسوماً، مسألةٌ وقتٍ فحسب. فكان جوابُ الأغلبية منهن:

الثورة ستأتي على يد الطلبة.

كان رأيهن وليدَ السياق العام الذي جرفَ المثقفين أنفسهم، ألم يقل
المرحوم أحمد المجاطي في إحدى روائعه (ملصقات على ظهر المهرار):

فادعُ ناديكَ المتمركزَ

في الحرم الجامعيِّ
استرح

لحظةً

ثمّة ابتداءً الزحفُ

كانوا خفافا

تعالَت أكَفُّهُمُ

أطلقوا النَّارَ

فانفتحتْ ثَغْرَةٌ

في صفوف الخوارج ...

(الفروسية. ص. 41)

ألم يكتب عباس الجراري وقتها بأن المثقف غير الانتهازي المرتزق
وغير البيروقراطي المسخر – الذي سيحدث التغيير طبعاً – هو الذي يتكون
في الوسط الطلابي.

الطلبة هم الذين كانوا سيقومون بالثورة، لأنهم قد أشاعوا، حتى عند
بائعات الهوى، أن الأحزاب السياسية قد انتهت إلى الإفلاس. بـ"تغيب
الأيديولوجية" و"احتراف التجريب"، و"الانتظارية". وبعبارة من داخل الدار،
من رسالة الفقيه البصري رحمه الله: الكل صار "يُبْحُ" ولا أحد يكوي.

و"المخزنُ تعفّن من الداخل، وصارت مكوناته مثلَ عصابةٍ لصوصٍ تقتتل من أجل الغنيمة". فمن يهز جلع النخلة لتتساقط الثمار؟ وبصفة عامة كان هناك توجهان: البعض يقول بضرورة العمل القاعدي الطويل النَّفس لأن المخزن متجذّر ومتماسك، وكان البعض الآخر يرى أن المخزن ضعيفُ الأساس، مهلهلُ النسج، يكفي أن يُزعزعَ بعملٍ سرّيٍّ عنيف لتنداعى أركانه. كان الاختلافُ ظاهراً بين من يودُّ التسلّل والاختباء بين صفوف الجماهير حيثما تجمعت؛ في النقابات والجمعيات (إلا في الأحزاب، فقد أضاعت الطريق!)، وبين من يعتزم الصعودَ إلى الجبل، أو الدخول في أنفاق المدن الكبرى حيث يراقبُ ما يجري ولا يراقبه أحدٌ، يرى ولا يُرى... كان حَدَثًا محاولتي الانقلاب (1972، 1973) حجةً قاطعة في يد القائلين بالعمل السري من أجل الثورة. كانت هذه بداية الانقسام بين تنظيمي "23 مارس" و"إلى الأمام"، وما تكوّن حول كل منهما من فلول ماركسية واهمة...

من الهَمِّ ما يُضحك، ومن الجهل ما يقتل.

حين سمعتُ نتيجة ذلك الاستفتاء عادت بي الذاكرة سنوات إلى الوراء، عادت بي إلى تارودانت، إلى ما قاله ذلك المتسولُ الأقرعُ المختلُّ عقلياً الذي كان واقفاً بالباب الجنوبي للمسجد الأكبر بتارودانت يتسولُ، بعد صلاة العشاء، ذات يوم من ستينيات القرن الماضي. يمرُّ أمامه "الطلبة" بالمئات في نظام وانتظام دون أن يستجيبوا لاستجدائه وتوسّله، تستحقُّهم نظراتٌ حازمة لحارس عامٍ استنسخوه، أو استنسخَ نفسه، من هتلر (رحمة الله عليه، لقد مات أخيراً 2010 بناحية الرباط). انفعلَ المتسولُ الأقرعُ المعتوهُ، وبدأ يضرب الأرض بعكازة ويصيح: "ما بقا فتارودانت غير الطلبة والقحاب". (لم يبق في تارودانت غير الطلبة والعاهرات).

قلتُ في نفسي، وأنا أقيسُ هذا على ذاك: هل صحيح أنه لم يبق في المغرب (أو في فاس وقتها) غيرُ الطلبة والقحاب؟ لقد كان هذا المتسول المختل يُحَيِّن - أو يشرح - قولَ أحد ملوك المغرب، لعله محمد الشيخ السعدي، في شأن تارودانت: "أردناها للعلم فأبَت (أو فأبى الله) أن تكون إلا للنساء والبقر". فلا شك أن القائلَ لم يكن يقصد بـ"النساء" الأمهاتِ والبناتِ والأخواتِ والجَداتِ، فهن موجودات في كل المدن طوال التاريخ، وبهن وُجِدَ التاريخ، دون استئقال، أو إحداث أي اختلال، فما كان استحضارهن ليستدعي صورة البقر بحمولته القذحية.

فأي قولٍ أو حكمة كان يُحيِّنها إحصاءُ الأخ ح.ب؟
"في المغرب لا تستغرب".

ولو نطق عبد الكريم الخطابي لربما عمم، بحُرقة، على المغرب ما خصَّ به الملك السعدي مدينة تارودانت.

ولعل لامبالاة التلاميذ هي التي حوَّلت ذلك الأقرع إلى جاحدٍ لنعمة الله متمرِّدٍ على إرادته. فقد فوجئنا به، نحن أبناء هسكورة، ذات ليلة وهو يصيحُ خارج أسوار تارودانت بعد أن خيم الظلام. فتحنا على صياحه باب الكراج الذي كنا نقضي فيه عطلة رأس السنة، أوائل الستينيات، فسمعناه يخاطب ربَّ العِزة: "وا شَدُّ علينا شتاك، ماخاصنا خ..!!" كانت تلفه عاصفةٌ ماطرة أمامَ الكراج. كان يلوح بعكازه نحو السماء قبل أن يضرب به الأرض. قضينا الليلة نضحك من جرأته على خالقه، إنه اليأس يفعل فعله، يحرقُ الأخضرَ باليابس، وذاك ما وَقَّع!

العسكر يتحدثون (1971)

ستُظهر المحاولتان الانقلابيتان - قبل أن يغادر الجامعة - أن الطلبة أعماهم الطمع، بل "كَبَرُوا كروشهم" - كما قال أحد الإخوان - حتى صاروا مثلَ

الزوج المخدوع، آخر من يعلم. ظهر أن هناك لاعباً آخر يبدو أكثر إمساكاً بالخيوط. ظهر أن العسكر كانوا يتنصتون على الجميع، ويرتبون أموراً للجميع. وجَّهوا الصفعة الأولى إلى المحتقلين في قصر الصخيرات، بما لَّد وطاب من الخيرات. كلُّ الأطياف كانت حاضرة هناك في حفل الصخيرات غير المغضوب عليهم من يساريي الاتحاد الذين لم يتدربوا بعدُ على الزرود. رحم الله عبد الرحيم بوعبيد، وعنفوان عبد الرحيم بوعبيد، أو كانوا في المنافي يمدون نار الثورة بالوقود، رحم الله الفقيه البصري. إنه عالم ألف ليلة وليلة! لكأنِّي بالمذبح محرك تلك الأحداث كان يود تطبيق قصة اللصوص الثلاثة والحمار: بينما كان لسان يتشاجران في شأن اقتسام حمار سرقاه، جاء لصٌّ ثالث فركب الحمار وانصرف به. وفي رواية أخرى، تُوافق ما وقع في المغرب: أدركهم صاحبُ الحمار، فأخذ حماره وانصرف.

في مساء يوم 10 يوليوز 1971 ركبْتُ دراجتي النارية "فلونديرا" الحمراء، وانطلقت أطوفُ نواحي سيدي حرازم. أتسلى من متاعب الامتحانات. راقبتُ غروبَ الشمس من على هضبة السخينات، ثم قفلتُ راجعا إلى فاس. فاجأني شارع محمد الخامس فارغاً من السيارات والمارة على حد سواء. جوٌّ أشبه بلحظة أذان المغرب في رمضان. أحسستُ بشيء من الرهبة. أخذتُ الطريق نحو الدار في منطقة الليدو. وبالقرب من محطة الستيام صادفتُ سيارةً للشرطة تجري في الاتجاه المعاكس بسرعة فائقة مطلقة العنان لمنبهاها.

لم أجد أحداً في منزلنا. هالني الأمر. ركنتُ الدراجة في زاوية من البيت وصعدتُ إلى الطابق الأول بالعمارة المجاورة. هناك وجدتُ مجموعة من الطلبة السوسيين مجتمعين، يلعبون الورق ويتابعون أخبار "الانقلاب العسكري" في حبور وابتهاج. الإذاعة تردد بصوت الفنان الضير عبد السلام عامر:

"الجيش، أقول الجيش، قام بثورة، ثورة لصالح الشعب..."

جمعَ بلاغُ الجيش بين لفظين محبوبين، خطفهما من فم الماركسيين اللينينيين الحالمين: "الشعب" و"الثورة". فلم لا يعمُ الفرخ؟ والجيش المغربي ما يزال بكرا، تُذكرُ حركته بالضباط الأحرار، وملف الرشوة وصلت رائحته إلى الولايات المتحدة، ولوثت فضاء ملاعب الكولف.

الكل كان يتمنى نهاية النظام المخزني القروسطي المتجبر، هذا ما كنا نحسُّ به، وهذا ما ظهر من سلوك الجماهير التي خرجت إلى الشوارع تعبيراً عن فرحها في كثير من المدن. ولكن لا أحد كان يتوقع أن يكون ذلك من داخل دار المخزن، من اليد اليمنى التي يبطش بها. وما دام العسكريون يقولون إنها "ثورة لصالح" الشعب فهي ثورة محبذة ومشروعة.

يكذبُ اليوم من يقول بأنَّ القوة الحية في المغرب، بل أغلب الجماهير، لم تكن تتمنى التخلص من النظام المخزني العتيق بقضه وقضيضه، الكل كان يسعى من جهته مسابقاً الآخرين. كانت صورةُ القذافي ما زالت تُعري باعتبارها امتداداً للتجربة الناصرية برغم كل التحفظات التي يُبديها أذكاء بعيدو النظر من عينة عبد الله العروي؛ يبتونها فلا تصل لقوة التشويش. العروي، مثل داروين، يتحدث عن التطور الطبيعي، والمُهيمن وقتها هو القطيعة، هو الدخول إلى الجنة بالنعال. كان هناك شيء مضمَر في النفوس يريدُ قسراً - أو يودُّ - أن يكون هؤلاء الانقلابيون على علاقة ب"الاختيار الثوري"، و"مغرب الشعوب".. من يدري؟ .. لم يطل الانتظار، لم تنته الليلة حتى أجهض حُلُم الحالمين، وعاد كلُّ إلى كمدّه.

لقد بلغت كراهية المغاربة للاستبداد المخزني أن اعتقدنا، فيما بعد، أن البوليزاريو يمكن أن تكون جبهةً جنوبية للنضال في أفق تحرري كوني غافلين عن فعل المحيط وتحرك المواقع. لقد نسينا أن المنطقة المغربية

متحركة كرمال صحاريها، ومتقلبة كأمزجة جمالها، حتى الجزائر كانت تبدو لنا، يا للسذاجة! بؤرة ثورية، ومَعْقلاً للحرية، والحال أنها كانت تَحْضُن بيضتين فاسدتين: العسكرية والأصولية، فاقد الشيء لا يُعطيه. لا عَجَب أن تكون الخيباتُ كبيرة وعميقة، امتدت من الطبقة المتوسطة، من رجال التعليم والمحامين وغيرهم من خريجي الجامعة إلى الطبقات الشعبية...

من إفرازات هذه الخيبات والانكسارات، ومن وقودها أيضاً، ظهورُ الغناء الجماعي الشجي المليئ بالشكوى، الممتلئ بالحكمة والغرائبية، بين الهداوية والبيتلز. صورة بلغت أعلى درجات تألقها مع بوجميع وهو يخاطب "الغضنفر" وبيكي الرجال "اللي ضاعوا"، والدعدوع (الهراز) على كتفه. أظهره القدر وسحبه في قمة بكارته ليبقى رمزا لتلك التجربة، قمرٌ أطلَّ بين الغيوم واختفى. بوجميع آخر الهداويين المغاربة. إنه صوت المغرب الجريح المبحوح، والبعض ممن كان معه مجرد كومبارس وديكور/حلية. يقول الممثل محمد مفتاح، مسترجعا تلك الأجواء - وهو أحد مؤسسي الغيوان حسب ما جاء في شهادته - أنه حين تأكد من موت بوجميع شعر بالدوران، وتذكر لحظتها "أغنية: ما همّني غير الرجال إلى ضاعوا.. وهي كلمات الشعب، كان يُغنيها رجلٌ يدعى بّا سالم، حوّلها بوجميع إلى أغنية محبوبة في الوسط الفني والشعبي المغربي".

ولذلك فالعبرة بما فهمه الناس وتأولوه لا بما رآه البعض، بعد ذلك، مناسبا للتلاؤم مع الوضع الجديد المفيد، عهد لاكريمات. وإلا سيكون جيلنا أكبر مخدوع في السياسيين والفنانين معا. فكل من "وصل" اليوم صار يقول: "إنما كنا نخوض ونلعب"، كل عملنا كان من نمط "قطتي جميلة"، والحال أن أقل الأصوات الشعبية كان يقول: "إلى خيابت دابا تزيان"، وهي

عبارة كانت تزعج أذواق رجال المخزن الذين لم يكونوا يطربون لغير أغنية:
"گولوا العام زين ألبنات، گولوا العام زين".

منزل ½ محترم

كنتُ قد انتقلتُ، في السنة الثانية من التحاقِي بكلية الآداب بفاس، إلى منزلٍ بشارع المقبرة الأوروبية بالليدو. كان منزلاً هادئاً، أو أقلَّ رواجاً وصخباً. كان يسكنه قبلي زميلان: مُعتزلاً لا يشرب الماء ولا يقرب النعمة، ومشروعٌ فقيه يُعوّض حظه من الماء بالإكثار من النعمة. كانت الطنجرة معه كمائدة معاوية لذيذة وغنية. ولذلك كان عليّ أن أبحثَ عن الصخب، حين أرغبُ فيه، في مكان آخر. كان هذا الوضعُ مثالياً بالنسبة لي، فحين اعتكفُ معانقا الكتابُ أطيّرُ من صوت البشر، وأنشدُ مع المَعري:

عَوَى الذُّبُّ، فَاسْتَأَسْتُ بِالذُّبِّ إِذْ عَوَى

وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ فَكِدْتُ أَطِيرُ

وقد تستمر هذه الحال من الانقطاع للقراءة والتحصيل عدة أيام، ولكنني أصدأ، بعد ذلك، كما يصدأ المؤمنُ، وأحتاج إلى صقل حديدي أو نُحاسي بالنار، فانتقلُ إلى أية محرقة، فاستبدلُ رفقة المَعري برفقة أبي نواس مفضلاً قوله:

أَلَا فَاسْقِنِي خَمْرًا، وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ

وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أَمَكَنَّ الْجَهْرُ

وبذلك يمكن القول بأن منزلنا كان "نصفَ محترم"، نصفَ بريء. فالفقيهُ والمعتزُّ نِعَمَ الرفقة لمن يريد السلامة. لا علاقة لهما بماء العنب المتدفق وقتها بغزارة، المعروض كماء المائدة، ولا حتى بماء الشعير، بل المعتزُّ زاهدٌ فيما سوى ذلك؛ لا يدخل غرفته غيرُ الهواء مُنفلتا من بطنه أو من النافذة، إن فتحها سهواً. حتى الخادمةُ والطنجرةُ رَفَضَ الاشتراك فيهما.

كان يقصد الحي الجامعي سيراً على الأقدام، وهو غير بعيد، ليملاً بطنه، ثم يعود إلى غرفته. لم يحدث أن وقف أو جلس لمبادلتنا الحديث. قصارى ما يشترك معنا فيه ابتسامة صفراء تستعيرُ قسماً الخجل، وأداء حصته من ثمن كراء البيت. وكان الكراء كُله في حدود 180 درهما لمنزل من ثلاث غرف. كنتُ أرى خدّه وقفاه أكثر مما أرى أنفه وعينيّه. ونظراً لأنه متقدّم علينا بسنة جامعية فقد كان عقدُ كراء الدار في اسمه. ولذلك بادر بمجرد تخرجه، سنة 1971، إلى إلغائه وتسليم مفتاح المنزل إلى السمسار دون أن يكلمنا في الموضوع. والسمسار لا ينتظر غير هذه الفرصة للمساومة والابتزاز بالزيادة في سومة الكراء، وذلك ما كان له.

استهجنّا سلوكه، ومع ذلك لم يلبثُ الفقيه أن غفرَ له، وزاره بمنزله في الرباط، وجدّد به العهد، كما سادت المجاملاتُ بيني وبينه طوال الوقت، خاصة حين التقينا، مرة أخرى، كأستاذين في كلية الآداب بالرباط سنة 1999، أي بعد سبع وعشرين سنة.

المعتزلُ نموذجٌ من القراء الذين يصلون الليلَ بالنهار؛ يقرأ ويلخص طوالَ الوقت، ولكن يظهر أن هناك ثقباً في مكان ما يتسرّب منه المحصول. ومن يدري فقد يستفيق "الراقِد"، بعد حين، وتتوالى التوائم. فلا أعلم أنه نشرَ طوالَ هذه المدة (1969-2008) غيرَ أطروحته الجامعية، أي أضعفَ الإيمان.

أما الفقيه فلا يظهر أنه نشرَ شيئاً آخر غيرَ لحيّة برية عطشانة شديدة الخسونة، أكلتُ وجهه النحيف في انتظار تحقّق أوهاجِ صحوة إسلامية "زاحفة" على حدّ تعبير شيخه الجديد، الإمام الكسار الذي قاطعنا من أجله. وكانت ملكاته الذاتية، كما عرفته في المراحل الثانوية، تؤهله لاحتلال موقع علمي رفيع، خاصة في المجال الديني الذي زادت عنايته به. كان واحداً

من أذكى تلاميذ المعهد، وأقواهم ذاكرة، ربما على الإطلاق. ولكن بركة الشيخ الكسار كانت الأقوى.

كنتُ، طوالَ حياتي الطلابية، شبهَ متزوج، خاصة بعدَ إصابتي بمرض الزهري في السنة الثانية لالتحاقني بالجامعة، وبعد الذي قرأته عن خطورة ذلك المرض وعواقبه في كتاب: حياتنا الجنسية. وأنا أعالجهُ أفلتُ من الموت بأعجوبة إثرَ حقني خطأ، من قِبَلِ الممرض، بكمية مضاعفة من الإكستونسيلين، حيث فقدتُ الوعيَ مرتين، ولمدة عدة ساعات في المرة الثانية. كان الفقيهُ يفعلُ فعلَ المُبتلى المُستتر، يُصلي الظهرَ والعصرَ ثم يمتطي صهوة دراجته النارية الحمراء ذات الرنة الرتيبة العميقة، ثم ينشدُ مع عبد الحليم حافظ: "واللي شبكنا يخلصنا" أربعاً وعشرين ساعة.

كنا نسكن الطابقَ الأرضي، وكانت تسكن في الطابق الأول فوقنا سيدة مسنة مع ابنتها وأحفادها، كان رب الأسرة يعمل بعيداً عن فاس، يحضر من حين لآخر، لا يرانا ولا نراه. كانت ربة البيت ملفوفة على الدوام في جلباب أحمر، وغطاء رأس أسود سابقة موجة (أو موضنة) الحجاب. تتصرف إلى العمل خارج البيت في أوقات محددة بانتظام، لا نكاد نصادفها ولا تصادفنا، بل نتلافى وقتَ خروجها ودخولها... كانت الجدة تعاملنا بلطف كما لو كنا أبناءها. مرة لاحظتُ تواترَ حضورِ إحداهن يومياً، وكان ذلك بسبب عملها في السينما، حيث تخرج في الواحدة ليلاً لتبيت عندها. أشارتُ إلي بيدها وكأنها تطلبُ خدمة، اقتربتُ منها محني الهامة متهيها خائفاً من أن تبادرني بمؤاخذه ما. همستُ في أذني قائلة:

"الغشيم، حُمامَ لَخلا ما نَيَّزْرَاش (يا ساذج! الحمام البري لا يُربى)، ولم تزد على ذلك. لقد "أدخلتني سوق رأسي" بهذه الاستعارة الذكية، أو التمثيل البليغ.

كدت أنسى! بعدَ تخرج المعتزل أحسنا الاختيار فاحتل الغرفة الفارغة زميلنا، ثم صديقنا، م. أم. جاء وفي رفقة الشاعر العباسي المتمرد ابن الرومي، فتم الانسجام، وحين يعم الانسجام وتسير الأمور في مسارها الطبيعي ننسى ما وقع. كان م. أ. طوال السنة التي قضاها معنا، سنة التخرج، منكبا على شعر ابن الرومي وسيرته، وكنتُ أنا منهما في جمع أطراف بحث التخرج حولَ تحولات النظرية النقدية عند محمد مندور: مندور من التأثيرية إلى الواقعية الاشتراكية. لكل منا عالمه. ورغم أن أضعف مرحلة من مراحل النقد عند مندور هي المرحلة الاشتراكية فقد كنتُ مزهوا بهذا البعد الماركسي في نظريته دون أن أجد ما أقول فيه. مرة قلتُ لـ (م.أ.) بتبجح: "العبقرية لا تتسكع".

وهي عبارة كانت عندي في مستوى الفتوى الدينية؛ نقلها مندور عن أحد الأدباء الروس الذين لقيهم في إحدى رحلاته إلى موسكو.

فرد علي ببرودة المتيقن: هذه القولة باطلة، والدليل القاطع على بطلانها هو ابن الرومي، فهو عبقرية كبيرة، ولكنها متسكعة ضائعة.

كانت للصديق م. أ. بدوره، دراجة نارية زرقاء لا تفارقه. كنا نخرج أحيانا للساحة الخلفية للدار ونفكك الدراجتين تفكيكا كاملا ونعيد تركيبهما بعد تغيير الأجزاء المتلاشية من المحرك. ومن حماقات المجازفات الشبابية أنه أفرغ مرة الزيت والبنزين اللذين غسل بهما محرك دراجته في مجرى ماء المطر المنحدر في الشارع بجانب الدار بعيد المغرب، فما كان مني إلا أن رميتُ بوقيدٍ مشتعل على البنزين "مداعبا"، فشبَّت النارُ على نطاق واسع فوق الماء، ودفعها الريحُ نحو الأعلى حيثُ لم أتوقع؛ نحو سيارة الجيران حتى دخلت النار تحتها. أُصِبتُ بالرعب والشلل. كادت تكون كارثة.

حاشية: سأكتشفُ لاحقا أننا كنا نلعب بنار أخرى. بعد عشر سنوات حصلت على دبلوم الدراسات العليا وعدتُ إلى فاس أستاذاً مساعدا بكلية

الآداب. وبعد سنوات حصلتُ على التفرغ (1985) من أجل التدريب بالخارج (لتحضير دكتوراه الدولة). سعيْتُ لتجديد جواز سفري، فكان الرفض. قاذني السعي لتجاوز عقبة السوابق العدلية إلى مكتب رئيس الأمن الإقليمي. كان المسؤول المذكور يستمع إلينا في مكتبه الخاص، وفجأة دخلتُ سيدة بجبة حمراء، دون استئذان، وتوجهتُ إلى إحدى خزانات المكتب تستخرجُ أوراقاً أو ترتبُ ملفات. تصرّفتُ كما تتصرفُ الكاتبة الخاصة أو من في مستوى هذه الصفة في هذا المكان الحساس. نظرتُ إليها ونظرتُ إليّ بالقدر الذي يُزيل الشك في هُوية كلِّ منا، لم تكن هذه السيدة غيرَ جارتنا الخجولة المُتحفظة. فهمتُ وقتها أننا كنا نلعب بالنار، ولكن للسبعينيات منطقها.

حيوانٌ غيرٌ متحزب

كانت عملية التقاطب والاستقطاب على أشدها أواخر الستينيات. فلم أكد استقر بالحي الجامعي حتى دُعيتُ إلى اجتماع خُصص لتأطير الطلبة القادمين من الجنوب 1968. نُظِّم في القبو. أشرفَ على العملية طلبةٌ من الفصيل الإتحادي، من الأفواج السابقة، من أبناء البيضاء خاصة. استقر في ذاكرتي من تلك الأسماء المؤطرة التي كانتُ جديدة بالنسبة إليّ إدريس الناقوري، وقد اشتهر فيما بعد بنزوعه نحو الواقعية الجدلية في كتابه المبكر: المصطلح المشترك، قبل أن يتحول نحو ما سمي بالأدب الإسلامي. كما تردد اسم الدرقاوي.. قُدِّمتُ خلالَ هذا الاجتماع عُروضٌ عن الوضع السياسي في المغرب. كان من طلبة فوجنا المتحرّكين في هذا السياق أحمد الدغيرني الناشط الأمازيغي حالياً. ورغم أنه لم يستقرَّ طويلاً في كلية الآداب بفاس بسبب التحاقه بكلية الحقوق بالرباط فقد ظلتُ له الكلمة المسموعة في توجيه الطلبة السوسيين نحو الجبهة الماركسية. كانت

علاقتي به مشوبة بحساسية حينا ومودة حينا آخر.

لم يكن لي تصور لما يجري في الساحة السياسية من تحولات، فقد توقفت علاقتي بالاتحاد الوطني للقوات الشعبية عند حملة الاستفتاء على الدستور (سنة 1962) التي شارك فيها الوالد بتحد وإصرار متعاون مع الكاتب الإقليمي للاتحاد بورزازات حسن أمزوغ من طريق السيد محمّد نايت سي كريم.

وقد انتهت هذه التجربة باعتقال السي محمّد (مع الكاتب الإقليمي) ووضعِه في كيس من الخيش، ورميه، مع آخرين، في شاحنة إلى وجهة مجهولة ذاقوا فيها أشدّ العذاب، يُرجّح السي محمّد - فيما سمعته منه، وهو يحكي للوالد في منزله بتاوريرت، شرق دار الكلاوي، بعد الإفراج عنه - أنه نُقل إلى القاعدة العسكرية بـ بنجير، على بعد حوالي 270 كلم من ورزازات، ونال قسما من العذاب قبل أن يُفرج عنه. ويبدو أن سي محمّد هذا، وهو وريث ثروة وجاه من أسرة من أعرق أسر المنطقة، وصهر للكلّوي حاكم المنطقة، كان على صلة بعامل ورزازات السي محمد المكناسي، وأنهم جميعا كانوا في نفس المركب، مركب ما سمي بمأمرة 1963. فقد اعتقل المكناسي بدوره وعانى من التعذيب في دار المقرّي. وبذلك كادت تتحقّق نبوءة عمّي التي أرسلت إلى الوالد رسالة شفوية من الدار البيضاء مع صديقه الكبران مبارك، تقول فيها: "إذا لم تبتعد عن ولد آيت السي كريم فاستعدّ للسجن...". وكانت عمّي هذه أرملة لأخ السي محمّد المذكور.

لقد انتبهت المسكينة بحسها المرهف، تلك المرأة الذكية الأنيقة، إلى ما يتهدّد أباها فحذرت. أفلته القدر حين اتهم صديقه بالتآمر مع الاتحاديين أوائل الستينيات من القرن الماضي، ولكنها لم تنتبه إلى مصير ابنها البكر الذي غادرت ورزازات إلى الدار البيضاء، وأواخر الخمسينات، من أجل

حراسته والسهر على سلامته. إذ لم تكد تحل سنة 1964 حتى انفجرت قضية المقاومين الرافضين للانصياع لإرادة تفكيك جيش التحرير قبل استكمال استقلال المغرب. ما عُرف بقضية شيخ العرب. حيث وجد نفسه ضمن المتابعين، فشد الرحال إلى أرض الغربة، ولم تلبث أن تبعته إلى منفاه في هولندا. حكى لي أخيراً، بعد رجوعه إلى المغرب، أن إقامة شيخ العرب في بيته بحي الفرح كانت قصيرة، وأنه أصيب بالرعب لما رأى الأسلحة التي كان شيخ العرب ومرافقاه يخرجونها من تحت جلابيهم. كما ذكر أن آخر عهده بهم كان حين نقلهم ليلاً في سيارته إلى منزل بـكـراج علال. وقد جعلني فرار ابن عمتي هذا والتحاقها به، وزياراتها لعائلات المعتقلين من أصدقائه، أظلم مشدوداً لأخبار شيخ العرب والسياس الذي ظهر فيه. ومما علمته وقتها، عن قرب، أن البوليس كان يقوم بأعمال شنيعة من اغتالات وغيرها وينسبها لشيخ العرب قصداً لتثويته سمعته في عيون من يرون فيه بطلاً وطنياً وقومياً دوخ أجهزة الدولة.

أما أحداث 1965 التي شبت في الدار البيضاء فلم تصل إلينا في المعهد الإسلامي بتارودانت إلا وقد تكسرت أمواجها لبعد الشقة وعُلو أسوار المعهد التي كانت تصد أصداء ما يجري في الخارج. ولذلك لم يجد الجنرال بلعربي، عامل إقليم أكادير، صعوبة في احتواء الحركة الإضرابية الخجولة التي بدأت الدعوة إليها من أذن لأذن قبل أن يتجرأ أحد أصدقائنا من التلاميذ الصحراويين (الصالح) على رفع عقيرته بها في المسجد، وقت صلاة العشاء، وهو يخفي وجهه بين يديه وركبتيه:

"الإضرارراب!"

كانت هذه ثاني مرة أسمع فيها كلمة "إضراب". كانت المرة الأولى خلال "مسيرة الخبز" التي نظمناها في فرع المعهد بهسكورة، سنة 1959، نحو مقر القيادة احتجاجاً على رداءة الخبز. كان الإضراب في سكورة من أجل

الخبز مفهوماً، فلماذا الإضراب هذه المرة؟ الله أعلم. وقد نجح الجنرال بلعربي في مقايضة إضرابنا بعجل من لحم ودم.

حضر الجنرال إلى المعهد، بعد صلاة المغرب، في جَلَبَة وإرهاب، وألقى خطبةً شبيهة بخطب المرحوم أرسلان الجديدي و"طويل العمر" المحجوبي أحرضان. بدأها بالترهيب، وختّمًا بالترغيب، وخلّلها وبزرها بشيء من بذاءة اللسان التي لم يتعوّدها أساتذة المعهد وطلّبه.

هو أوّل من سمعته يقول إن المغاربة شعوبٌ وقبائلٌ من عرب وبربر، لا يقبلُ بعضهم أن يُحكم من طرف البعض الآخر، ولذلك فلا شيء يلائم المغرب غيرُ الملك والملكية. لا شك أن أكثر التلاميذ، وأنا منهم، لم يفهموا مناسبة هذا الحديث. فنحن لم نرفع أي شعار ضد الملك أو الملكية. كانت الرسالة موجهة إلى جهة أخرى.

ثم تحدّث عن ظروف العيش في المعهد، فحسّدنا على ما نحن فيه من نعيم بالقياس إلى ما كان عليه حاله حين كان "حازقاً"، فارغ الجيب، على الدوام، إذا أعطاه أبوه "زوج ريال" فقد بالغ في تدليله.

وختّم بالبُشرى الحميمة، أعلن أنه سيتبرع لـ"الطلبة" بما تبرع به السامري لبني إسرائيل، سيتبرع بعجلٍ يأكلونه وحدهم مرةً واحدة، في يوم واحد. وقد وقّى بذلك في اليوم الموالي مباشرة، فأكلنا العجل، وتوقف الإضراب الوحيد الذي كان سيعرفه المعهد الإسلامي بتارودانت، طوال السنوات التسع التي قضيتها به، أو بأحد فروعه.

عدا ذلك، سمعتُ في نهاية السنة الدراسية الأخيرة التي قضيناها في تارودنت (1967 - 1968)، أن التلاميذ يتوجهون إلى مقر الإتحاد الوطني للقوات الشعبية بساحة أساراگ، وأن واحداً من أبناء المدير السابق للمعهد، عمر الساحلي، يسهر على توجيه الطلبة أو تأطيرهم. دخلتُ المقرّ في

الطابق الأول مرتين فلم أجد غيرَ الزحام والفوضى فأنسحبت. هذه أول مرة دخلتُ فيها مقرأً من مقرات الأحزاب.

وهكذا فالى يوم الاجتماع بالحي الجامعي بفاس كان كل ما أعرفه هو أن السياسة في المغرب تنحصر في الصراع بين الإتحاد الوطني للقوات الشعبية، وريث أمانة المقاومة وجيش التحرير، وبين المخزن الذي خرب جيش التحرير قبل إكمال مهمته، ووضع المال والسلطة بيد مُعمرين جدد، من الخونة وخدام الاستعمار. كان الفقيه البصري، رحمه الله، مثالنا في التحدي والرفض، ثم صار المهدي جرحاً غائراً لا يندمل.

ولذلك لم أستوعب الخطاب الذي يتحدث به مناضلون كانوا على صلة وثيقة بالأحداث وصنّاعها في الدار البيضاء ومراكش والرباط. شاركوا في أحداث الداخل (الدار البيضاء 1965)، وتصلهم أخبار تحولات الخارج ساخنة (1968 باريس مثلاً). لقد سمعنا في ذلك الاجتماع، لأول مرة، بظهور من يُنازع الإتحاد الوطني للقوات الشعبية ثوريته (؟). لم أفهم شيئاً، فبقيت في حياء.

ولكن الذي فهمته ولم استوعبه لأستسيغه، لقصور معرفتي بلغة السياسة، هو الهجوم، أيضاً، على "الإصلاحية". كان المتحدث يُحيل، دون شك، على الكلمة الفرنسية réformisme، المذهب الذي يتبنى ترقيع ما هو قائم من أمور الحكم، مستحضراً في الآن نفسه الكلمة الساحرة في ذلك الوقت، كلمة الثورة révolution، الكلمة التي كانت تتطف المستنقعات السياسية الراكدة بمجرد النطق بها مثيرةً الرعب في قلوب الأنظمة العتيقة التي اكتوت بنارها في سياق ثورة كونية. وكنتُ أنا، ومثلي كثيرون – سواء أعلنوا عن أنفسهم وكشفوا جهلهم، كما فعلتُ أنا، أم صانوا كبرياءهم وبلعوا ألسنتهم – نستحضر "الصلاخ" نقيضاً للفساد، وقرينا للفلاح. لم أتردد في الرد على هذا الهجوم، خاصة حين ضُرب المثلُ بعلال الفاسي وأمثاله

باعتبارهم إصلاحيين رجعيين. لقد أُعطيَتْهم درساً في الفطرية والسذاجة السياسية دون أن يعلموا. تَوَهَّمُوا أنني على بينة من أمري، أعرفُ ما أقول، تغامزوا، ولم يعودوا لاستدعائي بعدها، والحمد لله على ما فعلوا. لقد تَفَرَّغْتُ لدروسي، وذلك خيرٌ وأبقى بالنسبة لشخص مندفع مثلي، لو عَلِقْتُ به السنارة لوجدَ نفسه في المَقْلَى مباشرة.

كان هذا الهجوم على حزب الاستقلال في المجال الطلابي جزءاً من العمل على كبح مطامح الاتحاد العام لطلبة المغرب التابع لحزب الاستقلال في الحضور في المؤسسات الجامعية الجديدة، كما هو حال كلية الآداب بفاس. فقد انتهت إلى مسامعنا وقتها أن الاتحاد العام حاول، في الموسم الدراسي السابق لالتحاقنا بالكلية، 1967-1968، القيامَ بعمل ثقافي إشعاعي يضمن التعريف به، وتوسيع قاعدته، وذلك باستدعاء زعيم الحزب علال الفاسي، رحمه الله، لإلقاء محاضرة بالكلية. غيرَ أن ممثلي الاتحاد الوطني لطلبة المغرب تصدَّوا لهذه المبادرة، واقترحوا على الزعيم الاستقلالي إلقاء المحاضرة باسم الاتحاد الوطني لطلبة المغرب فرفض، ثم اقترحوا عليه إلقاءها باسم حزبه، فتمسك بأن تكون باسم الاتحاد العام. وعلى هذا الأساس حضر إلى الكلية، ثم انسحب في جو من الفوضى لعدم توفر الظروف المناسبة.

يبدو أن عدد الطلبة "الظاهرين" من الاتحاد العام لم يكن كثيراً، أو كانت تنقصهم الحماسة والفاعلية كما قال لهم أحد الخطباء في المؤتمر الذي انعقد 1968 بالرباط: "نحن كثيرون ولكننا مثل شواربي ذبان، وهم قليلون ولكنهم يعملون مثل كمشة نحل". فكان هذا التشبيه صادماً لمن حضر من طلبة فاس.

في هذه المرحلة الانتقالية بدأ بعضُ طلبة الحزب الشيوعي يتنقَّسون شيئاً من الهواء بعدَ أن سَمَحَ لهم المخزن باستئناف نشاطهم تحت اسم جديد: التحرر والاشتراكية. وصلتني كراساتٌ ومنشوراتٌ من طريق رفيق رياضي من

أصول ورزازية ينتمي إلى فوج سابق، وعلى بيّنة مما يقع. ويرغم إصراره على أن هذا الحزب أكثر ثورية من غيره، وأكثر ارتباطا بالعالم الاشتراكي، فإنني لم أهتم كثيراً بمحتوى تلك الكراسات، وكان بعضها يتحدث عن الصحراء، بقدر ما كانت رغبتني في الانتماء إلى مجموعة متساندة، إلى قطيع. كان حماسي يصطدم بما يروج في الاجتماعات العامة من خضوع هؤلاء الطلبة الشيوعيين لتوجيهات الحزب خضوعاً مطلقاً، يجعلهم أحياناً يُغيّرون مواقفهم بين عشية وضحاها. ومع ذلك رأى أحد الرفاق بأنني جاهز لأن أكون شيوعياً، وأن الظروف مواتية لأن أحضر اجتماعاً تنظيمياً بإحدى غرف الحي الجامعي. ربما كان اجتماعاً خاصاً جداً، ربما لم يُرتّب لحضوري مع رفاقه، ولذلك وجدت نفسي محرجاً ومحرجاً. تخلخل الاجتماع قبل أن يبتدىء، وكثر الدخول والخروج، ثم صرّح الرفيق الإحيائي:

- من استدعى هذا الرفييء (الرفيق)؟

فأخرج "جدي"، وهو اسم الطالب الذي استدعاني، وانسحبت أنا أجراً ذيول الحرج بدوري، كأني طفيلي مبتدئ. ولذلك يمكن القول بأنني أقمتُ بحزب التحرر والاشتراكية نصف يوم، أو أربعاً وعشرين ساعة، على أكبر تقدير. أي من لحظة توصلي بالاستدعاء لحضور الاجتماع إلى لحظة إخراجي منه. في هذه أيضاً خير، الغالب أنني لم أخلق لأكون زعيماً سياسياً. الكتبُ هي هَوَايَ ومتعتي.

"اللوجيسييل" الماركسي

مع نهاية العقد السادس تأكدت الرغبة في الطلاق داخل اليسار نفسه. بدأت النقاشات تسخن، في ساحة الحي الجامعي، حول مجموعة من الألفاظ والمصطلحات. تعددت الحلقات، وكثر المُفتون في شؤون السياسة. صار يبدو لبعض الطلبة، بل لأغلبهم، أن الفاصل بيننا وبين ثورة شعبية

عارمة تَكُنْسُ الساحة من المخزن وعصابته غير المنسجمة، ومن الأحزاب السياسية الواهنة المستسلمة، هو ضبط مصطلحاتٍ معينة، ومفاهيمٍ مُحدّدة، مثل: البروليتاريا، البورجوازية، صراع الطبقات، دور الطليعة في قيادة الجماهير، الانتحار الطبقي...الخ

فهذه قِطْعُ غيارِ الثُورَةِ الأصليَّةِ غيرُ القابلةِ للتقليدِ أو التعويض. يكفي تركيبها تركيباً سليماً كما تُركَّبُ أي قطعة غيارٍ جديدة في آلة عاطلة لينطلق قطارُ الثورة الذي لا يقفُ شيءٌ في طريقه. لا يتردّد رفيق من الرفاق الجدد في أن يتحدّث بعد أن سمع، منذ ربع ساعة فقط، عن الماركسية، وهو يسترق السمع لأحد المنظرين الصغار في حلقة من الحلقات بالسؤال التالي:

ما هي البرجوازية؟ ما هي البروليتارية؟

هل قرأت "الدولة والثورة"؟

إلى آخر ما بقي على ذكره من الألفاظ التي سمعها منذ حين في حلقة مجاورة. وقد يتجرأ أكثر من ذلك فيوهّمك أنه يستوعبُ رأس المال لماركس، ويحيطُ بأفكار إنجلز، وهو لم يَرِ رأس المال قط، ولا قرأ سطرًا واحداً من أعمال إنجلز التي سأنبهر بعمقها ونسقيتها بعد ذلك بسنين.

لقد عقّدتني هذا "الفرّاش" المتطاير بساحة الحي الجامعي؛ كاد يُعشي بصري ويُشعّرنِي بالعجز، فانكبيتُ شهوراً على قراءة ما استطعتُ الحصول عليه من الأعمال المشهورة للينين: الدولة والثورة، خطوة إلى الأمام خطوتان إلى الخلف. (وقد استشكل الشيوعيون العراقيون هذا العنوان معتقدين أن القول بخطوتين إلى الخلف يعني البقاء في التخلف، وهو خطأ لا يمكن أن يقع فيه عبقرى مثل لينين، فترجموه: خطوتان إلى الأمام خطوة إلى الخلف). وكنتُ مواظباً على قراءة مجلة دراسات اشتراكية وبعض الكتب المتعلقة بالموضوع.

ما كدتُ أتوغل في الموضوع حتى اكتشفتُ أن أكثر رواد الساحة وطارحي الأسئلة المحرجة هم أصحاب ثقافة سماعية ينسبون كلام هذا لذلك؛ لا يُوطر كلامهم زمان ولا مكان. مثلهم مثل محترفي الإفتاء وصُنَّاع الخرافات من الأصوليين الحاليين. ولذلك فحين تفرض على أحدهم الالتزام بنسقي معيّن، أو ضبط إحالاته ونقد مرجعياته يبادر بالذهاب إلى المرحاض. ويبقى هناك إلى أن تلتقي به في المطعم يملأ بطنه من جديد. المجموعة التي كانت على بينة من أمرها قليلة جداً في فاس، كما سيتضح لي في المؤتمر الخامس عشر.

كان عملُ لينين يبدو لي منسجماً واقعياً وشمولياً، وأكثر من ذلك يُعري أوهام البرجوازية، ويجعل المناضل سيداً إن شاء. ولذلك اندمجتُ فيه وتركته يحتل مكانه في تكويني الفكري والنفسي.

وبلغة الحاسوب فإنني لم أقم بمسح برنامج (لوجيسيل) لتركيب برنامج جديد، بل قمتُ بعملية ترقية لبرنامجي القديم. ولذلك كنتُ دائماً في مأزق مع الماركسيين الحرفيين الذين ركبوا البرنامج الماركسي على جهاز ممسوح أو فارغ أصلاً، وفي مأزق أيضاً مع رجال الدين والفقهاء الذين "لم يروا غير الفأر" فصاروا يقيسون عليه كل جزئيات العالم. الحقيقة أن الماركسية لم تعملُ معي أكثر من دفعي إلى إعادة تأمل مذهب "الاعتزال" حيثُ إعجابي بالجاحظ بدون حدود، ونحو التصوف حيثُ أكره البذخ والتبذير، وأحتقر رجال السلطة والدين الذين يرفلون في النعيم الزائد، ويتبخترون أمام أنظار شعب جائع عارٍ: تستعرض مئات الوجوه منه، بل الآلاف، فلا تصادفُ وجهاً مُشرقاً ناعماً أو منشرحاً باسماء. صارت ربطة العنق تُشعرنني بالانتماء إلى هذه الذئاب البشرية المتكثرة فهجرتها، وهجرتُ معها البذل السوداء والأحذية اللامعة إلا مجاملة في مناسبات خاصة.

ويبدو لي لينين من حيث عمق التحليل السياسي مثل إنجلز في العمق الفلسفي والاجتماعي، قرأت بلذة كل ما استطعت أن أصل إليه من أعمال لينين وإنجلز. أما كتابات ماؤتسيتونغ فلم تكن من النوع الذي يستهويني، كانت أقرب إلى الصحافة والأدب منها إلى البناء النسقي الفلسفي الذي يفرض عليك أن تحاوره أو تستسلم له، مع عمل ماؤ يمكن أن تقول: ممكن، ويجوز، إلا في هجومه على الخرافة والشعوذة فنقول: نعم على الإطلاق.

بعد التخرج من الجامعة، وأثناء العمل بثانوية الكندي في الفقيه بن صالح (1975-72)، اعتقدت أنا وصاحبي محمد الطويل، أستاذ التاريخ القادم من الرباط، أن الماركسي الذي لم يقرأ رأس المال ولم يستوعبه لا يختلف عن إمام المسجد، أو المفتي، الذي يكتفي ببعض التفسير ولكنه لا يحفظ القرآن عن ظهر قلب، أو يتعثر فيه ولا يعرف مقاصده؛ يمكن أن يكون، في أية لحظة، مَحَلًّا للاستهزاء والسخرية من طرف من هبَّ ودبَّ. ولذلك نطحنا صخرة رأس المال عدة ليالٍ خلال شهور، فكنا كما قال الشاعر:

كَنَاطِحِ صَخْرَةٍ يَوْمًا لِيُوهِيَهَا * فَلَمْ يَضِرْهَا، وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعْلُ

كانت مفاهيمه بعيدة عن محصول ثقافتنا الأدبية، خاصة بالنسبة إلي، أما الطويل فلم يفقد الأمل، مقترحاً فتح فجوة في الاقتصاد السياسي من خلال كتب مدرسية مُيسَّرة، وهذا شيء لا وقت له عندي، لأنني كنت مُنخرطاً في الدراسات العليا الأدبية مقتحماً عالم المخطوطات، عالم الأشباح والشياطين. كثيراً ما ألاحظ اندهاش بعض الزملاء من الباحثين، من شُعب التاريخ والفرنسية والفلسفة وغيرها، حين يكتشفون انشغالي بالنقابة وماركس، من جهة، والتراث والمخطوطات، من جهة ثانية. ومنهم من صارحني بذلك حيث يتصورون أن التراث الأدبي لا يصنع إلا مخلوقات تراثية. وهم معذورون في ذلك، فالأمثلة شاخصة أمامهم، تنير الرأفة قبل السخرية.

المهم أننا وضعنا رأس المال جانبا وتفرغنا لترجمة محضر محاكمة المعتقلين الماركسيين الذين كانت محاكمتهم متعثرة، كما بلّغنا، بسبب تأخر ترجمة المحاضر من الفرنسية إلى العربية. كان بين أيدينا، فيما أذكر، محضر من أكثر من ثلاثمائة صفحة، تعرفنا من خلالها على تفرعات الشبكة الماركسية بجذوعها المختلفة، من السرفاتي إلى حرزني، وعرفنا موقع بعض رفاقنا الذين كنا على اتصال بهم في الهوامش.

تغيرت الأحوال كثيراً، ما بين أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، فأصبح الصراع على أشده بين طلبة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، ومعهم طلبة التحرر والاشتراكية، وبين الطليعة الماركسية الناشئة التي ستشتهر باسم "الجهة" الماركسية. وقد وجد خصومها في هذا الاسم فرصة لنبزها ملمحين إلى جبهة كنديرة (الفديك) التي أسسها الحسن الثاني لمقاومة المد الجماهيري الكاسح للاتحاد الوطني. وكانت الفديك جبهةً و"سُنْطِيحَةً" بمعنى الكلمة، مارست التزوير في واضحة النهار لصالح وجوه مُتَلَشِّية مازال المخزن يَرْتُقُّ فتقَ بعضها ويُرْمَمُ جلودَ البعض الآخر إلى الآن (2009).

كانت رياح الانفصال عن الحزبين اليساريين (الاتحاد والتحرر) أعتى من أن تصمد في وجهها أية مقاومة، وذلك بسبب الدفْع المحلي (1965) والعالمي (1968)، من جهة، ولكون المنفصلين يمثلون خيرة مناضلي الحزبين وزيدتهما، من جهة ثانية. كان صبري والباعمراني ثم شوقي وخيرات وأنور المرتجي (آخرون من الاتحاد) ولطفي والإحيائي (من التحرر) كمن يحبسُ فيضان نهر سُبُو بكفيه. لقد كان الانفصال عن الحزبين عسيراً، أدى إلى صدامات عنيفة بين الطلبة، وانتهى في الأخير، بضياح الاتحاد الوطني لطلبة المغرب.

التاريخ مثل النهر، يأخذ طريقه، يتلَوَّى مع التضاريس، ويلتف حول العوائق، يسير بإصرار نحو مصبه، هذه حقيقة لا غبار عليها. ومع ذلك

فلعلّ مما أساءَ إلى القطاع الطلابي للاتحاد الوطني للقوات الشعبية بفاس، وجعلَ طلبةَ الجنوب والشمال يتكتلون في الجبهة الماركسية ضده، مستعِضين بها عن القبيلة التي كانت تحميهم، اعتماداً العنف من قِبل مجموعة من "فُتوات" الحزب من أبناء الدار البيضاء، اعتداداً بقوتهم البدنية وتمرسهم على الشجار والمشاحنات في الأحياء الشعبية وشبه الشعبية، حيث يُعتبر الشجار والضربُ والجرح ممارسةً يومية عادية، كما نراها اليوم في تلك الأحياء، بجميع المدن المغربية الكبرى، بل نصدره إلى الخارج.

في حين كان يُعتبر تبادلُ العنف بالنسبة للفئة الأخرى الجنوبية والشمالية، خاصة بالنسبة للجنوبيين، مُحَرِّماً لأسباب يطول شرحُها، تتعلق بتداعياته التي لا يمكن التحكم في امتداداتها كما علمتهم التجربة القبلية. فالعنف البدوي خارج البيئة يمارسُ جماعياً أو لا يمارس. وقد تأكَّدت من هذه الواقعة وسجلْتُها بعدَ أن أكَّد لي الصديق الأستاذ أحمد السليماني، صدفةً ودون سؤال، أن انتماءه وجماعةً كبيرة من الطلبة إلى الجبهة الماركسية - وكان هو الآخر اتحادياً - كان بسبب العنف الذي مارسه تلك المجموعة. وكان أحدُ عناصر تلك المجموعة البيضاء يملأ جوفه خمراً رديئاً ثم يخرج لاستعراض عضلاته أمام الحي.

ولا شك أن الإقبال على تعاطي رياضة فنون الحرب كان بسبب ذلك العنف. فقد تحولتُ ساحةُ فلسطين بالحي الجامعي إلى نادٍ للتيكوندو يؤطره طالبان كوريان منتسبان لكلية الآداب. ومن تلك الساحة تخرَّج أساتذة التيكوندو الذين فتحو النوادي في جميع أرجاء المغرب.

أتذكر أن طغيانَ هذه المجموعة قد بلغَ حده حين سيطروا على ساحة الحي ومنعوا "الجهويين" الماركسيين من تعليق الملصقات. بل عمدَ أحدهم إلى ضرب أحد الطلبة الريفيين بشكل مُهين. وقتَها توترتِ الأعصابُ واتَّخذ القرارُ بالرد من عدة جهات.

من تلك المجموعات التي قررت الرد مجموعة صغيرة من أبناء الجنوب، من طلبة المعهد: محمد العمري والطيب العاطفي ومحمد المدلاوي ولحسن عزمي. قرّرت هذه المجموعة الصغيرة غير البارزة في الميدان المساهمة في عملية التصدي لرؤوس المجموعة التي كانت تُرعبُ الطلبة المسالمين. وذلك بعد أن سمعنا أن الريفيين قد اجتمعوا في مكان ما واتخذوا قرارا مماثلا. عقدنا بدورنا اجتماعا في منزلي بمنطقة الليدو. قررنا أن نتحرك كذات واحدة في حراسة الملصقات. فرقنا المهامّ والمواقع، وربّنا الأسلحة الناجعة في كل حالة حسب ما سيلجأ إليه الخصم. نزلنا بساحة الحي قُبيل المغرب نرصد الحركة، كل في موقعه. وفي الحال حاول أحدهم نزع أحد الملصقات فعالجه العاطفي بلكمة غير مترددة، وقفزنا من ورائه حتى اختفى عن الأنظار. هدأت الساحة قليلاً فدعنا للمراقبة. كان في مرمى بصري، غير بعيد عني، الطالب الشاعر م. ب في لجاجة مع أحدهم، وفجأة رأيتُ البُصاق ينطلق من فم ذلك الطالب البضاوي نحو وجه م.ب، فانطلقتُ إليه بدون تردد، أمسكتُ بالدعامة الحديدية القائمة بينهما وارتفعت نحوه بركة فصلتُ أعلى حدائي عن أسفله. فرّ هو الآخر هاربا وتعبثته الجُموع حتى اختفى. وتوالت الصدمات حتى انتهت تلك الأمسية بإعادة تلك المجموعة إلى رُشدها. بات أكثرُ الفُتوات المشاغبين خارج الحي الجامعي. وكنتُ قدُ رأيتُ ذلك اليوم، أو الذي قبله، أحدَ الطلبة الريفيين البارزين وقتها، محمد أمغار، والدمُ ينزف من جبهته بعدَ ضربةٍ بحجر تلقاها من طالب آخر، لم يكن ذلك الطالب غير عبد الهادي خيرات، كان ذلك أمام المقصف، شاعت الظروف أن أكون هناك.

وفي إطار التحدي الذي فرضته تلك المجموعة على الطلبة اشتهر الطالب محمد رقيد، من الماركسيين، بنقل خنجر، "كمية" حقيقية يدلّ عليها بمجدول من كتفه على خصره متحديا أبناء مدينته البيضاء. أذكر أننا كنا عائدین مرة من

أحد التجمعات الصاخبة، فتجهمر حوله مجموعة من الطلبة المناوئين في لجاجة عنيفة، فهُرَعنا لمراقبة الوضع وتتبع المُجريات، والمساندة إن اقتضى الحال. كان ذلك أمام معهد النسيج "التكستيل". وما إن توغلْتُ في الزحام حتى اهتَزَّ حنْكي واصطكت أسناني بفعل ضربة عنيفة، ولم أستطع أن أُنْبِئ مصدِّرها في ذلك الزحام. لا شك أنها انتقام. وجدتُ صعوبةً في المضغ والبلع عدة أيام. "رخيصَةٌ بتعليمة" كما يقال، لم أعد أقحم رأسي في الزحام، صرْتُ أراقبُ ما يجري من بعيد، وأضربُ من بعيد وأهرب.

في هذه الظروف حضرَ إلى الحي الجامعي وجه آخر للعملة الاتحادية، الوجهُ الذهبي. حضر الشهيد عمر بن جلون ومحمد لخصاصي (أوائل سنة 1972)، حضر لعرض تصور الاتحاد الوطني ومحاورة الطلبة الماركسيين عليهم يكبحون جماهم إلى حين، كان أمله كبيراً في رأب الصدع. قرر الماركسيون المتحكمون في الساحة مسبقاً السماح لعمر بن جلون بالحديث ومنَع الأخصاصي من ذلك، علمتُ هذا فيما بعد. تحدث عمرُ، رحمه الله، لغةً لا تختلف عن لغة الماركسيين إلا في طابعها الأكاديمي؛ استعمل السبورة لشرح وجهة نظره مركزاً على ضرورة تصنيع المغرب لكي تظهر طبقة عاملة ذات قضية.. لا بديل عن التصنيع. وقال في الأخير تعليقاً على من انتقدوا تحالف الحزب مع "الرجعية"، إشارة إلى الكتلة: انتظروا، انتظروا الصيف المقبل وسترون الجديد. كان كلامه مقنعاً لمثلي، بل يحمل معرفةً جديدة، زراعة بذور الماركسية. ولكن هيهات أن يكون مُحاوروه قد سمعوا شيئاً مما قاله. ما إن أُعطيَت الكلمة للطلبة حتى بدأ سَرْد الملخصات الجاهزة. الثورة ولا شيء غير الثورة، بالعمال أو بدون عمال. الثورة أولاً. إنه الفكر الانقلابي نفسه الذي يحمله العسكر. كان من أشد الطلبة عارضةً وتحدياً لخطاب عمر بن جلون، في تلك الأمسية، طالبٌ

يُدعى أحلافي، ولعل اسمه الشخصي بوجمعة، أخذ الكلمة أطول وقت فيما أذكر. الله أعلم ببقية مساره ومصيره.

من غرائب الصُّدف أنني انتسبتُ رسمياً إلى الجبهة الماركسية بفضل شيخ داعية أصولي سيكون لنا معه لقاء حار ومطول في الزمن وعلى الورق. بعدَ سدِّ باب الانتساب إلى إحدى القبيلتين اليساريّتين المتفوّقتين على نفسيهما، الاتحاد والتحرر، صرْتُ أدورُ، مثلاً جمهور الطلبة، في فلك الزوبعة الحلزونية التي كانت تُلفُّ أغلب الطلبة، وترتفعُ بهم إلى أعلى سَمَواتِ الوهم، زوبعة الثورة الماركسية.

كان الشيخ الهراس، ذكره الله بخير، يُدرِّس الأدب الأندلسي. حضرتُ درساً وبعضَ درس من دروسه، هذا كل ما أذكره. اقتنعتُ بأن الأنسب لحفظ توازني النفسي ونسقي الفكري هو أن اكتفي بقراءة الكتاب الذي قيل لي أنه يُعرجُ عليه حين يعود إلى الموضوع، ولا يخرج عن محتواه. كتاب أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة. وقد أظهرتِ الوقائعُ أن ما شعرتُ به كان قناعة عند باقي الطلبة. إذ بدل أن يلتحقوا مرةً بقاعة الدرس نزلوا إلى ساحة الكلية، فباله مكتب القائم مقام العميد ذ. أحمد الياابوري، وهم يرددون:

"الهراس سرُّ فحالك، الكلية ماشي ديالك".

وشعاراتٍ أخرى يُعبِّرون فيها عن رفضهم له مدرسا للأدب الأندلسي، يتندرون بمستملحاته وقلنات لسانه وملابسات التحاقه بالكلية. وقد تلا هذه المظاهراتُ عقدُ اجتماع بإحدى القاعات في الجناح الغربي للكلية، فوق مقاربِ الشُّعب، كان يرأسه عبد الصمد بلكبير. تواترتِ الانتقادات بإجماع الحاضرين. وكنتُ من بين المتدخلين المنتقدين المطالبين بالبديل. أما الصوتُ اليتيمُ الذي ارتفع مدافعا عن الهراس ملتمساً له ظروف التخفيف -

يا للمفارقة - فلم يكن غير صوت "حاء" الذي سيطلبُ مني الهراس، بعدَ حوالي عقدين من الزمان، وقد صرنا زملاء في كلية الآداب، فكَّ الارتباط به، وعدم إشراكه في تكوين وحدة النقد الأدبي التي قاتلتُ من أجلها. وقد فسَّر الجميع ذلك الدفاع اليتيم بالعصبية القبلية، والله أعلم.

وبيتُ القصيد، والغرضُ الأكيد من هذا الاستطراد، هو أنني لم أغادر قاعة الاجتماع إلى ساحة الكلية إلا والطالبُ حسن التجارتي يقتربُ مني بدراجته النارية، ويدخل يده تحت جاكطته مُخرجاً نسختين من مجلة الحرية البيروتية التي كانت لسانَ حال اليسار الثوري العربي، بهما مقالان اعتُبرا من طلائع التحليل الماركسي للوضع في المغرب...

وهكذا ساهمتُ طريقةً تدريس الهراس في توجيهي نحو "الدولة والثورة" من حيث لا يدري، وهذه فائدة تذكر له، وإن كانتُ مصدرا لانزعاجه عندما صرنا زملاء في نفس الكلية. ماذا أصنع له؟ الغرضُ غرضه، والأعمال، هنا، بنتائجها، لا بنوايا أصحابها. سمعتُ في الأيام الأخيرة المستثمرَ المصري أشرف السَّعد يقول على أمواج قناة المستقلة، وهو يضحك على عادته بصوت مجلجل: "من دخل سجون مصرَ ولم يخرج إرهابيا ففي عقله حاجة".

وأنا أقول: مَنْ خالط بعضَ المُتحدِّثين باسم الدين عندنا ولم يُصبح ماركسيا متشددا ففي عقله حاجة.

الانفجار الأول (1972)

بلغ الصراع بين اليساريين في كلية الآداب بفاس ذروته في ظروف انتخاب ممثلي الطلبة في المؤتمر الخامس عشر صيف 1972. وقد حكمت الأقدارُ أن يشهد فوجنا بداية الصراع بين الاتحاديين والجهة الماركسية ونهايته بين المؤتمرين الرابع عشر والخامس عشر.

كان الماركسيون قد استولوا على الأجهزة المسيرة في فاس، وفي كثير من المدن المغربية. كما ضمّنوا أغلبية المؤتمرين عن كلية الآداب، وكُنْتُ واحدا من المؤتمرين المتحمسين الذين لا يرون في أفق السياسة أبعدَ من أرنبَة أنوفهم. لست أدري كيف يقع المناضلون دائما في عماء الخوض في التفاصيل قبل تحصيل الجوهر، شيء أشبهُ بصراع غزة والضفة قبل استرجاع الأرض المغتصبة، إنه الاحتفال بالوهم.

وصلتُ ذات مساء من شهر يوليوز 1972، قبيل المؤتمر، إلى الحي الجامعي الجديد بالرباط. وجدتُ الرفاق قد رَتَّبوا أمورَ الإيواء والتغذية بالحي الجامعي، وذلك في انتظار الانتقال إلى داخلية ثانوية الليمون حيث الإقامة الرسمية للمؤتمرين. كان التواصل بين الطلبة القادمين من مختلف المؤسسات الجامعية سهلا، فحن عشيرة واحدة، عشيرة الرفاق: أهلا بالرفيق، الرفيق قبل الطريق. الكل يسأل كيف مرّت معركة انتخاب المؤتمرين منتشيا بالنجاح، بدحر الخصوم.

الحديثُ كُلُّهُ حولَ غرائب التصويت والفرز ومحاولات الغش التي فاقت، حسب روايات كل طرف عن غريمه، ما تمارسه وزارة الداخلية. وقد ضربت انتخابات كلية الحقوق بالرباط الرقم القياسي في إثارة الشبهات وتغذية الخيال. وكيف لا تتناسل الشائعات وقد دامت عملية الفرز اثني عشر يوما.

انعكستُ هذه الشُّبُهَات على انطلاقة المؤتمر حيثُ حاول كل طرف تكييف الوقائع بطريقة تضمن له مزيدا من الأصوات لتحسين موقعه. كان الماركسيون يطالبون اللجنة التنفيذية، وهي ما تزال اتحادية، بتوزيع بطائق المؤتمرين أولا، في حين يُصرُّ الاتحاديون ومن معهم على الفصل في الطعون أولا. أكل هذا الخلاف المسطري جزءا مهما من المدة المخصصة للمؤتمر لينتهي بانسحاب جمهور الاتحاديين.

وتجب الإشارة هنا إلى أن المؤتمر الخامس عشر أبرز أيضا مدى الشرح الذي وقع في صفوف ما تبقى من الجناح الطلابي للاتحاد الوطني للقوات الشعبية بعد انسحاب الكثير من جماهيره والمتحاقهم بالجبهة الماركسية. فقد انقسمت المجموعة المتبقية إلى "أخصاصيين" و "منونيين" نسبة إلى لخصاصي والمنوني، وهما رئيسان سابقان من رؤساء الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. انسحب الأخصاصيون (وهم الأغلبية الإتحادية) من المؤتمر في غلط تاريخي كانت له نتائج وخيمة، وبقي المنونيون (وهي الأقلية) مسافرين لأعمال المؤتمر دون أن يكون لهم تأثير يذكر.

كنتُ من بين قلةٍ عبَّرتُ عن عدم اطمئنائها لما وقع، مفضلةً صيغة تحالف بين كل الأطراف. ولستُ أذكرُ كيف دار الحديث في الموضوع، حتى وجدنا أنفسنا نحن مجموعةً من المؤتمرين، أذكر منهم الصديقين محمد المدلاوي والطبيب العاطفي نناقش الموضوع، بعد العودة إلى ثانوية الليمون مساءً يوم الانسحاب، وقبل الشروع في أعمال المؤتمر. تحلق حولنا مجموعة من الطلبة يتداولون في الموضوع. ازدحمت الغرفة، فأثار ذلك انتباه "الزعماء" الكبار، فحضرت مجموعة منهم محاولة خنق النقاش، وحين تعذر ذلك اقترحوا علينا النزول إلى قاعة خاصة لتوسيع النقاش وتنظيمه، وترك مَنْ يرغب في النوم لينام. توسعت حلقةُ الراغبين في الحوار، وأصبحتُ أشبه بمظاهرة، واشتد الازدحام أمام القاعة. أذكر أن الصديق أحمد الدغيرني، ولم أكن معه على موجة واحدة رغم رفقتنا الطويلة، قال: سنناقش التحالف في الفكر الماركسي، أو في النظرية الماركسية، في نوع من التحدي العالم، أو المتعالم. وعندما نزلنا إلى الأسفل أغلقوا القاعة وتشتت الجمع.

كان هذا الحادث عابرا، فلم يكن لي، ولا للمجموعة التي خاضت في الموضوع، ثقل ولا رؤية واضحة ندافع عنها، كان الأمر أقرب إلى الحدس

والتضامن العاطفي، أو السعي الساذج إلى وحدة مستحيلة، كما قيل. لقد كانت مركبة الاتحاد الوطني لطلبة المغرب تندفع في منحدرٍ سحيق يصعب توقيفها أو التحكم فيها. لقد عمَّ الابتهاج بالنصر على الرجعية والإصلاحية المعرقة للثورة. شيءٌ أشبه بالأوهام التي يسبح فيه الأصوليون اليوم خارج منطق التاريخ. بدأت أعمالُ المؤتمر بتكوين لجنة الفرز من أجل الحسم في الطعون وتسليم بطاقات المؤتمرين والملاحظين.

الانفجار الثاني

في حوالي الساعة السابعة مساءً من يوم 16 يوليوز 1972 عدنا إلى مدرج كلية العلوم حيث تجري أعمال المؤتمر، وهي ملاصقة، وما تزال، للقصر الملكي. كانت العيون مركزة على المنصة مستعجلةً انطلاق الأعمال. رأيتُ شاباً أسمرَ نحيلاً يعلو المنصة، وما كاد يفتح حقيبتَه، وينشر ملفاته، حتى جمعها وفر هارباً.. ماذا أصاب عبد الواحد بلكبير؟ قال من حضر ذلك اليوم المشهود¹:

"... في هذه الأثناء بدأت تحركاتٌ غيرٌ طبيعية داخل الطلبة المتقدمين في مدرج كلية العلوم، ثم تلتها تحركات فردية، تحولت بسرعة إلى هيجانٍ جماعي. كان البعض يدعو إلى الانضباط. لم يكن أحدٌ يعلم ما وقع:

- "البوليس يهاجم المدرج؟!"

- خلل في التيار الكهربائي؟!"

- عناصر فوضوية تحاول عرقلة سير التجمع؟!"

¹. الكلام المحصور، هنا وفيما يأتي من فقرات، مأخوذ بنصه من مذكرة حررها المؤتمر محمد العمري في حينه. قد نضيف إليه توضيحاً بين معقوفين عند الضرورة.

كلها احتمالات لا أساس لها بعد ما صُغقت آذان الجميع بانفجارات عنيفة. وشاع في الحين، وبصورة مشوشة، أن طائرات تقصف القصر الملكي.

طائرات حربية اعترضت طريق الطائرة التي تحمل الملك من الخارج، لقد قصفت قبل ذلك مطار سلا..

كانت الحيرة كبيرة بالنسبة للطلبة، هل ينسحبون جماعات أم فرادى، وأخيرا انسحبوا في مجموعات.

في الطريق إلى ثانوية الليمون شوهدت سيارات الشرطة وهي تتحرك بسرعة، كما شوهدت سيارات إسعاف، وهي تسير بسرعة جنونية. أما هذه الجماعات من الجنود التي كانت تتحرك قرب كلية الآداب، ووزارة التعليم فإنها هي الأخرى لا تدري ماذا وقع، وهي نفسها تتساءل عن سر الحدث.

جماعات أخرى رُوعت أكثر من اللازم، وتلك هي جماعة الساكنين بالفيلات التي مررنا بها قبل الوصول إلى ثانوية الليمون، وجُلُّهم من الفرنسيين الذين تجمعوا نساءً وأطفالاً ورجالاً على البويات يتهايمسون والرعب بادٍ على وجوههم².

عودة إلى السطر

"في اليوم التالي [للمحاولة الانقلابية. أي يوم 17 غشت 1972] استأنف المؤتمر أعماله بصورة طبيعية، [وكأن شيئاً لم يقع] وتقدم ممثل لجنة الفرز بتعديلات في الأحكام السابقة...".

"وبعد ذلك صودق بالإجماع على عمل لجنة الفرز من طرف الجمع العام. وامتنع 6 أعضاء من التصويت بدون معارضة".

². حرر يوم 17 غشت 1972. على الساعة 8-9 صباحاً،

"سُلِّمَت بطاقات المشاركة للمؤتمرين ثم للملاحظين، وتكونت لجنة مالية، ثم وقع إخلاء القاعة حتى يتسنى تحديد المؤتمرين والملاحظين. وشرع أحد أعضاء الرئاسة في إعطاء أرضية للنقاش حول الوضعية وتقييم التجربة السابقة". ومما جاء في كلامه:

. "كاد المؤتمر 14 [المؤتمر السابق] أن يكون نقطة انعطاف في تاريخ الاتحاد الوطني لطلبة المغرب لولا تلاعب الأقلية المتعصبة لاتجاهها السياسي وتلاعبها بقانون وتقاليد المنظمة...".

"رُفِعَت الجلسة على الساعة الواحدة ودقائق، وعاد المؤتمر إلى الانعقاد في الثانية وخمس وأربعين دقيقة بعد الزوال، حيث استمرت التدخلات. ناقش أول متدخل قضية المركزية الديمقراطية، ورأى أن عدم تطبيق هذه المركزية ليس مبرراً لحذفها، بل يجب العمل على تطبيقها بديمقراطية. عند تكوين اللجان دخل الإخوان المنونيون في مجادلة شكلية في عدد اللجان؛ خمس وأكثر، وطالبوا بالخصوص بإدراج قضية التحرر في قضية العلاقات الخارجية.

في هذه الجلسة كان علي أن أجلس وسط عدد منهم (من الاتحاديين المنونيين) إنهم يتهامون كثيراً، ويتدخلون في كل صغيرة وكبيرة، يخرقون النظام بكثرة نقاط النظام التي يطرحونها.

الاضطراب هو الذي يطبع عملهم، فهم لم يتفقوا على موقف بخصوص الكثير من القضايا المطروحة. يتجادلون: هل الامتناع عن التصويت هو عدم المشاركة فيه. هل يمتنعون أم يشاركون..

وهم يتزاحمون كثيراً، وقد جلس بالمقعد المجاور اثنان من رؤوسهم. ويتساءلون عن اللجان التي يمكنهم الالتحاق بها، وقد سمعتُ أحد رؤوسهم يوصي بعدم الاشتراك في لجنة التحرر.

هؤلاء الناس خيارى يريدون الاشتراك في المؤتمر دون تحمل أية مسؤولية.

انصرفت اللجن إلى دراسة الملفات، ثم عاد المؤتمر إلى الانعقاد في الساعة التاسعة مساء.

[تُليث] رسالة من حاملي الكفاءة بالحقوق يطالبون فيها بمتابعة المسيرة النضالية لتحقيق تعميم التعليم. وإتاحة الفرصة لحاملي [تلك] الشهادة للالتحاق بكلية الحقوق قصد متابعة دراستهم.

"الثانية عشرة ليلا: 17 غشت 1972. مازالت اللجان تسرد مقرراتها. في حال أن النوم بدأ يراود المُقل، الدخان يَمَلأُ القاعة. لقد نام هذا الرفيق الذي بجانبى بعد أن علّق ورقة العضوية التي كان يُصوّثُ بها، علقها بذراع نظارته، حاولتُ أن أزعجه بنفخ دخان كثيف حول خياشيمه، ولكنه لم يكن يزيد عن انتفاضات خفيفة: يُميل رأسه أو يحرك يده أو قدمه بصورة تشنجية، إنه لاشك في حلم مزعج. استيقظ أخيراً وفي جو من المفاجأة [صار يُردد]: ..مُشيئو!! .. مشيتو!!

لقد صودق بالإجماع على جميع المقررات التي عُرضت حتى الآن. حتى إذا عُرضَ محضر اللجنة السياسية جاء أحد الأعضاء المنوبين بمحضر آخر ليس معاكسا ولكنه مخالف في الأسلوب والنظرة شيئا ما. وقد صودق بالأغلبية الساحقة على المحضر الأول.

ثم قدمت رسالة باسم أ.و.ط.م إلى كل المسجونين السياسيين بالمغرب، وقد قوبلت هذه الرسالة بحماس شديد، وتصفيقات حارة، وقَفَ خلالها الطلاب إجلالا لأبطال الحرية والديمقراطية.

... أشرف المؤتمر على الانتهاء. والساعة الآن الثانية والنصف ليلا... الساعة الرابعة وعشرون دقيقة ومازال الجلسة منعقدة، والنوم يتجول في

القاعة ويحط بسهولة حيث أراد، التعب باد على الكل. الساعة السابعة صباحا ومازال المؤتمر يتابع أعماله".

"كان يوم 17 غشت 1972 يوم عمل متواصل ومتعب، فقد ابتدأت الأعمال بعد الفطور (س 7.30 صباحا)، واستمرت حتى الساعة الخامسة والنصف من صباح يوم 18 غشت 1972 باستثناء وقت قصير تناولنا فيه وجبتي الغذاء والعشاء. كان العمل يسير بسرعة، إذ كنا نسابق الرخصة القانونية للمؤتمر؛ الكل يريد أن ينتهي قبل الآخر. ومازلنا بين نقاش وتوتر وانسراح وتصفيق وبين تضجر واشمئزاز وأحيانا ارتياح...".

"كانت هناك حدة في النقاش، واختلاف في الرأي، ولكن ذلك كان يُنبغ دائما بتفهم وهدوء وإقناع"³.

وقد قومت وقتها مجريات هذا المؤتمر على الشكل التالي:

"مر المؤتمر الخامس عشر للاتحاد الوطني لطلبة المغرب المنعقد بين 11 و18 غشت 1972 بكلية العلوم بالرباط بأزمة حادة".

"يعود السبب، في الأساس، إلى الصراع بين القوى الطلابية، أو الحركة الطلابية الجديدة التي ظهرت وبشكل واضح في المؤتمر 14. كان الصراع بين هذه القوى الجديدة التي تحاول أن تنبذ وصاية الأحزاب السياسية العتيقة التي أصبحت بحكم طبيعة تكوينها البورجوازي عقيمة وغير ذات جدوى بالنسبة للجماهير الطلابية وغير الطلابية".

"وقد تميزت هذه السنة الجامعية 71. 1972 بصراع حاد على المستوى القاعدي أو التمثيلي (اللجنة التنفيذية، والتعاضديات والمجلس الإداري) سواء فيما يخص القضايا النقابية أو السياسية. ولذلك كانت مواعيد الانتخابات

³. كتبت هذه الفقرات بمحطة القطار بالرباط يوم 18 غشت 1972.

مناسبات لصراع شديد على المستوى الأيديولوجي، وتركز النقاش أساساً حول أسلوب العمل والتنظيم الذي يكون ذا فعالية بالنسبة للوطن بصفة عامة. ومن هنا بدأ - بصورة طبيعية - تحليل طبيعة التنظيمات السياسية التقليدية وأسباب عجزها، وهل يمكن إصلاحها من الداخل".

"لم يكن حزب الاستقلال من بين الأحزاب التي يهتم بها الطلبة أو يعرضونها للنقد، فهو منقلص جداً، أو منعدم في غالب المؤسسات الجامعية، وليس هناك، في الغالب، من يجرؤ على التحدث باسم هذا الحزب".

حاشية للتنوير:

عندما حاول أحد الطلبة، اسمه الترميذي التحدث، أمام الحي الجامعي بفاس، باسم الاتحاد العام للطلبة التابع لحزب الاستقلال حاصره الطلبة بمدخل الحي وأشبعوه ركلاً وصفعاً أمام عيني، ولم يُفلت من بين أيديهم إلا بشق الأنفس. شاهدتُ هذه الحادثة في الصباح، وفي المساء سمعتُ أنه أعاد الكرة، فطارده الطلبة في اتجاه حي الليدو. وعندما انفردَ بطالب اسمه الحمزاوي، بعد تعثر هذا الأخير، غرَرَ سكيناً في ظهره أدى إلى بتر أكثر رثته، فعانى من ذلك إلى أن مات بعد سنواتٍ من تخرجه، رحمه الله، التقيتُ به مرات في المحمدية.

وقد ذكر لي أحد الزملاء من شعبة التاريخ بالرباط سنة 1973، ونحن في الفقيه بن صالح، أن الترميذي المذكور جاء مرة إلى الحي الجامعي القديم بالرباط حاملاً نسخةً من جريدة العلم، فصعد فوق الحائط وهو يقرأ بياناً أو مقالا من الجريدة، فلم ينتبه إلا والنارُ تنتشر في الجريدة وتُحرقُ يديه، فرمى بها وانصرف.

كما ذكر لي الصديق الأستاذ أحمد السليمانى من نفس الفوج أن مجموعة من الطلبة المنتمين للاتحاد العام تقدّموا لمقابلة القائم مقام العميد وقتها، الأستاذ

أحمد اليابوري، ومعهم نُسخٌ من جريدة العلم، فما كان من بعض المتهورين من الطلبة إلا أن داهموهم، خارج أي تنسيق مع الأجهزة المسؤولة، وربطوا الجريدة برأس أحدهم وأضرموا فيها النار. ولولا أن السلياني بادر إلى نزعها لكانت الكارثة. (انتهى التتوير ونعود للمذكرات).

"أما حزب التحرر والاشتراكية فإن مكانته في القطاع الطلابي تُشبهه، في بعض الكليات، مكانة حزب الاستقلال، غير أن الذي يجعله معرضاً للنقد والتقويم هو انخراطُ جناحه الطلابي في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب".
"وهكذا فإن الصراع يتحدد أو يكادُ بين ممثلي حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية والتيارات الماركسية المنفصلة عنه وعن حزب التحرر والاشتراكية".

كانت شعارات اللجنة التنفيذية المعلقة في مقر المؤتمر تدور حول:

- "وحدة الحركة الطلابية المغربية في حظيرة أ.و.ط.م"،
- "النضال الجماهيري الطلابي لفرض مضمون تقدمي لمبدأ استقلال الجامعة وحرمتها".
- "مساعدة جماهير الصحراء المغربية في كفاحها البطولي ضد الاستعمار الإسباني الفاشستي وحليفته الرجعية المغربية".
- قول "لا.. للحكم الاستبدادي الفردي المطلق".
- "مزيديا من الكفاح من أجل فرض إطلاق سراح المعتقلين السياسيين، ومن أجل فرض الحريات السياسية والنقابية بالبلاد".
- الإلحاح على أن "الاتحاد الوطني لطلبة المغرب جزء لا يتجزأ من الحركة التحررية والتقدمية العالمية لمناهضي الأمبريالية والصهيونية والرجعية".
- "الكفاح من أجل جامعة شعبية وتعليم مغرب ومعمم".
- "النصر للثورة الفلسطينية المسلحة طليعة النضال التحرري العربي".

- و "مزيدا من الالتحام مع الثورة الفلسطينية لإحباط جميع الحلول الاستسلامية والمؤامرات التصفوية".

- الحفاظ على "الاتحاد الوطني لطلبة المغرب أداة جماهيرية لتعزيز النضال التحرري الشعبي ضد السيطرة الاستعمارية الإقطاعية".
تعليق: كان الانشقاق الذي عرفه المؤتمر الخامس عشر تعريةً لظهر الحركة الطلابية وتمهيدا لحظرها، من جهة، واقتحام الإسلاميين لها، من جهة ثانية.

ومن مفارقات المغرب الحديث أنني سمعتُ بعض الطلبة، في السنوات الأخيرة من العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، يجترونها ذلك الخطاب الطفولي الحالم - الذي صاغته ظروف 1965 الوطنية، و1968 العالمية - بعد كل المآسي التي جرّها على الحركة الطلابية وعلى المسيرة النضالية في المغرب، وبعد دخول المغرب في عهد المصالحة والتناوب، وبعد أن تفرقت أحجار جدار برلين على المتاحف العالمية. ما زالوا يحملون بثورة ماركسية لينينية جذرية بعد أن أخفى الروس مومياء لينين. لا ينافس خطابهم، في بعده عن أسئلة العصر وروحِهِ، غير خطاب الفصائل الأصولية الحاملة بتطبيق الشريعة الإسلامية وإقامة دولة الخلافة. أوهام لا تُعطي أي اعتبارٍ للتاريخ.

كان حضورنا للمؤتمر الخامس عشر للاتحاد الوطني لطلبة المغرب بمثابة تدريبٍ التخرج السياسي الذي تَوَجَّ تجربتنا النقابية والسياسية. كان بمثابة مهرجانٍ للتواصل مع باقي طلبة المغرب على اختلاف مشاريعهم. فيه رُسم طريقٌ مستقبل العمل النقابي والسياسي الذي سنخترط فيه في المراحل اللاحقة. من سخريات الأقدار أن العسكريين الذين استهدفوا الحسن الثاني رُوِّعوا معه اليمين واليسار: رُوِّعوا، في المرة الأولى، أقطاب اليمين الطفيليين المحتفلين في الصخيرات، ورُوِّعوا، في المرة الثانية، أقطاب اليسار

المؤتمرين قربَ للقصر الملكي بالرباط. وبقي الاتحاديون في الوسط يتفرجون: لم يُدعَ الاتحاديون لزرود الصخيرات، وقاطعوا مؤتمر الرباط. لقد أفلتوا من "الخلعتين". سيأتي دورهم في الفصل الثالث في مولاي بوعزة، في السنة الموالية 1973. الفقيه البصري غير غائب عن المشهد.

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطَّوْل المُرْحَى وثنياء في اليَدِ
الطَّوْل: الحبل. صدق طرفة بن العبد: العُمَر كالحبل المُرْحَى، أحد طرفيه
مربوط بعنق الإنسان، والطرف الثاني يَبْد القَدَر.

"سبحان الله أَلْفَيْهِ"!!⁴

... لماذا جئنا من تارودانت إلى فاس؟

كانت فاس تستقبلُ، خلال الستينيات، أولَ نواة جامعية لِلُّغة العربية: فيها
أنشئت أولُ شعبة للغة العربية في المغرب. بل هذه الشعبة هي الكلية نفسها،
والكلية هي المدرسة العليا للأساتذة. عدد الطلبة في حدود 1200 طالب، هو
رقم طلبة المعهد. جاءوا من جميع جهات المغرب، كلهم سيُعيّنون أساتذة.
أساتذة للسلك الثاني لمن حصلوا على الإجازة، وأساتذة للطور الأول لمن فشل
في الحصول على الإجازة واكتفى بالدبلوم. بداية تكوين الأطر.

بخلاف الانقلاب الذي وقع في حياتنا الاجتماعية والسياسية والفكرية
عامة (بالانتقال من البيئة الجنوبية المحافظة إلى حاضرة فاس المنفتحة)
فإننا لم نجد، في كثير من الأحيان، ما يُشبع الفضول العلمي الخالص،
ويستجيب للتطلع الذي صاحب انتقالنا من معهد ديني في الجنوب،
محصور بين أسوار تارودانت العتيقة، إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية

⁴ - عبارة يقولها المأموم للإمام حين يسهو فيزيد أو ينقص في الصلاة.

في عاصمة المغرب العلمية التي اعتلت هضبة ظهر المهرار خارج الأسوار. بل كان ما وجدناه من معرفة، أحيانا كثيرة، أقل مما تركناه وراءنا. خاصة في مجال اللغة والبلاغة، والعلوم القديمة عامة. هذا فضلا عن العلاقة بين الأستاذ والطالب التي كانت في الجنوب أبوية وأخوية نصوحاً. فجمعية علماء سوس هي التي تؤوينا وتُطعمنا، وأعضاؤها هم أساتذتنا. وهذا العنصر الأخير كان مهماً بالنسبة للتلميذ/الطالب محمد العمري المفرط "الحيوية"، أو قُل: المُشاغب، إذ كثيراً ما غطى اجتهاده على شغبه، وشفّع له عند أولئك الأساتذة. قلتُ مرة للأستاذ أحمد الوجاني، أستاذ تاريخ السنة، ذكره الله بألف بخير:

إن ما تذكره من أرقام لعدد الأحاديث التي رواها أبو هريرة والسيدة عائشة لمن قبيل الخيال الذي لا يقبله العقل؟!

كان جوابه هادئاً، لا أكاد أتذكر تفاصيله. تحدث عن طرق التصحيح والتجريح، معتبراً تساؤلي عادياً سبقني إليه العلماء. ثم أنشد بيتاً طالما كرره على مسامعي:

مَوَدَّتِي فَيْكَ تَأْبَى أَنْ تُسَامِحَنِي بَأَنْ أَرَاكَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الزَّلِيلِ

حمار في أول جلسة

ربما نوهتُ بأهمية العلاقة بين الأستاذ والطالب لأني تلقيتُ أولَ صفة في هذا المجال تحديداً: المجال البيداغوجي والإنساني. فمن أول لقاء مع أستاذ ذي شهرة واسمعةٍ كبيرةٍ أخذتُ صفة "حمار"، ولا فخرَ!. كان صديقُ طفولتي أحمدُ التوحيدي، رحمه الله، قد حدثني عن المرحوم محمد نجيب البهيبيتي، وعن حساسيته المفرطة إزاء طه حسين والمستشرقين. وأعارني نسخة من كتابه (تاريخ الشعر العربي إلى نهاية القرن الثالث الهجري)، للاطلاع عليها قبل اللقاء به حتى أعرف أين أضغُ قدمي. ما زلتُ أحتفظ بهذه النسخة بحرص،

وأراهما فيها. (في حين بقيت النسخة التي اقتنيتهَا منه، فيما بعد، عند المرحوم الشاعر عبد الله راجع). كان اللقاء به مُبَكِّراً في قاعة متوسطة قرب قاعة الأساتذة الحالية. لم يكن عددُ الحاضرين كثيراً.

سألنا، في البداية، عمّا نعرفه عن الأدب الجاهلي. كان من عادته أن يقوم بعملية مسحٍ للفرص الصلب لأدمغة الطلبة، يُخليها مما رُكِبَ فيها من برنامج طه حسين، عدوّ اللدود، وينظفها من "سموم" المستشرقين، قبل أن يقوم بتحميل برنامجهِ القومي العروبي وتركيبه. وكنتُ قد قرأتُ كتابَ في الأدب الجاهلي لطله حسين، في الثانوي، ولخصّته تلخيصاً مفصلاً استعداداً لإلقاء محاضرة عنه في مسجد المعهد. شجعني على ذلك أستاذي لحسن وجاج، ذكره الله بخير. بل أُلقيتُ تلك المحاضرة فعلاً؛ استمر إلقاؤها من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء دون أن تظهر نهايتها في الأفق. تضجر مدير المعهد عصامي من إصراري، وكان جالسا أمامي يطلب من الله أن أقع في خطأ. وحين تأخر ذلك رفع الجلسة وأمر بإقامة صلاة العشاء، وكان التيار بيني وبينه مقطوعاً، لأسباب يطول شرحها.

بالإضافة إلى كتاب طه حسين سبق لي أن قرأتُ كتاباً لعمر الدسوقي تحدث فيه بتفصيل عن أثر البيئة الصحراوية في الشعر الجاهلي مقتنيا طريق بعض المستشرقين، وكتاباً آخر عن الشعر والغناء في المدينة ومكة لشوقي ضيف، وقد أعجبتُ بهذه الكتب أشد الإعجاب. ولم أكن أعلم أن ما يذهبُ إليه أصحابها هو نقيضُ كل ما يقولُ به البهيتي، ويدعمه بكفاءة وذوق وأناقة فكرية في كتابه المذكور. ولذلك ما إن ذكرتُ فكرةً أو أكثر لطله حسين، ونطقت باسمه، حتى انقضَّ عليها كالصقر مُسفّها كلامي ساخراً مني ومن طه حسين، وما إن حاولتُ دعمَ كلامي بما قاله الدسوقي حتى صوّبَ إلي الضربة القاضية: "أنت مثل الحمار تأتي إلى الحرة وتقف...الخ".

ها أنا أصيرُ حماراً من أول يوم في الجامعة، وفي المادة التي حضرتُ فيها وكتبْتُ مقالاً عنها في مجلة المعهد التي كنت مديرها. تخيلُ محاضراً ومديرَ مجلة، ولو كانت مدرسية بسيطة، يصيرُ حماراً في رُمشة عين أمام الطلبة، بل أمام الطالبات اللواتي أجلسُ بجانبهن في صف الدرس لأول مرة في حياتي. والله لا أذكر الآن هل حضرتُ محاضرةً أخرى للبهيتي أم اكتفيتُ بكتابه الذي قرأتُ الثمانين صفحة الأولى منه بشغف شديد، وحفظتُ كل الأمثلة الشعرية التي أوردها. لقد كان ما يذهب إليه يَصِبُ في النزوع القومي الذي كان جزءاً من مقاومة الاستعمار، لقد كان صاحب قضية وفُرحة.

كان البهيتي عالماً فاحصاً للأخبار والنصوص، ودَوَاقَّةً لجمال الأشعار، وفِرْعونا مجروحاً. ولست الوحيد الذي هجاه البهيتي وقمعه، ومع ذلك لم يُقَلَّل أحدٌ من احترامه، ولا ثار أحدٌ من الطلبة عليه، فيما أعلم، وقد استوعبتُ هذا الدرس جيداً، لا لَوَمَ على من أكله السُّبع.

كان أكثرُ أساتذتنا بكلية الآداب من الشبان المغاربة الذين ما زالوا في بداية الطريق، في رحلة البحث عن أنفسهم. ومنهم من أُفْحِمَ في اختصاص غير اختصاصه، وأركبَ مركباً غير مركبه. فلك أن تتصور الشاعر أحمد المجاطي، صاحب "الخمارة" التي تَقَنَّعت بعنوان "الفروسية"، وهو يُدرِّس شعر الدعوة الإسلامية، شعرَ حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك... الخ. ويدرس موقف الإسلام من الشعر!

لقد مرَّ بامتحان عسير، يبيضُ ويحمرُّ طوال الموسم، قبل أن يتنفس الصُّعداء ويجلسَ لامتحاننا شفوياً في آخر السنة الأولى. جلستُ أمامه بين الجسارة عليه والخوف من انتقامه... كان معه أستاذ آخر لا أذكره. بعد سؤال أو سؤالين في الشعر القديم - أجبتُ عنهما ببسر - فتحَ أمامي ديوان محمود درويش مستفسراً عن مجموعة من الرموز والتراكيب. وضعني أمامَ

جدار، وقف حمار الشيخ في العقبة. لا أعرف شيئاً عن الشعر الحديث ورموزه وموسيقاه. قال لي: "ها أنت ترى، بمجرد ما خرجنا عن الشعر القديم ظهر عيبك!".

اعتقدتُ أول الأمر أنه يعاقبني على بعض الالتفاتات والنظرات أثناء محاضراته، ثم فهمتُ من فحوى كلامه وسلوكه أنه يريد أن يقول لي: لا تعجب من عيوب الآخرين حين يُفحصون في غير اختصاص غير اختصاصهم. ولذلك لم يأخذ ذلك السؤال بعين الاعتبار حين حدد النقطة التي استحقها، كان سخياً، أو بالأحرى منصفاً. ودارت الأيام والتحقتُ بكلية الآداب، في أوائل الثمانينيات، أستاذاً مساعداً فوجدتُ أن المادة الوحيدة التي تخلّى عنها الجميع هي مادة الأدب الإسلامي فوضعتُ تخصصي بين قوسين وتقرّغتُ لها. ويسّر الله فيه فكان من ثمار تدريس هذا الأدب أولُ كتابٍ لي: في بلاغة الخطاب الإقناعي. (بلغني أحد الطلبة مرة أن زنبورا أخذ منه محاضرةً لي في موقف الإسلام من الشعر ثم أعادها إليه بدون تعليق).

لم يكن لي إلمام بالشعر الجديد، فكانت تلك الوخزة كافية لأعتكف، طوال الصيف، مع شاعر المحمدية، محمد السبايلي، رحمه الله، على دواوين الشعر الحر ومجلة شعر التي كان يفتنيها بانتظام من سنوات.

لا شك أن عملَ الأستاذ أحمد اليابوري قد فتح أعيننا على عوالم من الشعر الحديث: على الشعر المهجري، على مدرسة الديوان، على طه حسين والعقاد، على نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم.. الخ. واليابوري نموذج يستلهمه الطالب الجاد في عمله وإخلاصه لمهنته وسمو همته، ولكن الشعر الحر بقي خارج التغطية إلى حين. بقيتُ علاقتي مع الأستاذ اليابوري في حدود التقدير والاحترام، فهو صعب الاقتحام.

ولك الاختيار

كنا نعلم أن الأستاذ محمد الكتاني كان مشغولاً بالصراع بين القديم والجديد في الأدب الحديث، في إطار أطروحة دكتوراه الدولة، ولكن لقاءنا معه وتعرفنا عليه كان في مجال آخر. كُلف بتدريس مادة الفكر الإسلامي. فتح أمامنا نافذة نحو ما سُمي فكرًا إسلاميًا حديثًا. تعرفنا من خلاله، لأول مرة، على محمد إقبال باعتباره فيلسوفًا إسلاميًا مجددًا. بهرتني صفة فيلسوف، فاقتنيت كتابه: تجديد الفكر الديني، فلم أجد فيه ما يغري بالقراءة، ربما بسبب سوء الترجمة، أو لضعف زادي المعرفي وقتها، المهم أنني حاولت. ثم قرأتُ للشيخ الغزالي ومحمد عمارة وغازي التوبة وغيرهم كلامًا لم يأخذُ بلُبي كما ستأخذُ به كُتب الفلسفة الوضعية وتطبيقاتها الماركسية.

سبق لي أن حاولت، في الثانوي، قراءة كتاب: في ظلال القرآن، لِسيد قطب بتحميم من أستاذنا لحسن وجّاج، فلم يشدني إليه. في حين وجدتُ معرفةً أتباهى بها على الأقران في كتاب القومية العربية لساطع الحصري. حاولتُ أن استأنف المحاولة مع ظلال القرآن في الجامعة تحت تأثير الهالة التي صنعها له الأتباع، فوجدته مجردَ انطباعاتٍ ذوقية لا تقومُ على أساس مطرد، تتخرمه الأسئلة بسهولة. وبخلاف ذلك استهوتني إسلاميات العقاد بأسلوبها الرائق القائم على حسن اختيار الأخبار وسبكها، فجعلتها موضوعاً لبحثٍ تحت إشراف الأستاذ الكتاني نفسه، بذلتُ فيه جهداً كبيراً. وقد عُدتُ لتحليل عبقرية الصديق وعبقرية عُمر للعقاد في إطار المشاركة في ندوة نظمَها جمعيةُ مدرسي اللغة العربية بالدار البيضاء أواخر السبعينيات.

وكان العقاد حاضراً بقوة في دراستنا لحركة الإحياء في الأدب العربي ناقدًا وشاعراً، كنا معجبين بهجومه على التقليد والمقلدين. ولا شك أنني تأثرتُ به من بعض الجوانب، غير أن محمد مندور نبهني، في نهاية

المرحلة الجامعية وأنا أنجز بحث التخرج، إلى بعض جوانب السجال والعنف غير المبرر في كتاباته، فحاولتُ تلافيتها.

في الوقت الذي كان الأستاذ محمد الكتاني، متعه الله بالصحة، يقدمُ مقترحاتِ "المفكرين الإسلاميين" المحدثين، ويُؤوّه بالوسطية الإسلامية، كان المرحوم الطاهر واعزيز يقدم تصور المادية الجدلية للتطور البشري، من العصور البدائية، إلى ما بعد العصر الحديث، أي من عصر الرق والإقطاع إلى عصر الرأسمالية والإمبريالية، إلى سدرة المنتهى، أي المجتمع الشيوعي الذي تنتفي فيه كل الإكراهات الطبيعية والصراعات البشرية. وعند هذه السدرة المرجوة يتحول التصور الماركسي إلى تصور شبيه بالتصور الديني، أما اختلافهما الأساسي فيتعلق بما وقع في الماضي: من أين جئنا؟ وقد تكامل عمل الطاهر واعزيز مع عمل أستاذ آخر، فرنسي مغربي، من أبناء مكناس، غابَ عني اسمه، قدم لنا نظرية اللاشعور من خلال تطبيقاتها، من خلال نصوص فرويد مباشرة. وقد ملأت النظريتان حيزا مهما من هيكل معرفتي بالإنسان والمجتمع.

كان هذان الأستاذان عُملةً نادرة من الناحية البيداغوجية من بين كل ما كان متوفرا من أساتذة الفلسفة، يعرفان ما يقولانه، ويقدمانه بطريقة بيداغوجية بعيدة عن الهجنة اللغوية التي كان أكثر المشتغلين بالفلسفة يتخبطون فيها، حيث لا يعدو عملهم ترجمةً حرفيةً ركيكة لأفكار جديدة لم يهضموها بعدُ.

المنارة

أما المنارة العالية التي استرشدتُ بنورها في المسار الأدبي البلاغي الذي سِرتُ فيه فهي بدون منازع العلامة أمجد الطرابلسي. لقد فتحَ لمن شاء أن ينتفع من الطلبة نافذتين، إحداهما على المدارس الأدبية الغربية، والثانية على النقد الأدبي عند العرب. الأستاذ الذي يُعطيك المختصر المفيد. سألتُه

مرةً عن أي المراجع الحديثة أنسبُ لدخول حاضرة النقد القديم، فاقترح عليّ البداية بالنقد المنهجي عند العرب لمحمد مندور، على شرط عرضيٍّ كلِّ ما يقوله على المصادر التي يُحيل عليها ذهاباً وإياباً.

كانت هذه الإشارة بداية رحلتي مع مندور، لا أقرأ له كتاباً إلا أحالني على كتاب آخر حتى رسمَ خريطةً في ذهني للنقد القديم والحديث، نقد الشعر ونقد المسرح. ولذلك لم أتعَب في الحصول على موضوع لبحث التخرج. لقد بدا لي أن أحسن ما أقومُ به هو تتبُّع مراحل تطوُّر رؤيته المنهجية، فكان العنوان:

مندور من التأثرية إلى الواقعية الاشتراكية.

أشفقَ عليّ الأستاذ أمجد من شَساعة الموضوع وضيقِ الحيز الزمني، واقترحَ الاختصار على دراسةٍ مركَّزة لكتابٍ واحدٍ من كتب مندور: "الميزان الجديد" تحديداً، ولكن بريقَ العنوان حجبَ عني رؤيةَ ما كان هو يراه. فسرْتُ في الطريق الصعب، وانشغلتُ بصياغته طوالَ السنة.

مرة وهو داخل للقاءة لمح في يدي كتابَ المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا مفتوحاً على الرومانسية، فقال وهو متمادٍ في السَّير: "ابدأ بكتاب ماهر حسن عن الرومانسية". فكان أفيْدَ في ذلك المستوى، وأنسبَ للغرض الذي توخَّيته.

... تحوَّلَ أمجد الطرابلسي، في دقته، واختياره لألفاظه، وطريقة عرضه إلى تحدِّ لي مدرسا ومؤلفاً؛ أحاولُ الاقترابَ منه في الفهم والإفهام، والاختصار على المفيد من الكلام، ودخول الموضوع بدون مقدمات غير مفيدة.

سأله مرة بعضُ الزملاء – وكنا نعاني الأمرين مع بعض المواد الجديدة مثل الإستيتيقا – عن سببِ غُموض ما يُقدِّمه بعض الأساتذة، فأجاب بأن المادة تتضح وتغمُض عند التوصيل بنسبة وضوحها وغموضها في ذهن من يحاول تبليغها.

عندما أنجزتُ شهادة الدكتوراه تحت إشراف الأستاذ محمد مفتاح، أواخر الثمانينيات، أصررتُ على أن يكون الأستاذ أمجد ضمنَ اللجنة المناقشة. ولأنه كان مشغولاً ببحوث طلبته التي يَفليها فلياً قبلتُ أن انتظرَ سنةً كاملة حتى تفرَّغ لقراءة العمل. وقد سعدتُ بمناقشته التي حلَّاهُ بعبارات لا تُنسى، من قبيل قوله: "إذا كانت هذه هي النبوية فمرحبا بها"، ومن قبيل تشبيهه بعض الهفوات اللغوية، أو غيرها مما شاب العمل، بالنمش الذي يوجد في وجه الحساء فيزيدها بهاء وإثارة، وقد سألتني مازحاً عما إذا كنتُ تعمَّدتُ وضع ذلك النمش من أجل دفع العين عنها. رحمه الله.

ومن الأساتذة الذين كان لهم حضور وصيت في كلية الآداب بفاس الأستاذ صالح الأشتري، وهو الآخر سوري. كنا معجبين بالمحاضرات المطبوعة التي عالج فيها قضايا أدبية معالجة موضوعاتية نفسية، مثل محاضراته الشهيرة عن المتنبي بعنوان: تضخم الأنا في شعر المتنبي. وأخرى عن بشار: بشار برزخ بين القديم والحديث، وثالثة عن أبي نواس... الخ. لقد حَبَّبَ إلينا الأدب العباسي، وعرفنا بأهم مصادره ومراجعته، فرجعنا إليها مباشرة. وبذلك فاق من قبله وأتعب من جاء بعده. عندما تصدر جعفر الكتاني لسد الفراغ متحدثاً عن أبي نواس تذكرنا قولَ أبي فراس الحمداني:

سيذكرني قومي إذا جدَّ جدُّهم، وفي الليلة الظلماء يُفتقدُ البدرُ

هذه هي اللحظات الأكثر إشراقاً من أربع سنوات قضيناها على كراسي مدرجات كلية الآداب بفاس، هذه هي الأسماء التي تُحيل على شيء ملموس بقي في ذهني، والباقي أشبه بمسرح الظل، أو بالكوابيس.

انتهت سنوات كلية الآداب بفاس بالحصول على الإجازة في الأدب
العربي، وعلى الكفاءة التربوية في التعليم الثانوي.
وعلى سؤاليين: أين يسير المغرب؟ أين توجد الجماهير؟

الفصل الثاني:

الطريق إلى السجن المدني

حالة استنفار 1972 - 1975

يوم أغبر

طُوبِت صفحة الحياة الطلابية بتعييني في ثانوية الكندي بالفقيه بن صالح أستاذاً للغة العربية في السلك الثاني الثانوي.

لم أعد أتذكر اليوم لون أو شكل تلك الحافلة التي قذفت بي ظهيرة يوم من العشر الأوائل من شتبر 1972 بالطريق الرئيسي الذي يخترق قرية الفقيه بن صالح. تابعت رحلتها في الحين نحو الجنوب، نحو سوق السبت وجبال الأطلس المتوسط. ولكني مازلتُ أشاهد الزوبعة الغبراء التي ارتفعت وراءها حتى اختفت عن الأنظار. كان ذلك اليوم أغبر متوهجا. بقيتُ جامدا أراقب مسارها. وعندما انكشف الغبار التقفتُ حولي استتطق الواجهات والناس، فلم أجد غير رمضان كريم يطبعُ واجهات المتاجر والبيوت، ويكشف نظرات وجوه تائهة:

الأبواب مغلقة، والوجوه كالحة. لا شيء غير عرباتٍ بخيول مرهقة تجري أو تترجح هنا أو هناك كبقايا جيشٍ منهزمٍ هاربٍ من ساحة المعركة. رأيتُ كل شيء ولم أر ما كان يشغل بالي، وهو مكتوب على الجدار فوق رأسي. كنتُ مشدوداً إلى الأرض، إلى النقطة التي تركتني فيها الحافلة، إلى

كُومَة أمتعتي: سريّر ودراجة نارية، فلونديا حمراء، ومجموعة من العُلب الثقيلة الحاملة لحصيلة سنوات الطلّب من الكتب والدفاتر، وأمتعة أخرى مما كان يحتاجه الساكنُ خارج الحي الجامعي. لم أفرط في شيء غير ذلك المذيع الخشبي الضخم الذي كان يشحنني بنشرات أخبار صوت العرب والـ B B C.

- هنا الفقيه بن صالح.

فجأة انشقت الأرض وظهرَ شخصٌ يُشبهني قليلاً، شخص مختلفٌ عن الباعة والحمالين، كان يتأبطُ محفظةً ويحثُ الخطى نحوَ وجهته. يُشبه أن يكون معلماً عائداً من مدرسته. سألته عن ثانوية الكندي كمدخل للتعريف بصفتي، وأني قادم من فاس، غريبٌ عن المنطقة، ثم استطردتُ للمهم: "ما كايّن شي أوطيل هنا؟"

رفع رأسه بشيء من الاستغراب، رفعتُ رأسي بنفس الوتيرة، قرأتُ على الحائط:

"أطيل بريميل".

أنا الآن أمام باب أطيل بريميل الذي كان من بين مهامه استقبالُ العابرين، مقهى فوقه عدة غرف. لقد أخطأُ إذن ذلك الزميل البيضاوي الذي قال لي عندما تسلمتُ التعيين، ونحن بفاس: "الفقيه بن صالح؟ أه.. يا لطيف! لا شيء غيرُ الشيخ والريح، لن تجد حتى مكاناً للمبيت". ها أنا أمام الأطيل مع أول خطوة.

لم يكن الفقيه بن صالح من اختياري. لم يخرج اختياري، وأنا أُعْبَى ملف "رغبات التعيين"، عن الدار البيضاء والرباط وفاس. كان هاجسُ متابعة الدراسات العليا يسكنني. أما الفقيه بن صالح فأسمعُ به آخرَ الأسبوع، في التعاليق الرياضية، حين كان لإتحاد الفقيه بن صالح لكرة القدم شأنٌ في القسم الوطني الثاني.

رغم أن محيط الفندق كان مُتجهماً فإنني لم أتشأءم. لم تُحلني كلمة "بريميل" وقتها على صغير البراميل، بل على ترجمة الكلمة الفرنسية première، أي الدرجة الأولى من القطار، كما أُلِفْتُ سماعها بهذه الصيغة من بعض الأطفال والعوام في مدينة المحمدية. صحيح أن أطيل بريميل لم يكن مُصنَّفاً لا فوق الصفر ولا تحته، ولكنه، في موقعه ذاك، لا يقل أهمية عن فندق خمسة نجوم في الدار البيضاء مثلاً. فالأشياء - كما سأقرأ في "رأس المال" - لا تأخذ قيمتها من جوهرها فحسب، بل من ندرتها والوظيفة التي تؤديها في سياق معين. المهم أني وجدتُ مكاناً أُرْكُنُ فيه تعبى وأمتعتي الثقيلة ودراجتي النارية، وأطفئُ عطشي القاتل بعيداً عن أعين الفضوليين.

وضعتُ أمتعتي في عُرفة تطلُّ على الشارع، وهبطتُ على السرير بكل ثقلي، فارتجَّ وتخلخلَ حتى خِلْتُهُ إِنْبَعَجَ. وعندما عاودتُ الوقوفَ أحسستُ بالمكان يدور من حولي نتيجة جوعٍ عصرَ معدتي طوالَ الرحلة من فاس إلى بني ملال قبلَ أن تتبَّج الأعصاب. عرفتُ وقتها كيف يمكن أن يكون جوعُ صائمٍ ماركسي لم يتسَخَّرَ، ولم يَحْتَسِبَ أجراً عند الله. تذكرتُ ثلاثَ رمانات كانت ضمن الأمتعة. هدا أَلَمَ الجوع قليلاً فبدأتُ أتبين الأوساخ وحال التجهيزات المتلاشية، واحتمالَ أن تكون عُشاً لفرقِ المداومة الليلة من مخلوقات الله المؤذية. وتذكرتُ محمد بن إبراهيم المراكشي وقصيدته في المطعم البلدي بطنجة، وتذكرتُ على الخصوص قولَ الناصري في رحلته:

تطاوَلَ بالفُسطاطِ ليلي، ولم أكنُ ، بأَرْضِ الغَضا ليلي عَلَيَّ يَطوُلُ
ألا لَيْتَ شِعْري هل أَبَيْتَنَ لَيْلَةً وليسَ لبُرْغوْثٍ إِلَيَّ سَبِيلُ
ورغم التعب قضيتُ ليلةً بيضاء تحتَ مصباحٍ متوهجٍ علَّه يَرُدُّ عني
هجمات البق والبراغيث.

في اليوم التالي بادرت إلى اكتراء الطابق الأرضي لمنزل غير بعيد عن

الفندق، اكتريته بمائة درهم. لم يكن قبواً، ولكنه كان ينغرز في الأرض درجتين. وبعد أيام التقيتُ الشاعرَ المرحوم عبد الله راجع بالثانوية قادما بدوره من فاس، وكان يبحثُ عن ملجأ يؤويه، فاصطحبته للسكن معي. في الطريق أخبرني أنه قضى ليلته بالفندق. نظرتُ إليه باستغراب تشوبه الغيرة، هل أخطأتُ المكان المناسب؟

- بالفندق، أي فندق؟

ضحك حتى انكشفت ثناياه المسووسة:

- أطيل برميل، وما أدراك ما أطيل برميل!

بعد أيام قليلة التحقَ بنا جمال السرايري وشبان آخرون من فاس والرباط، فكثُر الداخل والخارج في ذلك البيت، فغادرته إلى بيت آخر قرب ثانوية الكندي، في حي لايبط، ثم غادره الآخرون على التوالي كلٌّ إلى وجهته. أتحمل كلُّ شيء إلا الزحام في المكان المعد للخلوة والراحة ثم القراءة والكتابة.

ليس أطيل برميل هو المعلمة الوحيدة التي تنتصب كعلامة استفهام في (قرية) الفقيه بن صالح، التي كانت تُدعى مركزاً فلاحياً مستقلاً، بل هناك الكنيسة المهجورة والسينما التي ستهجر لاحقاً. والحانة التي ستمسخ لتصبح مستودعاً تُوزع منه الخمر على "المركز" وما حوله من القرى.

مفارقةٌ عجيبة! في الوقت الذي تترقى فيه "مدرسة شبشب الابتدائية"، كما كانوا يسمونها، لتصبح إعدادية ثم ثانوية (ثانوية الكندي). يتقهقر الأطيل والسينما وتغلق الكنيسة، ثم تتراجع الخمارة تدريجياً لصالح مستودع الخمر والكرابة. الكرابة أكثر قرباً من المواطنين؛ يلبون مطالب الطبقات الشعبية التي لا تتسع لها الحانة.

حاشية: أُستعير اسمُ الكراب، وهو موزع الماء في الأسواق بِقُرْبته، لموزع الخمر في الأحياء الشعبية، لأن كلَّ واحد منهما يسلك سياسة

القرب، ويروي عطش المواطنين، الشيء الذي فشلت الدولة في تحقيقه، الطبيعة لا تقبل الفراغ.

المغرب يتحرك من الحانة إلى مستودع الخمر و"الكرابة" مداريا البلية بالستر؛ يتحول من السفور إلى الحجاب والمحتوى واحد، بل أشنع. كانت تلك القرية تنهياً في عهد الاستعمار- بالسينما والأطيل وغيرهما - لتصبح مدينةً عصرية، فأدركها الاستقلال فعدت إلى الوراء عقوداً! وهذا ليس شأنها وحدها، فمن المشاريع الوطنية الكبيرة التي أدركها الاستقلال فصارت خيراً بعد عين نفق نيشكا الذي كان من المفروض أن يربط شمال المغرب بجنوبه، إنه "طريق وحدة" آخر، ولكن أدركه الاستقلال فصار في خبر كان.

البحث عن الجماهير!

لم يمض غير أيام قليلة حتى كان عدد الأساتذة من الشبان الجدد الواردين على ثانوية الكندي من المدرسة العليا للأساتذة يتجاوز عدد أصابع اليدين. شباب قلق متحمس. بدأ ينفث روحه، من خلال الاجتماعات والمناقشات والتحريض، في بيئة فلاحية قَدَرِيَّة راکدة. كانت الثانوية تعتمد في تطهيرها، قبل مجيئنا، على المعلمين المنتدبين من التعليم الابتدائي. منهم مجتهدون فضلاء، ولبعضهم انشغالات أخرى محلية، كانت موضوع تنذر التلاميذ. فقد زعموا، مثلاً، أن الأستاذ "ف.ر" كان يسأل التلميذ عن عمل أبيه ووضعه الاجتماعي، ثم ينقط حسب إرادة الله: من أعطاه الله أعطاه، ومن حرمه الله تركه حيث هو، فالنقط مثل الأرزاق مقسمة في الأزل!

أما نحن فعلى النقيض من ذلك: جئنا من الجامعة مشحونين ببرنامج المطالبة والاحتجاج. دار بينا حديث حول مجموعة من الإصلاحات والترتيبات الضرورية لحسن سير العملية التربوية. طلبنا من المدير عقد اجتماع لمناقشة الحاجيات. وعدنا خيراً، ثم عاد بعد يوم أو يومين يطلب جدول الأعمال، كان ذلك بإيعاز من الحارس العام محمد البحيري الذي

صار المحاورَ الفعليّ، ثم صار فيما بعد المدير الحقيقي. استوجبَ هذا الطلب عقدَ اجتماع تنسيقي بيننا حتى نكون على كلمة واحدة. انعقد هذا الاجتماع التمهيدي بمنزلي بحي لا بيطا؛ وقفتِ المجموعةُ حولَ مائدة كبيرة مستطيلة بدون كراسٍ؛ اجتماعٌ واقف.

كان أولَ ما طالبنا به إغناء مكتبة الثانوية، وإصلاح المراحيض التي كانت مُشرعةً على الساحة بنصف أبواب فاضحة، كما طالبنا بإرجاع التجهيزات التي استولى عليها بعض الموظفين، موظفان بالتحديد، ستعزز صفوفهما مستقبلا بالمدير الجديد الذي سيحل محل شبيشب بعد تقاعده..

رغم أن شبيشب، رحمه الله، كان ينتمي إلى جيل آخر فإنه لم يجد صعوبةً في التلاؤم مع هذا الجيل الجديد التأثر الكثير المطالب. كلُّ ما فعل هو أنه ترك مهمةَ المُفاوضات والمواجهات للحارس العام الذي كان قريباً منا في بعض الجوانب، خاصة في الشباب والإقبال على الحياة، ما يسميه المغاربة "النشاط"، وكان بعيداً عنا من حيث داء الوظيفة الذي لم يُبَلَّ به بعد. كان المدير منشغلاً بكراء مجموعة من المنازل، بناها بالقرب من الثانوية ووضعها رهن إشارة الأساتذة الجدد بأثمنة لا تتنافس. مع ورقة "استعمال الزمان" يُقترح مفتاحُ شُقة. سكنَ في تلك الدور الصديقان محمد الهايل وعبد الله راجع وآخرون، فصرنا نسمي ذلك الزقاق: "حي شبيشب".

أذكر أننا عندما خرجنا من الاجتماع الأول الذي عقدناه داخل المؤسسة، بُعيد المغرب، أوقفني المدير ومعي مجموعة من الزملاء، قائلاً بصوته الفخم البطيء: "تعرف أسّي العمري، هذا الاجتماع غير قانوني، لو سقط علينا هذا السقف الوزارة لن تعترف بنا!". كان الرجل أباً أكثر منه مديراً.

كنا في حالة توتر وانتشاء، لو لم يكن هناك مشكل لصنعناه. لقد لبي الرجل كل مطالبنا، ونزع الفتيلَ بإقحامنا في الموضوع، فأصبحنا شركاء في تسيير المؤسسة. بعثنا لجنة إلى الدار البيضاء لشراء الكتب، وبدأنا في

أنشطة داخل المؤسسة وخارجها. أصبحنا من أهل الدار بسهولة. عرفنا كل أسرار اللعبة.

مع الأسف "عُمرُ الزين قصير"، كما يقال. في هذا الظرف تقاعد المدير، وجاء مدير جديد من طينة أخرى؛ يحمل كل عَقْد كلمة بروفيزور proviseur، أي مدير الثانوية، حسب التقليد الفرنسي. سعى بعناد وإصرار إلى إبعادنا عن شؤون المؤسسة. صار يمارس الكثير من السلوكات التي كنا نراها استقزائية، خاصة ونحن نسمعُ عن علاقات له مع بعض رجال السلطة، لا شك أنه كان يستقوي بهم، و يعتبرهم حزامَ نجاة حين يَجِدُ الجد. ولا يبعد أن يكون تعيينه هناك مدبراً لكبح الحركة الزائدة التي عرفتھا المؤسسة بعد وصول هذه الأفواج من الشباب المتحفز الذي بعث حركة غير عادية في منطقة يبدو راكدةً.

كنا مادة أولية، خاماً، بل على قدر من السذاجة؛ نعتقد أن الخلاف بيننا وبين الإدارة مسألةُ اجتهادٍ، يكفي فيها النقاشُ وبيانُ وجهِ المصلحة التي مدارها التلاميذ لا غيرهم. لذلك لم يكن بوسعنا فهمُ التعنُّت واللامنطق الذي يتماذى فيه رؤساء المؤسسات التعليمية فيما يشبه عماء البصيرة. ثم اكتشفنا في المراحل اللاحقة، وبعد فوات الأوان، أن رؤساء المؤسسات خاضعون لضغط مزدوج، إن أفلتوا من أحد شقيه لم يُفلتوا من الآخر: هم، من جهة، رهائنُ منافع ذاتية تافهة، خاصةً حين تكون هناك "داخلية" تفوح منها رائحة المطبخ، مثلُ حال ثانوية الكندي، يوثون أن يلْعَقُوا ولو قليلاً من الحليب والهبرة بعيداً عن أنظار الفضوليين من الشبان السذج أمثالنا، وهم، من جهة ثانية، رهائنُ لتوجيهات أمنية مُعادية لأي تنظيم أوتنقيب داخل المؤسسات.

وكثيراً ما ينكشف غطاء الفساد حين يسعى رئيسُ المؤسسة لتبذير تلك الميزانية الفقيرة المرصودة للصيانة وتغذية الداخلين، أو المستخلصة من رسوم التسجيل وما تساهم به جمعية الآباء، في احتفالات عيد العرش وما

شاكلها، تلميعاً لصورته، وضماناً لبقائه في منصبه، في الوقت الذي تفتقر فيه المؤسسة إلى الماء والمراحيض. يُريد أن يحتفل بعيد العرش أمام ماركسيين لا يؤمنون إلا بالصراع الطبقي، وغير الطبقي أحياناً. إنها لمهمة صعبة، بل مستحيلة.

حين استرجع ذلك الصراع العنيف، وذلك العناد المضاد الذي كنا نواجه به الإدارة، أقول: من حُسن حفظنا نحن الماركسيين، واليساريين عموماً، أمام الضمير والتاريخ، أن خصومنا لم يكونوا مُصلحين، بل كانوا فاسدين مُفسدين، كانوا عصابةً من اللصوص؛ تركوا المغرب وجلده على عظمه. فلو كانت فيهم ذرة من المواطنة والسعي إلى الخير للزم أن نُعاقب أنفسنا على تعكير صفو حياتهم. أما وقد اختاروا حياة الطفيليات فلْيُذهَبوا حت تذهب الطفيليات. ولو أن المغرب قرّن الإنصاف والمصالحة بالضرب على أيدي من نهبوه، على مدى عقود، لما ظهر الجيل الجديد من اللصوص العصريين الذين ما رُقّعوا قربةً إلا أكلوها.

ومن هذه البداية - داخل الثانوية - تكونت مجموعة فاعلة خارجها تجر وراءها القاطرة، امتد نشاط هذه المجموعة خارج ثانوية الكندي، فساهمت في أنشطة ثقافية واجتماعية متعددة.

لم يكن التقاء الأغلبية الواردة من الجامعة حول أنشطة من هذا القبيل غريباً، فالكل كان يسير بقوة دفع لا رادّ لها، يوم كان الاتحاد الوطني لطلبة المغرب مدرسةً لصناعة المناضلين. بل ليس مُستغرباً أن يتجاوب الكثير من رجال التعليم المنتدبين، ومنهم من تجاوز مرحلة الشباب، مع هذه الحركة. إنها ظروف الانقلابات والانتفاضات و"مغرب الشعوب" الذي حل محل "صوت العرب"، ظروف أحداث مولاي بوعزة، ظروف البحث عن مخرج من وضعية لا تطاق. باختصار ظروف ما بعد الانقلابيين. كان الكل مقتنعا بفساد الأوضاع وحتمية تغييرها، ولا أحد يريد أن يتأخر. كانت نغمة الغيوان وغيرهم

من الفرق الموسيقية ذات الارتباط الشعبي دخانا يعلن عن ذلك الحريق.
بالنسبة لي كانت الأمور واضحة. كنتُ أعملُ في إطارِ توصية صدرت
عن اجتماعٍ مُصَغَّرٍ انعقدَ بإحدى غرف الحي الجامعي في نهاية السنة
الجامعية 72-1973. حضره مجموعةٌ من طلبة مراكش والجنوب، كان من
أبرز الحاضرين فيه عبد الصمد بلكبير، وكان أبرز الزعماء اليساريين في
فاس. وكان الغرضُ منه تحديدَ طرقٍ وأساليب تصريفِ النضال السياسي
العلني وأساليبه بعدَ الخروج من صفوف الطلبة إلى صفوف الموظفين
والجماهير. كان السؤالُ يدور بالتحديد حول الانتماء النقابي، ويتعلق على
العموم بالعمل الجماعي. ولم يكن لي شأنٌ بغيرِ هذا العمل العلني الشرعي
في ذلك الوقت.

كان السؤال هو: هل نلتحق بالنقابة الوطنية للتعليم التي ستشكّل
مستقبلاً النواة الصلبة للكنفدرالية الديمقراطية للشغل، عند تأسيسها سنة
1978، أم نلتحق بالجامعة الوطنية للتعليم التابعة للاتحاد المغربي للشغل؟
هذه هي حدود الاختيار الذي كُنْتُ معنياً به وطرفاً فيه، أما ما كان
يتمخض وقتها من تنظيمات سرية فقد كنت على هامشه. ولذلك فعندما
وجدتُ منشورَ (أو مجلة) "إلى الإمام" فوق فراش أحد الزملاء بالحي
الجامعي بفاس - ولعله ترك ذلك المنشور قصداً في متناولي ليرصد رد
فعلي - قرأته بكسر الهمزة "إلى الإمام"، ورميتُ به بعيداً، دون أن أتساءل:
إلى أي إمام يتوجه؟

انتهى النقاشُ إلى ضرورة "الحضور حيث توجد الجماهير"، مع ترجيح
كفة الجمعيات التي لا يطغى عليها الانتماء. ومن ثم كانت الجامعة
الوطنية للتعليم مقدّمةً على النقابة الوطنية للتعليم المحسوبة على الاتحاد
الوطني للقوات الشعبية، حين تتساوى الفرص.
عملتُ مع أحد الزملاء، الأصدقاء فيما بعد، القادمين من الرباط -

محمد الطويل - على نشر هذه القناعة بين الأساتذة، فبدأنا اتصالات واجتماعات تمهيدية مع مسؤولي الاتحاد المغربي للشغل، انتهت إلى الفشل بسبب ارتيابهم في العناصر الماركسية الجديدة الواردة من الجامعة. وكانوا يفضلون الاكتفاء باعتماد مندوب، أو مراسل ينوب عن رجال التعليم، ويُعفيهم من وَجَع الرأس الذي سيترتب عن "مكتبٍ يَقْرُب نَارَ رجال التعليم الملتهبة من حطب الطبقة العاملة اليابس"، كما قال لي أحدهم. وكان ذلك المندوب موجودا فعلا.

حين وصلنا إلى الباب المسدود في هذا المسعى اكتشفنا أن كاتب فرع الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية يَعْمَلُ معنا في ثانوية الكندي حارساً عاماً. كان الأستاذ مُسَلِّمٍ رجلاً نزيهاً ومناضلاً صليبا محترما من الجميع، قليل الكلام. ولم يكن يُخفي إعجابه بحماسة الشباب الوارد على المؤسسة. لا شك أنه كان يتتبع حركتنا التي لم تكن سِرّاً، ويلاحظ الصعوبات التي تعترضنا. ولأنه كان يعلم أن باب الاتحاد المغربي للشغل مسدود فقد تركنا نقطع الشك باليقين قبل أن يقترح علينا إنشاء فرع للنقابة الوطنية للتعليم. فهمنا من الحوار معه أن المنطقة، وإن كانت تبدو جرداء مقفرة، فإنها لم تكن "أرضا خلاء بدون مالك"، يُمكن الاستيلاء عليها بسهولة.

اغْتَمْنَا الفرصة بدون تردد ودعونا إلى تأسيس مكتب نقابي. تلافيتُ أنا صاحبي البروزَ في المهام التنظيمية: عضوية المكاتب. لا أتذكر هل كانت هذه توصيةً تنظيميةً أم مجردَ قناعة شخصية التزمْتُ بها ما استطعت: العمل من الصفوف الخلفية. فنحن، فيما نتوهم، مرصودون للمهام الصعبة التي لم يَحِنْ وقتها بعد! كان الاجتماع التأسيسي، بمقر فرع الحزب مصحوبا بمحاولة استقزاز بوليسي. وهو مفتوح على الشارع الرئيسي، في نفس الصف الذي توجد به السينما والمستودع وأطيل بريميل. حضرتُ سيارة الشرطة إلى عين المكان. وضعوا شرطيا بباب المكتب، في

حين ظلت السيارة مرابطةً بالقرب منه. مع ما صاحب ذلك من ثثرة في جهاز اللاسلكي. تَعَمَدَ بعضُنا الوقوفَ بالباب بجانب الشرطي تشجيعاً للآخرين، لبعض المحليين الذي لم يألُفوا بعدُ هذا النوعَ الجديدَ من تحدي السلطة والاحتكاك بها القادم من الأحياء الجامعية. وقد ظلَّ البعض منهم يحوم حول المكان دون أن يقع فيه.

حين شاركتُ في أول مظاهرة بالحي الجامعي بفاس أواخر 1968 وسمعتُ الطلبة يرددون شعار: "أفقر أسَّان، الحسن أسَّان"، أُصِبتُ بالرعب، خاصة حين اقتلع البوليس باب الحي المهترئ الذي كان الطلبة يتظاهرون وراءه وكأنهم وراء خط بارليف.

ومع ذلك تم الاجتماع بنجاح، وتكوَّن أول مكتب نقابي بالفقيه بن صالح، وبدأت عناصر جديدة تأخذ الخبرة والثقة الضروريتين لما يبدو في الأفق من معارك. خاصة من حضر منهم دورات تكوينية كان يُشرف عليها المرحوم عمر بنجلون بالدار البيضاء. فكانت تلك مناسبة لبعضهم للانتماء إلى الاتحاد الاشتراكي، وبقي البعض الآخر في مكانه إلى أن جاءت إضرابات 1979 فجرت الجميع، كلاً حيث وجدته، إلى الطرد والسجون.

انتشار

انعكست تلك الأجواء على أدائنا في أقسام الدراسة حيث غلبَ عليه التحميس والتحفيز، فتكونت طليعة من التلاميذ بطموح كبير فاتحة نوافذ نحو الآفاق الواسعة.

وفي هذا الجو تعددت المبادرات فأُسِّس فرعٌ للجمعية المغربية لتربية الشبيبة، لاميج. قام بأنشطة هامة مفيدة؛ من تنظيم رحلات للأطفال والتلاميذ إلى تنظيم مخيمات بالتعاون مع المركز الفلاحي الجهوي . كما تأسس فرعٌ للنادي السينمائي المغربي عُرضت فيه سلسلة من الأفلام الجيدة. ونُظِّمت دروسٌ للمعلمين الراغبين في تهيئ الباكوريا، فكانت سلماً

للترقي بالنسبة للبعض، ومناسبة للانفتاح بالنسبة للباقي. وقد ساهمت فيها بتدريس اللغة العربية فاككتبت الكثير من الصداقات الحقيقية المخلصة. لقد أصبحت دار الشباب تغلي بالأنشطة الثقافية والرياضية. وقد انتسبت إلى نادي الكارتي الذي كان يشرف عليه واحد من أقدم المدربين المغاربة، الهاني، وكان قد فتح فروعاً في أغلب مدن الإقليم. حتى الأنشطة التي لم نبادر إليها هيأنا ظروفها ولم ندعها تزاحم توجهنا أو تبتعد عن مراقبتنا. من طرائف اللعبة وأسرارها أنه عندما تكونت جمعية للسكنى ترأسها زميلنا محمد الفكك، ولم تكن علاقة الصداقة قد توطدت به بعد، حاول الابتعاد عنا، بل أخذ عليه البعض التعامل مع الجهات الرسمية، وهو أمر لا مناص منه في مثل هذه الجمعيات. فحركنا عليه المكتب المسير للجمعية من خلال نائبه، وضيّقنا عليه الخناق حتى كتب استقالته بيده في مكتب رئيس البريد. ثم حركنا عليه التلاميذ، حتى غير مقرره الدراسي من السانسيمونية المثالية التي كان مغرماً بها إلى دفاتر لينين الماركسية التي كنا نحرص على تبليغها بشتى الصيغ، فاككتشفنا واكتشفناه، وتمتنت الصداقة بيننا شخصياً وعائلياً.

والأستاذ محمد الفكك، أستاذ الفلسفة، مناضل عتيق، هو - لمن لا يعرفه - الطالب نفسه الذي كان الرگراگي، مدير الحي الجامعي بالرباط، غرر سكينا في ظهره غيلة وهو خارج من مكتبه بعد ملاجة كلامية. فظل يعيش بنصف رنته. ولم ينل الرگراگي أي عقاب أو مساعلة، بل كوفئ على ذلك بتعيينه نائباً للتعليم ببني ملال، حيث وجدناه أوائل السبعينيات.

بعد انتقالنا إلى الدار البيضاء انقطعت الصلة بالصدیق الفكك عدة سنوات، إلى أن التقينا صدفة - بعد محنة 1979 - في محطة القطار بالرباط، فاككتشفنا أننا كنا في نفس القطار. كان عائداً من اجتماع تنسيقي في إطار الكونفدرالية، نيابة عن فرع مدينة خريبكة. قضينا ليلة في استرجاع الذكريات.

من الطريف أيضا أنني وصاحبي الطويل كنا نعتبرُ السعيَ إلى الحصول على مسكن خاصٍّ بوسائلنا الفردية مجردَ تطلُّعٍ برجوازي زائف. وربما كنا أميلُ إلى الشعار الذي رفعه القذافي وقتها: الدارُ لمن يسكنها. ولذلك لم أهتم بالتسجيل في لائحة المطالبين بالسكن، وعندما انتقلتُ إلى الدار البيضاء زارني مجموعة من الأصدقاء من الأساتذة ليخبروني بأنهم سجلوا اسمي ضمن المستفيدين، ومنحوني قطعة مختارة، وما علي إلا أن أبادر بتسديد ثمنها الذي لم يكن يتجاوز خمسة آلاف درهم، ويمكنني أن أبيعها وأريح إن لم أرغب في الاحتفاظ بها. اعتذرتُ عن المشاركة، وتركتُ سكناي وسكّني معلقين بالثورة القادمة التي كانت تبدو حتمية بكل التحاليل لا نعيد عنها. بل إن صاحبي كان يعتبر اهتمامي بالشواهد الجامعية العليا من جنس تلك التطلعات والحلول الفردية البرجوازية العقيمة. وبعد سنوات شمّر، هو الآخر، عن ساعد الجد والتحق بالركب.

من العقوبات التي يمكن أن يتعرض لها مناضل ماركسي مشتعلٌ، كما كان حالنا، أن يُطلبَ منه تدريسُ مادتي التربية الوطنية والتربية الإسلامية حسب المقرر والرؤية التي قُدِّمَ بها. تربيّتان محسوبيتان على المخزن والأصولية ومشبعتان بأوهامهما. كانت التربية الوطنية تبدأ بالحديث عن القصور الملكية، وكانت التربية الإسلامية منشغلة بتعداد ريش جبريل: في كل جناح سبعمائة ألف ريشة، وفي كل ريشة سبعمائة ألف ريشة... الخ. لكأن هناك أشخاصاً أذكاء ذكاءً خبيثاً يعتمدون "بِهَذَلَةَ" الوطن والدين، أو أشخاصاً أغبياء كانوا يعتقدون أنهم "يقطرون السم" للجيل الجديد من الأساتذة والتلاميذ الثائرين على الوضع. كانت إذاعة مغرب الشعوب في نفس الوقت تستعرض القصور الملكية باعتبارها مجالا للتبذير على حساب قُوتِ شعبٍ فقير جاهل، في حاجة إلى الخبز والمدرسة والمستشفى مُوصَّلةً عدد تلك القصور إلى اثنين وخمسين قصرا.

لا أذكرُ كم درساَ درّستُ من المادتين. أذكرُ جيداً أنني كنتُ أخصّص أغلب حصصِ مادة التربية لِإنضاج مادة الإنشاء، أو استدراك تأخّر في مادة أخرى. كما أذكرُ أنني كنتُ أجدُ صعوبةً في ملء دفترِ النصوص الذي يعتبرُ يوميةً لإظهار المنجز. لقد تدرّبتُ في هذا الدفتر على الكذب مسوغاً ذلك برد الكيد بالكيد، "يكيدون كيدا وأكيد كيدا". مرة حاولتُ أن أعرفَ كيف يعالجُ زملائي الشباب تلك المادة فطلبتُ من أحدهم أن يُمدني بتحضيره للدرس لأنني مشغول، وكان شغوفاً بالتحضير والتسطير، فوجدته وقد نقلَ فقرات من كتاب التربية ولونها بشتى الألوان، فنفضتُ يدي من ترّيبتين تَسْتَهْدِفان تخريبَ عقول الأجيال الصاعدة و"تعييدها".

الانتقام

كانت حركتنا في ثانوية الكندي وما جاورها حركة جماعية، ثم ظهر أن الإدارة كانت ترى أنني أمثلُ رأسَ الفتنة الذي يكفي الضرب عليه، أو قطعه، ليُعمَ السلام. استجابت الوزارة لما وصلها من وشايات المدير فبعثت المفتش المكلف بمنطقة بني ملال لمعاينة ما يجري. جاء ش. ت من الدار البيضاء ذات صباح، دون سابق إعلام.

حضر الدرس الأول من الحصّة الصباحية ثم طلبَ من الحارس العام التكلّف بالتلاميذ، ودعاني إلى جولة في الساحة. عبّرنا الساحة جيئةً وذهاباً عدة مرات. وتلطّيفا للجو سألني عن لهجتي المراكشية المبحوحة التي تذكّره بلهجة أحد أحواله، ثم دخل الموضوع. هو مكلف من طرف هيئة التفتيش المركزية بالإتيان بخبري. اقترحَ علي جلسةً مُكاشفةً وحوار مع المدير، فرحبتُ بذلك،

"هذا كل ما كنا نطالب به".

كان يعتقِدُ أن الأمرَ يتعلّقُ بسوء تفاهم بسيط يمكن أن يزول بطرح نقط الخلاف على الطاولة. والحال أن من في كرشه عجيبة لا يمكن أن يدخل

مكاشفة قد تُضيف خلاً إلى خميرته، فينتفخ وينفجر. لم نتبادل أكثر من جملتين حتى ثارت ثائرة جنابه، ورفض أن يُحاكم من طرف أحد "أعوانه"، حسب عبارته.

حاشية مفيدة: كان مساعدُ المقتصد شاباً في مقتبل العمر مصاباً بدوره بلوثة الماركسية. وجدته، في أول لقاء به في ساحة الثانوية بشعره الطويل، يقرأ مجلة "لاماليف". دخلَ بدون تردد أولَ مكتب نقابي أنشأناه بالفقيه بن صالح، وعندما طاف علينا طائف من وزارة الداخلية سنة 1979 كان إدريس بوعسرية من أوائل المطرودين.. كان هذا الشاب الفتى مكلفاً بالداخلية، ومقيماً بها أربعاً وعشرين ساعة على مثلها، يُحصي كلَّ شاردةٍ وواردة: يعرفُ من أخذَ الثلاجة، ومن أخذَ منيظوفونين، ومن حجز عاملاً من عمال الثانوية تسعة أشهرٍ في بيته بمجرد تعيينه: يغسل الصوف ويحمل الخبز إلى الفرن. ويعرف من هَبَرَ هَبْرَةً، ومن أزدردَ كَفْتَةً... الخ. يُمدنا بهذه المعلومات الفضائية الدقيقة التي تَفَجَّأ مُجرميها فيثورون رافضين هذا الأسلوب من التجسس عليهم. انتهى التنوير.

ثار المدير فخرج "الوسيط" ساخطا من سلوكه مقتنعا بوجهة نظرنا، كما اقتنع قبلُ بجدية أعمالنا بمجرد الاستماع إلى التلاميذ، والتأكد من مستواهم، وكان مستوى رفيعاً، كانوا شعلة متوقدة.

دعاني، بصيغةٍ غيرِ مُباشرٍ إلى رفعِ التحدي: "لقد سلكوا الطريق التربوي البيداغوجي لحل مشكل إداري، ونحن سنسد هذا الباب. هل أنت مستعد لإلقاء درس نموذجي يحضره زملاؤك من الأساتذة ويحكمون عليه؟" قلت: نعم، في منتهى الاستعداد. ومن الغد...

قال: ليس غداً، ولكن بعد أسبوعين: يوم 9 مارس 1976 مساءً. حضر أساتذة المنطقة في الموعد المحدد، وألقيتُ أمامهم درساً على طلبة السنة الخامسة ثانوي. حللت فيه معهم نصاً لطفه حسين يتعلق

بالمنهج الاجتماعي في دراسة الأدب. كُلفَ زميلان من أساتذة ثانوية الكندي بكتابة التقرير وإعطاء نقطة تقييمية. أحدهما سيُصبح مديرا للثانوية بعد مغادرتنا لها. كان التلاميذ في منتهى الحيوية والفعالية. فجاء التقرير مليئا بالتتويه، وتجاوزت النقطة المقترحة السقف الذي تسمح به الدرجة التي كنتُ فيها، ولذلك خفضها المفتش إلى أعلى نقطة من السقف المسموح به. وصلَ التقريرُ سُقَطَ في يد الإدارة.

على إثر ذلك استدعاني النائب الإقليمي مع ثلاثة من الزملاء، فيلسوفان ومؤرخ، وبعد نصف يوم من الحوار، كان يتصلُ خلاله بالمدير تلفونيا ويستفسره عن أمور مما نأخذ عليه، اقتنع النائب بما قدمناه من وقائع، فبدأ يحكي لنا، من جهته، عن أمثلة تدل على أن الفساد عم في البر والبحر، تحدث عن محاولات كثيرة لإرشائه شخصيا من طرف المومنين وعن أمور أخرى كثيرة.

خرجتُ من ذلك الاجتماع مقتنعا بان انتقالني من الفقيه بن صالح إلى الرباط أو الدار البيضاء، لم يعد مجرد حلم، بل صار ضرورة مفيدة لكل الأطراف، فقدمت طلبتي وقُبل. انتقلتُ إلى ثانوية مصطفى المعاني بالحي المحمدي لتبدأ معركة جديدة.

من طرائف ذلك اللقاء مع النائب الإقليمي أن المدير كان قد أخبره أننا عقدنا اجتماعا عاما داخل "مؤسسته"! دون أن نُخبره أو نأخذ موافقته. كانت هذه أولَ مؤاخذة وجهها إلينا النائب باعتبار ذلك سلوكا فوضويا له دلالاته. كان يودُ أن يهزنا نفسيا ليتحكم في مسار النقاش. غير أننا فاجأناه بأنه لا يُعقل أن يكونَ المدير غيرَ عالم بالاجتماع، ولا موافقا عليه، ويكون في الوقت نفسه حاضرا فيه، مشاركا في مجرياته:

- كيف؟!

- إسألته، سيادتكم: هل حضر الاجتماع برفقة المقتصد، وشارك فيه، أم لم يحضر؟

ولأن استمرار النقاش معنا يقتضي الحسم في هذه النقطة، إما علينا أو على المدير، فقد رفع سماعة التلفون واستفسر المدير عما ندعيه، فتلثم، دخل في الحثيئات دون أن ينفي الحضور: حضرت... ولكن..، فارتاب النائب في بقية كلامه... لقد كان بين أيدينا - وما يزال - محضر وقَّعه أكثر من سبعين أستاذًا، قالوا فيه ما لم يُقَل في مدير قبله.

حاشية: لقد مضى الآن على تلك الواقعة أكثر من خمسة وثلاثين سنة، ولذلك لا بأس من رفع السرية عن لُغزها. كيف حضر المدير جلسة لم يُعلم بها، ولا وافق عليها هو ومقتصده؟ شيء من نزوات الشباب شارك فيه الشيوخ!

كنا قد جَسَسْنَا نبضَ سعادته بخصوص الاجتماعات النقابية، فعلمنا أنه يرفض مبدئيًا أن يُعقد أي اجتماع، نقابي أو غير نقابي، داخل "مؤسسته" إن لم يقم هو شخصيًا بالدعوة إليه. ولذلك استعنا على قضاء حاجتنا بالكتمان، وباغتناه بدعوة كل العاملين بالمؤسسة إلى جمع عام بقاعة الأساتذة لتدارس الوضعية. حضر الجميع بحماس كبير. وقبل إعطاء الكلمة لأول متدخل ظهر المدير بباب القاعة برفقة المقتصد.

قال محذرًا: هذا الاجتماع غير قانوني، لم أسمح به، ولن أسمح به، تحملوا مسؤوليتكم.

ولكي يُبلِّغ الرسالة إلى الأبعدين في عمق القاعة، وقد تظاهروا بعدم سماع كلامه، خطا خطوة إلى الأمام مقتحمًا العتبة ومعه المقتصد. في الحال رأيتُ الباب يسد وراءهما، ورأيتُ، يا للمفاجأة، شيخا وقورا بطربوشه الأحمر يدفعُ الطاولة نحو الباب محكما إغلاقه، فعلها الحاج التيموري، ذكره الله بخير إن كان ما يزال حيا، لا أنسى تلك الحركة. وبعدها دعونا

سيادته للجلوس حبيبا لتشنيف مسامعه بوجهة نظر الأساتذة، لا عيب في ذلك، فجلس مكرها ومعه المقتصد حتى انتهت الجلسة. سمع من الاتهامات ما لم يجد له جوابا.

أتذكر هذه الواقعة فأسترجع مقطعا غائيا نسائيا سمعته لأول مرة في الفقيه بن صالح: "وَا مَارَيْتَ ظَالِمَ كِي الْمَعْلَم!". وترجمته: "آه، لم أر أدهى من معلم". والظالم هنا: الفاتك الذي لا يؤمن جانبه. ولذلك يقولون ملاطفة لمن يحبون: وَاحًا عَلَيْكَ أ الظالم! وترجمتها: آه منك يا ظالم!

كَبُوءَةٌ أُخْرَى

بعد 10 يوليوز 1971 و 16 يوليوز 1972، تاريخي الانقلابين، صار الطامعون في التغيير، يترقبون ما سيأتي به صيف 1973، شيء أشبه بترقب الشيخ ياسين للقومة التي "كانت ستحدث" سنة 2006 تصديقا لأحلام ورؤى المريدين. وكلما اقترب الصيف زاد الترقب من طرفنا والتوتر من طرف أجهزة النظام.. فالصيف صار ينذر بالسوء في مغرب السبعينيات.

لا بد أن القراءة الموضوعية كانت تضع "الجبهة" الماركسية خارج المعادلة. ليس لأن البوليس كان قد أمسك بأطراف خيوطها، وشرع في التقاط ما تنثر من حباتها، ولكن لأنها كانت نسيجا فوقيا حالما بدون جنور. ونفس الشيء يُقال عن الجيش الذي تلقى ضربتين قاضيتين في ظرف وجيز. بل لقد أبانت التجريتان اللتان قام بهما عن وجود خلل في ذلك الجهاز. لقد استنفذ الواردان على ساحة الصراع (الطلبة والجيش) ذخيرتهما. ولا بد أن تعود الكرة إلى اللاعب الرئيسي، الاتحاد الوطني... ولكن حسب أية إستراتيجية؟ مازالت إذاعة مغرب الشعوب تدعو وتردد:

لا تَقْتَطِعْ ذَنْبَ الْأَفْعَى وَتُرْسِلْهَا إِنَّ كُنْتَ شَهْمًا فَأَتْبِعْ رَأْسَهَا الذَّنْبَا

في هذا السياق استقبلنا أحداث مولاي بوعزة بالأمل والارتياح. كومندوهات

معزولة قادمة من التراب الجزائري. الأخبار شحيحة، والحيرة كبيرة، خرجت السلطة تجر وراءها المواطنين لتمشيط جبال الأطلس، في الوقت الذي كانت الاعتقالات تأتي على الأخضر واليابس في المدن والقرى القريبة من الأحداث والبعيدة عنها. فشلت الحركة مرة أخرى وعمّ القمع، وبدأ اليأس يتسرب للنفوس. يبدو الأمر أشبه بطلقة الشرف. سيقول الفقيه البصري، رحمه الله، وهو أكبر رأس في ذلك الاتجاه أن إطلاق النار كان حدثاً عشوائياً تحت ضغط الظروف، وسيقول الوالي مصطفى السيد، زعيم البوليزاريو لبعض المعارضين: لقد تسرعتم! أما صاحبي فينتزع مني المنيطوفون الصغير ويلصقه بأذنه طوال الليل يستغيث بـ"الصينية". معزولون في الفقيه بن صالح، لا صحافة لا أخبار موثوقة لدى المناضلين.

بقدر الاندفاع يكون الانكسار كما قال القائد العسكري الفيتنامي جياب، وهذا يصدق على الميدان العسكري كما يصدق على مجال التوقعات. أصبح الإحساس بعبثية الوضع المغربي مستولياً على النفوس. في تلك الأجواء، ورغبة في مسح متاعب شهر كامل من التصحيحات والمداولات في أول تجربة تعليمية لنا، خرجت ذات مساءً، بعد العصر، مع الشاعر عبد الله راجع وأحمد ممنون في سيارة الأخير، فياط 128. قصدنا البادية غرب القرية/المدينة في اتجاه بني وكيل. أثار انتباهنا منظر المزالة وهي تتلألأ تحت أشعة الشمس الغاربة بعد أن غسلت رعدة مطرية عابرة ما عليها من قطع الزجاج والقصدير. حملنا بضاعتنا وقصدنا أعلى كدية من مطرح الأزيال، وكانت قديمة بدون رائحة. أو لعلنا لم نعد نميز بين الروائح.

عندما دارت الكأس وبدأ يتبعها الرأس، ظهر في الطريق ثلاثة من الشبان الفلاحين عائدين من المركز بعد أن باعوا ما حملوا إليه من خضر. صاحوا بنا، صحننا لهم، دعونا إلى مصاحبتهم إلى قريتهم، عندهم بضاعة

ستعجبنا. لم نتردد. هم على عربةٍ يجرها جواد أشقر، ونحن في سيارة بيضاء والطريق أمامنا. قبل دخول القرية اتفقنا على الجلوس في أحد الحقول. تركنا السيارة والكارو بجانب الطريق واخترقنا حاجزا كثيفا من القصب مُتَوَعِّلِينَ في الحقول.

جنينا التين طريا وجلسنا في حقل الفصاء، وكأننا أصدقاء من زمان، نشربُ النبيذ الأحمر وندخنُ الكيف؛ كانت هذه أولَ ثلاثِ مرات تناولتُ فيها هذا البلاء، وأقلّها خطرا. كنا نصيح بكل الأصوات، خاصة أنكرها الذي كنت أفتنُّ فيه. ربما اعتبرنا هذا اللقاء عملا نضاليا، لقاءً بين "متقنين" يتطهرون من نزغات التبرجُّز وعمال يمكن الاعتمادُ عليهم عندما تتدلع الثورة. إذا لم يكن ذلك بالتحديد فقد كنا نُمرِّغُ وضعيةً غيرَ مريحة. إنه نزول عند الطبقة العاملة المسحوقة لتأطيرها وقيادتها "نحو الهاوية طبعاً".

بعد تقدم الليل اتفقنا على نقل الجلسة إلى الدوار، فخرجنا من الحقل في ظلمة دامسة، ودوخة طامسة. في الجهة الأخرى من حاجز القصب، جهة الطريق، كان رجال الدرك قد دَعَمُوا صفوفهم، وأخذوا مواقعهم، وظلوا ينتظرون في صبر دخول الصيد إلى الفخ. نسير نحو الطريق ولا ندري أين نضع أرجلنا من شدة الظلام. لا يكاد الواحد منا يخرج من بين القصب حتى يكون أحد رجال الدرك أو أكثر قد تَلَبَّسَ به، وضمه إليه بقوة، إلا اثنين من الشبان الفلاحين استطاعا الرجوع إلى وراء والاختباء في القصب. نقلونا إلى مقر الدرك قُبيل منتصف الليل.

حين نزل أحمدُ من السيارة أحسَّ برجليه تؤلمانه وهما تقعان على اسمنت الرصيف الخشن، تنبه إلى أن بلغته الفاسية الصفراء قد بقيت عالقة في طين الحقل. لقد خرج ببلغته على أساس أننا سنبقى داخل السيارة نشرب قليلا ثم نعود. طاب المقام وطالت الرحلة فعاد بدون حذاء. عندما علم أفراد الدورية بصفتنا أبدوا لنا كل الاحترام وطلبوا منا أن ننتظر

مطمئنين حضور الرئيس.

حاولنا أن نشرح لهم الظروف التي جعلتنا في ذلك الوضع المخرج، متاعبُ الامتحان وحياة العزوبة والشباب ... قال أحدهم: كلنا ذلك الرجل، ثم نبهنا إلى أمرين: أولهما أنه لولا ظروفُ الاستنفار التي أعقبت أحداث مولاي بوعزة والبحث عن الفارين في كل مكان لما توقفوا أصلاً لينتظرونا في الظلام، والأمر الثاني أننا غامرنا بسلامتنا الشخصية حين خالطنا هؤلاء الأميين الذين يتحولون إلى مجرمين في رَمشة عين ولأقلّ الأسباب، خاصة مع حضور المخدرات، "لقد غامرتم بحياتكم"، قال أحدهم.

حضر الرئيس بعد دقائق، وتأكد من هويتنا، وأمر بإطلاق سراحنا نحن الأساتذة، دون تعليق. وفي الحال خرجنا من مقر الدرك بدون وَجَل ولا خجل. وما كادت السيارة تتحرك حتى توقفت. لستُ أذكر أياً منا رأى أنه من العار والندالة أن نترك ذلك الفلاح "الأقرع" معتقلاً، سيستضعفونه، وربما سلخوه، إنها خيانة طبقية.. ترجّلنا من السيارة وقصدنا رجال الدرك الذين ما زلوا في الباب يراقبون تردّدنا. طلبنا منهم بأدب وإلحاح أن يُكرّمونا بإطلاق سراح ذلك الفلاح المسكين.

لعلك تتصوّر اليوم أنهم أعادونا جميعاً إلى الاعتقال حتى نستيقظ، على الأقل، من غفلتنا، أو سكرتنا. ليس الأمر كذلك، التفت "الشاف" - هكذا كان يناديه أحمد - إلى الداخل وطلب منهم إخراج الأقرع. وما إن وضع الأقرعُ رجله على العتبة خارجاً حتى ودّعه أحدُ المحسنين من شباب الدرك الملكي بركلة زعزعت كيانه حتى انكب على وجهه، وسار يحبو في الطين.

لم نطمئن إلا عندما أوصلنا الفلاح إلى مشارف قريته في ظلام دامس. وفي الصباح علمنا أن الفرس وصل إلى القرية بدون عربة. وجدوها، عالقة بإحدى السواقي. اعترفَ الشبان الفلاحون بالجميل فأصروا على أن نتعشى

عندهم، فذهبنا محملين بنفس البضاعة، وكان العشاء حَوْضاً مُخَيَّياً من اللحم والبصل.

كان أحمد يدعوني سقراط. كان لا يفتأ يردد: "كنتُ ولدتُ دارنا.. خرجتُ علي يا سقراط". (كانت تربيته تربية أبناء البيوت المحترمة ولكنك سببتُ انحرافي يا سقراط). ولم تكن هذه غير لحظة عابرة في حياة أحمد، إذ سرعان ما عاد إلى سربه، وبرز الدينارُ على جبهته. أما عبد الله راجع فكان يُسميني طرفة، ويرى نفسه نسخةً حديثة لعروة، وربما ظهر ذلك في: أيادٍ تسرق القمر. كان الشعرُ يأكله حتى أتى عليه، كان شاعرا حقيقيا.

انتهتِ السنة الدراسية الأولى على هذه الوتيرة، وكأنها امتداد للحياة الطلابية بفاس. وصلتُ قمة التشبُّع من هذا النمط، بل وصلتُ أحيانا درجة التقزز والاشمئزاز. قررتُ أن أقلب الصفحة وأعود في السنة التالية بوجه آخر. بل بدأتُ أعدُّ العدة لذلك منذ شهور.

صفحة تُطوى

في الصيف وصلتِ التسوية المادية (الرايبل) فسويت الحالة الاجتماعية، و"سقط البئر على غطاءه"، كما يقول المصريون. أصبحنا اثنين ومع نهاية السنة الدراسية سنكون ثلاثة. أخذتِ الحياة الاجتماعية مجرى آخر. وجدتُ في فاطمة صورة الزوجة التي ركبْتُها في خيالي من أجزاء منتقاة من نساء عدة، في كل امرأة جزء فقط يعجبني، وفي فاطمة كل ما يعجبني من امرأة تكون زوجة ورفيقة مدى الحياة. قال كمال ابني البكر مرة: لا أصدق! عندي الآن خمسٌ وثلاثون سنة، التفتُّ إلى فاطمة فتخيلت أننا التقينا بالأمس، الأيام السعيدة تمر بسرعة.

بعد الانتهاء من حفل الزواج، بالمحمدية، تبخَّرت التسوية (الرايبل): لم يبقَ في جيبِي درهمٌ واحد. اقترضتُ من الفقيه، أخي الأكبر، ثلاثمائة درهم، مئة وخمسون منها لصاحب شاحنة تطوع بحمل العفش، والباقي لتدبير

الأيام القليلة المتبقية من الشهر. بعد أول لقاء مع المهنيين من الزملاء قال مصطفى الوجدي:

- الآن لا ينقصك غير السيارة(؟)

كانت العلاقة مع المجموعة الفاعلة من الأساتذة تتسم بالاحترام والتكافل والود، وحين نعلم هذه الأجواء فإن المنحرفين والانتهازيين يخسأون، ويختفون. - قلتُ له مازحا: إضربوا أيديكم في جيوبكم يا أصدقاءنا الكرام، وستأتي السيارة.

وذلك ما كان. في آخر الشهر تسلمتُ خمسمائة درهم من كل واحد من سبعة من الأصدقاء في إطار قرض بدون فوائد. وهي تمثل خمسين في المائة من حوالة أستاذ السلك الثاني الثانوي. وكان ذلك هو القدر المطلوب تقديمه كتسبيق، والباقي أقساط لا تتعدى 350 درهما شهريا. ثمنُ سيمكا 1100 جديدة هو عشرة آلاف درهم. وكانت هذه هي السيارة المجربة الناجحة التي يقتنيها المعلمون. قضينا فيها ومعها أجمل أيام التحول من العزوبة إلى حياة الأسرة والأطفال، نرى صورها اليوم في الألبوم فنحن إلى تلك الأيام الجميلة. نرى صورتها في السعيدية، وراس الماء، وقرية أركمان، وفي كالابريس وواد اللاو، وفي ريستينكا ومارتيل، وفي شاطئ مانسمان وتاغازوت، وفي إفران وورزازات، في كل شواطئ المغرب وجباله. كانت رحلتنا الصيفية تبدأ في اليوم الأول من العطلة وتنتهي في اليوم الأخير منها: شهران ونصف.

قَبُولُ الْعَدَالَةِ

الدار البيضاء 1979-1981

التحدي

بعدَ مَخاضٍ طويلٍ وتهيئٍ دَامَ شهوراً خاضت المركزية النقابية الناشئة: الكنفدرالية الديمقراطية للشغل، في أبريل من سنة 1979، إضراباً عاماً في القطاعات الحيوية التي انضوت تحتها، وكَوّنت نواتها الصلبة، وهي التعليم والصحة والبريد.

كانت الكونفدراليةُ واجهةً ظاهرةً للاتحاد الاشتراكي، ولكنها كانت أيضاً قناعاً لنشاطٍ فلولٍ من اليسار الماركسي أخطأتهم يدُ أجهزة القمع التي أتت على الأخضر واليابس. اعتقدُ أنني كنتُ، مع مجموعة من المناضلين، من هذه الفلول، بل كنا نعاني نفسياً من شيء غامض قد أسميه: عقدة "عدم الاعتقال"، كما كنا نعاني من عقدة العجز عن فعل شيء من أجل المعتقلين. انطلق مُسلسلُ الإضراب وأنا عضوٌ مغمورٌ في المجلس الإقليمي للنقابة الوطنية للتعليم بالدار البيضاء.

كان الإضرابُ نوعاً من استرجاع النفس النضالي وحفظ الوجود بعد الحوادث المزلزلة التي عرفها النصف الأول من السبعينيات: انقلابان عسكريان (1971، 1972) وثورة مسلحة (1973) أعقبتها محاكماتٌ زائفة (1974-1976)، وقمعٌ أعمى، ومصادرة للحريات؛ كانت جريدة المحرر لا

تَظْهَرُ إِلَّا لَتَخْتَفِي. ولذلك كانت الدولة شديدة الحساسية مستعدة لحرق الأخضر باليابس، أو إهلاك الثلثين من أجل الثلث، كما قال الحسن الثاني في إحدى خطبه في سياق مماثل. كان التحدي في عفوانه، ولم نكن نحنُ مناضلي الصف الثاني أو الثالث نضرب أي حساب للمخزن وما يمكن أن يصدر عنه، لقد أُهْدِرَتْ هَيْبَتُهُ بسبب القمع والتزوير، وَهَجَرَهُ المتقفون.

وصلت حالة التوتر في المؤسسات التعليمية، في الدار البيضاء ومدن أخرى، مستوى شبيهاً بما وصلت إليه قُبَيْلَ أحداث 23 مارس 1965. بل حاولت الدولة، أكثر من ذلك، استباق الأمر، فبدأت التهديدات، ثم عمت الاعتقالات قبل حدوث الإضراب، ثم جاء الطرد من العمل بعد الإضراب. كانت ثانوية مصطفى المعاني بالدار البيضاء، حيث أعملُ، على مشارف الحي المحمدي، تغلي في كل الاتجاهات: التلاميذ مضربون، وأجواء الإضراب العام مهيمنة على الأساتذة، والعلاقة بينهم وبين مدير المؤسسة في قمة التوتر.

كان المدير قَرِحاً باننقاله من معلم في الابتدائي إلى منتدب في الثانوي، ثم إلى مدير ثانوية دون أن يطرأ أي تغيير على مستواه العلمي أو الذهني. وكنا نحنُ الأساتذة "حقاً وصدقاً" نعتبر أنفسنا أصحاب الدار لأننا عملنا في المؤسسة قبل أن توجد على الخريطة مستقبلين تلاميذها حيثما اتفق، قبل أن يعين للثانوية مدير بسنوات؛ كانت ثانوية مصطفى المعاني مجرد اسم على ورق عدة سنوات.

ولا ينبغي أن يُقاسَ حال معلمي ذلك الوقت على مستوى المعلمين اليوم حيث يوجد من بينهم حالياً حاملون للشهادات العليا ومتقفون ومبدعون. كانت عملية ترسيم المعلمين الملحقين في الثانوي، دون انتقاء ذوي الكفاءات والمؤهلات منهم، إحدى سيئات الشعبوية النقابية التي ساهمت في تكريسها تحت ضغط السياسة المخزنية القروسطية، كنا نقوي الصفوف ضد

المخزن بكل ما تيسر. وجدنا أنفسنا على طرفي نقيض مع ذلك الطارئ على الثانوية، كان أشبه بتلك الخنفساء العنيفة التي تقتحم خلية النحل المطمئنة فتخربها. فبقدر ما كان هو يريد أن يفرض ذاتاً غير موجودة أصلاً بقدر ما كنا نحن مُصرّين على إعادته إلى حجمه الحقيقي، فلم يبقَ له غيرُ فرصةٍ إضراب رجال التعليم ليصطاد في الماء العكر.

ومما زاد الأمر تعقيداً، وجعل أجهزة الدولة ترتاب في طبيعة ما يجري، وتتعامل معه بعنف دخول إذاعة البوليزاريو على الخط. فقد بدأت تتحدث عن تردي الأوضاع في الدار البيضاء، وتُخصّ "مناضليها" في ثانوية مصطفى المعاني بالتتويه. علمتُ هذا من الزملاء بعد الخروج من السجن. وهذه أقبحُ عملية سطو على حقوق التأليف، فنحن كنا نعمل لحسابنا الخاص.

هذا طاعون!

حين كان البوليس يلتقطُ النقابيين "المُحرّضين" على الإضراب، وحين اقتربت يده مني، باعتقال الزميل الذي كنت أقاسمه عبء الاتصال والتعبئة النقابية في شرق الدار البيضاء، أخذتُ زوجتي وابني كمال وسامي وغادرت مقر العمل إلى المحمدية.

تركتهما هناك، عند العائلة، واغتنمتُ الفرصة فانقطعتُ إلى المكتبة العامة بالرباط أجمعُ المادة العلمية، وأصور الوثائق التي سأشتغل عليها في السجن، أو في المنفى. كنتُ أتهيأ لأي منهما حسبَ الملف الذي سيفتحُ ضدي، والتهمة التي ستُوجه إلي. لم يكن خوفي من المتابعة في الإطار النقابي كبيراً، فقد كنتُ أعلمُ (أو أفترض) أن هذا الملفُ متحكّم فيه؛ خاضعٌ لتوازن القوى بين المخزن والمعارضة التي كانت تتلخص في الاتحاد الاشتراكي ونقابته. وعموماً فإن المناضلين لم يكونوا يعبؤون بالاعتقال لاقتناعهم بأن الطريقة التي يُحكم بها المغرب غيرُ قابلةٍ للدوام، ستتغير لا محالة. كان الحكم في المغرب يتناقض مع منطق العصر، بل مع منطق

التاريخ، ولذلك لم يكن التغيير بالنسبة إلينا أكثر من مسألة وقت. كنت أخاف من أن تكون عند البوليس معلومات عن نشاط سري طائش كان في طور التشكل في امتداد الحركة الماركسية التي أتت عليها الاعتقالات. ولذلك كنت حريصاً على معرفة فصول المتابعة قبل تسليم نفسي. كنت أنتظر إطلاع المحامين على الملف وصك الاتهام. تكفلت النقابة بانتداب مجموعة من المحامين للدفاع عنا، وكلهم متطوعون منتمون أو متعاطفون. هم، كما جاء في نص الحكم، الأساتذة: الناصري وكرم و خليل والسملالي ولحو وأطال. وكان احتكاكي المباشر، خلال المحاكمة وبعدها، بالأساتذتين محمد كرم وعبد الحق أوطال ومحام شاب من مكتب الأستاذ الناصري، نسيث اسمه مع الأسف. لم يُنح لهم الاطلاع على الملف، إلا في الجلسة الأولى التي قُدم فيها شريكي فيه، العطار بوغالب. جئت ذلك اليوم إلى الدار البيضاء لمراقبة العملية عن قرب. قُبعت مع محمد بزاوي، عضو مكتب النقابة بالدار البيضاء، داخل مقهى لكوميدي، قريباً من المحكمة الابتدائية، إلى أن جاء الخبر بأن المتابعة محصورة في التحريض المؤدي للتخريب، فقررت أن أسلم نفسي. كان الأخ محمد بزاوي مكلفاً بمتابعة ملف المتابعين بعد اعتقال أغلب أعضاء المكتب. في اليوم التالي التحقت بمقر عملي في ثانوية مصطفى المعاني وكان شيئاً لم يقع. لم أكن على علم بعد بأنهم اعتقلوا أثناء غيابي مجموعة من تلاميذي وعذبوهم من أجل أخذ اعترافات بأني أحرضهم. أُلقيت الدرسين المقررين لذلك الصباح كالعادة. دون أن أفتح أي نقاش في الموضوع. قلت: "كالعادة"، والواقع أن ذهني كان مشغوراً. كان يعمل بالتوازي في ملفين مختلفين، ويسبح في فضاءين متباعدين. أنتظر أن يُفتح باب القاعة في أية لحظة لأجد رجال الشرطة أمامي.

غادرتُ قاعةَ الدرس حوالي الثانية عشرة ظهراً. أخبرني بعضُ الإداريين خلسةً بأن البوليس سألوا عني، وهم ينتظرون الباب. حملتُ محفظتي وانصرفت. مررت بجانب شخصين غربيين يقفان بباب المؤسسة في زحمة التلاميذ إلى جانب سيارة رينو 16، وكنت أنتظر أن يمدَّ أحدهما يده ليسمك بي. وصلتُ إلى المنزل وبقيت انتظر وصولهم. لم يتأخروا. رنَّ الجرس. ففتحت الباب لأجد نفسي وجها لوجه مع شخصين في لباس مدني.

أحدهما شديدُ السواد، ضخْمُ الجثة، مفتول العضلات. قيل لي، فيما بعد، أنه موظف في السكك الحديدية أو في البريد، لا أذكر، يسكن حانات المنطقة. لا يغادرها إلا في مثل هذه المهمات. يستعمله البوليس كواقي صدمات أثناء الاعتقالات. لم يُبَس بكلمة واحدة طوال العملية، كان يكفي بنفخ صدره وفتل عضلات ذراعيه المكشوفين.

أما الثاني فكان معتدل القامة بلون أميل إلى البياض، وصَفَه معتقلو الحق العام الذين وجدتهم في الدائرة الخامسة للأمن بكل صفات القسوة والندالة، "ابنُ زَنْيٍ مقَطَّر"، كما قال أحدهم.

قبل التوجه إلى دائرة الأمن طافا بي في أرجاء الحي المحمدي لإنجاز بعض المهام التي تخصهم. طرقا عدة عناوين. كانت هذه الجولة فرصة للدرشة حول موضوع الاعتقال، والهروب أكثر من عشرة أيام. استمع إلى روايتي جيداً. اختلطت دهشتي بالارتياح حين شرع يلعن دينَ مدير المؤسسة ومِلَّته، فهو الذي "أشعل النار". ثم سألتني: "عندك شي جلابة دِيَالُ الصوف؟".. وقبل أن أجيب بالنفي. قفلَ راجعا بي إلى المنزل لأخذ بعض الملابس المناسبة للاعتقال. كانت الماركسية وقتها لا تتعايش مع الجلابة والبلغة والطربوش.

دخل معي إلى غرفة النوم، في حين ظل الآخر ممسكا بالباب الخارجي للبيت. أخذتُ بعض الملابس الإضافية وعيني ترقبُ واسطة العقد، ابني

سامي، وهو مُلقًى على الفراش يضرب برجليه ويديه في الفضاء ويلغو في حيوية ونشاطٍ، مبتهجا بحضوري، ينتظر أن أرفعه وأضمه إلي كالعادة. تأخرتُ تلك الضَّمةُ ثلاثة أشهر. كان عمره عند الاعتقال حوالي أربعة أشهر. انقبض صدري قليلا. كانت خالته عائشة، وهي ما تزال في مِيعَة الطفولة، واقفةً بباب المطبخ، وهو مقابل لبِيت النوم، ترُقُب المشهد في ذهول، صورتها منطبعة في خيالي لا تغادره. أما فاطمة، زوجتي، فلم تصل بعدُ من مقر عملها بمدرسة صلاح الدين الأيوبي. كنا قد تركنا كمال، ابني البكر، وعمره أقلُّ قليلا من خمس سنوات، عند جدته في المحمدية بعيدا عن الميدان. صدَّق كمال أنني تأخرتُ عن الحضور كل تلك الشهور لأنني مشغول بقراءة كتاب كبير، كبير جدا...

بمجرد وصولنا إلى مقر الدائرة الخامسة للأمن، وهي غيرُ بعيدة كثيراً عن منزلنا، اتصل الضابط المعتقل برئيسه ليخبره بنهاية العملية. تعدد أن يُسمعي ما يفيد أنه متعاطف معي مما زاد في سوء ظني.

كانت الزنزانة التي حُشرتُ فيها مع بعض الموقوفين ملطخة بالرطب واليابس من الخراء، تقوح رائحة النشادر من أبوالها القديمة والجديدة. هذه بداية رحلتنا نحو قبر العدالة. في هذه اللحظة، قبل أن تزول الغشاوة عن عيني وأستأنس بالمكان، أُحضِرَ موقوفٌ جديد، يده اليُسرى في جبيرة من الجبس معلّقة إلى عنقه، تلكاً قليلا في الدخول، ربما لم يتبين المكان لاختلاف الإنارة عن الخارج، ربما كان يستطلع الوجوه الجديدة. حصداً أحدُ الحراس رجليه بركلة عنيفة. سقط على قفاه، فأغمى عليه مدةٌ دون أن يجراً أحد على إسعافه، أو الاقتراب منه.

بعد الظهر حضر الضابط المكلف بالتحقيق ومعه مساعدٌ له، كاتب ضبط. سُحبْتُ إلى مكتب مجاور. أخذ مني بطاقة التعريف الوطنية وسلمها لأحد مساعديه، وبدأ يمهد لطرح الأسئلة، في حين كان الكاتب يسوي ورقة

في الآلة/الكاتبة. بعد حين عاد المساعد بالبطاقة. وقف بباب المكتب، قلبها بين أطراف أصابعه لإثارة الانتباه، ثم قال بصوت مسموع:
"هذا طاعون!"

لم أهتم بكلامه، فقد اعتبرته تمهيداً لا بد منه لزعرتي والتأثير في معنوياتي. كنت مهياً لما هو أسوأ من فُحش الكلام. كنت مزوداً بأدبيات المعتقلين الماركسيين في المغرب ومصر وأنحاء أخرى من العالم. انتهيتُ للنو من قراءة "الأقدام العارية"، وعاشتُ محاكمة المعارضين المغاربة بمختلف انتماءاتهم، وسمعتُ الكثير عن التعذيب المنهجي والمجاني. أعلم ما ينتظرني، وأعلم أن أحسن وسيلة هي التماسك والثبات دون استقزاز. ما كدتُ أنهي الجواب عن السؤال الأول التمهيدي حتى دخل ضابط آخر حاملاً خبرين مثيرين خففاً الضغط عني، وجعلاً شأني ثانوياً، لا يؤبه له، كانت أرجل المخزن تلعب في الهواء، فيما يبدو.

أولُ الخبرين، نزول الطائرة الملكية اضطرارياً في إسبانيا قادمة من فرنسا. وقيل فيما بعد أنها كانت مغشوشة.

وثانيهما، ظهور حركة غير عادية في درب عمر، فقد علّق الكثير من النّجار صورة الخميني في محلاتهم، وكأنهم يتوعدون بتمرد كتمرد تجار البزّار على الشاه..

كان المُخبر واقفاً يستعجل الضابط. أخذ الأخير ورقة صفراء، وكتب عليها بخط عربي مضطرب أربعة أسئلة. أمر الكاتب بتسجيل أجوبتي عنها، وخرج مسرعاً.

أخذتُ عملية تحرير الأجوبة حوالي أربع ساعات، بمعدل ساعة لكل جواب، والحصيلة أقل من صفحة واحدة. لا نكاد نحرر فقرة حتى ندخل في حوار جانبي. أنا أجيبه بعربية فصحي، وأتابع ببصري ما يرقنه، مُصرّاً على أن يكتبَ ما أنطق به حرفياً. وهو مُصرٌّ على أن أجيبه بالدارجة ليحوّل كلامي

إلى الفصحى حسب خبرته. توقفنا مرات عديدة نشرح لبعضنا مهامنا.
أقول له: أنا أستاذ اللغة العربية، وأعرف ما تعنيه كل كلمة، وأقصد ما أقوله بالحرف وليس على الإجمال.

فيرد علي: أنا أقوم بمهمتي، ولست في حاجة إلى من يعلمني كيف أنجزها، أنا لا أكتب إنشاءً! أنا أحرر محضراً.

فأقول له: ولكنك تقولني ما لا أقول! أنا أقول: أوزع استدعاءات حضور اجتماعات، وأنت تكتب "منشورات" تُحرض على الإضراب!

فيقول متهمكاً: "أنت دايّر عرس؟ عندك زواج، ولا.. طهارة؟! تستدعي الناس! يظهر لي رأسك قاسح، حنا بُعينا نُفكُ معاك الجرّة، وأنت تنقلب على لبلا. فك الجرّة قبل ما يرجعوا، وإلا ما غادي إعجبك حال!"

قام وانصرف بعصبية حقيقية أو مفتعلة. غاب عني حوالي ثلث الساعة، الأكيد أنه رشف قهوته، أو دخن سيجارته أو اتصل برئيسه. لقد خفت لجاجته ونكده. سجّل ما أملتته عليه، ثم أعادني إلى الحجز وانصرف، دون أن يطلب مني التوقيع.

في المساء، بعيد الغروب، عاد الضابط وأخذني في سيارته الخاصة. هو وكاتبه في المقعدين الأماميين، وأنا خلفهما. سرنا في اتجاه المقاطعة الثالثة للأمن بعين السبع حيث سأقضي نهاية الأسبوع في انتظار يوم الإثنين.

أطال الرحلة متجولاً في شوارع عين السبع. وفجأة قال:

إذا أفلتت من هذه الورطة "أدخل سوق رأسك". نحن لم نفعل أكثر من الاستماع إليك. لا تعتقد أن هذا هو التحقيق. أدخل سوق رأسك، أنت أستاذ واحترمناك، ودعك من المغرّقين.. سالي تلامذك". علق الكاتب: "تبيغيوك الثلامذ ديالك!". لم أفهم مغزى كلامه إلا بعد الخروج من السجن.

وتحدث الضابط عن زعماء الأحزاب السياسية وما يرفلون فيه من نيم. عرفهم، كما قال، في المغرب وخارج المغرب. وحكى وقائع بعينها، ذكر

اسم علال الفاسي وعلي يعة وعبد الرحيم بوعبيد. كنتُ أستمع إليه وأجيب باقتضاب بأن كل ما قيل عني ملفق، والشهود ضدي لا يستطيعون أبدا التعرف علي. بل طلبت منه مواجهة الشهود.

في نهاية الرحلة، وقف أمام المقاطعة الثالثة، ولم يسبق لي أن تعرفت عليها، سلمني للمداوم، ولم ينس أن يخبره بأني أستاذ. سألني المداوم عن مكان العمل والمادة التي أدرس. كان صوتُ المقرئ ينبعثُ من المذيع، أو المسجل الصغير، فوق الطاولة. تعمَّدتُ أن أرَدِّد معه بصوت خفيض. وتدرج الحديث بيننا بشكل ما حتى علم أنني أحفظُ القرآن فأبدى اهتماما خاصا وعناية زائدة.

مع قُونُفُو

راقفتني الحارس المداوم إلى أول زنزانة قرب الباب. كان يقبعُ فيها شخص واحد ميسور تابعته شركة تأمين بخيانة الأمانة. سألني الحارس عما إذا كنتُ أودُّ أن أوصل رسالة لأسرتي أو لأحد ما خارج السجن فأجبتُه بالنفي. وكنتُ أوصيتُ زوجتي بحزم وتأکید ألا تقوم أبدا بالسؤال عني ما دمتُ بين يدي البوليس، بل حذرتها من ذلك. كان ذلك الشاب ملفوفاً في سلها م فاخر من الكاشمير، ولكن سلها م الیأس المحيط به كان كثيفاً يعوق التواصل معه. حاولتُ أن أسلّيه بدون جدوى.

لم آكل شيئاً منذ الصباح، كنت جائعا، وحين علمتُ أنه ليس هناك أكلُ أحسستُ بالحر ج، خاصة وقد اعتذرتُ، منذ البداية، عن تسلّم أي شيء من مُساكني في الزنزانة، اكتفيتُ بكأسٍ من الشاي وقطعة من الخبز قدّمهما لي المداوم عند وصولي.

لم يدم هذا القلق طويلا، مضت الليلة بما لها وما عليها، وفي العَد جاء الفرج من وادي درعة، من دَرَعِي أصيل يُدعى أبا القاسم. جاء أبو القاسم بأكل شهي ساخن فيه مهارة فاطمة ورائحتها، فانفرجت أساريرُ مُساكني

وَفُكَّتْ عَقْدُهُ لِسَانِهِ. ربما كان يخشى أن أبقى عالَةً عليه.

أبو القاسم الدرعي أستاذ اللغة الفرنسية بثانوية مصطفى المعاني. خاض معنا كل النضالات منذ التحاقنا جميعاً بها سنة 1975. رجل هادئ مسالم، ولكنه لا يتردد في الرد على الاستفزاز بالسخرية. له مع المدراء الأغبياء طرائف ونوادر. عندما ثار في وجهي مدير ثانوية مصطفى المعاني قائلاً، في جلسة للمجلس الداخلي: "ملفك أنت أ العمري أسود...كتب فيه مدير ثانوية الكندي كذا، ومدير إعدادية الساقية الحمراء كذا...".

قاطعهُ أبو القاسم قائلاً، أمام دهشة الجميع: إذن ما بقي لك أنت، يا سيادة المدير، إلا أن تصور فيه "موكة"، أي البومة رمزُ الشؤم. لم يكن المدير يتوقع هذه الجرأة من هذا الصحراوي الهادئ المسالم. ذهب اقتراح أبي القاسم بما كان المدير يحاول اصطناعه من جدية، فأصيب بالذهول، واستولى عليه الغضب، فضاعت الجلسة.

ولأبي القاسم هذا حكاية سابقة طريفة مع مدير إعدادية الساقية الحمراء؛ كان ذلك المدير يحاول دخولَ الفصل الذي يعمل فيه أبو القاسم، وأبو القاسم يرفضُ ذلك حرصاً على وقت الدرس الذي يضيعه المدير في تفاهات على قدر عقله وهمته. فما كان من المدير إلا أن قفز من النافذة. فشهرنا به تشهيراً آلمه، خاصة حين أشعنا في الدار البيضاء، ولدى عائلته، بأن سرواله تمزق أثناء القفز، وضحك منه التلاميذ.

ذلك هو أبو القاسم الدرعي الذي كان يتبادل مع زميله وزميلنا عبد الفتاح الكرزي المراكشي دوري جرير والفرزدق، في جو من الفكاهة لا يُمل. وأنا مقتنع أن العنصر البشري الذي ملأ الروح المراكشية بالنكتة والمرح هو العنصر الدرعي، فاللهجة المراكشية هي اللهجة الدرعية، واللون المراكشي الأصلي هو اللون الدرعي. فالكرزي درعي بالأصول، وأبو القاسم مراكشي بالممارسة.

سكن الجوعُ وتبددت هواجسُه فأحسست بفراغ مزعج ورغبة حارقة في القراءة. بدأت أتصفح الجدران، أقرأ أسماء المعتقلين الذين مروا من هناك، اسم يتكرر في كل الجدران: "زريقة"، قيل إنه من الرواد الدائمين لتلك الأمكنة. تفحصت الحروف العربية والفرنسية على عُلبتي سجائر حمراء وخضراء. في مساء يوم السبت دبَّت حركةٌ زائدة في الممر وتعالَت الأصوات في العنابر. زاد عدد الواردين من السكارى والمخدرين من أبناء الحي المحمدي وعين السبع. وما كادت تسكن الحركة عند منتصف الليل حتى وصل ضيف غريب الأطوار متعود على ارتياد المكان. وصل قُونُوفُو. ضيف لا يشبه الآخرين، دخل وهو يُرغي ويُزبد. زائر مشاغب يتحدى ويصيح. كان في حالة هيجان نتيجة ابتلاعه كمية كبيرة من الأقراص المهلوسة. قونوفو أحد رواد المقاطعة الثالثة، من أبناء الحي المحمدي. سمحَ له المداومُ بالاقتراب من زنزانته، بعد إصرار منه، لاستجداء سجنائ لعله يهدأ قليلاً. أشعل سيجارة بعدما نَزَعَ صمامَها ورماه بعيداً. جلس قرب الباب. أعجبني هنيانه فرجوث الحارس أن يتركه بعض الوقت، وكان ما يزال ممسكاً بحزامه. كان قونوفو ثائراً على أمه، جازماً بأنها هي السبب في كل ما وقع له من مأسٍ. فهي تُعطي كل اهتمامها لأخيه الأصغر الذي جلب لها المال من شركة التأمين نتيجة تعرضه لحادثة سير أصابته بعاهة مستديمة. تمنى لو كان مكانه: "دين أمها نتوكلنا الجلافت: النيوفا والوذنين والزز..." (لعن دينها لأنها لا تطعمه غير الأجزاء غير المرغوب فيها من الذبيحة، "الجلافت"). كشف عن بطنه فإذا هو مُشرَّح، تعبَّره أخايد متفاوتة العمق متباعدة التاريخ: منها المنمدل ومنها الذي ما يزال طرياً. ذُكر لنا أنه كان يُدخل معه شفرات الحلاقة إلى مخفر الشرطة ويشرع في تفليح جسمه فيضطرون لحمله إلى المستشفى، يخفيها في مكان لا يصل إليه إلا الريكتوسكوبي.

في صباح يوم الإثنين أُعِدْتُ إلى المقاطعة الخامسة قصدَ استكمال ترتيبات النقل إلى المحكمة. وأنا في سيارة الشرطة بساحة الدائرة، على وشك التحرك نحو المحكمة في حالة من الاستعجال، فوجئتُ بالكاتب وهو يطلب مني التوقيع على المحضر.. ترددت قليلاً!

- أي محضر؟ انتهينا من المحضر يوم الجمعة..؟ محضر جديد؟ لا! إنه نفس المحضر الذي أُمليته عليهم في الأسبوع الماضي. أصريتُ على قراءته، فاعتذروا بضيق الوقت. رفضت توقيعَه بإصرار.. اكفهرَ الجو فتسمّرت في مكاني محمّلاً في الفراغ. وبعد مراجعة كبيرهم سُمح لي بقراءته لأكتشف عودة الكلمة اللعينة: توزيع "مناشير". بقينا هناك في أخذ ورد إلى أن طُويت "المنشورات" وكتبت مكانها كلمة استدعاءات. وقد كنت على صواب في إلحاحي هذا، إذ وجدتُ الكثير من الإخوان يحاكمون بتهمة توزيع منشير تحرض على الإضراب. بل هناك نُكثُ وطرائف في هذا المجال، إذ قُدمت أمام بعض المحاكم مطبوعات مضحكة باعتبارها منشير.

علاش جابوني؟

وصلنا إلى المحكمة الابتدائية في الصباح الباكر. أفرغونا في كراج مظلم بدون نوافذ، وأقفلوا الباب في الحين. لا يفصلنا عن الزقاق الغربي، حيث قنصلية فرنسا، غيرُ باب حديدي تتسرب من تحته أشعة رقيقة وأصوات مختلطة للمتقاضين وأقارب المعتقلين والسماصرة. يتكئ بعضهم على الباب ويبدأون في التراسق بجمل مبتورة. أحاول التقاط جملة مفيدة تعيد الاتصال بالعالم الخارجي بدون جدوى. كانت الأيام التي قضيتها في زنزانة مخفر الشرطة كقرن من العزلة. كل ما سمعته عبارة عن حوادث ونزاعات حول الكراء والحضانة وتفاصيل أخرى لا تهمني. لماذا لا يتكلم الناس عن النقابة والإضرابات؟ بقيتُ هناك ملقئ على الإسفلت البارد من الثامنة صباحاً إلى ما

بعد السادسة مساءً، بدون أكل أو شُرْب، لا أحد يعلمُ أني هناك.
لم أتبين من المحشورين معي في ذلك الظلام غير شاب كان قريباً مني،
ظل منكفئاً على نفسه لا يتلمل. أتبين بصعوبة كفه اليمنى تحت رأسه وكفه
اليسرى بين فخذه. رغبةً في الكلام مع أي كان سألتُه عن قضيته:

- باش متهم؟

- "عَلاش جابوني أنا؟ ... أنا.. شَمَكَارٌ". (لماذا جاءوا بي؟ ..)

- شمكار؟

هذه أول مرة أسمع هذه الكلمة... من الزاوية الأخرى للغراج جاء صوت
لم أتبين صاحبه:

- "تَيْشَمُ السِّلْسِيون".

يشم الغراء اللاصق المدوخ. هذه كلمة جديدة آتية من الهامش. بعد
سنوات ستدخل الشمكرة قاموس رجل السياسة المغربي، على لسان رئيس
حزب الوبر، كما يسمونه. وصف بها أصحابه المنسحبين من حزبه. قالها
أمام الملأ في برنامج تلفزي: "هادوك مجموعة من الشماكرية".

أنكر ما نسب إليه...!

كنت آخر من قُدم للوكيل. لا شك أن ذلك كان مقصوداً. كان اللقاء
مع الوكيل وكاتبه متشنجاً منذ البداية. بدأ بقراءة تلخيص لما أنا متهم به
طالباً رأيي فيه بنوع من اللامبالاة.

- أنت متهم بالتحريض المؤدي إلى العنف وتخريب الممتلكات العامة
... الخ

أجبتَه بصرامة وحزم: "هذه التهم مجرد اختلاق وتلفيق من مدير ثانوية
مصطفى المعاني... كنا في خلاف معه حول شؤون تهم سير
المؤسسة... وسوء تدبير مواردها المادية، استغل صفتنا النقابية وظروف

الإضراب فـ " قاطعني بانفعال وقد تغيرت ملامحُه، كأني أتهمه شخصيا بالتلفيق:

- هذا تقرير الشرطة القضائية.. لا دخل لا للمعطي ولا لغير المعطي فيه... " هذا ماشي شغل المعطي!"

قاطعته بدوري، وبنفس الإيقاع العنادي المشوب بالشعور بالغبن: الشرطة القضائية لم ترَ شيئاً، ولم تعين شيئاً... لقد جلسوا بمكتب المدير، واستعملوا آلهة الكاتبة وسجلوا ما أملاه عليهم من أكاذيب... رآه الموظفون وهو يُملئ عليهم ويُحضر الشهود المتواطئين معه من المجلس البلدي للحي المحمدي ... الاستقاليون، أعضاء المجلس البلدي، عندهم حساب مع الاتحاديين، فصفوه على حسابنا، وشهدوا ضدنا. عند هذا الحد انتصب واقفاً وسلكَ يده اليمنى في كُمِّ بذلته، وجذب إليه محفظته باليسرى متهيناً للخروج خاتماً كلامه بهذه الجملة، وهو يتوجه إلى كاتبه:

- "أنكر ما نسب إليه".

وفي الحال انتهى الكاتب من رِقْنِ فقرة في أقل من نصف صفحة. وقف بدوره نافضاً مؤخرته. سحب الورقة بعنف من الآلة الكاتبة. لا شك أن يومَهما كان مرهقاً، وربما كانا على موعد مع ما هو أهمُّ من إقامة الميزان. وضعَ كاتب الضبط الورقة أمامي. غطى بأصابعه الخمس أكثرَ البياض الموالي للمكتوب وأمرني بالتوقيع. طلبتُ منه رفعَ يده لأوقعَ تحت المكتوب مباشرة، فراوغ مستعجلاً أيّاي، ربما قال لي: "وَقَّعْ، ما عندنا وقت نضيعوه معاك، بَغْي ثَبَاتُ هُنا ولا ترجع للكوميساريا؟".

نظرتُ إليه باستغراب، أنا الذي قضيتُ النهار كُلَّهُ على الإسلفت البارد، فلم يعجبه حالي. وعندما تمسكت بالرفض التفت نحو الوكيل، تبادلنا النظرات ثم رفع يده مغمماً بكلام غير مفهوم، فوقعتُ حيث أريدُ ولا يريدُ.

بلغ ضجرُ الوكيل مني حدَّه، فأوعز إلى الشرطي بحركة يده كالآمر بتعنيفي. جرتي الشرطي إلى الخارج متظاهرا بالتعنيف، ومن ثم إلى "القفس المتحرك" نحو السجن. بقي صوتُ الوكيل يصطكُ في أذني طوال الليل والصباح. هذا الاحتكاك البسيط مع الوكيل وصل إلى السجن باعتباره جرأة غير مقبولة، جوزيتُ عليها بليلتين في لا باي la paille. هذا ما وجدتُ أصداءَه عند الحارس مولاي أحمد دو گالون، قاله لأحد الزملاء الذين سبقوني إلى هناك.

انتهى هذا اليوم المُرهُقُ بالوصول، بعد المغرب، إلى "دار الضيافة" بالسجن المركزي، هكذا يسمونها. دخلنا دار الضيافة بين المغرب والعشاء بعد كل الأرق والتعب الذي صاحب الحجز لدى الشرطة القضائية. دخلناها كما تدخل قافلة منهكة أكلتها رحلة طويلة عبر الصحاري والقفار. دارُ الضيافة غرفة كبيرة نسبيا يُحشر فيها الوافدون الجدد على السجن في انتظار الفرز وضبط الهويات في اليوم الموالي. في دار الضيافة شيءٌ مهم على تفاهته، فيها دقيق منقوع في ماء ساخن في صحن مقَرَّر. شيء كالحريرة، شيءٌ كما قال الشاعر:

حَتَّى إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ وَاخْتَلَطَ جَاءُوا بِمَذْقٍ، هَلْ رَأَيْتَ الذَّنْبَ قَطُّ؟
والمَذْقُ: اللبنُ المخلوط بالماء. قالوا: "وأبو مَذَقَّة: الذَّنْبُ؛ لأنَّ لَوْنَهُ يُشْبِهُ لَوْنَ المَذْقِ". المهم سنأكل أكل الذئاب فنحن في ضيافتهم.

هذا المكان أحسنُ بكثير من بعض زنازن المقاطعة الثالثة بعين السبع حيث يسير القمل في صفوف كالنمل. كما أن كراج المحكمة أحسنُ من قبوها حيث يتبعثر الخرا، كما سنتسمع وسترى.

لحظة شروء

بعد أيام في السجن حُشرنا ذات صباح باكر في صندوق حديدي متحرك، بل متدحرج مرتج. التصقْتُ بالشباك الصغير الصَّديءِ باحثاً عن نسمة هواء وشُعاع من ذلك الصباح المبلل في الخارج. لا يكاد بصري يَسْتَقِرُّ على صورة حتى تنفلت وتغيب، إلى أن توقفت الناقلة لحظة، بسبب الزحام، أمام مقهى بزاوية تقاطع 11مارس والياقوت.

استقر بصري على فنجان قهوة على الطاولة أمام زبون منشغل بفتح علبة سجاثر. تتبعت كالحالم خيوطَ بُخارٍ يتصاعد من الفنجان. قارنت حالي بماسح أحذية يلمّع حذاء زبون آخر. دارت في النفس أسئلة: هل نحن المعتقلين النقابيين/السياسيين نعني شيئاً بالنسبة لكل هؤلاء الناس الذين يتناولون القهوة ويلمعون أحذيتهم ثم ينصرفون؟ ما نقوم به بطولات أم أوهام؟ هل نحن المغاربة مجرد قطع ثيران وحشية: حين يعلّق أحدها بمخالب الأسد ينصرف القطيع مذعوراً يسابق الريح؟!

ماذا يعني هذا القفص الذي يمر من هنا كل صباح بالنسبة إلى رواد المقهى والمحلات التجارية وجمهور العابرين؟

ساورتني مشاعر متناقضة شغلنتني عن حركة القفص المتحرك إلى أن وجدت نفسي أدفع بعنف داخل قاعة المحكمة. العين شرهة، تتجول في أرجاء القاعة بحثاً عن وجوه الأقارب والأصدقاء.

وقع بصري على الرئيس علي، بحارٌ جاء من مدينة أكادير لمؤازرتنا معنويا. ابتسمتُ له فرداً بأحسن منها. ضم أصابع يده اليمنى ورفع إبهامه تشجيعاً وتضامناً.

استطرد: قال لي مرة، فُيِّلَ الاعتقال، ممازحاً: رجال التعليم "صُعاب"، وضحك حتى تحولت جبهته إلى أخاديد نحاسية محروقة، ثم أضاف: هم

وحدّهم الذين يزعمون المخزن، يفرضون عليه أن تجلس معهم على مائدة واحدة، ويتكلمون أمامه بصوت لا تملج فيه! (أو لا قففة فيه).
من يستطيع ذلك؟ أنتم خطر!

أما نحن البحارة فلا يعبأون بنا، يضعون أيديهم في جيوبنا كما يضعونها في جيوبهم.

ومن غريب الصدف أنه عاد إلى هذا الموضوع، عشر سنوات بعد ذلك، حين مدّ عاملُ مدينة أكادير، سنة 1988، يده إلى جيبه وأخذ دفترَ الشيكات ودفعه إلى أحد الموظفين وقال له: "أكتب ستة ملايين، مساهمة من الرئيس".
في بناء مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء. حكى لي ذلك بآلم.

قال لي الرئيس علي: وقتها تمنيت أن تكون لدي ثقافة معلم، وشجاعته، بدل كل ما أملكه، (وكان يملك عدداً من بواخر الصيد الشاطئ). انتم لا تدركون نعمة العلم، ولا تعلمون لماذا يحقد عليكم رجال السلطة والبوليس، إنهم يشعرون بالدونية برغم ما بيدهم من سلطة، "أنتما صعاب! خطر!".

كان الرئيس وبعضُ أصدقائه من البحارة يستقبلون سيدة من فاس. يتبرّكون بقدراتها الخارقة على إنزال البواخر الجديدة للبحر من خلال إحضار الرخص المطلوبة من الرباط في رمشة عين. كان التأخير في نزول الباخرة يُكبدهم خسائر كبيرة، إذ كانت الأقساط، أو "التريئات"، تؤدّى بعشرات الملايين والباخرة متوقفة، غير منتجة. كانوا يفضلون تقديم القرابين والذبائح للسيدة المذكورة على مواجهة الأبنك التي لا ترحم. ومن قدرات هذه السيدة طي الأرض تحت أرجل المعلمين والأساتذة والممرضين حيث يرفع أحدهم رجله من آيت ملول، بضواحي أكادير، ويضعها في سانية الرمل بتطوان بقدرة قادر، بقران أقلّ عشر مرات من قران الباخرة. وكان الرئيس وعائلته ينزلون ببطحائها بفاس... ويزوروننا في الحي الحسني فننقاسم الأخبار، لا البركة؛ هم في وادٍ ونحن في وادٍ.

سمعتُ الكثير من الخوارق والعنتریات التي مارستها تلك السيدة في فاس والرباط وأكادير، ولكني سمعتُ أيضاً عن انكسارها وأقول نجمها. مما قيل في هذا الصدد أنها اقتحمت بابَ أحد المسؤولين الكبار في الرباط فتم صدُّها فبقيتُ تنتظره إلى أن خرج من مكتبه فبصقت على وجهه أمام الملاء. فأقيم عليها الحد جلدًا على الطريقة القديمة. وقد بلغ من هوان أمرها، بعد ذلك، أن صار موظفٌ متوسطٌ في القسم الاقتصادي في العمالة يرفض استقبالها دون أن يخشى عقاباً.

أنا نفسي وصلنتي بركتها مرة. استفادةٌ غير مباشرة، قد تكون علمتُ بها أو لم تعلم: كان الرئيس علي (وسُيُسمَّى، فيما بعد، الحاج علي) يهْمُ بوضع كيس مُشكَّل من أنواع رفيعة من الخمر في صندوق سيارتها المتوقفة قريباً من سيارتي أمام منزله بحي تالبرجت، ففوجئ بحضور من لا يودُّ أن يكتشف أمره، أو أمرها، فما كان منه إلا أن وضع الصندوق - مؤقتاً - في أقرب مكان؛ وأقرب مكان هو صندوق سيارتي، وهو لا يعلم أننا كنا نشحن أمتعتنا تأهباً للسفر، لا إلى البحر كما جرت العادة. لم يكن الرئيس حين عرفته، وإلى حين وفاته يشربُ الخمر. كان يلعب في ميدان آخر أعطاه الشرع رخصة، وعبث فيه البشر نزهة.

في التاسعة مساءً رن الهاتف بمنزل صهري بالمحمدية، بعد وصولنا بحوالي الساعة. رفع مستقبلاً المكالمة رأسه وقال:
"الحاج علي يسأل عن الأمانة التي وضعها في صندوق سيارة الأستاذ العمري"؟!

الكل كان يحملق في ليعرف طبيعة الأمانة التي لا يريد الحاج أن يعلن عن كنهها. اختليتُ بسماعة التلفون في الغرفة المجاورة وأجبتُه جواباً مغريباً مختصراً، بالدارجة: "هلا يدوزك منين دازت الأمانة"، وترجمته: لا أمرك الله من حيثُ مرّت تلك الأمانة، أو ستمر. ضحك كثيراً إلى أن صار

يشهق كالعادة، ثم قال:

"ألم أقل لك، أنتم المعلمون خطر. خلي هذا الهدرا بيني وبينك (أترك هذا الكلام بيني وبينك)، البحارة من اقتناها، وأنا مجرد حامل لها".

قلتُ له: مأجور إن شاء الله! كلُّنا مأجورون: للبحارة أجرُ المشتري، ولك أجرُ الحامل، ولنا أجرُ الشارب. ورحمة ربك وسعت كل شيء، عدا الشرك.

شؤوننا الداخلية

بعد جلسة الصباح أنزلنا إلى قبو المحكمة في انتظار المساء. كانت متاناتُ البعض على وشك الانفجار. المعركة حامية حول السطل: المرحاض. عندما جاء دوري لأبول في سطل المحكمة بولةً حبستها طوال الصباح، كانت رغبة البول قد لامست حافته.

كانت روحُ صاحبي قد بلغت الحنجرة. تذكرُ عالمه الخارجي، وتذكر عدالة تركها عشواءً تائهةً في الطابق الأعلى، عدالة بطعم المغرب المسروق، عدالة بمزاج "ثابت" وأمثال ثابت ورؤساء ثابت، وغيرهم من الذئاب الذين يفترسون كرامة شعبٍ مباحٍ؛ أوهنه التقدير، وكلَّخه التجهيل. ألصق أنفه بالشباك الحديدي الشبيه بشباك قفص القردة بحديقة الحيوان باحثاً عن نسمة رطبة تأتي من عمق المغارة. أتخيلُ الآن تلك الزنزانة/القبر أوسع من المترين والنصف في مثلهما. عشرات الأظناء حُشروا معنا في هذه الأمتار.

مع حرارة الأجساد المتزاحمة ارتفعت روائح الأبوال القديمة، ارتفعت روائح الأبوال الجديدة، امتزجت بالروائح النفاذة المنبعثة من أجساد لم تعرف غير العرق، غير التوتر النفسي، غير الأرق والإرهاق، منذ أسابيع.

أحسستُ بالاختناق، بدأتُ التحرك بين المناكب والركب نحو الباب. لا شيء يشبه رائحة بول المحكمة الابتدائية غير رائحة المغرب وقتذاك في المحافل الدولية. وقتها كان مندوبُ المغرب في الأمم المتحدة يبدأ حشرجته المستهجنة السخيفة بالاحتجاج على المتدخلين في "شؤونه الداخلية". يتهمهم بخرق بند من

قانون الأمم المتحدة؛ البند الوحيد الذي صادق عليه المغرب راضيا.

شؤوننا الداخلية، هي هذا الحديث "غير الحسن" الذي رواه "البخاري" عن البصري عن الدليمي عن أفقير، إلى نهاية السند. هذا الواقع الذي كان يمسحُ وسخه ويُلَمِّعه أشخاص مثل با حنيني وعبد الهادي بوطاب وأحمد بنسودة والمكي الناصري وغيرهم من مدبجي الخطب ومداحي النظام المخزني المتورط في اغتيال الأطفال الأبرياء وقتلهم صبرا في معتقلات سرية.

كنتُ وصاحبي النقابيين الوحيدين المُقحمين هذا اليوم بين مساجين الحق العام في هذه الخرجة من سجن غيبيلة إلى المحكمة الابتدائية. أغلبُ المحشورين معنا هذا اليوم كانوا من ضحايا مdahمة نهاية الأسبوع، "لاراف" la rafle. ومع مرور الوقت أطلق سراح بعضهم، فبدأ الازدحام يخف. تكشفت أرضية الزنزانة عن بركة من البول تحيط بالسطل وتتسرب نحو الباب، وفي الزاوية خربة طرية مهلهلة، تخلص منها صاحبها خلسة في قمة الازدحام. ما نحن في صنع الله وعلمه إلا بشر، أما في نظر المخزن والمنفعين من فلسفته فنحن تراب يُداس، أو يحشر في أكياس، لا بد من إخساء الجميع، من إذلال الجميع، لكي يزدهر ثابت ويتفتح، بعد سنوات قليلة، في المنطقة نفسها التي خرجنا منها.

في قبو المحكمة، بكل ننانته، التباس. حتى الوقاحة تخجلُ أمام ما يجري في الطابق الأرضي، في ذهن "المغرّق". جال وصال، وتشدق في الكلام، ثم نفث ما أُملِي عليه مُطالباً "بعشر سنوات" سجنا نافذا لمخزيين حرّضا رجالَ التعليم على الإضراب. قالها خارج أي توقع: "عشر سنوات"! للتحريض على ممارسة يضمنها الدستور! حتى القاضي بهت.

ولأن الوكيل لا ينطق عن هواه، بل عن وحي يوحى إليه فقد بدأتُ آخذ المسألة مأخذ الجد. استعرض التهم المشتركة بيني وبين صاحبي، من تحريض وإثارة شغب وتخريب للملك العام، ثم خصّ العطار بوغالاب بتهمة تهديد مدير

الثانوية بسلاح أبيض، وخص العمري بتضليل الضابطة القضائية.
لست أدري ما موقع التضليل في تصريحاتي. ربما يتعلق الأمر برفض
التوقيع على الاستتطاق الذي أنجزه البوليس بسبب الاختلاف حول لفظ
"مناشير" ... لم أفهم قصده بالتضليل.

هؤلاء الناس الذين قدموا هذه المطالب السجنية السريالية نسمع بهم هذه
الأيام يتسمنون المناصب الرفيعة جزاء لهم على ما قدموا من خدمات دينية.
هل بهذا سيتقدم المغرب؟

كانت وزارة الداخلية قد حاولت إرغام رجال التعليم على توقيع التزام
بعدم المشاركة في الإضراب، فلقيت معارضة شجاعة، فمارست كل
أنصاف العنف والتعسف ضدهم. من ذلك إن باشا، أو قائد الحي
المحمدي، جمع حوالي خمسين من رجال التعليم وجلدهم بسبب رفض
التوقيع، وإليه تنسب عبارة "أنا هو الدستور" جوابا لمن يحتج بأن الإضراب
حق دستوري.

اليوم، يا للعجب، تتجه اللعنة وأصابع الاتهام نحو سجن غبيلة وأمثاله،
وما هو أبشع منه: ماذا نفعل بسجن غبيلة؟ ماذا نفعل بدرب مولاي
الشريف؟ لا أحد يتساءل: ماذا نفعل بمن زودوا هذه السجون بالأبرياء الذين
رفضوا نزوات حكام متخلفين جاءوا من القرون الوسطى؟

ماذا عن مسؤولية الوكيل والقاضي، قبل الضابط الجلال؟
نقول اليوم: محاكمات زائفة! ونحاول إصلاح ما ترتب عنها، فأين
المزيفون؟ من حُسِنَ الحظ أن بعض القضاة لم يصابوا بعدُ بجنون البقر
الذي انتاب بعض رجال القضاء في ذلك الزمن الأسود، خاصة الوكلاء
الذين يسميهم المغاربة مغرقين.

قَبُو المحكمة الابتدائية، هذا العَفْنُ، ليس بعيدا عن "وجه الدار
البيضاء"، الوجه الأبيض الصقيل. إنهما متقابلان، ولكنهما كالوجه والقفا.

كثيراً ما يسألُ الناس شخصاً قليل الحياء: "وجهك هذا أم قفاك؟". كان المغرب جثة بدون وجه، الشيء الذي جر علينا الكثير من الويلات، منها قضية الصحراء.

في الوجه الصقيل، قرب البريد المركزي، يطير الحمام، يطيرُ أسراباً، وينزل أسراباً ووُحدانَ.

بالقرب من المحكمة الابتدائية، تحت الشمس الساطعة، يختلط الأطفال بالحمام. تسرح الأحلام تحت رذاذ النافورة ذات الألوان. باب البريد وساعة العمالة بنكهتيهما الكولونيالية، وتمثالُ برونزي كبير لفارس على جواد بالقنصلية الفرنسية، كل ذلك الماكياج ممدود على جوانب قبو المحكمة.

يطيرُ الحمامُ من النافورة فيرتفع عالياً. يتلافى الحمامُ، كلُّ الحمامِ، شارع الحسن الثاني محلقاً نحو الجنوب. يخطُ على كل المباني، ويحط أيضاً على الوجه الخارجي من بناية المحكمة الابتدائية.

حين يأخذُ الأطفالُ والعشاقُ صورةً تذكاريةً أمام النافورة وبين الحمام تتسلل المحكمة الابتدائية إلى خلفية صورهم، تُعير وجهها المصطنع خلفيةً لذكريات الحمام والأطفال والعشاق والأزواج السعداء، تُخفي سواتها الموحشة تُسرّبُ عارها من الباب الخلفي حيث يتزاحم المبلغون والوشاة وشهود الزور والمتملقون. الوشاة والمتملقون قُرادُ العدالة، وقراد السياسة حين يتزينون بالألقاب والنياشين.

بعد العودة من الجلسة إلي القبو مرة أخرى عرفَ الطوسي هويتنا فتغيرت الحال. الطوسي حارس أمنٍ على أبواب التقاعد مُكلفٌ بالحراسة ذلك اليوم. أخبرنا أن بعض أفراد أسرته ينتمون لأسرة التعليم. فصلنا عن سجناء الحق العام في زنزانة خاصة مضاعة ومُهواة قرب السلم. أعطانا أهم شيء عنده في ذلك المكان. أعطانا كرسيه الخشبي الخاص لنتناوب عليه، كرسيٌّ أنهى خدمته في الطابق الأعلى فأحيل على التقاعد في القبو، بل

أعطانا ما هو أهم من الكرسي في ذلك المقام،
أعطانا الكلام. حدثنا عما يجري في الخارج.
سجناء الحق العام يتحدثون في الغالب بعفوية، سواء قالوا الحقيقة أم
التفوا حولها ناسجين أنواعا من الأساطير... وكلما وقع اختلاط جديد، أو
حل ضيوف جدد، كلما عمَّ الفضول لمعرفة سبب الاعتقال. الكل يسأل عن
سبب الاعتقال، عن الموتيْف motif، وبعضهم ينطقها "المُنتف". صفتنا
النقابية/السياسية، وهيئتنا الخاصة تُعشِّم الآخرين، تغريهم بالسؤال عن المال،
عن الاحتمال، عن العدالة.. وعن المال المحتمل أو الواجب تقديمه للإفلات
من المأزق، كل شيء بالمال. وهم على سذاجتهم، أو شدة دهاء بعضهم، مثل
البوليس؛ تقول لأحدهم أنك "معنقل نقابي"، فيترجمها في الحال إلى "معنقل
سياسي"، ويُخَمِّن أنك "ضد الملك". فيضعك بين الاحترام والرغبة.
من بين المتطلعين إلى معرفة المصير مجموعة من الشبان، لم يستيقظوا
من ليلة ساكرة حتى وجدوا أنفسهم في قبو المحكمة، فتحول سكرهم إلى
كابوس.
يسألون: ما جزاء من "فَرَكَّتْ (أي شنت)" سهرة للشيخات نظمتها الحركة
الشعبية بمناسبة عيد العرش في الحي المحمدي، كجزء من إشعاعها الثقافي.
. قال أحد الفاهمين: "ناري كَحَلَّتْهَا" سيخلطونكم مع السياسيين
المضريين ... "شحال هَرَسُوا دِيال المدارس...".
قال أحد الفتية: "وا.. حُنا كنا غير سكرانيين، (سكرانيين لا غير). علاش
ما خلونا نَشْطُوا معاهم؟ وا.. يَنْشَطُوا غير هُما ! ما كاين غير جر لحبل،
سل لوتد، حتى نزل الكيطون على من فيه... أنا كسرت الكمنجة على
راس واحد تايفهم بزاف".
عَلَّقَ سجينٌ بصوت عالٍ من الزاوية الأخرى: "عندكم الزهر مللي
سكرانيين"، سيخفون عنكم، أنتم محظوظون لأنكم في حالة سكر...

سألهم صاحبي عما إذا كان لهم حساب مع الحركة الشعبية، فظهر أنهم لا يعرفون ما تعنيه العبارة أصلاً. ولذلك وجه السؤال:
أش هي الحركة الشعبية؟

فلم يجدوا جواباً، فتطوع أحد السجناء من خارج المجموعة قائلاً بالحرف: "داكشي للي تيواسو الناس الشعبين بحال اللوبيا والشعرية"، الشيء الذي يمارسه، أو يتناوله الناس الشعبيون كالقطني والمعجنات... لم يبق خارج دائرة البوح والتواصل داخل الزنزانة غير شخص أحكم ربطة عنقه. عليه ملامح بيروقراطية خانقة، تتدلى من عنقه سلسلة من الذهب بارزة. يريد أن يتحدث معنا نحن الإثنين دون أن يسمع هؤلاء الأوباش ما يقول. هو أيضاً مثل حكومة المغرب عنده شؤون داخلية. وعند عودته من الجلسة فاحت رائحته، وشاع خبره بين السجناء، إنه متهم بإصدار شيك، أو شيكات، بدون رصيد. كان سائراً، ذلك الصباح، إلى العمل كالعادة، ما كاد يوقف سيارته أمام المقهى الذي تعود على أن يفتح فيه عينيه بكأس قهوة مُرّ حتى أمسكت به يدٌ غليظة. بقيت السيارة في مكانها، لا يدري ما حلّ لها.

في نهاية الظهيرة، جاء مُرسَلٌ خاص يسأل عنه، نزع السلسلة الذهبية الغليظة من عنقه وسلمها للحارس ليسلمها بدوره للزائر ، يجب تغطية الشيك أولاً"...

بنات الليل

من شباك الزنزانة المقابلة للزنزانة التي نُقلنا إليها، قرب الباب، تُطل فتياتٌ ثلاث. جيء بهن من علبة ليلية على الحالة التي ضبطن عليها: شبه عاريات، أو شبه لابسات. واحدة منهن تسيّر حافية حاملةً حذاءها في يدها بعد أن هدّ الكعبُ العالي قامتها. اختلطت مساحيقها الحمراء والخضراء بالدموع السوداء فصارت مثل ذنب طاوس أو لوحة تجريدية. تبحث عن يخبّر أمها الحبيبة بما

وقع لها. وجد صاحبي تسلية في الحديث إليهن:

من أين جئن،

وكيف اعتقلن،

ومتى تم ذلك...الخ.

ظل متعلقا بالشباك الحديدي يهزه أو، بالأحرى، يهز به جسده من حين لآخر، يُصرف طاقة توتر زائدة.

نحن معا قلقان، غير أن ترجمة الفلق تختلف؛ كنتُ أذرع الزنزانة جيئة وذهابا في صمت. لقد صرتُ أكثر قدريَّة بعدَ توالي المآزق. أنا صانع مآزق منذ البداية، منذ كنت تلميذا في الابتدائي ثم الثانوي، هذا قدرِي. كنت في الحقيقة أهْيُ الظروف لقرحة المعدة والتهاب الأمعاء، كنت عَصِي الدمع في تلك المواقف، وكان هو يُرسله ويلومني على ما يعتقده برودة أعصاب.

حاشية: حين طردني المجلس التأديبي نهائياً، وأنا تلميذ في مستوى الإعدادي، بسبب ردود فعل عنيفة دُفعتُ إليها دفعا، تسكَّعتُ بشوارع تارودانت أكثر من عشرين يوما قبل أن يتشفع لي الأساتذة ويتمسكوا برجوعي، حين وقع ذلك كنت كالمسافر الذي يسقط من ظهر سفينة في عرض المحيط ثم لا يغرق... يقاوم الخوف، يقاوم العياء، ثم لا يغرق.

وقد تكرر هذا السقوط من على ظهر "سفينتنا" التي لم يكن يستقر على ظهرها في تلك الأجواء غير العبيد والقراصنة حتى صرت قدريا لا أعبأ بما يصنعه الناس، أو يكيدونه. وذلك يقينا مني أني سأصل إلى نهاية رحلة مقدره حُددت نوعيتها في أعماقي منذ الطفولة الأولى؛ من كلمات الوالد الذي كان يحفظني القرآن، ومن جميع الأساتذة المتنصوفة الذين صادفتهم في رحلتي. كانوا جميعا مقتنعين بأنني أسير نحو قَدَرٍ مَقْدور. لا أشك في أن جسمي ينتج مادة مخدرة، تتبعث في لحظات المواجهة، لا أستطيع التراجع مهما كان. أتذكر دائما قولة لأحد المعلمين المنتدبين حين اشتد الصراع بيننا وبين إدارة ثانوية

الكندي، في بداية المشوار، أوائل السبعينيات: ما يقوله العمري لا نختلف فيه، هو الصواب، هو على حق، ولكنه رجل صدامي، نحن نريد التقاهم. لكل ذلك لم أحس، خلال محاكمة 1979، بندم أو خوف أو اضطراب غير لحظة واحدة عابرة، حين طالب الوكيل العام بعشر سنوات سجنا نافذاً. تخيلت أشياء مزعجة.

والحقيقة أنني لو كنت اطلعتُ على صك الاتهام كما صاغه القاضي وهو يُعلل حكمه علينا لشعرت بجدية الموقف.

زياد بن أبيه

من الأكيد أنني كنتُ متوتراً حتى في اللحظات التي إختفيتُ فيها عن الأنظار بعد اعتقال صاحبي. كنت جالسا في قاعة المطالعة بالمكتبة العامة بالرباط في أمن وأمان مركزا على ما أنا فيه، فإذا بيد تقع في صمت على كتفي، اهتز كياني. وقتها اكتشفتُ أن الخوف كان يسكنني ويعمل في صمت. التفت بهدوء فإذا بزوجتي تقف فوق رأسي، وتهمس في أذني: "لقد اعتقلوا عبد الرحيم".

كان أخي الأصغر عبد الرحيم طالبا في كلية الطب بالدار البيضاء. رصد البوليس وجوده بالمنزل، أثناء غيابنا، فاحتالوا بإرسال طفلة صغيرة بريئة من بنات الجيران لتطرق الباب، وعندما خرج اعتقلوه، وحملوه إلى المخفر للتحقيق معه وتعنيفه. هذه سنة ذلك الزمن الرديئ الذي طبقت فيه تهديدات زياد بن أبيه:

"أقسم بالله لآخذنَّ الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدير، والمطيع بالعاصي، والصحيح بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: "أنجُ سعد، فقد هلك سعيد". (من خطبته البتراء).

ومع ذلك بقي أهل العراق ينگدون على زياد والحجاج حياتهما. قيل أن الحجاج أصيب بالأرق في آخر أيامه، وتدهورت حالته الصحية حتى صار

يقذف الدم، قَرَحَوْه.

وقد بلغَ هذا السلوكُ الهمجي الذي كانت تمارسه السلطاتُ في المغرب قمةَ الوحشية حين اعتُقل أطفالُ أفقر وزوجتهُ وُجِّ بهم في السجن قرابةَ عقدين من الزمن. وتكررت تلك التجاوزات عند بناء مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء، حيث تأكد وجودُ ذئابٍ وضباع بين المغاربة مستعدون لافتراس أبناء جلدتهم في أية لحظة. كلُّ هذا ونحن لا نخجلُ من تلاوة كلامٍ علَّامِ الغُيوب العزيز المننقم: "وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى"، وندَّعي السهرَ على حمايته.

من La paille إلى الـ P.P

خطوة إلى الوراء: من غرفة الضيافة توجَّهوا بنا جميعا، في الصباح الباكر، نحو لا باي la paille، أي التبن. طُلب منا، قبلَ ذلك، تسليمُ كل ما معنا من نقود أو غيرها. أنا ليس لدي ما أسلمه. وقتها تذكرت حزامي الجلدي الجديد الذي حجزوه عند دخولي للدائرة الخامسة للأمن، نسيْتُ أن استرجعه من مخفر الشرطة. حزام لا يساوي كثيرا، كان بإمكانني أن أنساه بسهولة، ولكن ذلك لم يحدث! ظلت أتذكره بمرارة أكثر من مرارة السجن نفسه طيلة سنوات. ولم أفهم طبيعة ذلك الإحساس الغريب ولم أتخلص منه إلا عندما سمعتُ أحدَ الجنود المصريين يشرح مقدارَ المهانة والألم اللذين شعرَ بهما، أكثر حتى من شعوره بالتعذيب، حين انتزع منه ضابط إسرائيلي، وهو أسير لا حيلة له، نظارته الطبية وسحقها تحت قدميه. لقد بقي شيء مني معتقلا هناك.

بل الغريب أنني لم أنشأَم قبلُ من ذلك الحزام رغم أن لحظة شرائه كانت لحظةَ مشؤومة؛ فيها، وبسببها، ضاع دبلوم الدراسات العليا، وضاعت سنوات من العمل المضني. لقد أدى هو الآخر ثَمَنَ تلك اللحظة؛ حُكِمَ بسجن سيكون مؤبداً حول بطن غير نظيف.

التبنُ، أو la paille، عُرفَةٌ مربعة، كبيرة نسبيا، مفتوحة على غرفة

مستطيلة صغيرة. وفي طرفها المقابل على يمين المدخل مرحاض ودوش، على بابها ممر ضيق طويل، هو مكان الاستراحة . ترتفع على جنباته جدران عالية فتزيدك شعورا بضيقه.

يُكدّسُ السجناء الذين ليست لهم حيثيات - لا هم سياسيون ولا نقابيون، ولا أصحاب وجهة أو سلطة أو مال - في هذه الغرف كما يكس التبن. إنها مكان تجميع الحثالة. والغالب أنني وُجهت مؤقتاً لهذا المكان بناء على ملاحظة من الوكيل، إذ لم يفتني التنبيه إلى صفتي أثناء عملية التسجيل والفرز، كنت أطلب بإلحاح الإلحاق بالنقابيين.

في "لاباي" السجناء سادة أنفسهم كما يقول نواب البرلمان! الكل يشرّع في مكان نفوذه. ليس هناك من إمكانية للاتصال بالحراس إلا أن تصادف أحدهم ماراً أمام باب الممر الخارجي أثناء الاستراحة القصيرة، بعد العصر. أما في غير ذلك فالسجناء تحت رحمة بعضهم.

الغرفة الصغيرة الداخلية مُحْتَلّة رسمياً من طرف الغلاظ الشداد من قداماء المجرمين، مفروشة في أغلب الوقت. الغرفة الثانية مفروشة منها ما يلي الحائط من قِبَل القداماء. أما الجدد فليس لهم مكان قار، يتحركون في المربع المتبقي في الوسط، وفي المرحاض/الدوش. عند النوم يُلقَى فراش جماعي "للبادا" في المربع الأوسط، ويرصفون فيه كما يرصف السردين في العلب. (والبوجادي في أية صنعة هو الجديد الساذج الذي لا خبرة له ولا نباهة). صفان متشابكان؛ الرؤوس بين الأرجل: (ز و ت)، كما يقولون. وفي الصباح ينادي المنادي: "اجمع وطوي..."

نمت دقائق، في بداية الليلة الأولى، نتيجة التعب. ثم أحسست بالضغط فجمعتُ رجلي لتغير وضعهما، ثم حاولتُ مدهما من جديد فوجدت مكانهما قد امتلأ برأس غليظ. وبدأت أنكمش من الضغط حتى وجدتني جالسا القرفصاء، ثم واقفا. قضيتُ بقية الليل واقفاً في المرحاض. أحسستُ بحركة

وتتمثل في عنقي فمددت إصبعي لأمسك بقملة غليظة. تَقَزَّزْتُ واقشعر جسدي. رميتُ بها بعيداً، ورجعت أتحسس مكانها من عنقي، كان ملتها. أمضيتُ اليومَ الأولَ مَذهولاً، لم أنبس بكلمة، أتتبع أصوات "البراحة" المُنادين على السجناء للزيارة من خارج العنابر لعلّي اسمع صوت واحد من المعتقلين النقابيين.

هل يوجدون هم الآخرون في لاباي؟

لا يُعقل. مائة وستون سجيناً في غرفة واحدة! أما في اليوم الثاني فقد ظلمت، طوال لحظة الفسحة، ملتصقاً بالشباك لعلّي أصطاد أحد الحراس، مع ما جلبه علي ذلك من استقزازات القادة الكبار الذين كان كل واحد منهم يسأل ويستطلع الإمكانات المادية الكامنة ورائي للدخول تحت حمايته. وأخيراً جاءوا يسألون عني. ربما انتهت العقوبة، أو استيقظ هاجس ما.

نُقلتُ في مساء اليوم الثاني، وأنا في غاية الإنهاك سهراً وجوعاً، إلى جناح البيبي P.P. حيث يُعتقل الأطفال، أو صغارُ السجناء. من التبن البشري إلى السجن الانفرادي. غرفة لا يتجاوزُ عرضُها، فيما أنتصرون اليوم، ثمانين سنتيماً في طول مترين. شبيهة بمواقف تثبيت الخيل قبل السباق. بعد لاباي الكلُّ يطيب، بعضُ الشر أهونُ من بعض. الفراش عبارة عن لحاف رقيق متلاش لا يَرُدُّ بُرودةً ولا يُلطِّفُ خشونة.

وأنا أتهيأ للاستلقاء من فرط العياء فُتِحَ الباب فإذا حارسُ الجناح، مولاي أحمد دوغالون حاملاً غذاءً شهياً من نوع خاص، مجموعةً من كتب التاريخ والجغرافية والمطالعة وغيرها مما يستعمله التلاميذ السجناء. "كتبُ أرسلها إلي أستاذ الفلسفة أحمد قابيل الذي سبقني إلى هذا المكان منذ أيام في نفس الملف. يقبع هو الآخر في سجن انفرادي قريب مني. كان الأستاذ قابيل من نشطاء الإتحاد الاشتراكي في منطقة الحي المحمدي. وعندما حمي وطيس المعركة في هذا الحي في ظروف الإضراب كانت عيون البوليس ترُقُّبه

وتتظار أي مبرر لإلقاء القبض عليه. جاءت الفرصة حين اقترب من الفخ، من الثانوية الملتهبة، حضر اجتماعا لأولياء التلاميذ بثنائية مصطفى المعاني، وخاض في المشاكل التي تعاني منها المؤسسة، فبُغ به باعتباره أيضا من المُحرضين. أُعْتُقِل في الوقت الذي كنت فيه فائرًا مختفيا عن أعين الشرطة، ونال نفس العناية التي نلناها.

علم أحمد قابيل بالتجربة ما سأكون عليه من حُرقة للقاء الحروف بعد عزلة المخفر. ما إن رأيتُ الأوراق حتى نسيْتُ التعب والجوع، وانسحب النوم. أقرأ وأعيد القراءة وأستجدي المزيد من مولاي أحمد مباشرة. قضينا وقتا قصيرا في معتقل الصغار نتقلب يمينا ويسارا ليلَ نهار، ثم نقلنا معًا إلى زنزانة في الحي الأوربي حُشِر فيها خمسة أشخاص. هناك وجدنا بقية الإخوة من رجال التعليم والصحة، حوالي الثلاثين. هي المجموعة المحركة للكونفدرالية بالدار البيضاء.

كانت الداخلية قد التقطت كلَّ العناصر النقابية القيادية المهمة في نظرها، مع بعض النشطاء من رجال التعليم والصحة قبل الإضراب، البعض وضعته في السجن، والبعض الآخر أوقفته عن العمل، أو طردته بدون محاكمة، كان إدريس البصري مُفَوَّضًا للقيام بما يراه، تماما كما كان أفقير بعد انقلاب الصخيرات.

في عالم دوستوفسكي

حين انتقلنا إلى الحي الأوربي أتحفنا الأستاذ أحمد قابيل بروايات دوستوفسكي بترجمة سامي الدروبي، وهي ترجمة تشعر معها أنك أمام نص أصلي. لم يسبق لي أن عرفتُ الأستاذ قابيل، كما لم يسبق لي أن قرأتُ شيئا لدوستوفسكي. غرقنا معا في هذا العالم التخيلي الرائع. هناك تعرفتُ أيضا على قارئ لا يتعب من القراءة، الأستاذ لكبير بزاوي، الأستاذ الجامعي، والبرلماني السابق. واستمعتُ لحكايات، وعرفتُ أشخاصا آخرين

لا يستطيعون تثبيت عيونهم على الصفحة الأولى من الرواية إلا ويغال بهم
النعاس فيغلبهم. والله في خلقه شؤون.

كنتُ قد شرعتُ قبل الاعتقال بشهور قليلة في إعادة صياغة رسالة
الدراسات العليا التي سُرقت مني بعد الانتهاء من تحريرها أواخر 1978.
وتحسباً لما سيقع هياتُ علة فيها بعضُ ما يفيدُ في صياغة التحقيق
والدراسة. ولذلك يجد القارئ في مقدمة كتاب: الإفرائي وقضايا الثقافة
والأدب، أن هذا العمل أنجز في "الضيافة"، أي في ضيافة اللثام، من
أعداء الورق والقلم.

كان من جملة الكتب التي طلبتُ إدخالها إلى السجن مسرحيات
يونسكو، منها: الملك يحتضر Le roi se meurt . وصلت اللائحة كاملة
إلا هذه المسرحية، فقد ظلت معتقلة عند إدارة السجن. استرجعتها من
حارس الجناح يوم الإفراج، استدعاني إلى مكتبه وسلمها لي وعليها خاتم
السجن دون تعليق. مجردُ الحديث عن موت الملك، أي ملكٍ يُعتبر شبهةً،
ولو كان ملكاً من نسج الخيال. ومع كل ذلك الحذر وذلك الخوف مات
الملك. البقاء لله، والغباء للبشر.

كتبتُ هناك في الزنزانة الفصلَ المتعلقَ بالحياة السياسية في عهد
السلطان إسماعيل. شددت انتباهي علاقته المتوترة بالمتقنين، خاصة حين
رفض الفقهاء تملكه عبيد البخاري. كتبتُ عن ذلك الزمن وأنا أستحضر
كلَّ ما أريدُ أن أقوله عن الحسن الثاني وعصره. تخيلتُ أن مهمة المتقنين
الحاليين، وفي كل عصر، هي أن يرفضوا تملك المغاربة لأي كان. كان
ما كتبتَه محاكمةً حيّةً من وراء قناع رقيق. وعندما قرأ الأستاذ المشرف
الدكتور عزت حسن، متعه الله بالصحة، ذلك الفصل خاب ظنه وغضب.
قال لي، شكر الله توجيئه: خيبت ظني، لن تكون باحثاً ما سرت في هذا
الطريق. انس هذا الكلام، وانس اللحظة التي كتبتَه فيها، فقد يجر عليك

الأذى، للكتابة الأكاديمية قواعدها.

أعدت صياغة ذلك الفصل من جديد حتى أصبح على الصيغة التي طُبِعَ بها في كتاب: الإفراني وقضايا الثقافة والأدب. وهي الصيغة التي لقبِتَ القبولَ والثناء. ومن يومها فتحتُ قناةً لتصريفِ مواقفي وتسجيل وجهة نظري في القضايا السياسية والاجتماعية... قناة الكتابة الصحفية. وتركتُ الكتابة الأكاديمية تأخذ أصولها وقواعدها من موضوعاتها وما صيغ في تلك الموضوعات من نظريات كونية محايدة. وفي السنوات الأخيرة صار المساران (الأكاديمي المحايد والصحفي "المتحيز") يتقاربان من خلال تناول القضايا السياسية تناولا بلاغيا، أي من زاوية علم الخطاب ونظرية الإقناع، وهذا أمر مشروع ولكنه يلتبس على غير المختصين. ويستعظمه أنصافُ المثقفين الذين لا يرون أكثر من نقلتين أو ثلاث على رقعة الشطرنج.

مع سجناء الكسكس

وجدنا في الزنزانة الجديدة بالحي الأوروبي مجموعةً من طلبة التربية البدنية، من المركز التربوي بعين السبع، اشتهروا بـ"سجناء الكسكس". كان القاضي يناديهم: "بدران ومن معه". متهمون بإهانة المقدسات لأنهم فضلوا الدجاج على الكسكس، الأكلة الوطنية. كان من العادة أن يتناولوا الكسكس يوم عيد المؤمنين، يوم الجمعة، في حين يقدم الدجاج يوم الأربعاء "يوم الجُمباز والتقفاز".

فوجئ الطلبة الأساتذة بالكسكس يقدم لهم يوم الأربعاء، فاحتجوا على ذلك مدعين أن هذه الأكلة الوطنية العتيقة تؤدي إلى انتفاخ البطن والاسترخاء. ربما كان الإداري المتتبع لشؤونهم يترصد بهم منذ مدة نظرا "لسخونة رؤوسهم" كما كان يقول المرتشون من أذئاب المخزن. وعندما جاءت الفرصة، نصب الفخ، فربط التغيير بعيد العرش:

"ترك الدجاج ليوم الاحتفال!"

ربما رد عليه أحدهم، حسب صك الاتهام، بقوله: "الذي يهيم الطلبة هو الرياضة". فاعتقلوا جميعاً، من قال ومن سمع، وقُدِّموا للمحاكمة بتهمة إهانة المقدسات: عدم الاهتمام بعيد العرش!

كانت المقدسات تتسكع في كل مكان مُتبرجةً تبحث عن من يتحرش بها. حتى "حسن"؛ المواطن النكرة المسكين الذي طارده زملاؤه في الحي المحمدي: "وَا حسن وَا حويسين"، وجدَ نفسه في السجن حين أظهر الضجر من اسمه. كان يقسم بالله أنه لم يكن يقصد حسناً آخر غير نفسه، ولكن ما وقع وقع. كان عليه أن يُغيّر اسمَه قبلَ أن يلعنه. فلو كان اسمه قدور أو قُديديز أو بخوش أو خربوش لما لامَه أحدٌ لَعَنَ بخوشاً أو أباه. وهذا الداء ما زال سارياً "كالعُر"، يَكْمُن أحيانا ثم ينتشر"، فنقدس حجراً أو طقُسا أو متمجِّداً من الأذُناب... ونريد مع ذلك أن نتقدم!

بعد ثلاثة أشهر جمعتُ عائلتُ ثلاثة من هؤلاء الكسكوسيين "الحصة المطلوبة" للإفراح، وامتنعت الأسرة الرابعة عن المساهمة في الاكتتاب، كانوا يتحدثون عن رجل من صنهاجة سيقربهم من الخلاص، واسطة خير. أبو بدران كان، فيما كنتُ أسمع، ضابطاً في الشرطة، امتنع من الأداء. هل امتنع نزاهة أم لاعتبار آخر، الله أعلم؟

خرج الثلاثة المنصاعون لصوت "العدالة" براءةً، جمعوا أمتعتهم وتركوا بدران يذرف الدموعَ السَّخَانَ، لقد حُكِمَ عليه بسنة سجننا نافذاً. كان صلاح الدين بدران من ألطف خلق الله، خدومٌ حَيَّ طيب الكلام. عندما انتهت مدةُ اعتقاله تركته في السجن وفي قلبي حزن، وفي نفسي إحساس بالظلم. كانت إحدى قريباته قد حضرت من باريس حيث تعمل، وبدأت معركة أخرى مع الاستئناف.

في شهر غُشت، أي بعد حوالي شهر ونصف، سينزاح ذلك الغم الذي بقي في قلبي من أجله، جاء شخصياً إلى العنوان الذي تركته له بحي شاديا

يبشرني بفرحة من لا يصدق ما وقع. ضاعت سنة من عمر هؤلاء الشبان، انكسرت نفوسهم، من أجل ماذا، من أجل كلام فارغ قيل أمام مغاربة آخرين من ضعاف النفوس. والنهاية ماذا؟ سمسرةٌ وبيع وشراء؛ البعض أعطى 2500 درهم، والبعض أعطى وحده 10000 درهم فأصبحت المقدسات على أحسن ما يرام.

غادرنا هؤلاء الفتية من أصحاب الكسكس فألحقنا بمجموعة من معتقلي الصحة والتعليم، أو ألحقوا بنا، لا أذكر. بنموسى الكاتب العام للصحة، فرع الدار البيضاء، وآخرون، والتحق بنا أيضا الغرني، وهو مُعيد بإحدى ثانويات الحي المحمدي، وسنقضي كذلك بعض الأيام مع القرني الكاتب العام السابق للشبيبة الاتحادية ثم البرلمان، ثم الله أعلم، انقطع خبره، قيل إنه تدرج. قيل إنه مشى بسرعة خارقة فاصطدم بحاجز فتوقفت عربته.

كنا حين نستنزفُ إمكانات القراءة والكتابة نمارس لعبة الشطرنج. صنعنا قطع هذه اللعبة الذهنية المُسلية من أبواب الخبز مصبوغاً نصفه بمسحوق القهوة، وشغلنا أنفسنا. اللعبة مثل "الصنعة إذا لم تُغن تزيد في العمر"، تلك خلاصة قصة خلاص الأمير من قعر البئر.

مات الغرني بعد خروجه من السجن، قبل أن يستأنف عمله. مات مأزوما. يقال أنه مات بعد أن ابتلع علباً كاملة من الكاردينال المخدر الذي كان يتناوله لمقاومة حالات الصرع. كانت مرحلة التوقيف عن العمل، بعد الاعتقال، قاسيةٌ تحتاج إلى تدبير لم يتيسر له مع ما يعانيه من مرض عصبي.

كانت زنزانتي مقابلةً لزنزانية أعضاء الشبيبة الإسلامية؛ قتلة عمر بن جلون. كنا نلتقي بهم أحيانا في الممر وهم عائدون من الفسحة. ومرات كان أحدهم يُوضع في أريكة كبيرة، "قوطوي"، في الممر بين الزنازن. قيل إنه إبراهيم كمال، الرجل الثاني بعد مطيع، كان في حالة مرض. في أوقات الصلاة كان أحدهم يُلصق فمه بالشباك الصغير بالباب ويصيح بأقصى ما يستطيع. ردَّ

عليه الكُرنى مرةً بنفس الطريقة مُذكرًا إياه بالجريمة النُكراء التي لن تتفع معها صلاة ولا صيام. فجاء صوت الحارس متوعداً من بعيد.

التقيتُ أحدَ هؤلاء القُتلة في مصحة المستشفى ذات يوم، كنتُ أشكو حالةً إسهال، وكان يشكو من ضرس يظهرُ انتفاخها، تعرفتُ عليه بسهولة. كان الصفُّ طويلاً. غيّر مكانه واقترب مني سائلاً: الأخُ من النقابيين؟ كان يرغب في معرفة رأيي في موقف المحامين الذين يقاطعون محاكمتهم، قال لي: محاموكم يقاطعوننا؟ هذه هي... (لا أذكر هل قال التقديمية أم الديموقراطية).

قلتُ له: أنا هنا معك! لا علم لي بما يقع خارج السجن، ولكنني لو كنت مكانكم لما فكرت في هذه المحاكمة، بل سأفكر في المحاكمة التي ستجري يوم القيامة حين تُسألون عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق. فهمَ الخطاب، فدار دورة كاملة وانصرف.

القاضي ينسحب!

قضينا ثلاثة أشهر من الذهاب والإياب بين السجن المركزي "غبيلة" والمحكمة الابتدائية بالدار البيضاء. مسلسل من تأجيلات غير مفهومة. قيل إن القاضي ينتظر، مثلَ قضاة آخرين مكلفين بقضايا النقابيين، أن "يبرد الملف" قليلاً، وتخف يدُ الداخلية التي كانت تضغط من أجل عقوبات رادعة. مرةً رفع القاضي المنجلي الجلسة فجأةً للاستراحة، حوالي الخامسة والنصف مساءً، ولم يعد إليها، فانصرفنا. قيل إنه تذكر أبناءه في المدرسة.

كان القضاة يعلمون ما تنتظره الداخلية، ولم يكن في وسعهم، في تلك الظروف، غير الانصياع أو المراوغة. بعضهم يبوّح بذلك لأصدقائه من المحامين، وبعضهم يكابر. وقّع نفس الشيء في الاستئناف، إذ بدأ كلُّ قاضٍ ببرمج قضيتنا في الفترة التي سيخرج فيها عطلةً حتى تُحال على

غيره، حسب ما قيل. جُرِجِرَتْ أكثر من سنة ونصف، ثم حُكِمَتْ خِلْسَةً؛ في غياب كل الأطراف.

ذهبتُ مرة مع المحامي نستطلع التاريخ المرتقبَ لجلسة الاستئناف فوجدنا أن الحكم قد صدر بالبراءة في تاريخ سابق (27 غشت 1980). قلتُ للمحامي: هل يمكننا، الآن، أن نتابع الدولة ؟ هل لنا أن نطالب بالتعويض عن الضرر؟

أجابني بيأس: ليس في المغرب.

قلت: قد يأتي يوم.. من يدري. لم يُعَرَّ كلامي اهتماما. وقد أتى ذلك اليوم ولو نسييا.

مع كل هذا الذهاب والإياب فإنني لا أتذكر بالتفصيل غيرَ اليوم الذي قضيناه في الكراج، واليوم الذي قضيناه، في قِبو المحكمة، واليوم الذي ترفع فيه الوكيل مطالبا بعشر سنوات سجنا نافذا لهذين المخربين: العطار بوغالب ومحمد العمري. الأيام الأخرى والمشاهد الأخرى تُسَخَّ مكرورة، لا تستحق التسجيل. حين ينام الحس تستسلم الذاكرة.

انكشف الغبار

سَتَعْلَم حِينَ يَنْكَشِفُ الْغُبَارُ: أَفَرَسَ تَحْتَكَ أَمْ حِمَارُ

خرجتُ من السجن يوم 10 يونيو 1979، أي بعد ثلاثة أشهر، فوجدتُ في انتظاري فاطمة وعائلتها، وأخي عبد الرحيم مع قلة من الأصدقاء، أذكرُ منهم المخلص أبو القاسم. وكنتُ أعلمُ أن النقابة كانت تخصصُ استقبالاتٍ خاصة للمفرج عنهم. استنتجتُ من ذلك أن مسألة عدم أخذي بعين الاعتبار في تغذية السجناء من طرف النقابة والحزب لم تكن سهواً أو عطفاً تقنياً كما كنتُ اعتقد. إذن ليست هناك نقابة بل هناك حزب، وأنا لم أكن منتمياً للاتحاد الإشتراكي وقتها. كانت النقابة تُتهم في ذلك الوقت بأنها تابعة للحزب ومُقيدة بتدبير علاقاته مع الحكم، وكان الاتحاديون يحاولون دفع هذه التهمة

بإقحام نسبة من فلول اليسار الماركسي في الأجهزة القيادية. ومرة سمعتُ منصور، رحمه الله، يضرب المثل على استقلال النقابة بوجودي في المجلس الإقليمي للدار البيضاء، وأنا لست اتحادياً. غير أن الطبيعة تغلبُ التطبُّع، فيرتكبون مثل ذلك الخطأ. ولذلك حينما التقيتُ أحد مناضلي اليسار المشهورين، بعد خروجه هو الآخر من السجن، اقترحَ عليّ طرح قضية عدم تكفُّل النقابة بي في الجمع العام.

وبعد أيام من خروجي أدرك الإخوانُ في النقابة ذلك التقصير فاستدركوه؛ كَوْنُوا وفداً هاما زارني في منزلي، معتذرين بسوء التنسيق في ظروف انشغال حرجة، إذ كان أكثرهم، ذلك اليوم، في اجتماع في الرباط.

لم يكن هذا الاعتذارُ هو السببَ الحاسمَ في عدم طرح قضية التكفل، بل هناك مانع سياسي وآخر نفسي. فمن جهة كان الاتحادُ وقتها مثل نهر تَصَبُّ فيه كل الروافد: كل من ظلم واستعد للاحتجاج، أو أحسَّ بالحاجة إلى التضامن، يجدُ نفسه منتميا للاتحاد الاشتراكي بقطع النظر عن مرجعيته. ولذلك فأَيُّ احتجاج ضد القيادة التي أساءت التدبير يُؤوَّل مباشرة بأنه موقف من الحزب، أي ضد القاعدة الواسعة المتحركة. قلتُ مع نفسي: لو كان الاتحادُ هو فلان أو فلان لجاز الاحتجاج، ولكن الاتحاد كان مجرد موقع، أو منصة لتجمع المظلومين الساخطين على المخزن. كان "اتحادُ القوات الشعبية" اسماً على مسمّى. وهذا ما ستكشف عنه الأحداث عندما جان وقتُ الاختيار.

أضف إلى ما سبق أن الاحتجاج في هذا الظرف كان سيلتبس بالاستجداء:

هل أحتجُ على ما مضى أم أستجدي ما يأتي؟

خاصة وأن عملية التضامن مع الموقوفين ما تزال سارية، ولم أكن مهتماً بها. بل وقع أن تسلمتُ مرةً، مع زملاء آخرين، تواصلَ وثلاثَ يوميات من أجل بيعها للمناضلين على سبيل التضامن، فلم أنجح في بيع أكثر من ثلاثِ

ورِقات لأصدقاء قريبين جدا بالمحمدية، أحسستُ أنني أخرجتهم، بل بعثُ يوميةً لنفسي وأديتُ ثمنها، وأعدتُ كل ذلك، ما بيع وما لم يُبع، إلى الزميل العطار بوغالب في منزله بالحي المحمدي ذات مساء معتذرا عن العملية وما يأتي منها. ولم أَسلم أي درهم في إطار التضامن أو غيره. اقتنعتُ أنني قد أموتُ جوعاً ولا أَسول، أحسستُ أنني أَسول، أَسول على مائدة اللثام. كان الأصدقاء و"الإخوان" و"الرفاق" من إسلاميين وماركسيين، فضلا عن الهُجّاء الذين لا لون لهم ولا طعم ولا رائحة، يفرون منا خوفا من عدوى الشُبْهة أولاً، ثم عدوى الحاجة لا حقا.

كثيرا ما تساءلتُ عن العمل الذي يمكن لي ولأمثالي من أساتذة اللغة العربية والمدرسين عموما القيام به. فنوعُ التعليم الذي تلقيناه يجعلُ المرءَ مُدرّساً للتفاهات أو لا شيءَ على الإطلاق. مثُلنا مثُلُ هذه الجحافل التي تخرج اليومَ من شُعب الدراسات الإسلامية: إما إمامُ مسجد، مهما كان صغيرا، أو أُمِّي معفَد. ربما كان هذا من أسباب تركيزي على اللغات والإعلاميات ونظريات التواصل حين كنتُ بصدد إعداد مشاريع الدراسات العليا لاحقا. المُهم أنني خرجتُ من هذه التجربة ساخطا على نوع التعليم الذي تلقيناه، وسعيتُ ما أمكنني السعيُ لتدارك ما يمكن تداركه.

وإذا كان النزوع والموهبة، وظروفُ آنية أخرى، قد رَجَّحتُ توجيهَ البكر من أبنائي نحو الفيزياء، ونجح بحمد الله، فإنني حَرَصْتُ على توجيه الآخرين إلى التجارة والتدبير بعدَ إقحام الجميع في مجال الإعلاميات واللغات، ولذلك التقيتُ معهم في مقاعد الدرس، كما التقيتُ بهم في قاعات الرياضة.

تخيلتُ نفسي أحيانا صالحا للجلوس بباب مَخزِنٍ للدقيق أو الفحم، أسجلُ الصادات والواردات. في هذه اللحظة فهمتُ ما يَرِد في أخبار بعض الأدباء والسياسيين الذين فرضتُ عليهم ظروفهم السياسية الخروج من أوطانهم فأصبحوا حمالين في المواني ومحطات المسافرين، أو متسولين.

وإذا ما شاء مثلي أن يكون حمّالاً أو متسولاً، أو حتى لصّاً، فليس المغربُ هو المكانَ المناسبَ، هناك يد عاملة ومهارات عاطلة في هذه الاختصاصات.

لو ذات سوار لطمتني!

وما عن رضى يكونُ الحمارُ مطيتي ولكنَّ من يمشي سيرضى بما ركَبَ وأنا مُنكبٌّ على إنهاء الدراسات العليا سألني بعضُ الزملاء عما إذا كنتُ بدأتُ في الاتصال من أجل العمل في المدارس الحرة لتدبير شؤون حياتي. وهذا أمرٌ لم يسبق لي أن فكرتُ فيه. نادرةٌ هي المدارس التي تجرُّ، في تلك الظروف، على تشغيل الموقوفين والمطرودين، عيونُ إدريس البصري مفتوحة، وإذا فعلتُ فمن أجل الاستغلالِ البشع.

كانت الوالدة، رحمها الله، حزينه لمنظر تلك السيارة الراسية بباب العمارة منذ شهور يُغطيها الغبار. وقفتُ أمامها وترنّمت بأبيات أمازيغية تسألُ فرسا مهملاً تائها عن مصير صاحبه. ثم سألتني عما سأفعله.

هل سأطرق فعلاً أبوابَ المدارس الحرة؟

فكرتُ في أن أبقى معتكفا على إعادة صياغة رسالة الدراسات العليا بسرعة مكتفياً بالقليل، حتى إذا أصرَّ المخزن على الاستغناء عنا، واقتضى الحال مغادرة المغرب يُمكن الاستفادة من تلك الشهادة في البلاد العربية. الحقيقة أن مناقشة الدراسات العليا كان تحريراً لي .. ما إن انتهيتُ منها حتى صرتُ أرى نفسي خارج المغرب.. صارتُ أرضُ الله واسعةً فعلاً.

وتشاء الصدف أن يبادر أحد زملائنا، من قدماء طلبة كلية الآداب، السي أحمد لحلو، إلى فتح مدرسة حرة في وقت متأخر تلك السنة بحي الأحباس، معهد الأندلس، لم يعمر طويلاً. كانت للعطار بوغالب معرفةٌ به، بحكم الانتماء إلى منطقة الشمال. وكان الأستاذ لحلو هذا قد سبق له أن ساهم معنا بمحاضرة في إطار جمعية مدرسي اللغة العربية التي كنتُ عضواً بمكتبها بالدار البيضاء. وقد استقبلَ مجموعة من المطرودين، منهم عبدُ ربه

والعطار بوغالب وعبد الفتاح الكزيزي، وكلهم من ثانوية مصطفى المعاني.
كانت تجربتي في معهد الأندلس تتلخص في قولهم: "وَيْلٌ لِلشَّجِي مِنْ
الْخَلِي". هذه العبارة التي صاغتها الأغنية الشعبية في الصورة التالية: "ها
لفقايس ها لمحايين، ها للي راسو خاوي".

كان في القسم حوالي ثلاثة تلاميذ متميزين، أحدهم متفوق، والباقي مما
عافته المدارس الرسمية، ثم لفظته المدارس الحرة؛ مستوى في الحضيض،
ونفسيات أخط. لم تكن المدارس الحرة وقتها، خاصة الموجودة في المناطق
الشعبية، بديلاً للمدارس الحكومية، وخياراً آخر للهروب من الفوضى والمواد
غير المفيدة كما هو الحال الآن (العقد الأول من الألفية الثالثة)، بل كان
أكثرها يقوم بالنقاط كل ساقط من سفينة التعليم العمومي. بقيت علاقتي
بالتلاميذ متذبذبة إلى أن وافيئهم ذات يوم بنقط أول اختبار إنشائي، أردت
منه إشعارهم بحالتهم الحقيقية لننطلق لمعالجة ما يمكن معالجته. تراوح
أكثر نقطهم بين نقطتين وأربع نقط من عشرين. وكانت الأوراق المصححة،
كما استحضرها الآن، ملطخة باللون الأحمر.

لقد عملت بالتأكيد عمل شخص يبحث عن "قطع أسباب رزقه"، كما
قال لي زميل مصري حين رأى طريقة تصحيحي لأوراق طلبة كلية الآداب
بالرياض سنة 1995. تدهورت العلاقة. رفعوا الأمر إلى المدير. لم يكن
الأستاذ لحو يشك في كفاءتي، هذا شيء كنت أعلمه، كما أن تجربتي
الماضية، في بني ملال وفي الدار البيضاء، وارتياح تلاميذي، وتنوية
المرشدين التربويين والزملاء في أكثر من مناسبة، تبعد عني بدوري أي
ارتياب. لذلك رحبت بحضور المدير لمعاينة أحد الدروس، وهو بالمناسبة
مرشد تربوي. حضر الدرس وخرج راضياً، هنأني أمامهم ووراءهم. اجتمع
بهم ووجه إليهم اللوم ووعدوه بالانضباط والسعي إلى الاستفادة، فيما بلغني.

أما أنا فقد اعتبرت المناسبة مثاليةً للانسحاب من ذلك المستنقع. إنك لا تهدي من أحببت.

كان منهجي في التدريس يقوم على المساءلة، وكان هذا يقتضي مني التحضير ومن التلاميذ الانتباه الدائم، بعد إنجاز الواجبات المنزلية، وهذا لا يقوم به إلا النجباء من التلاميذ (والباحثون عن المشاكل من الأساتذة أيضاً). كان أكثر الأساتذة قد عودوا التلاميذ على الإملاء وعدم الإحراج بالأسئلة. وخاصة من جاءوا من تخصصات بعيدة عن اللغة والأدب في إطار الخدمة المدنية. زارتي مجموعة من التلاميذ، بعد ذلك، في منزلي مُنتدبين من طرف زملائهم فاعتذرتُ عن استئناف العمل معهم بشكل قاطع. "إن الزجاجة كسرنا لا يُجبر".

بقيت مدةً في منزلي مُعتكفاً على أطروحتي. قال لي مرةً أحد الأصدقاء المناضلين، كان يعمل في مدرسة حرة: لولا أنه يبني عمارة تتطلب الكثير، ويحتاج إلى مدخول إضافي، لترك لي أحد القسمين اللذين يُدرّسهما. وقد عرفتُ فيما بعد أن هناك من حثه، هو وآخرين، على التضامن مع المطرودين وإخلاء المكان لهم. بعدها تولى أحد الأساتذة عن قسم في مدرسة الإدريسي بساحة السراغنة لسبب لا أعلمه، وبعد شهور تولى عن القسم الثاني فتوليتُ تدريسهما. وبذلك حلَّ المشكل المادي إلى حين.

كان المرحوم حسين كوار القيادي في منظمة العمل الديمقراطي الشعبي يُسير هذه المدرسة نيابة عن صاحبها. كانت للمدرسة سمعة طيبة؛ حصل تلاميذها في تلك السنين على أحسن النتائج في البكالوريا على المستوى الوطني. وكانت مدرسة الإدريسي في عهد كوار ملجأً للكثير من المعتقلين، وهو نفسه من قدماء المعتقلين. لم يكن العملُ هناك سهلاً، ولكن التحكُّم فيه ممكن.

بعد الخروج من القسم، ذات يوم، مررتُ بمكتب المدير (أو لعله طلبني)

لأجد فيه أحد الوجوه البارزة من طلبة ظهر المهرارز، أحد مناضلي حزب التقدم والإشتراكية الزميل الإحيائي، أبو ليحة.

كان الإحيائي مشهورا كمناضل يساري في صفوف حزب التحرر والاشتراكية، كما هو مشهور بقامته الفارعة ولحيته الماركسية العريضة التي أتى عليها البوليس أو الخوف منه مرة فتركها أثرا بعد عين. جاء الإحيائي من بلقشيري يبحث عن عمل في الدار البيضاء، بعد توقيفه هو الآخر. قطع حذاءه حقيقة لا مجازا في التجوال بين المدارس بدون جدوى. خاط الدار البيضاء طولا وعرضا بحثا عن منصب شاغر في هذا الوقت المتأخر من السنة، فلم يجد شيئا. جرب التجارة، كما قال لي، ففتح حانوتا بدون فائدة، الوضعية الاجتماعية صعبة، بل متردية. إذا ظهر المعنى لا فائدة في التكرار. تقاسمتُ معه الحصَّتين، قِسِّمَ له وقِسِّمَ لي. أخذته معي إلى المنزل، قضينا الليلة ننتاكر في الموضوع. اقترحتُ عليه ما عندي من تحاضير في انتظار أن يستقر ويدبّر أمره. وكانت تحاضيري، في الغالب، عبارة عن تعاريف موجزة وأسئلة كثيرة بدون حدود.

بعدَ حصَّتين أو ثلاثٍ وجدته، مرة أخرى، في مكتب المدير يجتر نفس الإحساس بالضيم الذي أحسستُ به مع تلاميذ معهد الأندلس:
"وَيْلٌ لِلشَّجِيِّ مِنَ الْخَلِيِّ!"

عندما خرج الحسين كوّار لمخاطبة التلاميذ، وتأنبيهم، حاولت أن أسلي الزميل الإحيائي مذكرا بما وقع لي، فأجابني بحرقة: "كُنْ سُبُعَ وكلني، أنا الآن تتحس بَقْنِيَة باغيا تاكلني ! إننا غادي تكملني"، وترجمته: "كُنْ أسداً وكلني، أنا الآن أحس أن أرنبا يحاول قَضَمي! متى سينتهي مني؟". وانصرف عنهم صونا لكرامته كما انصرفْتُ عن الذين قبلهم.

برغم الجهد المبذول في التدريس فقد كنتُ أقضي أكثر من ثماني ساعات يوميا في إعادة كتابة دبلوم الدراسات العليا. كنت أغسل تعبتي

وأطردُ إرهابي بعصير الشعير: خمسُ زجاجاتٍ لهنَّ هديرٌ، ولي بعدهن هديل. أعمل من طلوع الشمس إلى منتصف الليل يوميا عدا الساعات التي أفضيها في التدريس. كنت في حاجة إلى سنتين (79-1981) لإعادة بناء ما سبق أن أنجزته في خمس سنوات (74-1979).

أن تكون أو لا تكون

ظَلَّت الدولةُ تمانعُ في إرجاع المطرودين والنظر في ملفّات الموقوفين طوالَ سنتين. وكانت هناك مآسٍ اجتماعية لا حدود لها. بعد الخروج من السجن مباشرة زرتُ مع الكرزي وأبي القاسم أحدَ زملائنا المطرودين من أستاذة مصطفى المعاني في مستشفى الرازي للأمراض العقلية بسلا، الأخ ركيع الذي لم يستوعب تلك الأزمة بيُسْر، ولم يسترجع توازنه إلا بصعوبة. وبعد ذلك مات الكرزي قبل تسوية وضعيته. هذه نماذج لما وقع في ذلك الحيز الضيق.

مازالت الداخلية مكشّرة عن أنيابها. وهذا يُظهر مدى الإرهاب الذي كان يتعرض له الجميع، حتى القاضي الذي يراوغ ويتهرب، والموظف الذي يجد نفسه في موقع الحَكَم في المجلس التأديبي. بعد سنة دُعينا للمجلس التأديبي. كانت الجلسة متكونة من رئيسة المصلحة (كملاحظة)، ورئيس قسم ينوب عن الوزارة، وأحد مدراء المراكز التربوية رئيساً للجلسة. وكان في مؤازرتي، مندوباً عن اللجن الثنائية، الأستاذ الشكدالي أستاذ الرياضيات وقتذاك، ومدير أكاديمية سطات لاحقاً. وكان في مرافقتنا ودعماً معنوياً الأخ الطيب منشد، رئيس الفيدرالية الديمقراطية للشغل لاحقاً.

نودي على الأخ العطار بوغالب أولاً. لا أدري كيف مرت محاكمته. على كل حال كانت هادئة. ولكنها تركتُ لي سؤالاً كادَ جوابي عنه يَعْصِفُ بالمجلس. فعندما قدمتُ وجهة نظري في طبيعة الاعتقال والمحاكمة غضبَ محامي الحكومة، فقال لي:

"ملي أنت هذا موقفك، وفيك كل هذا النفس علاش جاي للمجلس التأديبي؟

أتذكر أنني قلتُ له: هذه المهنة اخترتها عن قناعة من بين اختيارات أخرى، وأنا أمارسها بمتعة، في التعليم الرسمي كما في التعليم الحر الآن. جئتُ لأرى فيما إذا كانت الدولة مازالت راغبة في خدماتي، لا أريد أن أبقى معلقاً؛ "فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان". التهم الموجهة إلينا كلها ملفقة، والحكم الذي صدر ضدنا مبني على شهادات ملفقة لم يؤكدها أصحابها أمام المحكمة ...

قاطعني قائلاً: تتنازلُك عن الاستئناف اعترافاً منك بالحكم الصادر ضدك! كان الموقف محرّجاً: إما الانحناء والاستعطاف وهو ما لم أعود عليه، وإما رفع الرأس وتوقع الأسوأ. فضلتُ الحل الثاني صيانة لكرامتي. فقلتُ له:

لا.. بل تتنازلي نابع من عدم ثقتي في القضاء المغربي...

إعتقد أنه أوقعني في تناقض، فقال متهمكماً: ولماذا ذهبت إليه في الابتدائي ما دمت لا تثقُ فيه...؟

ولأن ما وقع وقع أجبتُه ببرودة:

لا.. لم أذهب إليه.. بل سقُتُ إليه مُكرهاً، هربتُ أكثر من عشرة أيام، ثم أخذوني من منزلي إلى السجن، ومن السجن إلى المحكمة.. كنتُ مكرهاً .. الآن أنا مخيرٌ وقد اخترتُ ألا أعود إلى المحكمة ...

ارتفع صوته عالياً بالاحتجاج. اعتبرَ كلامي إهانةً للدولة لا يمكنُ أن يَسمح بها، أو يَستمرَّ بالجلوس مع من يقترفها. جمعَ أوراقه وهمَّ بالخروج.

تمسَّك به الأستاذ الشكدالي، في حين أمرني رئيس الجلسة بالخروج، والانتظار خارج القاعة. وفي الحين أمرتُ رئيسةَ المجلس التأديبي مريم العلمي كاتبها، مُقرِّر الجلسة، بسحبي خارج المجلس.

جمعتُ أوراقِي وخرجتُ مودَّعاً عالم التعليم والوظيفة العمومية فيما يبدو

لي. كان صُياحنا قد تسرب إلى الرواق خارج المكتب. وجدتُ الزميل
بوغالب يذرفُ الدموعَ السخانَ وهو يردد: "خُرجتُ علينا ، "خُرجتُ علينا!".
كان الطبيب مُنشد هادئاً وهو يسأل: "أش كايين؟ أش أوقع؟".

بعد حوالي نصف ساعة رتَّبَ المجلسُ شؤونه، وقرر إعادة الاستماع
إلي، فأعدتُ إلى الجلسة. وأنا داخلٌ إلى المجلس أشارتُ عليَّ الرئيسة
بالهدوء والصمت. لستُ أدري كيف دبّروا ما تبقى من الجلسة. أجبْتُ عن
بعض أسئلة الرئيس. ورُفعت الجلسة.

بعد خروجنا ، قُبيلَ المغرب، كان المكانُ أمامَ وزارة التعليم خالياً. رأيتُ
المندوبَ المنفعلَ في موقف السيارات يمتطي سيارته ويُعرجُ على الأستاذ
الشكدالي ويضحك معه، فعاودني بعض التفاوض.

الغريب في الأمر أنهم حَكَمُوا على العطار بوغالب بالتوقيف شهرين
كاملين، وحكموا على بشهر واحد، والملف واحدٌ حيثياتٍ وحكماً.

التقيتُ، بعد سنوات، بالأستاذ الشكدالي بفاس، سلمتُ عليه فلاحظتُ
أنه ما زال يحتفظ باسمي وصورتي. كان بودي أن أسأله عن انطباعه حول
ما جرى، ولكن المناسبة لم تسمح بذلك. وتَمُرُّ الأيام ويأتيني انطباعه
الطبيب عن طريق أحد طلبتي الأصدقاء العاملين معه في أكاديمية سطات.

بغات الطير

انتهى شهرُ التوقيف وجاعني قرار استئنافِ العمل، ليس في ثانوية
مصطفى المعاني مقرّ عملي، ولكن في ثانوية ابن العوام بحي البرنوصي.
تفحصتُ حيثيات ذلك التغيير، فوجدتُ أن الأمر لا يتعلق بتقيل إداري من
أجل المصلحة. كما توقعتُ، وكما جَرَتِ العادة في مثل هذه المناسبات. بل
بانتهاء شخصي تَمَّ، يا للعجب، بناءً على طلب مني!.

. نقلوني بطلب مني دون علمي! هذا أمر لا يقع إلا في ذلك /المغرب

المائل!

هذه ثقافة تلاميذ إدريس البصري. فهو الذي أحال المناضل اليساري السرفاتي على الجنسية البرازيلية قصدا لترحيله من المغرب حيث لم يعد يتسّع له وللحسن الثاني مرة واحدة.

رفضت الالتحاق بالمقر الجديد، ورفض نائب وزارة التعليم استقبالي للاستماع لوجهة نظري. اقتحمت مكتبه في أثر موظف داخل في مهمة. بدأ يصيح: هذه فوضى. فانسحبت ووضعت الملف بين يدي النقابة.

حين استرجع اليوم ألعنجهية والجبروت اللذين كان يمارسهما بعض المندوبين الإقليميين، نواب وزارة التعليم، على المعلمين والأساتذة، حيث يرفضون استقبالهم والاستماع إليهم، وأقارنه بما عرفته، فيما بعد، من ضعف ذلك البعض علما وخلقا، وانشغاله بصغائر الأمور، واستسلامه لموظفي الداخلية من كل الرتب، أفهم لماذا لا يزيد تعليمنا إلا تفهقاً وتردياً. وانتهت المسألة بحلّ وسط. لا أعود إلى مصطفى المعاني - وكنت نفسياً في حاجة إلى من يمنعني من العودة إليه - ولكنني لا أذهب إلى ثانوية ابن العوام البعيدة. خُيرت فاخترت ثانوية الإمام مالك، قرب "محطة القطار المسافرين"؛ حوالي ربع ساعة سيرا على الأقدام.

ولأني ركبْتُ القطارَ بعدَ انطلاقه فقد كان علي أن أجلس حيثُ وجدتُ مقعداً. كان من جملة الأقسام التي أدرّسها قسمٌ من الإعدادي فيه تلاميذ صغار. من بينهم تلميذ كنيته هي كُنية أحد الشهود الرئيسيين ضدي. أولئك الجبناء الذين سجّلوا وشاياتهم لدى البوليس ورفضوا أن يحضروا لتأكيدها أمام المحكمة. شهد هذا الشاهد وآخرون معه بأنهم سمعوا العمري يحرض التلاميذ على العصيان أمام الفصل. سمعوه وهم وقوفٌ أمام باب الإدارة! وكان هذا الأمر، كما ذكرتُ للقاضي في المحكمة، من عاشر المستحيلات، باعتبار تباعد الموقعين؛ مسافة يستحيل معها سماع ما يقوله الآخر، ولو رفع صوته أقصى ما يستطيع، فأحرى أن يسمعه في زحمة مئات التلاميذ وضجيجهم.

ذات يوم جاء أبُ التلميذ المذكور، جاء يسأل عن حاله، أو ربما يستطلع
حالي خوفاً على مصير فلذة كبده. استقبلته بباب الفصل بالطابق الأول.

قلتُ له: كأني رأيْتُكَ قَبْلَ اليوم، هل سبق أن التقينا؟

قال: ربما، لا أذكر، ربما جئتَ تقضي حاجة في البلدية. إذا احتجت
لخدمة فنحن رهن الإشارة.

قلت: لا، حاول أن تتذكر، أنا لم أدخل البلدية بعدُ، أنا جديد هنا، نازل
لتوي من القمر!

اندهش، وكان مذهري وقتها يثيرُ الرهبةَ فعلاً. كانت بي رغبةً شديدة
للعنه، فلم أجد من وسيلةٍ تُسوِّغ الأمرَ غيرَ انتحالِ حديث نبوي. قلتُ له:
قال رسول الله: "شاهد الزور ملعون إلى يوم القيامة".

وانتهت المقابلةُ بأن أقسمَ برب السماوات والأرض، كاذباً، أن لا دخل له في
الموضوع، وأن كل ما نسب إليه مُلقَق، وطمأننته، صادقاً، بأن ابنه في أمن
وأمان، لا علاقة له بما حدث. أخبرتهُ بأنني تعرَّفت على ابنه من أول يوم
وعاملته معاملة الآخرين، حتى رأسه وانصرف وهو يهتمهم بكلام كالدعاء.

كانت ثانوية الإمام مالك، برغم تاريخها العريق، مسرحاً للكثير من
الفوضى. خاصة بعض الأقسام التي يلتقي فيها بعضُ الأساتذة ضعاف
الشخصية وبعض التلاميذ المشاغبيين. حين سألتُ الناظر، وهو الصديق
الشاعر عنيبة الحمري، عما يجري في بعض الأقسام، رد بسرعة: "إن البقرَ
تشابه علينا".

كان التلاميذ يمرون بسوق الجملة للخضر فيملؤون حقائبهم بالطماطم
والفلفل والبصل وغيرها، ويشرعون في رشق أحد الأساتذة. وحين يُعاقبون
يتجوّقون أمام الثانوية ويثيرون الشغب، فتتدخل جهات الأمن طالبة إدخالهم
على كل حال.

مرة وأنا منهمكٌ في كتابة بعض الأمثلة على السبورة التفتُ فجأةً فإذا بي

أرى طاقة طائرة تسبح في الفضاء بهدوء. اتجهتُ نحوها فسقطتُ في الأرض.

. لمن الطاقة؟

الطاقة لتلميذ نحيف منضبط خواف يرتعش.

كيف ارتفعت الطاقة في الفضاء؟

لا أحد يجيب. كان الأمر محيراً. بدأتُ عملية تحقيقٍ سريةٍ، انتهت بي إلى أن مُطِيرَ الطاقة تلميذٌ في الصف الأخير، بينهُ وبين صاحب الطاقة ثلاثة صفوف. رفعها بواسطة هوائي antenna طويل، انتزعه ذلك الصباح من سيارة مرسيديس كانت تقف قرب الثانوية. ولم يُبدِ صاحبُ الطاقة حركةً لأنه مرعوبٌ من سِكينٍ طويلٍ يحمله الجاني، يهدد به التلاميذ. حُزِرَتْ أدوات الجريمة، واستدعيَتْ أبُ التلميذ فجاءت أمه، وصادف أنها أختٌ لأحد الشواش بالثانوية: أبوه في الصحراء، وهي لا تستطيع فعلَ شيءٍ، لقد غلبها، قالت لي: "أُقتله". حاولتُ أن أقتله فوجدته ميتاً من زمان!

كنت ألبس نظارة طبية غليظة الإطار، وأنا نازل من السلالم بعد المغرب سمعته يصيح من الأعلى: وا لَعور ! وسمعتُ أيضاً أنهم يسمونني "أستاذ العضلات" اقتباساً من مسرحية للمرحوم أحمد العمري المراكشي. الحمد لله على العضلات. لقد جُنَّبْتُ الكثير من الضَّيْم الذي عاشه وتحمله مكرها الكثير من رجال التعليم، ونسائه خاصة، مع ألك الأوباش، ومع كل الأوباش. البسطة في الجسم نعمة أخرى.

كنتُ منشغلاً هذه السنة، إلى أقصى حد، بإنهاء دبلوم الدراسات العليا، ولذلك شابَ عملي اليومي بعضُ التقصير في الإعداد والمتابعة، أبذل قصارى جهدي داخل القسم ثم أنصرفت. وكان هذا يزعجني. وفي نهاية الموسم الدراسي 1981-80 كنت قد ناقشتُ دبلوم الدراسات العليا، وتوصلتُ بالإحالة على

كتابة الدولة في التعليم العالي. زارني المرشد التربوي، وكان مايزال يسمى مفتشاً، ويحرص على ذلك المعنى، كان اسمه الصوصي العلوي، وكانت لي مع أحد أصدقائه، عبد الله النقي، تجربة سابقة غير سارة.

توقعت أن تأتي منه حماقة كحماقة صاحبه، أن يجر جناح الطاووس كما قيل لي عنه، فقررت أن أكسر جناحه أمام التلاميذ. توجه للجلوس على المنصة فنصحته عنوة بالتوجه إلى مقعد في آخر الفصل، لأن الطباشير سيملاً المكان. حبذ الفكرة، فأفسد أول محاولة استفزازية مني. كان الدرس نصاً لطيفاً: "الحذاء الجديد"، لبوعلو، لتلاميذ السنة الخامسة علمي. عالجت الدرس بثوذة وبساطة، كالعادة، من خلال أسئلة تفصيلية، وكأن المفتش غير موجود. أعجبت به الخطأ والمشاركة، فأفسد المحاولة الثانية، وبذلك انتهت آخر مقابلة لي مع مفتشي الثانوي بصفر لمثله. في هؤلاء استثناءات، فيهم من ابتلي بالبحث العلمي فكتب ونشر، وهم قلة نادرة، وفيهم من سعى لتحقيق أضعف الإيمان فستر نفسه حتى أتاه ما يشبه اليقين، وأكثرهم دون ذلك، تعمقت متاعبهم وظهرت عيوبهم مع تغيير برامج التدريس بالجامعة بدخول السيميائيات وبلاغة الحجاج وتحليل الخطاب، وتوسّع البحث في اللسانيات.

وفجأة لعل الرصاص

رغم تقلص عدد المناضلين الذين استمروا في حضور اجتماعات المجلس الإقليمي للنقابة الوطنية بالدار البيضاء إلى أقصى حد، مقارنة بالعدد السابق وبالحيوية التي سبقت الإضراب، فإن الحركة دائبة، وأعصاب المخزن متوترة. وبرغم الخلل الذي وقع في صفوف الاتحاد الاشتراكي بتنامي النزاع بين جناحيه، هذا النزاع الذي أدى إلى مناوشات في الدار البيضاء ثم إلى الحسم العنيف في الرباط - حيث استعملت الهراوات لحسم المسائل التنظيمية - برغم ذلك كله، وربما بسببه، فإن الحركة الاحتجاجية

المتمحورة حول الكونفدرالية الديموقراطية للشغل كانت تنذر بالكارثة. لم يعد عند الكثيرين ما يخسرونه.

كان هناك المئات من الغاضبين، من المحاكمين والمطرودين، من كل فصائل اليسار المستعدين لتغذية أية حركة احتجاجية على الأوضاع المعاشية المتردية، هذه الأوضاع التي بلغت قمة اليأس بسبب الجفاف الذي ضرب المغرب بداية الثمانينيات. أتحدثُ عن شيء عشته ومارسته. كانت البادية زاحفة على المدينة، والكسابون يتخلصون من أغنامهم وأبقارهم بأي ثمن، وأحيانا بلا ثمن. حتى الأجواء الطبيعية كانت متكدرة بسبب الغبار المتطاير جرّاء غياب المطر طوال السنة، بل طوال عدة سنوات متتالية.

جزارون في حي سباتا وأماكن أخرى يبيعون اللحم بأقل من نصف ثمنه بين عشية وضحاها. لحْمٌ هزيل طبعاً، إنها الكارثة.

شرارة واحدة وبدأ التراشق بكل ما سقط تحت اليد، ثم لعلع الرصاص. الأخبار الآتية من درب الكبير وساحة السراغة وكراج علال صباح يوم 20 يونيو 1981 تقول أن هناك ثورة حقيقية. بدأت الفتنة منذ الصباح انطلاقاً من درب السلطان. بعد الظهر خرجنا نحن الثلاثة عبدُ ربه وإبراهيم عفيف وعبد الفتاح الكرزيزي من حي شادية بشارع بنتاشفين، قرب معامل كوكاكولا وباطاً سابقاً. توجهنا نحو درب الكبير. فوق قنطرة أولاد زيان، فُبالَة درب الكبير شاحنة برتقالية مقلوبة. المنطقة خالية من الراجلين. بيباب كومسارية درب الكبير مجموعة قليلة من رجال الشرطة يقفون بالباب لا يتدخلون في شيء. حوالي ثماني سيارات مقلوبة على طول الطريق. المكان مقفر.

تلافينا الشارع المكشوف وتوجهنا، عبْر أزقة درب الكبير الضيقة نحو ساحة قلعة السراغة، اقتربنا من تقاطع شارع مديونة فاختنقنا بروائح الغازات المسيلة للدموع. كان الناس هناك يفرون في كل اتجاه.

غيرنا مسارنا نحو كراج علال. في موقف الحافلات كانت النيران تأكل

الكشك الشهير هناك، ومجموعة من الشبان، أو بالأحرى الصعاليك يقذفون بابَه الحديديَّ بالحجارة مُحاولين النفاذَ إلى خزانته، إذا كانت به خزانة. كان المتظاهرون قد اقتلعوا الشُجيرات المغروسة بجنبات الطريق وأقاموها متاريس لعرقلة سير سيارات الشرطة التي كانت تصطدم بها وتتخطاها بعنف.

تقدمنا قليلا نحو القصر الملكي فبدتْ لنا طلائعُ الشاحنات العسكرية زاحفة من جهة البحر متجهة نحونا. أُصبنا بالذعر. المنطقة مكشوفة وصوتُ الرصاص مسموع، يضاعفه الخوف. غيّرنا الاتجاه يمينا نحو السجن المدني، وأطلقنا سيقاننا للريح متوقعين أن يتعقبونا. نجري ونلتفتُ، نتسللُ من هذا الزقاق إلى ذاك حتى أصبحنا مرة أخرى في شارع أولاد زيان. ربما كان يخیلُ إلينا أننا نقوم بعمل بطولي، ربما تخيلنا أنفسنا قواد حركة تحرير يتفقدون الميدان، لتقدير ما كان، وتخطيط ما ينبغي أن يكون. كان يمكن لرصاصه طائشة أن تغير مسار حياتنا نحو الأسوأ.

أنا والكرزيزي كنا موقوفين عن العمل، أو بالأحرى أنا موقوف بعد السجن وهو مطرود بدون سجن. ولذلك فكل عمل يمسُ هيبةَ المخزن محبذٌ ومفيد. ربما لذلك لم يردعنا هذا الرعب العسكري إلى الحد الذي يجعلنا نفر نحو بيوتنا، وعيفي يطبق شيئا من مقروءاته الحمراء.

اقترح أحدنا، الغالبُ أنه عيفي، أن نتجه إلى المنطقة التجارية البورجوازية لنرى هل هناك من بواذر للثورة. تسللنا من الأزقة الموازية لمديونة إلى أن وصلنا إلى شارع محمد الخامس. كانت الحياة هادئة في الظاهر، الحركة قليلة، ولكن النفوس كانت مهزوزة، ويكفي أدني إشارة أو قول لترى الناس يتوجسون أو يفرون مباشرة. قمنا ببعض الحماقات الاستقرازية في المقاهي الظليلة ثم عدنا الأدراج مع المساء في اتجاه الحي المحمدي؛ إذا كانت الثورة ستنتقل فينبغي أن تتطلق من هذا الحي.

باستثناء السيارات العسكرية التي صادفناها في كراج علال كانت المنطقة

الممتدة بين شارع محمد الخامس والحي المحمدي، عبّر شارع بن تاشفين، خاليةً من أي مظهر للشرطة أو أية سلطة أخرى. عندما وصلنا إلى حي أرسلان قبيل غروب الشمس كان الناس متجوقين متجمهرين يتفرجون على إطارات مطاطية تحترق وسط شارع بنتاشفين، هذا الشريان الكبير الممتد من قلب الدار البيضاء إلى أطرافها. والأخبار القادمة من الحي المحمدي تقول بأن هناك أعمال تخريب. الكل يتصور أن جبهة المعركة الرئيسية توجد في الجهة الأخرى مادامت السلطة غائبة.

هكذا تُعْهَر الثورات!

في هذه اللحظة ظهر تموجٌ في حركة الجمهور المحتشد، اتجهت الأنظار نحو ثلاث فتيات يعبرن الشارع أماناً؛ اعترضهن بعض الصعاليك، وشرعوا في العبث بهن وتمزيق ملابسهن. وقتها تذكّرتُ برّهُو أحد مبادئ الماركسية اللينينية:

الثورة، بدون استراتيجية وخطة وقيادة، طريقٌ نحو العهارة، أو مجرد عنف وعهارة.

أحسستُ بخطورة الموقف، فأسرعتُ نحو المنزل مع غروب الشمس. وجدت سكان العمارة وبعض الجيران قلقين، يتحسبون لما قد يأتي به الليل. بدأ هناك حديث عن تفاقم الأمر في الحي المحمدي. نحن على مشارف احتمال اقتحام البيوت من طرف المنحرفين، وانتهاك الحرمات مع حلول الظلام. من أعلى العمارة يُشاهدُ دخانٌ يتصاعدُ من جهة ذلك الحي، قيل إنها مجموعة من الحافلات تحترق. بدأ يظهر لأي شيء تصلح الدولة، وبدأ يظهر لنا باللموس نحن الماركسيين الشعبويين مدى سذاجة حديثنا عن طيبوبة الطبقات الشعبية، واستعدادها للخير.

في تأمين الدفاع عن عمارتنا قمّتُ باجتلاب ذراعٍ خشبي ضخم من حمام قريب، أسندنا به الباب الحديدي من الداخل. فكرةٌ بدوية مفيدة لم

تخطر على بال أبناء المدينة الذين بدأوا يُحسون بالعجز، ويفكرون في الهروب خارج الدار البيضاء برغم كل ما يحف الخروج من مخاطر. هذه الأذرع الخشبية هي نفسها التي استعملها اللصوص عندما حل الظلام، لاقتلاع أبواب المحلات التجارية.

لحسن الحظ كانت عمارتنا قائمة في فضاء وحدها، كانت منعزلة كبرج مستقل، لا مجال للوصول إليها إلا من بابها الحديدي، وهو الآن مدعم يستحيل اقتحامه حتى ولو كُسرت الأقفال. لم يبق إلا مراقبة الوضع من النوافذ لترى بأم عينك من تظنهم بشرا وقد تحولوا إلى حيوانات، بل إلى أخط من الحيوانات. صدق الله العظيم: "أَمْ تَحْسِبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ حَسًّا وَعَقْلًا."

هذا مُستخدَم بسيط عادَ بأمه من المستعجلات على دراجة نارية بسيطة، موبيليت حمراء، يتعرض للرشق بالحجارة أمام عيني، فيسقط أرضا هو وأمه، لا أحد اقترب منه، لا لمساعدته ولا لنشله. وكالة البنك الشعبي الجديدة المقابلة لبيتنا أصبحت واجهتها الزجاجية الكبيرة مهشمة، وأدوات العمل مكسرة، والوثائق مبعثرة. وقد فشلت كل المحاولات للوصول إلى الصندوق الحديدي المكون تحت الأرض. مَعْرَضُ الأحذية الملحق بشركة باطا اقتلعت أبوابه ونُهب عن آخره. قيل بعدها بأن البوليس والقوات المساعدة اعتقلوا الكثير من لا بسي الأحذية الرياضية الجديدة، ولا بسي أحذية لا تتلاءم مع مستواهم الاجتماعي، أو مع مقاس أرجلهم.

المهم.. العبرة والدرس، لقد انفرد المغاربة بالمغاربة ليلة واحدة ففعلوا بهم ما لا يفعله الأعداء بالأعداء. ولو انفردوا بهم أكثر من ذلك لقامت حرب أهلية، فقد بدأ الناس في التفكير في تنظيم أنفسهم لحماية حُرُماتهم. الحقيقة أن هذه اللحظة بخّرت الكثير من أحلام اليقظة التي كنا ننسجها حول الشعب والثورة. مأساة الطبقة الوسطى المستتيرة، على علاقتها، أنها تعيش

بين نارين: إما نظام مخزني من القرون الوسطى، يسوس الناس كما تُساس البهائم، وإما غوغاء خارجة من العقال كأحط أنواع البغال. في صباح اليوم الموالي بدأت السيارات المصفحة تجوبُ الشوارع وحدها، وفعلت الذخيرة الحية فعلها. تصرفت الدولة، على ما يفترض من جلالة قدرها، كما تصرف الأوباش. وبدأ إدريس البصري يدفنُ "شهداء الكوميرا"، أي شهداء الخبز الذين سنكتشف، بعد عقود، أنهم كانوا يدفنون قريباً منا. أكثرهم ضحايا رصاص طائش أو متعمد، لا علاقة لهم بما وقع. كانوا يدفنونهم في مقر الوقاية المدنية بالحي المحمدي. لقد ضاق مجال الاختيار بين إدريس البصري وهذه الحثالة من الأوباش الذين يضررون البؤساء أمثالهم بالحجارة ويهجمون على الفتيات أمام أنظار الجميع بدون حياء لمجرد إحساسهم لحظة واحدة أن قامعهم قد أغمض إحدى عينيه.

في اليوم الموالي سيفتح البوليس عينه الأخرى الاحتياطية، ويبدأ في النقاط الأغبياء. أخبرني عفيفي أنهم اعتقلوا الكثير من شبان الحي. لم يخطر ببالي أن واحداً منهم شارك، أو يمكن أن يشارك، في تلك الفضائع. ولكن الحجة قائمة، لقد كانت الضفادع البرية les crapauds، من أصحاب العمارات، حسب تعبيره، يراقبون ويسجلون من وراء النوافذ والستائر، وفي الصباح قُدمت اللوائح إلى أصحاب الحال، فبدأت الاعتقالات. كان خبيراً بهذه الفئة، لعلاقة عائلية تجمعها بواحد منهم؛ كان يملك خمارة ومقهى.

الغريبان والرَّحْم

ولا تَشْكُ إِلَى خَلْقٍ فَتُشْمِتُهُ شَكْوَى الجريحِ إِلَى الغريبان والرَّحْمِ
على إثر هذه الأحداث دفعت السلطات المسمار إلى نهايته، فأوقفت العمل النقابي فيما يشبه حالة استثناء. أُقِلَّت أبواب المقرات النقابية للكونفدرالية

الديمقراطية للشغل. وأوقفت جريدة التحرير، ولسانُ حال إدريس البصري يقول: ماذا تريدون أن تحرروا؟ المغرب حر، يفعلُ في أبنائه ما يشاء! لم يبق لي، بعد هذا، غيرُ الانصراف للعطلة الصيفية، ثم الالتحاق، بعدها، بكلية الآداب بفاس، والسعي لتسوية الوضعية المادية التي ما تزال عالقةً رغم استئنافنا للعمل منذ سنة.

ظل مكتب التأجير يرلخ في تنفيذ قرار المجلس التأديبي وتسوية وضعيتنا المادية. كنتُ لا أفتأ أُحصي "الأموال الطائلة" التي كنت سأحصلُ عليها من تسوية المتأخرات، ثم أواجهها بالحاجيات الكثيرة والموقوفات المتراكمة منذ سنتين، فتنتهي المقابلة بالتعادل، صفرٌ في كل شبكة كما يقول الواصف الرياضي، فأقول: الحمد لله، الصفرُ أحسنُ من "ناقص"، لا علي ولا لي. استمرَّ هذا الحساب إلى أن فاجأني رئيسُ مصلحة التأجير بتأويل قانوني هزم كل خيالاتي، وأعادَ الحسابَ إلى الصفر. التوقيفُ، وإن كان شهراً واحداً، فهو يسري على كل الشهور التي سبقت صدور الحكم، أي من تاريخ الاعتقال. التوقيف يجِبُ ما قبله.

ولكن من المسؤول عن التأخير؟ عن هذا الوقت المبيت، لا اعتقال ولا عمل؟ للجواب عن هذا السؤال، والخروج من هذا المأزق القانوني، أصدرت وزارة التعليم مذكرةً ثانيةً تلغي مذكرة التوقيف، وتدعو مكتب التأجير إلى تسديد جميع الشهور وكأن التوقيف لم يقع. وذلك بناء على بند غير مُعلن، وهو أن مسؤولية التأخير تقع على الوزارة... ثم وقع أن جرت الرياح بما يشتهيها الحاقدون على النقابة والنقابيين والاتحاديين أجمعين؛ صادف صدور هذه المذكرة قرارَ إغلاق مقرات النقابة، في أعقاب أحداث 1981، فكشفَ المسؤولُ بقسم التأجير حقده، وكتبَ عليها بقلم رصاصٍ حاد: "لا تؤخذ بعين الاعتبار". ونظّمها بدبوس، ورمي بها إلى مساعده ليرتبتها في الأرشيف، مقبرة المذكرات. استغرب الموظفُ الذي حمل إليه الملف جاهزاً

قصد التأشير عليه هذا السلوك، وقال لي وهو يحثُ الخطي نحو مكتبه:
هذا جهدي عليك، ما عندي ما ندير ليك ! "حتى أنا ما فهمتُ والو...!".
وقفتُ لحظة في الرّواق، على مشارف اليأس، في شبه ذهول! ثم عدتُ
إلى المسؤول، وحاولتُ أن أشرح له كيفَ أن القرارَ هو قرارُ وزارة التعليم:
"هل تشكّ في سلامة الوثائق، أم ترفضها مبدئياً حتى يمكنني أن أتصرف؟"
قال: "هذا الشي فيه التخلويض!"، في الأمر تدليس.
حاولتُ، مرة أخرى، أن أفهمه بلطف أنه ليس مسؤولاً عن محتوى تلك
المذكرة، تلك مسؤولية من أصدرها.

غضب الرجل غضباً شديداً، وقال: "هذا شغلي، بغي تعلمني شغلي؟
واش أنت تبغي شي تلميذ عندك يقول لك كذا...!"
علمتُ وقتها أن زورق التسوية المادية أوغل في رمال الشاطئ ومن
العيب التماذي في التجديف، فقلتُ له ببرودة ظاهرة: ولكن أنا أمامك لستُ
في وضع التلميذ، وزدت بشيء من الزهو: أنا لا أدرس التلاميذ الآن، أنا
في الجامعة. ظل حانيا رأسه متمتماً: "لن تؤخذ بعين الاعتبار...".
انسحبتُ في يأس، وأعلمتُ النقابة بهذه المُجريات. وطمأنوني بأن هناك
ثماني حالات مماثلة ما تزال عالقة، ستجد حلها في الوقت المناسب. بقي
الملف معلقاً إلى أن هبّت ريحٌ من قِبل المحيط الأطلسي، الريحُ الوحيدة التي
تحرك شراع المخزن، فخطبَ الملك في مناسبة من المناسبات مصرّحاً بإمكانية
فتح المكاتب النقابية والعودة للممارسة، فعاد نفسُ الموظف لتطبيق نفس
المذكرة التي كتبَ على ظهرها بقلم الرصاص "لا تؤخذ بعين الاعتبار".
كما يوجد ذئابٌ في الشارع يُكشرون عن أنيابهم بمجرد أن تُغمض
السلطة إحدى عينيها، أو تدخل يدها في جيبها، يوجد ذئاب في الإدارة
يكشرون عن أنيابهم بمجرد أن ينظرَ إليك أسيادهم بعين السُخط. إنه منطق
الكواسر الذي تحدث عنه أبو الطيب المتنبي حين قال:

ولا تشكَّ إلى خلقٍ فتُشمتُّهُ شَكْوَى الجريحِ إلى الغريبان والرَّخَمِ
هكذا كانت المعادلةُ المغربيةُ إما رداءةُ الشارع أو رداءةُ أُنُتابِ المخزن
وصنائعه. خياران أحلاهما مُرُّ كما صور الشاعر الخارجي مقارنا بين قساوة
عاملين من عمال بني أمية المشهورين:

تَخَيَّرْ، فلما أن تزورَ ابنَ ظابِيٍّ عُمَيْرًا، وإما أن تزورَ المُهَلَّبَا
هُما خُطَّتَا خسفٍ، نجاؤُك منهما ركوُك حَولِيا من البرقِ أَشْهَبَا
اختارَ الشاعرُ الخارجي الفرارَ على ظهرِ فرسٍ أسرعَ من البرقِ، أما
نحن فقد جربنا "الصعود إلى الجبل" بدون جدوى.

بعد سنوات ستنفجرُ، في هذه المنطقة من الدار البيضاء التي كنا
نتحرك فيها فضيحةُ الحاج محمد مصطفى ثابت، وسنكتشف خطورة
مَحَلَّاتِ كنا نرتادها مُطمئنين، وأشخاصٍ كنا نُساكنهم، ونتعامل معهم، أو
نمرُّ بجانبهم دون أن نتبينَ مصدرَ روائعهم المالية والسلطوية الكريهة.
ضابط مخابرات كَوَّن في منطقة نشاطنا شبكةً للدعارة والمخدرات، منتهكا
أعراض الحرائر والمحصات. انتهى به الأمر إلى الإعدام، كما عَصَفَ
بالكثير من رؤوس جهاز الأمن في الدار البيضاء والرباط. كانت عملية
إعدامه محاولة لامتصاص الغضب.

الرصاص.. لنا ولألباش

بعد عشر سنوات من أحداث الدار البيضاء ستندلع شرارة أخرى بفاس
(14-15 دجنبر 1990)، وأجدني بجوار إحدى نقط الاصطدام بين
المتظاهرين وقوات التدخل المختلفة التي بادرت، هذه المرة، لاستباق
الأحداث. بدأ الرشق بالحجارة. انسحب التلاميذ من المدارس. وصل أبناء
الحي ولم يصل سامي. خرجت مع ابني البكر كمال للبحث عنه. وفجأة
تقدمت المدرعات ولغَّع الرصاصُ، فانسحب الناس إلى بيوتهم، وبقيت أنا
وابني كمال وحيدين نختبئ بأبواب منازل حي ليراك. لا رائحة لمخلوق،

وسيارات القوات المساعدة تتجه نحو عوينات الحجاج، الحي الشعبي المكتظ حيث ستدور حرب حقيقية بين قوات التدخل والمتظاهرين. صوت الرصاص حقيقة تُصم الأذان. لا أثر لسامي. بعد عبور قوافل قوات التدخل نحو عوينة الحجاج ظهرت فجوة سمحت بهروبنا نحو الحي.

صعدنا لسطح المنزل نرقب ما يجري فإذا عاصفة من الحجارة تسد السماء تنزل فوق رؤوس قوة التدخل فتترجع في فوضى عارمة تاركة بعض القبعات والهراوات في الميدان. يركبون السيارات ويتراجعون. أسمع صياح جارات من داخل الحي:

"أدخُل.. أدخُل، الرصاص..القرطاس".

وفعلا عاينا بعد هدوء المواجهات ثقوبا في واجهة المباني، كان يمكن أن تكون في أجسادنا دون مبرر. في الأخير تبين أن أحد المعلمين خاف على التلاميذ الصغار فأخذهم إلى منزله قرب المدرسة حتى هدأت العاصفة.

في الدار البيضاء انتقلنا من حدود الحي المحمدي إلى كراج علال لنواجه الرصاص والغازات المسلية للدروع، وفي فاس جاء الرصاص حتى أحاط بنا وانغرس في جدران بيوتنا. تلك سنوات الرصاص، ذهبت إليه أم جاء نحوك. حقا المغرب يتغير ، ولكن في أي اتجاه؟ تقع فضاعات ولكن بدون رصاص حي هذه المرة، كحال ما وقع في سيدي إفني، هناك جراح وجراح، جراح في الأجساد قد تتدمل، وجراح في النفوس والأعراض لا تتدمل.

لقد عاش المغرب هزات اجتماعية متواصلة أقرب إلى الانتفاضات العفوية بعد الانقلابين، وبعد أحداث مولاي بوعزة المسلحة. فبين انتفاضة 1981 التي جعلت من الدار البيضاء مركز زلزالها، وأحداث 1990 التي توجهت الأنظار فيها إلى فاس وطنجة (هذه الأحداث التي وجدنا أنفسنا مقحمين فيها)، كانت هناك انتفاضات 1984 التي توجهت الأنظار فيها إلى الناظور والحسيمة وتطوان في الشمال ومراكش في الجنوب. إذ يبدو وكأن جهات المغرب تنتفض

بالتناوب. وقد تابعت أحداث 1984 الأليمة من خلال أبناء منطقة الشمال من
طلبة كلية الآداب، ومن خلال رد فعل الدولة الذي جسده الخطاب الملكي
المنفعل الذي هدد "أوباش" الريف مذكرا إياهم بما فعل بهم لما كان ولي العهد
أثناء انتفاضة 1958:

"فهل أصبح المغاربة، يا تُرى، طائشين حتى عدنا الآن إذا أتت الرياح
تعصف بنا كريح طائشة في مهب الريح؟ فهل وصلنا إلى هذا الحد؟
وصلنا إلى هذا؟

بماذا؟ إما بواسطة الأطفال أو الأوباش في الناظور والحسيمة وتطوان
والقصر الكبير. الأوباش العاطلون عن العمل الذين يعيشون بالتهريب
والسرقة... إن هؤلاء الأوباش تم اعتقالهم".
ويلتفت نحونا فيقول:

"كما أقول للأساتذة أنهم معروفون، وأنهم هم الذين يريدون أن يقوموا
بالإضراب ويخرجوا إلى الشوارع. فالأساتذة منهم الكثير تم طردهم ثم
أعدناهم إلى العمل، وأعدنا بعضهم برغم أنهم دخلوا السجن، مع العلم أنه
كان مفروضا ألا يعود إلى مزاوله عمله".
"وسكان الشمال يعرفون ولي العهد ومن الأحسن ألا يعرفوا الحسن
الثاني في هذا الباب".

وقد كانت لكلمة "أوباش" حساسية مفرطة كما فهمت من بعض الزملاء
الأساتذة من أبناء الشمال الذين تحدثوا في الموضوع بغضب. أما الطلبة فأذكر
أنني كنت، بعد شهور من ذلك الحدث، ألقى محاضرة في موضوع: "الخطابة
في القرن الأول الهجري"، على طلبة السنة الثالثة أدب عربي بفاس، فتحدثت
عن الصراع بين الخليفة عثمان بن عفان وبين معارضيه الذين أخذوا عليه
استغلال أرض الصدقة في رعي إبله، حيث أجابهم جوابه الشهير:
". قَلِمَ كُنْتُ إِذْنُ إِمَامًا؟!"

ومعناها بلغتنا الفجة: إذا كنتُ سأمنع من استغلال ممتلكات الدولة كما أشاء فما الفائدة من أن أكون إماماً؟

كانت الرسالة واضحة، لعبَ فيها عثمانُ دورَ المشبّه به. واكتملت الصورة حين علقت قائلاً: "لا شك أن الخليفة عثمان كان يستغرب كيف تجرأ عليه هؤلاء "الأوباش" وهو الذي..."

لم أكمل الجملة حتى ضجّت القاعةُ بالضحك، فلم أبْدِ أيَّ انطباع... سمعتُ القريبين مني يقولون بصوت خفيض: الخطاب الملكي، الخطاب الملكي... حاولتُ أن أتظاهر بأنني لم أفهم المقصود متماذياً في إلقاء المحاضرة.

ليس غريباً أن تصنع الأحداثُ المأساوية، والاصطداماتُ مع المخزن، على مدى ثلاثة عقود (من 1962 إلى 1990)، جيلاً متوتراً حانقاً ينتظر الأسوأ غيرَ مبالٍ بما يقع... جيلاً يائساً من أي إصلاح يأتي على أيدي من يعتبرهم فاسدين مفسدين. كنا ننظر إلى أعداد الضحايا من القتلى والمعتقلين والمُعتربين فنُحِسُ بنقل الأمانة التي وضعوها على عاتقنا... ولذلك كان لا بد من تحويل كل شيء إلى أداة لمقارعة الطغيان والفساد وتألُّه البشر على البشر. لستُ نادماً على شيئاً، بل أنا فخور.. التاريخ هو الذي أدان الفاسدين المفسدين...

كان تدريس الخطابة في عصر "الفتنة الكبرى" يسمح بمعالجة قضايا أنية في صراع الحكم في المغرب والعالم الإسلامي عامة. كما يسمح بنقد الخطاب الديني المقدّس للتاريخ بدون تمحيص. إذ يبدو واقعنا، في حالات كثيرة، نسخة مشوّهة أو مطابقة للحكم في العصر الأموي. وقد أبرزت ذلك من خلال الرؤية العامة التي تُهيمن على خطاب الأمويين:

الخليفة ظلُّ الله، وعمالُ الأقاليم ملائكة يبلغون رسالاته، والمعارضون شياطين يعاكسون إرادته. وهي المحاضرات التي ظهرت في كتاب: في

بلاغة الخطاب الإقناعي، ولقيتُ قبولا في المغرب والعالم العربي باعتبارها عملا رائداً في موضوعه رغم بساطته: وصلت الرسالة. إن فحص ذلك التاريخ فحصاً بلاغياً حجاجياً، وأخذة أخذاً شمولياً بكل مفارقاته، يُزعج جميع المقدّسين أصوليين ومخزنيين. والسببُ واحدٌ، هو حرصُهم على تحويل صراع بشري من أجل وجهات نظر - تتربّث عنها امتيازات ومنافع ملموسة - إلى واقعٍ "يُشْم ولا يُفْرَك"؛ تستمدُّ منه كل جهة الشرعية التي تريد. وقد استمر هذا الاحتكاك بين العمل العلمي ونقد الواقع في كتابي: دائرة الحوار ومزالق العنف.

فقيه ماركسي!

بعدَ الخروج من السجن التحقَ بعضُ المناضلين الاتحاديين الموقوفين بجريدة المحرر، والديموقراطية العمالية التي تصدرها الكونفدرالية الديمقراطية للشغل. كان هذا هو الخيط الأول الرابط بيني وبين الكتابة الصحفية. بدأ العطار، وهو أستاذ العلوم الطبيعية، يتمرّن على الكتابة باللغة العربية، بدأ بأعمال ميدانية، ثم اتجه إلى التخصص في موضوع قريبٍ منه وهو العلاقات المغربية الإسبانية.

كان يتحدث عن تجربة الكتابة الصحفية ويبحثُ على الخوض فيها، في حين كنتُ أنا مشغولاً بعملِي الأكاديمي، بإنهاء دبلوم الدراسات العليا. وفي محاولة خجولة لاقتحام مجال الكتابة الصحفية كتبتُ تعليقا نقدياً موجزاً على مسرحية تلفزيونية من تأليف الخضير الريسوني، رأيتُ فيها إشاعةً للفكر الخرافي، وذلك لحنّها الصريح، كما يفعل وزير الأوقاف الحالي، على زيارة الأضرحة والمقابر. نُشر المقالُ بجريدة الاتحاد الاشتراكي، فرد عليه صاحبُ المسرحية مُنكراً ما ذهبْتُ إليه. بعثُ إلي المرحومُ مصطفى القرشاي بالرد قصد التعليق عليه فلم يتيسر ذلك لتعذر الحصول على نص المسرحية والاحتكام إليه، لم يبق لي إلا أن أطلب شهادة الجمهور.

ولعل ذلك المقال الأول هو الذي أضافَ إليه أحدُ أساتذةِ الفلسفةِ المتعاونين مع هيئة تحرير الجريدة وقتها، يُدعى المنصوري، عنواناً موجّهاً، وربما منقّصاً في اعتقاده: "خواطر معلم". وأفخر ما أفخر به اليوم، حقيقة، هو أني معلم، أرفض الدجل والشعوذة والتعالي باسم العلم.

بعد هذه التجربة الصغيرة أحالت علي الجريدة العددَ الخاص - من مجلة المناهل - بالعالم الصوفي الكبير أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي لكتابة تقديم له في الجريدة. فكانت تلك أولَ مناسبة لكتابة مقال مطول نسبياً، كما كانت فرصة لإرسال رسالة قوية إلى عبد الرحمن الفاسي، محافظ الخزنة الملكية، الذي كان في كلامه المنشور بنفس العدد تنقيصٌ من شأن اليوسي. كان يكتب من حمية مخزنية، رأى أن اليوسي تجرأ على مولاه، فرددتُ عليه من موقع العلماء الذين رفضوا تملك المغاربة السود للمولى إسماعيل. معركة عادلة، وانتصافٌ مستحق.

اليوسي هو العالم الذي تجرأ على كتابة رسالتين في منتهى الجرأة لأقصى ملك من ملوك المغرب، الملك إسماعيل، وأدى ثمن ذلك بعنفوان. أدى ذلك منفيًا ومضطهدًا ومقتولًا. قتله "للصوص"، شرق المغرب، وهو عائد من الحج. وقد كان اليوسي دعامتي النفسية في كل المحن التي عانيتها أثناء الاعتقال وبعده.

حينما قرأ المرحوم مصطفى القرشاي ذلك الرد أعجب به، وقال للطار: شوف، هذا الفقيه مزيان يبقى يكتب معنا في مثل هذه الموضوعات.

فرد عليه الطار: هذا الفقيه هو زميلنا الأخ محمد العمري.

وبمناسبة كلمة "فقيه" فقد كان الطار يقومُ بتحقيق في المقاهي التي ترتادها الفتيات بقلب المدينة، يُجري معهن حواراتٍ ومناقشات. سأل إحداهن مرة، في مقهى ظليل بشارع محمد الخامس بالدار البيضاء، عن مستواها الدراسي، فأخبرته أنها معلّمة في التعليم الحر تُحضّر الباكلوريا في

ثانوية الإدريسي الحرة بدرب السلطان.
استيقظ فضولُه فجأة فسألها عن أستاذ اللغة العربية، وهو يعلم مسبقاً
من هو.

أجابته: "وَاحِدٌ لَفَقِيهَ اسْمُهُ الْعُمري".

فضحك متسائلاً عن نوع الفقه الذي يخفيه عنه ذلك الماركسي المتزمت.
صدّق من قال: خذوا الحكمة من أفواه الأطفال والمجانين. وأضيف أنا:
وَمَنْ في حكمهم من المساطيل. لقد سمعتُ صفةً "فقيه" هذه، قبل ذلك،
أوائل السبعينيات، في جلسة شراب ونشوة عارمة، من أحد الزملاء بالثانوي،
محمد الهائل أستاذ الفرنسية بكلية الآداب بالرباط حالياً، ونحن معا في بداية
المشوار بالفقيه بن صالح. كنا نناقش قضية ذات بُعد أخلاقي، وكان
بعض خريجي القسم الفرنسي بجامعة الرباط - وهو منهم - قد اكتشفوا،
على حين غرة، زيف القيود الاجتماعية، وعبثية القيم الأخلاقية والأسرة.
كانت عندهم "حريرة" من أصدقاء ماركس وسارتر وماركوز... الخ

قال لي بطريقته الفكّية، وهو مرفوعٌ، والقلم مرفوعٌ عنه كذلك:

"تعرف أنت أ العمري! ما أنت ماركسي ما "زفة"، أنت ساكنك فقيه،
وتصبح أحيانا مثلك مثل هذا أحمد"، ولعله أضاف: جوج مكلخين (اثنان
مسطحان). وأحمدُ هذا هو صديقه الحميم في "الطاسة" وما يتصل بها،
موظفٌ تقني في المركز الجهوي بتادلة، لم يكن الهائل يعتبره مثقفاً.

جاء الإضراب فاعتقل الفقيه أفلت الماركسي الحق! وانتهى المشوار. في
يوم من أيام اعتقاله (1979) وجدتُ زوجتي مائة درهم مُسرّبة من تحتِ
باب المنزل، كانت دِيناً لي عندَ هذا الصديق، مرّرها من تحت الباب
وانصرف. وذلك أضعفُ الإيمان. وكنتُ قبل ذلك توصلتُ منه برسالة
قصيرة جداً، نصها بعد التحية:

أُعزّيكَ في صوت القط.

كان ذلك بمناسبة موت ماوتسي تونغ..

ومرة جاءتني عن طريق البريد رزمتان من الورق كبيرتان مجهولتا المصدر والهدف، هما ترجمةُ حِكَمِ روش فوكو. كانت الترجمة سليمة.

ومضت سنوات طويلة قبل أن نلتقي في كلية الآداب كالأغرب. تعرفتُ عليه بصعوبة، وقتها عرفتُ أنه المترجم والمرسل، لم أفهم شيئاً. سبق لنا في لفتيه بن صالح أن قطعنا شوطاً في ترجمة إحدى مسرحيات بريخت: السيد بونتيلا وخادمه ماتى، كنا نسميه المعطي. النقا لنفترق، كان قد فقدَ حيويته الجَمَّة، كما فقد روحَ النكتة، وأتت التعرية والتصحّر على شعره الكثيف.

وفي هذا الظرف نفسه كتبْتُ بضْعَ مقالات تحت عنوانٍ عامٍّ: من الواقع. لم أحتفظ بشيءٍ منها. ثم صارت الكتابة الصحفية جزءاً ضرورياً في حفظ توازني، بل صارت علاجاً يساهم في تفريغ الشحنات الانفعالية التي يُحس بها المرء في واقع يسخر بغباء من العقل والعُقلاء.

في ذلك السياق جاءت مقالاتي المنشورة في زاوية: شبه جملة، ثم زاوية: اسمع وأرى، و كلام في كلام. ومراسد الخطاب. عدا ما نُشر خارجها. وهكذا حاولتُ، بعد الاعتقال، المزوجة بين العمل النقابي والعمل الصحفي التتويج التحميسي. وذلك إلى جانب البحث العلمي الأكاديمي والتنشيط الثقافي.

عندما أعلن اسمي ضمن لائحة المرشحين في الانتخابات البلدية أوائل التسعينيات لا حظتُ أن الزملاء في الحزب، أو الجريدة، كتبوا تحت اسمي: "صحفي". لم أهتم بتصحيح الصفة، فتلك نعمة أخرى.

لم يكن أماناً خيار: كانت أجواء العمل السياسي في المغرب، خلال السبعينيات والنصف الأول من الثمانينيات، قد التبست بين العمل الثوري المعتمد أساساً على التنظيم السري يأساً من أي إصلاح، وبين العمل داخل المؤسسات. وكان المخزن يزيد من صعوبة مُهمّة أصحاب الاختيار الثاني، الإصلاح، بتماديه في سياسة الاعتقال والتعذيب والتغريب. كان يُمارس

سياسة التمرغ في الطين الأسود.

وقد بلغ الأمر حدَّ القطيعة حين قَبِلَ الملك مبدأ الاستفتاء في الصحراء أوائل الثمانينيات ورفضه قيادة الاتحاد الاشتراكي: إعتبر ذلك تحديا لسلطته التي لا تُسامى، فلم يتردد في اعتقال النواة الصلبة في المكتب السياسي للحزب. وسارت الأمور على هذا المنوال حتى بعد سقوط جدار برلين وظهور البوادر الأولى للخطر الأصولي. ولم يستيقظ المخزن من عُجهيته وكبريائه إلا بعد أن أعلنت الإمبريالية استغناءها عن خدماته في المنطقة، وُفِعت في وجهه قضايا حقوق الإنسان، وتدهورت أوضاعه المادية، وأصبحت قضية وحدة المغرب الترابية بين قوسين.

رحلة البحث عن الجواز

بعد تسوية وضعيتي الإدارية، وأخذ كل مُستحقاتي المادية، اعتقدتُ أنني أصبحتُ من جديد مواطناً صالحاً. إحساسٌ خادع. مازال للتراجيديا فصلٌ أخير. ذاكرة المخزن قوية، المخزن كالجمل، يُخزّن وينتقم، وقد يَهْتَر، أي يصاب بالسعار فيدك ما حرث.

في سنة 1986 حصلتُ على التفرغ من شعبة اللغة العربية قصد استكمال إنجاز دكتوراه الدولة.

كان استكمال شروط التفرغ يتطلب الحصول على التسجيل النهائي بالخارج، والتسجيل النهائي يتطلب السفر إلى الخارج، والسفر إلى الخارج يتطلب تجديد جواز السفر الذي مات منذ سنوات، وتجديد جواز السفر يتطلب شهادة السوابق العدلية، والسوابق العدلية تحمل مفاجآت.

جاءت السوابق العدلية تحمل حيثيات الحكم الابتدائي الصادر سنة 1976: عنصر مخرب...الخ

رغم أنني استأنفت العمل أستاذا جامعيا منذ سنوات فمازلتُ، في ذاكرة وزارة الداخلية، مُجرّد مخرب يتسرّ وراء "الموازنات الصوتية"، موضوع الدكتوراه،

و"الدراسات الأدبية واللسانية"، عنوان المجلة التي شرعنا في إصدارها.

وقفَ حمار الشيخ قبل العتبة، هذه المرة.

قالوا: لا بد من مكاتبة قسم العفو بوزارة العدل مع الإدلاء بالحكم النهائي بالبراءة. فالإدارة المغربية، ومنها مصالح وزارة العدل، تسجل السيئات وتتناسى الحسنات. فبمجرد ما وقع الاعتقال رُفِع الأمر إلى وزارة التعليم فجاء التوقيفُ على جناح السرعة، أما حكم البراءة فبقي حبيسا بحي الأحباس بالدار البيضاء، حيث توجد محكمة الاستئناف، لا بد أن يتكفل المُتهم نفسه بمتابعته وتبليغه.

كاتبتُ وزارة العدل، فجاء جوابها كالعادة، بعد فوات الأوان، بعد أن نسيْتُ التفرغ. وبين هذا وذاك حكاية طويلة.

في محاولة لتجاوز الانتظار الذي فرضه هذا الإجراء، وعملا بنصيحة أحد المحامين، طلبتُ مقابلةَ عامل مدينة فاس حاملا حكم البراءة في يدي. كان عاملُ مدينة فاس أشبهَ بحاكم إمارة مستقلة، يفعل ما يشاء. كانت له صلة صَهرَ وقراية من دار المخزن، حسبَ ما يقال. كان لدي أمل في أن يقتنع بحكم البراءة ويغض الطرف عن السوابق التي صارت في حكم المنسوخ.

كانت عَنبَةُ مكتب مولاي المهدي أعلى من خطواتي، ولذلك أحالني مديرُ ديوانه على الكاتب العام للعمالة. صاحبي موظفٌ من كتابة العامل إلى مكتب الكاتب العام، وأحالني الكاتب العام، بعدَ حُسن استقبال، على موظف بقسم الجوازات. رافقتني عونُ الكاتب العام إلى مكتب الموظف المعني بالجوازات. عنايةٌ لا بأس بها، لم أكن أتوقعها!

حسبتُ الرجلَ موظفًا عاديا في الجوازات، ما عليه إلا أن ينفذَ أوامرَ الكاتب العام التي هي أوامرُ العامل، هذا هو التسلسل الذي أعلمه، ولكن هيهات.

تمسكُ الموظفُ الغامض بضرورة توصله بتقرير "إيجابي" من جهات

الأمن، فبحسب مضمون ذلك التقرير سينقرر ما ينبغي عمله، تجاوز السوابق أو الوقوف عندها، المهم هل ظهرت بوادر التوبة وحسن السلوك أم مازالت نَزغاتُ المعارضة تراوَدُ ذلك المخرب الذي وجدَّته الضابطة القضائية بالدار البيضاء مختبئاً بداخلي.

سألتُ عن مقر "الدرك"، فقيل لي إنه بقرب قنطرة "انتبهوا"! فتشاعمتُ. هذه أول مرة في حياتي سأدخل منطقة خطيرة مثل قاعدة الدرك. الدركيون، في خيالي، حين يضحكون يصفعون، وحين يغضبون يخطفون ويقتلون.

وجدني والدي، رحمه الله، مرةً بجانب الطريق الرئيسي بين سكورة وورزازات، على مشارف الحارة، وأنا طفل صغير، مُلصقاً أذني بالعمود الحامل لخط التلفون الوحيد الرابط بين سكورة و ورزازات، مشغولاً بالأغنام عن الأغنام، أستمع إلى الطنين المتواصل للأسلاك، ومعني طفل آخر يحاول تسلق العمود الخشبي. زَجَرْنَا بَعِيداً، وَحَدَّرْنَا من الاقتراب، مرةً أُخرى، من تلك الأعمدة أو تسلقها: فلو صادف أن مرَّ رجال الدرك من هناك لوقع لنا مثل ما وقع "لأحدهم"... يُحكى، والله أعلم، أنهم وجدوه يتسلقها، فأخذوه وعلقوه في أحدها حتى كادت روحه تزهق.

وقع مرة، بُعيد الاستقلال، أن أحد أبناء المنطقة حصل على قُبعة الدركي، فوقف في الصباح الباكر على مرتفع في طريق الناس، وهم متجهون إلى سوق سكورة، فلم يظهر شبحه لأحد من أصحاب الدراجات إلا رجع أدراجه، وكانت الدراجات الهوائية وقتها تؤدي الضريبة، فضلاً عن خلوها من أية تجهيزات. الحمير وحدهم وصلوا إلى السوق. وصل خبره إلى الدرك، فيقال أنهم أذاقوه كل ألوان طبختهم اليومية. هذا كل ما احتفظت به ذاكرة الطفولة عن "الجدارمية"، وحين عُزيت الكلمة صارت تذكر بإحدى طبقات جهنم: "الدرك" الأسفل من النار.

وجَّهني حارسُ البوابة إلى مكتب متواضع قرب الباب، وجدْتُ به موظفاً

بدا لي غريبا عن المكان، "مواطنٌ عاديٌّ" أقربُ إلى المقهورين منه إلى لابسِي البَدَلِ، لا تختلف بذلته المكسوفةُ اللون عن ملابس موظفي المقاطعات البلدية. حملَ سجلَ الواردات إلى رئيس المركز أو من ينوب عنه، قرأ علي الملاحظة التي سجلها مقدّم الحي بخصوص ملفي:

"لا أعرف عنه شيئا. يخرج من الدار إلى السيارة، ومن السيارة إلى الدار. يمكن السؤال عنه في محل عمله بكلية الآداب..."

ونظراً لأن مقرّ عملي خارج عن اختصاص الدرك، أي أنه داخل في المجال الحضري، فقد بقي الملف مُعلّقاً عندهم ككل ملفات المغاربة.

عندما اشترينا منزلنا الأول، سنة 1985، غيرَ بعيد من كلية الآداب بظهر المهرّاز، كنا نعتقد أننا في قلب مدينة فاس، فإذا بنا نكتشف، مع أول إجراء إداري، أننا تابعون إدارياً للجماعة القروية "مطماطا" بعيداً عن فاس بأكثر من ثلاثين كيلومتراً شرقاً في اتجاه تازة. وبذلك أصبحنا تحت سلطتين: حين نكون في المنزل نكون تحت سلطة الدرك، وحين نخطو خطوات نحو الكلية نُصبح تحت سلطة الشرطة. كنا كـ"الوجه المشروك"، يظل متسخاً. ذكرتني وضعيتنا بفيلم الحدود لدُيُرد لحام حيث يضع الممثل رجله اليمنى في دولة ورجله اليسرى في دولة أخرى ويتغوط، لأن ثقب المرحاض يوجد على خط الحدود. هذا قبل أن يتحول دريد لحام إلى ماشطةٍ ومتعهّد حفلات، ويتحول عادل إمام إلى بهلوان ينط بين أسطح العمارات، البقاء لله!

وهكذا كان عليّ أن أطرق أيضاً باب المسؤولين في الشرطة. توجه بي الصديق حاضي الحمياني رئيس فرع اتحاد الكتاب بفاس، هذه المرة، إلى رأس العين، إلى رئيس الأمن الإقليمي، وكانت للأخ الحمياني حيثياتٌ عائليةٌ في محيط السلطة تُتيح هذا الامتياز. فبدأ الملف يتحرك.

غير أنه ما إن وصل تقريرُ البوليس إلى العمالة حتى أُغمي عليه مرة

أخرى. طرقتُ بابَ الموظف الذي طلبَ التقرير، فوجدته مشغولاً على الدوام، وفي اجتماعاتٍ حيثما حل وارتحل، حتى حين تراه ينسلُّ من الباب الخلفي أو يسيرُ في الممر فإنه يكون في اجتماع. بلغتِ الروحُ الحُلُوم. فطرقتُ بابَ العامل محتجاً هذه المرة.

صاحبني موظف من الكتابة الخاصة للعامل مرة أخرى إلى مكتب الموظف اللُّعز. حاولتُ تذكيره بمسار القضية وترددي المستمر على بابه بدون جدوى. أحسَّ وكأنني أحاسبه أمام ذلك الموظف الذي تأكد لي في الحين أنه لا يقيم له وزناً، قاطعني .. فقاطعته .. رفع صوته فلم ارتدعُ.

نظر إليّ باستغراب ثم قال: هذا الكلام يمكن أن أقبله من فلاح، لا من واحد يسمى نفسه أستاذاً ويستعد لتحضير دكتوراه الدولة... الخ

تيقنتُ من لحن قوله، أن هناك موقفاً ونيةً مُبَيَّنةً، تيقنتُ أن الجواز قد غرق، ولا جدوى من أن أغرقَ معه؛ لا جدوى من كظم الغيظ. التفرغُ ضاع... قلتُ له بهدوء وبرودة، والمرافقُ يسعى لإسكاتي:

أنا فلاح ابن فلاح، ليست لدي أية عقدة في هذا المجال، وخمسة وثمانون في المائة، أو أكثر، من المغاربة فلاحون، واحتقارُ الفلاحين احتقارٌ للمغرب، وهو مصدرُ كلِ مَحَن هذا البلد.

جرني الرجلُ المُسِنَّ الذي كان يرافقني إلى الخارج. لم أدع له فرصة للتعليق، اعتذرتُ له عن كل ما سمع، وشكرتُ مسعاه قائلاً:

"يكفي..يكفي.. لا حاجة لي بجوازٍ ولا تفرغ، هذا المغرب ببئس بهؤلاء...". حَتَّى رأسه وانصرف.

ما الفائدةُ من تحمُّلِ عُنجهية موظفٍ في الجوازات يوجد تحت إمرة الكاتب العام، والكاتب العام بدوره تحت إمرة العامل..موظفٌ من درجة ثالثة، في نظري، ينفخ ريشه مثل طاووس، ويتظاهر بأنه صاحبُ الكلمة الفصل، تبا لهذا الزمن.

تعبتُ من الجري وراء هذا الجواز، تعبتُ.. كنتُ في حاجة إلى حائطٍ أسندُ عليه ذلك الحمل الثقيل وأنصرف، وها أنتذا قد وجدته. أحسستُ براحة؛ لا شك أنها ستتضاعفُ عندما أقص على الأصدقاء حكاية الموظف الغني الذي حاولَ إذلالِي فألقمتهُ حجراً، المهم أنني خرجت بشيء يُحكى، ببطولةٍ ما...

عدتُ إلى حمّاي، إلى كليتي، أتسكع بين مرافقها في أمان، سأقصر حكايتي لأقرب الأصدقاء... ما إن ذكرتُ اسمَ هذا الموظف، للصديق بولسغان، من شعبة الجغرافية، حتى أثارَ انتباهي إلى أنني هارشتُ أكبرَ ثعبان في غار وزارة الداخلية بفاس! ثعبان له رأسان.. هذه أول مرة أسمعُ عبارة "رئيس الشؤون العامة" وأعرفُ ما يعنيه هذا الاسم؛ هو رأس مخابرات الداخلية ومفتيها في شؤون فاس محلياً ومركزياً. تيقنت وقتها أن ضياع الجواز والتفرغ ليس تطوعاً مني ولكنه واقع موضوعي، المهم أن تقف الأمور عند ذلك الحد. قال لي أحد الزملاء: الآن إجمع راسك، إن وقعت في يده، لأية شبهة، ستندم على كل حرف تقوّهت به.

توقّف مسلسلُ تهيبٍ ملف التفرغ للبحث، وبدأتُ مراسلات الوزارة تصل: إما الإدلاء بشهادة التسجيل النهائي بالخارج، أو تبرير الانقطاع عن العمل. أو مواجهة كل ما يتمناه لك شزيمة من الأشرار المتربصين. كان رئيس الكتابة الخاصة للعميد ينتبع الملف من مصادره الخاصة في الوزارة ويُفشي أسرارهِ. لا يُخفي سعادته بالحرص الذي وقع فيه واحد من المُتكبرين الذين لا يهتمون به اعتداداً بالنقابة، من جهة، والاتصال المباشر بالعميد عن طريق المجلة والأنشطة الثقافية، من جهة ثانية.

كان معروفاً عن العميد، كما هو حالُ أكثر المدراء والرؤساء في المغرب، تَجْمِيرُ الأساتذة، ولذلك يكتفون بالتعامل مع محيطه الذي يُصبح أكثرَ جَبَروتاً من سيده. و"التجمير" هو ترك الزائر أو صاحب الحاجة

ينتظرُ مدة طويلة قبل استقباله، كأنه جالس على الجمر، وقد كان هذا مما عابه عمرُ بنُ عبد العزيز على الحجاج بن يوسف. وكان إدريس البصري يمارسه بمُدَد تطول وتقصّر حسب الحالات، كما حكى طلحة جبريل في مذكراته. لم يكن بالإمكان العودة إلى شعبة اللغة العربية لاستجداء جدولٍ للعمل. الغريان والرَّحْم ينتظرون مرة أخرى.

كانت العلاقة بهم في قمة التوتر، خاصة بعد دخول بعض الانتهازيين من أصدقائنا مَعَمَّة التسابق نحو التفرغ بدون استحقاق، بعضٌ من بقوا كالأميين إلى اليوم، لم يبارك الله فيما لفقوه باسم الدكتوراه.

دخلتُ يوماً، في آخر هذا المسلسل، مكتبَ العميد لإخباره بالمأزق الذي آلت إليه إجراءاتُ الحصول على الجواز، وأني غيرُ مُستعدٍّ لا لمخاطبة الشعبة ولا للاستماع إلى كاتبه الخاص. وفي الحال دخلَ الأخير يحمل استفساراً من الوزارة، وأكد أجزم أنه هو من حرره وسجله في مكتب الضبط بالرباط. تسلمه منه العميد، وضعه فوق المكتب، لاحظ أن الكاتب ظل واقفاً فقال: "صافي، ماشي نجاوبهم"، يكفي ساجيهم.

مرت السنة فيما يُشبه تفرُّغا داخليا، يقومُ فيه الأساتذة بتحمل حصة أحد زملائهم، ثم استأنفتُ العملَ في السنة الموالية مُتَنَازِلاً عن السنة الثانية. من حُسْن حظي أن جهازي العصبي يشتغلُ عادةً في عدة واجهات بالتوازي، وإلا لما كان بوسعي إكمال خطوات تلك الدكتوراه. كثيراً ما تستغربُ زوجتي وبعضُ الأصدقاء كيف أَلْعِبُ الشطرنج وأتابع برنامجاً ثقافياً وأرد على حوار جانبي مع شخص ثالث في نفس اللحظة. كان الكتابُ وقلمُ الرصاص مرافقين لي في كل تلك المحنة. أما القراءة سيراً في زحمة الحقائق العمومية والأسواق والشارع العام، أحياناً، فمازالت ملازمة لي. قرأتُ الكثير من الفصول والمقالات ولخصتها في قاعات الانتظار وصفوفه. بمجرد ما أفتَحُ الكتاب أضع المشاحنة والمبيطات في الحَجَز. اللحظة التي اجتُرُّ فيها المشاحنات هي

لحظة السياقة، ولذلك لا أتذكر من أين مررت ولا من يقف بجانب الطريق، فيعُتَب علي الأصدقاء تجاهلهم أحياناً.

يُهمَل ولا يُهمَل، عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم. جاءت أحداث 1991 الأليمة فتبعثر عشُّ الزنابير المعششة بعمالة فاس. أُقْتُلَ الحجر الكبير فتداعت الأحجارُ الأخرى إلى الحضيض.

كان مرور عامل فاس بشارع الحسن الثاني يتم بالخفر والموسيقى. تكونت لجنة برلمانية فحمت السلطة المحلية قسطاً وافرًا من المسؤولية، سلطة عاجزة عن تقديم خدمات، غارقة في شهواتها، مستنقزة لمشاعر المواطنين.

من الأمثلة الميدانية لسريان الطغيان من الكبار إلى الصغار ما وقع لنا نحن سكانَ الحي مع عميد شرطة كان يسكن معنا. كان يستفيد من كل الخدمات ويرفض أداء نصيبه من التكاليف، ومنها أجره الحارس والبستاني، بل يرفض أي مشاركة أو تواصل بدعوى أنه رجُلُ سلطة ممنوع عليه المشاركة في الجمعيات. يلبس نظاراتٍ سوداء قاتمة ويمر كآلة عمياء. وعندما وقع الزلزال المذكور في صفوف السلطة انكسرت شوكتُه، فنسي القانون الذي يمنعه من المشاركة، وأدى ما عليه مع أول نظرة شزراء، وتهديد صريح.

بعد أن تأكد لي ضياعُ "التفرغ" جاء جوازُ السفر. حصلتُ على الجواز ليكونَ أولُ سفر به نحو الجزائر لحضور ندوة بجامعة وهران، قبل أن تغلق بوابة "زوج بغال" من جديد.

اعتقدتُ مرة أخرى أن الملف طوي نهائياً. ماذا سأنتظر؟ لقد أخذتُ مستحقاتي المادية كاملة عن سنوات التوقيف، واسترجعتُ جواز سفري. القدر يقول: لا. ما زال هناك فصلٌ أخير، أو مشهد آخر، سيتم أمام هيئة التحكيم التابعة للمجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، وسيكون مشكلُ الجواز قطبَ الرّحا هذه المرة.

كُنْتُ أَتَابِعُ مَلَفَ سَنَوَاتِ الرِّصَاصِ وَهُوَ يُفْتَحُ بِكُلِّ جِرَاحِهِ. كَانَتْ عَمَلِيَّةُ
الْإِنْصَافِ وَالْمَصَالِحَةِ مُصَاحِبَةً بِنَشْرِ فِضَائِعِ الْمَاضِي مِنْ خِلَالِ مَذَكَّرَاتِ
مُحَمَّدِ الرَّائِسِ مَعْتَقِلِ تَازِمَامَرْتِ وَمُثِيلَاتِهَا، وَمَذَكَّرَاتِ عَمِيلِ الْمَخَابِرَاتِ أَحْمَدِ
الْبَخَارِيِّ وَمَا إِلَيْهَا. كَانَتْ مَأْسَاءُ الْآخِرِينَ أَكْبَرَ مِنْ أَنْ تَتْرَكَ مِثْلِي يُقْحَمُ نَفْسَهُ
فِي الزَّحَامِ. لَمْ يَخْطُرْ بِيَالِي أَنْ أَكُونَ مَعْنِيَا بِعَمَلِ تِلْكَ الْهَيْئَةِ.

ثُمَّ جَمَعْتَنِي كَوَالِسُ وَهُوَامِشُ إِحْدَى النَّدَوَاتِ الْعِلْمِيَّةِ بِبَعْضِ الزَّمْلَاءِ الَّذِينَ
مَرُّوا مِنْ تَجَارِبِ مُشَابِهَةٍ، وَدَارَ النِّقَاشُ فِي الْمَوْضُوعِ، فَكَانَ الرَّأْيُ الرَّاجِحُ
هُوَ أَنَّ طَرَحَ مَلَفِ التَّجَاوِزَاتِ لَيْسَ اخْتِيَارًا شَخْصِيًّا، بَلْ يَكْتَسِي طَابَعًا قَانُونِيًّا
وَأَخْلَاقِيًّا جَمَاعِيًّا. قَالَ أَحَدُ الزَّمْلَاءِ مَنفَعَلًا: لَيْسَ هُنَاكَ مَا يُلْزَمُ أَحَدًا بِطَلَبِ
تَعْوِضٍ مَادِيٍّ، أَوْ الْإِحْتِفَازِ بِهِ لِنَفْسِهِ إِنْ كَانَ مُسْتَغْنِيَا عَنْهُ عَمَلِيًّا، أَوْ
مُتَرْفَعًا عَنْهُ نَفْسِيًّا، وَلَكِنْ لَا بَدَّ أَنْ تُذَكَّرَ الدَّوْلَةُ بِجَسَامَةِ الضَّرَرِ الَّذِي سَبَّبَتْهُ
لِلْمَوَاطِنِينَ خَارِجَ الْقَانُونِ، وَلَا بَدَّ أَنْ يَشْهَدَ الْعَالَمُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى لَا يَتَكَرَّرَ:
عَدُّ الْمَلَفَاتِ الْمَقْدَّمَةِ مَهْمٌ بِقَدْرِ أَهْمِيَّةِ مَدَى فِضَاعَةِ مَحْتَوِيَاتِهَا. وَجَدْتُ
مَنْطِقَهُ مُقْنِعًا. وَمِنْ عَدِهِ وَضَعْتُ مَلْفِي لَدَى الْهَيْئَةِ. وَبَعْدَ شَهْوَرٍ حَضَرْتُ
جَلْسَةً مِنْ جُلُوسَاتِهَا. كَانَ ذَلِكَ مَسَاءَ يَوْمِ 21 دَجْنَبَرِ 2000. ثُمَّ نَسِيتُ
الْمَوْضُوعَ. وَفِي 17 أَكْتُوبَرِ 2002 جَاءَ قَرَارُ هَيْئَةِ التَّحْكِيمِ الْمُسْتَقْلَةِ يَحْمِلُ
الْعِبَارَةَ الْوَحِيدَةَ الَّتِي كَانَتْ تَهْمُنِي، وَنَصَهَا:

"... تَبَيَّنَ لِهَيْئَةِ التَّحْكِيمِ مِنْ دَرَاةٍ مُسْتَنْدَاتِ الْمَلَفِ أَنَّ قِضِيَّةَ السَّيِّدِ
مُحَمَّدِ الْعَمْرِيِّ تَدْخُلُ ضَمْنَ حَالَاتِ الْإِعْتِقَالِ التَّعْسُفِيِّ، اِعْتِبَارًا لِمَقْتَضِيَّاتِ
التَّشْرِيعِ الْوَطْنِيِّ وَلِلْقَوَاعِدِ الْمُتَعَارَفِ عَلَيْهَا دَوْلِيًّا، لِأَنَّ احْتِجَازَهُ تَمَّ لِأَسْبَابٍ
سِيَاسِيَّةٍ، وَفِي ظُرُوفٍ تَفْتَقِدُ لِلشَّرْعِيَّةِ وَتَرْتَبِتُ عَنْهُ تَبْعَاتٌ أَضَرَّتْ بِهِ..."
وَهَكَذَا تَحَقَّقَ مَا كَانَ يَبْدُو مُسْتَحِيلًا فِي نَظَرِ الْمَحَامِي الَّذِي اقْتَرَحْتُ
عَلَيْهِ مُتَابَعَةَ الدَّوْلَةِ بَعْدَ الْحَصُولِ عَلَى الْبَرَاءَةِ. الْمَهْمُ الْآنَ أَلَّا تَعُودَ حَلِيمَةً
إِلَى عَادَتِهَا الْقَدِيمَةِ.

قوس أخير

التقيتُ، بعد ربع قرن، أحد الزملاء الذين قاسمتهم الاعتقال. أحد أعضاء المكتب النقابي بالدار البيضاء. كان، فيما مضى، بشوشا تبدو عليه ملامح براءة الأطفال إلى أن لبسَ ذلك الكفن... دخل البرلمان، وخالط الشيبُ رأسه... وأغرم به فبقي يطوف حوله... حين يفقد العضوية يلوذ بالكواليس.. ولا يفارق المقهى..

فرحتُ برؤيته، أقبلت عليه معانقا بحرارة وبراءة...

لم يستجب، كانت الحرارة من جهة واحدة، حرارة غير متبادلة.. عانقتُه... عانقتُ فيه برودة رخام أعمدة الإسمنت المنتصبة أمامي برواق محطة القطار بالرباط، وما أكثر ما كنتُ أتكى عليها فأزرع فيها شيئا من الدفء، أما هو فقد ظل باردا. وفي الحال دخل القطار، غابت المحطة في الضجيج. دار صاحبي نصفَ دورة.. صعدَ "الدرجة الأولى" دون أن ينبس بكلمة، وصعدتُ الدرجة الثانية، فقلتُ: ها قد ضاع "محب" أيضاً.

من يومها وضعتُ كل الذين قاسمتهم العمل النقابي والسياسي أو الاعتقال ثم صاروا ضمن جهاز المخزن بين قوسين؛ لا أبادرهم بالسلام ولا الكلام حتى أستأنس وأؤكد مما بقي منهم. لقد وصلوا، فيما سؤل لهم ضعفُ همهم، إلى شطِّ الوليمة، ومن حقهم أن يهشوا عنها أطماع الطامعين، يخشون أن نمُدَّ إليهم يد السؤال..

فُطعتُ تلك اليد،...

الفصل الثالث
فضاءات القلم
2005_1985

-1-

رُفْقَةُ الْقَم

ولادة حُلْم

في سنة 1985 ظهرت في واجهات الأكشاك والمكتبات المغربية، على غير تَوَقُّع أو سابق إعلان، مجلةٌ بعنوان علميٍّ غير مألوف: دراسات أدبية ولسانية، وبهيئة تحرير غير مُكْرَّسة في الواجهة الثقافية المغربية. ظهرت مجلة دراسات كائنا علميا مُكتمَل التكوين يتحدى حَمَلَةُ القمع التي شنها إدريس البصري على الثقافة والفكر عامة! كيف وقع ذلك؟ قصة مشوّقة تستحق أن تُحكى.

نشأت مجلة دراسات أدبية ولسانية من حُلْم مجموعة صغيرة من قداماء طلبة كلية الآداب بفاس، عادوا للعمل فيها أساتذةً بعد عَشْر سنوات من مغادرتها: بعضُهم عاد من العمل في التعليم الثانوي، كما هو الشأن بالنسبة لـ محمد العمري وحמיד لحميداني ومحمد الولي، وبعضُهم عاد من بعثة علمية خارجية، بعد تهيئ دبلوم الدراسات العليا، كما هو حال محمد أوراغ ومبارك حنون. يشترك هؤلاء الفتية في ذكريات الحياة الطلابية في "ظهر المهرار"، فترة تحضيرهم لشهادة الإجازة في الأدب العربي (67-1973).

فيهم الآن من مال إلى البلاغة والنقد الأدبي، وفيهم من اتجه إلى اللسانيات، ولكل منهم ذكّر وأثر.

كان ظهر المهرارز، أيام الحماية الفرنسية، قاعدة عسكرية تَعِجُ بالجنود، ثم تحولَ قسمٌ منه، بعد استقلالِ جزءٍ من أرض المغرب، إلى كلية للآداب، ثم إلى جامعة، ثم إلى جامعتين. وفي أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات صارت المنطقة مِرْجلاً يغلي بالأفكار الثورية الماركسية المعادية لنظام الحكم، المتمردة على الأحزاب السياسية. كان البعض يُسميها "الأرض المحررة"، فالطلبة يعتبرون أنفسهم بديلاً سياسياً، وطلبةً لتحرير المغرب.

ولذلك كانت المجموعة تشترك في نُزوعٍ حدّاثي، مع تفاوت في الانتماء السياسي ليسار متراوِج بين الالتزام الحزبي والتعاطف العام، أو ما يشبه ذلك. وهؤلاء الخمسةُ المؤسسون لـ"دراسات" هم، في الحقيقة، ما بقي متراصاً من مجموعة أَوْسَع ضَمَّت زملاء آخرين.

بدأ عملُ هذه المجموعة، أوائلَ ثمانيات القرن الماضي، بجلساتٍ علمية تتسم بتداخل المعارف. تُقدِّمُ عروضٌ في مجالات مختلفة؛ أدبية ولسانية وسميائية، وتُناقش في جو عائلي وُدي صريح، بل و"عنيف" أحياناً. تنظم الجلسات في منازل الأعضاء بالتناوب، مع كؤوس الشاي والحلويات.

هناك تفاصيلٌ ومصادفاتٌ صغيرة تلعب دورها في الحياة، ننساها في زحمة التدافع والتنافس، أو ننظُنُّ أن لا دورَ لها فنرفسُها في زحمة عابرة. لقد شاءت حكمةٌ ما أن أنزل - عند انتقالي من الدار البيضاء إلى فاس، أوائل الثمانينيات - بشارع أندونيسيا المنطلق من محطة القطار؛ في نفس العمارة والطابق اللذين يسكن فيهما الأستاذ محمد أوراغ. وكان يُدرِّسُ مادة النقد القديم التي كنتُ أشتغل داخلَ نطاقها. وهو رجل مهذب سهلُ التواصل متسامح، كان باريزياً أكثرَ منه ريفياً، وفي كل خير. ومن خلاله أُعيدَ الاتصالُ ببلديّه محمد الولي، وبشريكه في الانتساب السياسي حنون مبارك

الذين كانا يزورانه. كان التواصلُ الإنسانيُّ مع هذا الثلاثيِّ الطامحِ مُهمًّا في انطلاقِ المجموعة، ثم تعزز بالتعرف على الأستاذ حميداني.

أذكر من طرائف تلك الأجواء الحبية الحميمة أن ابني كمال وسامي، وهما وقتها بعمر الزهور، سبَّعَ وأربَّعَ سنوات - وهما حاليا، وفَقَّهما الله، أستاذان باحثان بالجامعات الفرنسية - عَرَّضا على الزميلين حنون وأورخ، وكانا ما يزالان عازبين، أن يؤديا لهما درهماً واحداً في كل زيارة لي إن هما رَغِبا في شُرْب الشاي فقط، ودرهمين إن رغباً في تناول وجبة كاملة. رَحَّبَ الزميلان طبعاً بهذا الاقتراح، فكان عليّ أنا صاحبَ المحفظة أن أُشهر التحفظ. أما العلاقةُ مع الزميلين حميد لحمداني ومحمد الولي المتزوجين فسرعان ما تحولت إلى صداقة عائلية يسودها الكرم. هذا هو الجو الذي انطلقنا منه، وهذه هي الأرض التي نبتت فيها مجلة دراسات وما صاحبها وسار في ركابها من أنشطة علمية. ألا ليت الشباب يعود يوماً.

بعد ثلاثِ سنوات من التواصل الوُدي، ومن العروض والمناقشات بدأت فكرة النشر تساور هذه المجموعة الطامحة. فُكِّرنا في نشر العروض التي تُلقَى داخلَ المجموعة. النشرُ هو حُلْم كل باحث في مبدأ أمره، لا توازيه، إلا لذة الولد، ولذلك كثيراً ما تسمعُ الباحثين يتحدثون عن "المولود الجديد" قاصدين الكتابَ الجديد. بل كنا نعلم جيداً أن النشر هو شهادة ميلاد الباحث.

فُكِّرنا، أولاً، في إصدار كتاب جماعي، ثم صَرَفنا النظر عنه بسبب تنوع المادة العلمية، ثم استقر الاختيار على مجلة فصلية متخصصة في مجال الأدب واللسانيات وما يتصل بهما من مباحث فلسفية وسوسولوجية وغيرها، وهكذا يمكننا أن ننشر أعمالنا وأعمالَ غيرنا. هذا هو الحيزُ الذاتي للمسار الذي ظهرت فيه مجلة دراسات أدبية ولسانية، الحيزُ الذي يتصلُ بنا. كان لدى المجموعة من الطموح والإرادة والانسجام ما يتحدى كل الصعوبات، خاصة الصعوباتِ المادية، حيث كان الرصيد المادي في درجة الصفر بالنسبة

للأغلبية. كما أن الخبرة في مجال النشر كانت ضعيفة، بل منعدمة. قمتُ أنا وحميد لحمداني بعملية استطلاعية في عالم المطابع والناشرين، كنا كمن يستكشف أدغالاً لم تطأها قدم بعد. بعد استطلاع أولي لإمكانيات النشر في عين المكان بفاس، دون نتيجة، انتقلنا إلى دار المعارف بالرباط، ثم مطبعة فضالة بالمحمدية، فدار النشر المغربية في الدار البيضاء، وطرقتنا باب ناشرين آخرين قبل أن يستقر الاختيار على مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء.

عُدا من هذه الجولة بتقويم أولي لما يتطلبه إخراج العدد الأول، في حدود 160 صفحة بغلاف عادي. قسمنا القدر المطلوب على عدد الأعضاء. كانت حصة كل واحد منا في حدود 4650 درهماً، أي أكثر من راتب الأستاذ المساعد؛ كان في حدود أربعة آلاف درهم. من المجموعة من دبر المبلغ ضمن ميزانيته الصغيرة، ومحيطه الاجتماعي، ومنهم من اقترضه من البنك واستمر يؤديه أقساطاً. اقترضنا في سبيل مغامرة علمية في بيئة كانت القروض فيها تؤخذ للسكن الذي لم يكن أي منا قد فك لغره بعد.

بدأ التهيؤ للعدد الأول بحماس كبير سرت حرارته في المحيط متجاوزة حدود المجموعة. أستمع الآن جلسة علمية، مع الكباب والشاي، جمعت نخبة من أساتذة شعبي اللغة العربية والفرنسية حول موضوع: اللسانيات والنقد الأدبي. حضرها من شعبة اللغة العربية: محمد السرخيني، ومحمد الحناش، ومحمد العلمي، ومحمد العمري، ومحمد الولي، وحميد لحمداني. وحضرها من شعبة اللغة الفرنسية: عبد الرحمن طنكول، وقاضي قدور، ولحسن الموزوني. نُشرت مواد هذا الحوار في العدد الأول والثاني.

كان هذا الموضوع ساخناً في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي في الجامعة المغربية بقدر سخونة الأفكار الماركسية وتطبيقاتها الأدبية منذ

عقد من الزمن فقط. والغرض الأقرب من تلك الندوة هو تأكيد مصداقية عنوان المجلة: دراسات أدبية ولسانية، وكشف مدى الاتصال بين النقد الأدبي واللسانيات. وقد أجرينا في نفس الوقت حواراً مع صاحب "المرشد إلى فهم أشعار العرب" الناقد السوداني عبد الله الطيب قصد إبراز المسار الحوارى للمجلة بين القديم والجديد. حاورته ذات مساء، برفقة محمد أوراغ، في منزله بحي لايبطا بفاس.

كان صدور العدد الأول حدثاً كبيراً جعلَ الزملاء الذين تخلفوا عن المجموعة يحسون بإضاعة فرصة العمر، وقد عبّر عن هذا الإحساس بطرق شتى، بعضها بناء، وبعضها دون ذلك. كان المولود الأول عزيزاً. كنا لا نفتأ نراقب عدد النسخ المعروضة في الأكشاك، نراقب مدى حركة المبيعات. جاءت النتيجة مشجعة: خمسة وثمانون في المائة من المبيعات في أول عرض، إنه رقم قياسي أثار اهتمام الموزع والعارضين.

بدأت تصل طلبات الاشتراك من الأفراد والمؤسسات. كما تصل رسائل التهئة. أهدينا نسخاً من المجلة لمجموعة من الشخصيات العلمية المرموقة، وتلقينا كلمات تشجيعية كبيرة الدلالة والقيمة. رحم الله العلامة أمجد الطرابلسي، لم يكد يتوصل بالنسخة الأولى من المجلة، على وجه الإهداء، حتى أجابنا برسالة لطيفة تُشجّع وتُبرّر الشيك الذي أرسله معها برسم الاشتراك.

ومن رسائل التتويه التي توصلنا بها في هذا المستوى رسالة الباحث التونسي عبد السلام المسدي...

ومن أوائل طلبات الاشتراك من البلاد العربية التي ترتبت عنها صداقة، بل صداقات منتجة، طلب اشتراك الصديق حمزة قبّان المزيني وزملائه من جامعة الملك سعود بالرياض. لقد ثبت باللموس أن المجلة جاءت في وقتها، وأجابت عن سؤال تاريخي، ولو لم تُنشئها نحنُ لكان لزاماً أن يُنشئها غيرنا.

كانت عملية تحرير المجلة فرصة للتكوين والشهرة. استفاد منها كلٌّ مِنَّا بالقدر الذي استطاع، أو أراد أن يستفيد، ولذلك فإن التقويم سيختلف لا محالة في هذا الميدان. أما بالنسبة لي شخصياً فقد كانت هذه التجربة المدرسة التي مكّنت إقحامي، دون رجعة، في منطقة تقاطع علوم الإنسان واللسان". أي في مجال البلاغة بمعناها الواسع. هذه البذرة التي انغرسَتْ مع قراءتي لمحمد مندور، وتلمذتي لأحمد الطرابلسي وعزت حسن ثم محمد مفتاح جعلتني دائمة التيقُّظ لما يجري في المجالات المعرفية المجاورة، مبتعداً ما استطعت عن الحَوْلِ وعمَى الألوان الذي يُصيب مَنْ يدعي الاكتفاء الذاتي في مجال يتعدّد فيه التخصص، أي مجال الخطاب الأدبي والبلاغي عامة.

كان علينا كهيئة تحرير أن نقرأ قراءة فاحصة كلَّ ما يَرِدُ علينا عدة مرات. وكان تحرير أية دراسة أو مقالٍ أو ترجمة فرصة للدخول في حوار، مباشر أو غير مباشر، مع صاحبها. إنها تجربة رائعة تغذت من عزيمة الشباب. ولذلك صدّق من قال:

"كُلُّ صَغْبٍ عَلَى الشَّبَابِ يَهُونُ"

وبمزيد من الحصر يمكن القول بأن العمل الجماعي الأخوي التعاوني كان يعني لنا جميعاً شيئاً مشتركاً، كان يعني بناء الذات، ولكنه كان يعني أيضاً، ولا شك، شيئاً خاصاً بالنسبة لكل واحد منا، يكبر أو يصغر.

فهو يعني، بالنسبة لي شخصياً، الاستمرار في سيرة حياة، أي التعلُّم من خلال التفاعل الحوارية مع الآخرين. فهذه سبكتي التي وضعني عليها الوالد، رحمه الله، حين حفظني القرآن وكثيراً من المنظومات الفقهية والصوفية وأنا طفل صغير عن طريق السماع؛ أُرِدُّ الآيات والأبيات والجمال في أعقابه، قِياماً وقُعوداً، سيراً ووقوفاً. ثم هيأت الشهادة الابتدائية في حوار مع أبناء الحارة، على نحو ما بسط في "الأشواق" أو أكثر، حيث

كنت أبادل أدوار السؤال والجواب في الغالب مع أحدهم، كنا نقرأ الدرس ثم نبدأ في تذكره ثم ننتقل إلى الأسئلة. وحضرت الباكلورية والإجازة مع مجموعة من التلاميذ والطلبة من أبناء الجنوب، إبراهيم أزوغ وأحمد بوهوش وآيت الحاج وآخرين. لا تجدني إلا مستمعا أو مناقشا، أما القراءة الفردية فهي، على الدوام، مرحلة تمهيدية، إعداداً للدخول في حوار مع الآخرين. لا تستقر معرفةً عندي إلا بعد إفشائها وإثارة الأسئلة حولها. يجذني البعض مقتحماً، غير متحفّظ في إبداء الرأي العلمي، وتصيبني الدهشة حين أنبه أحدهم إلى خطأ فيكابر أو يفعل مُحرجاً. ومع التقدم في السن وإفقار ساحة الحوار مع الزملاء دخلتُ في حوار مع الذات: أسأل وأجيب.

وعلى هذا السّن من الحوار لم يمرّ شيءٌ من مؤلفاتي ومترجماتي إلى المطبعة قبل أن يُقرأ من طرف عدد من الزملاء، والطلبة أحياناً. وحين أكتبُ استحضرتُ نصيحةَ الجاحظ فأعتبرُ الناسَ جميعاً أعداء، أي نقادا صارمين.

لا شك أن إقبالي على التدريس وسعادتي بممارسته راجعان إلى هذا النزوع، إلى فرصة الحوار التي يُتيحها لي، خاصة في المستويات العليا؛ فكلما أعددتُ مادةً جديدةً إلّا وأخذني شوقٌ مشوبٌّ بالرهبة إلى عرضها ومناقشتها. من المؤسف أن المستوى العلمي في المجال الأدبي لم يتوقف عن التراجع حتى صار المحاضرُ يناجي نفسه، لا يجد من يرد عليه الصدى. ولذلك عندما جاء الطلاق مع التدريس (2005) كان باننا، وبدون رجعة أو أسف.

بداية أخرى؟

مع صدور العدد السادس من مجلة دراسات، أي بعد ثلاث سنوات من الإعداد، وثلاث سنوات من ممارسة التحرير، استنفذت المجموعة قوة دفعها وطاقته تماسكها، في حين بقي المشروع مفتوحاً ومُمتدّاً. لقد أصبَحْتُ للبعض منا أسبقيات تستنزف طاقته، سواءً تعلق الأمر بأطروحة دكتوراة

الدولة أو بهموم أخرى. تفاوتت السرعة التي أصبحنا نسير بها، ففترقت الكوكبة قبل خط الوصول: عند نصف الماراطون. توقفت مجلة لتبدأ مجلة أخرى بهيئة تحرير أخرى مُقلصة. توقفت المجموعة قبل أن يستنفذ المشروع كل طاقاته.

والدليل على أن الذي توقّف هو الطاقم وليس المشروع هو أننا كنا قد باشرنا إعداد محورين رئيسيين للعدد القادمين (السابع والثامن)، وحررنا مراسلة في شأنهما إلى المساهمين المفترضين: المحور الأول: الشعرية البنيوية، من خلال التعريف بالمشاريع العلمية لأعلامها الكبار، والمحور الثاني: البحث العلمي وتدرّس الأدب واللغة. يستهدف المحور الثاني البحث عن سبل تحويل المعرفة الأكاديمية إلى منتج بيداغوجي سائغ في كل المراحل التعليمية، من التعليم الابتدائي إلى الجامعي. وما زال هذان المحوران يتحديان الدارسين والمدرسين، خاصة المحور الثاني. ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

كانت الجلسة التي اتُخذ فيها قرارُ توقيف مجلة دراسات أدبية، وبعبارة أدق أُعلن فيها التوقيف، حرجة مؤلمة حقا. من الصّدف أن قرارَ التوقيف الذي اتُخذ يوم 05.04.1987 وقع في نفس الغرفة التي نُظمت فيها ندوة الانطلاق: ندوة اللسانيات والنقد الأدبي.

كانت تبدو لي في المرة الأولى فسيحة مُمتدة في الفضاء، ثم صارت في المرة الثانية ضيقة خانقة. كنت أهرّب ببصري من الموقف فترده الجدران. ويبحث حسي وعقلي عن استئناف الحكم فترده التراكمات. بعدَ مؤاخذاتٍ ونقاشٍ يخنّفه الحرج، ولا يفيدُ معه الاعتذار، اتّفق على توقيف المجلة وصيانة تاريخها وتصفية رصيدها بالحُسنى، وذلك ما كان، وما استمر إلى الآن. وقد اعتادت الساحة المغربية على إنهاء مثل هذه المشاريع الثقافية باللجاجة والإشاعة التي لا طائل من ورائها.

ومن جملة تفاصيل الرضا والتراضي الذي تمت بها العملية، برغم ما يكون قد خامر هذه النفس أو تلك من غضاظة، الاتفاق على عدم تخفيض ثمن بيع المرجوعات إلا ما يكون من بيع للطلبة داخل الكليات، والاتفاق أيضا على تسليم المواد العلمية الواردة على المجلة لمن يبادر بإطلاق مشروع في الموضوع.

قبل توقيف مجلة دراسات أدبية كنا قد فكّرنا في فتح نافذة واسعة على البحث السميائي. اخترنا نصّا يستعرض المسارات السميائية الكبرى، وهو فصل من كتاب لـ مارسيلو داسكال. ساهمت هيئة التحرير كلّها في الترجمة ربحا للوقت.

بعد الانتهاء من الترجمة اكتشفنا أن زميلنا عبد الرحمن طنكول قد أكمل بدوره ترجمة هذا النص القيم خلال العطلة الصيفية بتنسيق مع أحد الناشرين، إفريقيا الشرق. اكتشفنا ذلك عندما اتصل بي من أجل التطوع بمراجعة ترجمته. وبعد مشاورة مع الآخرين أضيف اسمه واستأنسنا بترجمته في الإخراج النهائي. هذه هي قصة تراحم أسماء المترجمين فوق غلاف ذلك الكتيب الصغير الموسوم بالاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. كانت اللحظة التاريخية تدعو تلك الدراسة إلى الخروج، فخرجت من بابين. وربما يكون آخرون قد شرعوا في ترجمتها أو فكروا فيها، على نحو ما وقع في ترجمة "البلاغة القديمة" لـ رولان بارت التي خرجت بترجمتين في نفس الآن: واحدة لـ عمر أوكان والثانية لعبد الكبير الشرقاوي. وقد كانت تلك الدراسة من بين النصوص الموضوعية فوق مكثبي تنتظر دورها. إنه العصر الذهبي للمناهج والنظريات الأدبية في الجامعة المغربية، شاء حسنُ الحظ أن تكون مجموعتنا في طليعة الفاعلين فيه.

لم تكن ترجمة الاتجاهات السيميولوجية الثمرة الوحيدة التي نضجت على هامش مجموعة دراسات، فقد كانت جلساتها الأولى منطلقا لترجمة كتاب:

بنية اللغة الشعرية لجان كوهن⁵. كنتُ منشغلاً بالقسم الأول من الكتاب، القسم المتعلق بالبنية الصوتية، في إطار أطروحة الدولة حول الموازنات الصوتية، وكان محمد الولي منشغلاً بالقسم الثاني المتعلق بالبنية الدلالية في إطار تحضيره دبلوم الدراسات العليا في موضوع الصورة الأدبية. قدّم كلُّ منا عرضاً في الموضوع، واشتركنا معاً في ترجمة المدخل المنهاجي المتعلق بمفهوم الشعر. نُشرَ في العدد الأول من المجلة. وسار العمل في الترجمة خلال سنتين، كلُّ ترجمَ الجزء الذي يشتغلُ به، وأحاله على الآخر بالتدريج قصدَ المراجعة. وبعد كلِّ مُراجعة جلسةٌ للتداول حولَ المُختلف فيه؛ لا تخلو أحياناً من إحراج، ولكنها لا تخرج عن حدود اللياقة والود، حتى انتهت العملية. هذا تقديري وشعوري، والله أعلم بما يكون عند الآخرين، لا أصادر رأي أحد. من فوائد مجلة دراسات أنها علّمتنا أن نُسمي الخطأ خطأً دون أن نخشى سوء فهم أو تفاهم.

وقد كانت مجلة دراسات فرصةً للكثير من الزملاء في شعب اللغات الأخرى للعودة إلى الكتابة باللغة العربية والتحاور بها، والمشاركة في الندوات دون تعقيد. وكان بعضهم يعتقد "أن لا تلاقياً" مع اللغة العربية بعد سنوات من الفراق. كانت مجلة دراسات مدرسة لنا ولكثير من الباحثين.

سيقول ظاهرُ الحال، وما تلا التوقيف من تطورات، بأن توقيف مجلة دراسات أدبية ولسانية لم يكن، بالنسبة لمحمد العمري وحמיד لحميداني، أكثر من إجراء ظرفي مُبَيَّن، سرعانَ ما تجاوزه بإصدار مجلة دراسات سميائية، غير أن الأمانة التاريخية تقتضي أن نقول بأن هذا الحكم - وهو صحيح - ينطبق أيضاً على صديقنا الأستاذ محمد الولي. فقد توصلَ هؤلاء الثلاثة إلى موقف مشترك رُتّب فيه كلُّ شيء بتفصيل قبل إعلان توقيف المجلة. أما العضوان الآخران، مبارك حنون ومحمد أوراغ، فقد فوجئنا بقرار التوقيف، وحاولا

تلافية دون جدوى. لقد كان التوقيفُ أحسنَ من كل الخيارات الأخرى المتاحة. كان من باب التسريح بإحسان ليُغني الله كلا من سَعته.

لو رُفِع بيني وبينك الحجاب لرأيتني أتصفّح الآن محضرَ اجتماع بخط الأستاذ محمد الولي، بالحبر السائل والخط العريض. محضر اجتماع بتاريخ 24.05.1987، أي بعد أقلّ من عشرين يوما من تاريخ التوقيف، جاء فيه: "قدّم محمد العمري، باسمه ونياية عن حميد لحميداني ومحمد الولي، طلبَ موافقة الأخوين مبارك حنون ومحمد أوراغ على الاستمرار في إصدار المجلة باسم الثلاثة المذكورين. وكان الجواب بالرفض".

ولذلك استمر التواصل والحوار بين هؤلاء الثلاثة لترتيب الوضع الجديد... لم يبق غير إجراء بسيط تفصيلي ويبدأ العمل.

كنت جالسا، ذات مساء، بين الزميلين لحمداني والولي في صالون بيتي بالحي الحسني، نضعُ اللمساتِ الأخيرة على المشروع حين تلقيتُ إشارة من يميني إلى ما ينبغي تغييره، ثم أخرى من يساري إلى ما لا ينبغي المساسُ به. اعترتني رهبة خفيفة من أن يُصرَّ أحد الطرفين على ما يرفضه الآخر، إذ كنتُ أتوهم، وقد أكون صادقاً، أنني أمثُلُ صلة وصل، كان التواصل والاحترام قائما، ولكن... كان أحد الزملاء يلّمح لإمكانية التغيير في مواقع تسيير المجلة، ولم يكن لديّ مانعٌ لذلك، غير أنني كنت أعلمُ أن الزميل الآخر يرفضُ ما يُشار إليه رفضا باتاً، ولذلك تغايبتُ على مضض، فَبقيتِ الأمورُ على حالها إلى حين.

انتقلنا إلى البحث عن عنوان جديد للمجلة لا يقطع الصلة بالعنوان القديم. أذكر أنني اقترحتُ عنوان: *أبحاث في الأدب واللغة*. فكانت رغبةُ الزميلين متجهةً إلى الاحتفاظ بلفظ *لراسات*، فهي مكسبٌ مهمٌ في السوق العلمي. ولم يكن ممكنا التخلي عن أي من الكلمتين المُميزتين: "أدبية ولسانية". ولذلك اقترح محمد الولي تركَ ما كان على ما كان، وإضافة كلمة

"سميائية": دراسات سميائية أدبية لسانية.

كنتُ متهيّبا من كلمة سميائيات هذه، وذلك ليس لمستلزماتها التي لم نكن معنيين بأكثرها، أي البحث في المجال العَلّامي العام، ولكن لكون معرفتي بالموضوع محدودةً جدًّا، فقد كنتُ غيرَ راغبٍ في إعطاء تصور غير واقعي. قد يسبق إلى ذهن المتلقي الذي لا يعرف مجال تخصصي وحدود معرفتي أن مدير "مجلة سميائيات" اسمٌ على مسمى، علّم من أعلام السميائيات! وأنا مجرد مبتدئ يتلمس موقعه في علمٍ مازال يعاني من الإهمال: البلاغة.

غير أن زميلنا تمسك باقتراحه بقوة وإصرار يندران بالخطر، باسطة التعريف بلهجة صارمة تسد باب الاعتراض ليشمل كلّ ما كنا نقوم به في الإطار السابق. ولم يمانع حميد لحميداني في تبني هذا الاقتراح، فتم الاتفاق عليه...

لم يبقَ غيرُ وضع وثائق الملف لدى وكيل الملك. كان من المفروض، حسب الاتفاق، أن أجد، صباح اليوم التالي، في صندوق بريدي بشعبة اللغة العربية، وثائق محمد الولي لاستكمال الملف. غير أنني وجدت، بدل ذلك، الرسالة الموجزة التالية، بالنقطة والفاصلة:

إلى الأخوين: العمري. لحميداني.

تحية طيبة

لقد اتضح لي، بعد تأمل طويل أن المشاركة، في المشروع الذي تودان إنجازهُ أمر غير وارد بالنسبة إلي.

أخوكما: الولي محمد.

لم يقدم الأستاذ الولي بيانا لأسباب تراجعهِ، ولم تُبادر نحن من جهتنا إلى مراجعته في الموضوع، إذا ظهر المعنى لا فائدة في التكرار.

الأستاذ محمد الولي كريم وخدم اجتماعيا وعلميا، حين تسأله عن

مرجع ما لا يهدأ له بال حتى يوافيك به. وهو إلى ذلك ذكي ومدققٌ للمفاهيم والمصطلحات، وهذه موهبةٌ غيرُ متاحة للجميع. تخيلتُ دائماً أنه لم يُحسن استغلالها كما يجب. ولكنه صاحبُ مبادرات ومفاجآت من القبيل المذكور، ولكل منا مبادراته ومفاجآته، ومن ليست له مبادرة ومفاجأة فليُرمني بحجر.

بقيَ علينا، أنا وحيد لحميداني، أن نتحمل عبءَ عنوانٍ لم نتحمس له. لا بد لدراسات سميائية من مدخل يعرف بالموضوع شبيه بالندوة التي بدأت بها دراسات أدبية. استنفرتنا زميلنا عبد الرحمن طنكون، وهو جارنا في الحي، وقصدنا حامل لواء السميائيين وقتها الأستاذ محمد مفتاح لاستفساره عن هذا العلم الذي ورطنا فيه توريطاً حسناً. في منزله القديم بحي حسان بالرباط طرحنا أول سؤال:

. ما السميائيات يا شيخنا؟

وهكذا سرتنا نفتحُ الموضوع، وعند الصباح حُمد السرى. ها نحن نتعلم. لم يُزعزعُ تراجعُ الزميل محمد الولي عن المساهمة في دراسات سميائية قناعتنا بضرورة الاستمرار فيما نحن مُقبلون عليه. جولةٌ ذهاب وإياب في الأرض الخلاء، في التجزئة التي أقيم عليها، فيما بعد، حي النرجس، يوم كان الرجال ينصبون فيه خيامهم، وتم امتصاص الصدمة. بل الغريب في الأمر هو أننا لم نُفكر حتى في إعادة النظر في العنوان. والأغرب من ذلك أننا لم نحسَّ بعبءٍ كبيرٍ في تسيير شؤون المجلة، بل تجاوزنا التحرير إلى إصدار منشورات "سال". لقد حدث تعويضٌ طبيعي كالذي يحدث عندما يُبتر جزء من عضو حي: كبد أو شجرة، مثلاً، ينمو الجزء المتبقي ويؤدي نفس الوظيفة.

وإذا كُنْتُ لا أدري بماذا أتميزُ - في نظر الآخرين - فإني أشهد بأن حميد لحميداني يتميز في مجال العمل الجماعي التنظيمي بالضبط

والانضباط، وإنجاز ما يوكل إليه، أو ينوبه من العمل في وقته، لا شيء يُمكن أن يُعابَ عليه في هذا المجال. وقد كان ممسكا دفتر الحسابات فدبره بكل كفاءة ونزاهة. وهو منقطع للقراءة والكتابة والتدريس.

أشواك في الطريق

بعدَ صدور سبعة أعداد من مجلة دراسات "سال" وعدة كتب من منشوراتها توسّع المشروع أكثر مما تستوعبه الهواية المحضة. ظهرت الحاجة إلى التحول إلى مؤسسة تقوم بتدبير الجانب الإداري وما يتعلق بالمرجوعات وإعادة التوزيع. وهذا ما لم نبادر إليه، أو لم نكن مؤهلين للقيام به مع أعباء البحث والتدريس الذي نوليه معاً كلّ العناية.

وفي هذا الظرف ظهرت مجموعة من العوائق الإضافية التي عجّلت بتوقّف المجلة في طبعتها الثانية. لا شك أن أول هزة عنيفة في الطريق نحو التوقف هي تراجع الموزع (سوشبريس)، من جانب واحد، وبدون مبرر معقول، عن العقد المبرم معه، وذلك برفع حصته من خمسة وثلاثين إلى خمسة وأربعين في المائة مرة واحدة. عندما حاولت إقناع المسؤول الأول في سوشبريس مازجا الاحتجاج بالاستعطاف، مذكرا بحديث ساد في مرحلة التعاقد الأول حول التطوع والروح الوطنية والثقافة القومية ألقمني حجرا: هذه مؤسسة تجارية؛ يهملها الربح! قابلني بوجه آخر!

لم نستوعب رجّة الرّفْع من حصة الموزع التي امتصت ذلك القدر القليل من الأكسجين الذي كانت تنتنفسه المجلة حتى جاءت الهزة الثانية، وكانت أشدّ عنفا بما لا يُقِلّ لنا به. حَجَرَ الموزع (سوشبريس) ما تبقى من حقوق المجلة من المبيعات مطالبا بتكوين سجل تجاري استجابة لقرار حكومي غبي يُقحم المجالات الثقافية في المجال الضريبي. كان الأمر يتطلب تكوين مجلس إداري واعتماد محاسبة....الخ

وكيف تكون المحاسبة والضريبة مع مَنْ "مكتّبه في قُبّه"، كما قال وقتها

الأستاذ عبد العلي الودغيري، وكان قد شرع في إصدار مجلة ثقافية فصلية متنوعة بعنوان *الموقف*، ابتداءً من ربيع 1987، توقفت بدورها عن الصدور. لقد كان هذا القرار الحكومي السبب الحقيقي المباشر لتوقيف مجلة دراسات سمائية. إنه قرار إداري أعمى، أو موجّه قصداً لهذا الغرض. وعن هذه الهزة العنيفة ترتبت كل الشقوق والتصدعات الأخرى التي تسربت منها الرياح لعلاقتنا الداخلية. وبعد أن كانت المجلة عالمي الذي يشغل كل وقتي واهتمامي صيرت أجد رغبة في الهروب من مشاكلها إلى قاعة الشطرنج الساعات الطوال، حتى خشيت أن أصبح واحداً من المتسكعين، فرحلت.

وأنا أضغ اللمسات الأخيرة على هذا الفصل قرأت في جريدة أخبار اليوم 24.08.2009. ضمن مذكرات مصطفى العلوي. قصة الضريبة التأديبية (الكيدية) التي فُرضت على مطبعة "أخبار الدنيا" بسبب طبعها لمجلة "الجماعة" الإسلامية لعبد السلام ياسين، هذه الضريبة التي أدت إلى بيع المطبعة في المزاد العلني، فتأكد لي أن الأمر يتعلق بمنهجية مخزنية قديمة، بدأ ذلك في النصف الأول من ستينيات القرن الماضي. الجديد في بداية التسعينيات هو نقل هذه المنهجية من الصحافة السياسية إلى المنشورات العلمية حرقاً للأخضر باليابس. يقول العلوي:

"في سياق الأجواء العامة التي كانت تضيق شينا فشينا لتخفق الصحافة في السنوات الأولى لاستقلال المغرب جربوا معي في إحدى المرات الضغط المالي ... وكان عبد السلام ياسين يأتي للإشراف على طبع مجلة "الجماعة"... وقد كنت أشعر بأن وراء طبع تلك المجلة شيئاً ما، حيث بدأ البوليس يأتون للوقوف قرب المطبعة... وفي إحدى المرات جاعني عون من إدارة الضرائب، وأبلغني إشعاراً يطالبني بدفع ضريبة جد مرتفعة... انتهى الأمر ببيع (المطبعة) في المزاد العلني".

ومن هنا لا أستبعد أن يكون ما طرأ من مضايقات وإجراءات جديدة

مُتَعَسِّفَةٌ مَوْجَّهًا بدوره لخلق أنفاس مجلتي "دراسات" و"الموقف" قبل أن يتسع الخرق مرة أخرى. وهذا يدفعنا إلى ربط هذه التطورات بسياقها وسوابقها. فقد ظهرت مجلة دراسات في فترة عصيبة شديدة الحساسية من تاريخ المغرب، كما سبق؛ تَوَجَّهًا إدريس البصري بتوقيف كل ما يصدر عن اليسار والمتقنين عامة من منشورات سياسية وثقافية. أوقف جريدة المحرر باعتبارها رأس الحربة. فهي، كما جاء على لسانه، مجرد منشور تحريضي. ثم امتد المنع، بدون تردد، إلى المجلات الثقافية إما بقرار جماعي مباشر، أو بتجفيف المنابع:

توقفت الثقافة الجديدة، والجسور، والزمان المغربي، والبديل، والجدل ... الخ. وكانت قيدومة المجلات الثقافية/أقلام قد توقفت سنة 1983 إثر اختلاف السُّبُل بين القائمين عليها بسبب انفصال مجموعة "الطلیعة" عن الاتحاد الاشتراكي؛ إذ صار المدير في جهة والدار الناشر في جهة أخرى. صدرت أقلام سنة 1965، وكانت تصدر عن دار النشر المغربية تحت إدارة الأستاذ عبد الرحمن بن عمرو الذي أصبح كاتباً عاماً للحزب الجديد. وبذلك أصبحت الساحة خالية من أي منبر ثقافي أو علمي.

ولم يقف التضييق على الثقافة والمتقنين عند قطع ألسنتهم تلك، بل تعداه إلى تعقيبهم وإحصاء أنفاسهم، والتهيبى لمحاكمتهم. بدأ الحديث عن لائحة للمتعاملين مع المنظمات الدولية الحقوقية والإنسانية باعتبارهم عملاء متخابرين مع الخارج ضد وطنهم. وبذلك اختلط الحابل بالنابل وأُحرق الأخضر باليابس، فلم يعد هناك تمييز بين السياسي والثقافي العام، وبينهما وبين العلمي الأكاديمي.

لكل ذلك لم تستسغ أجهزة الأمن المحلية بفاس - منذ البداية - ظهور العدد الأول من المجلة، لم تستسغ ظهور ذلك المولود الجديد الذي اقترح الأكشاك ذات صباح من خريف 1985 دون سابق إعلام، بل اعتبرت ذلك

تحديا يقتضي الردع. اتصل بي رئيس الموظفين بالكلية. وكان، بحكم وظيفته وظروف المرحلة، نقطة اتصال مع جهات الأمن. أخبرني، فيما يُشبه الأمر، بضرورة الذهاب إلى مكتب بن براهيم، هكذا بدون بيان.

"من بن براهيم هذا؟"

استغربَ زَمُو عدم معرفتي بما يعنيه هذا الاسم الرنان. فوجّهني إلى المقر المركزي للأمن. أول سؤال بادرني به بنبراهيم في مقر الأمن، بعدَ تجمير وإظهار لامبالاة هو:

لماذا أصدرتم مجلة بدون رخصة؟ بدون إيداع ملف لدينا، بدون موافقتنا بنسخ قبل العرض؟ ...الخ

وعندما أخبرته أننا وضعنا ملفا لدى وكيل الملك حسب ما يقتضيه قانون الصحافة، وتسلمنا وصلا بذلك، وهذه صورته، لم يُعر كلامي اهتماما، بل ربما اعتبر ذلك تطاولا يلزم قمعه، فقال: "نحن نقوم بعملنا، ما لا نُرخّصه نجمعه من السوق".

وبعد أخذ ورد، ومهادنة وملاينة من جانبي، بدأ في أخذ معلومات عني وعن هيئة تحرير المجلة مع تعهدي بإحضار صور شمسية وثلاث نسخ من العدد الأول، ومن كل عدد يصدر في المستقبل.

لقد كان إصدار مطبوع، منتصف الثمانينيات، سباحة ضد التيار، أمراً غير مرغوب فيه، بل يُعتبر تأمراً على أمن الدولة، مثله في ذلك مثل تأسيس جمعية للعمل الاجتماعي أو النشاط الثقافي. ففي نفس الحقبة كان قائد سيدي حرازم، بمنطقة فاس، يرفض أن يتسلم منا نحن سكان الحي الحسني الجديد ملف تأسيس جمعية القاطنين. وظللنا نعمل سنوات طويلة بدون اعتراف. وقد صارحنا أحد المسؤولين بعدها بأن السلطة ترفض الترخيص للجمعيات لأنها كلّها اتحادية معارضة، هدفها الأول الاتصال بالسكان واستقطابهم وتعبئتهم ضد الدولة. فالاتحاد الذي "أكلتها" نقابته،

حسبَ عبارة ذلك المسؤول، أي تضررت، بعد إضرابات 1979، و1980 يحاول الآن استغلال الدولة والاستيلاء على المجتمع من خلال الجمعيات. وقد علمتُ، فيما بعد، أن الذي أثار البوليس وجعلهُ يُصِر على استدعائي وإجراء تحقيق معي، هو ما بلغهم، من طريق فاعل خير، من أن الأمر يتعلق بمجموعة ماركسية. من بقايا "إلى الأمام" السرية، تتستر وراء العلم والثقافة.

لم أتأثر لا قليلا ولا كثيرا بذلك التدخل البوليسي الإرهابي لأنني كنتُ أتوقعه. كنت أعلم، منذ البداية، أن ملف سوابقي مازال يحملُ آثارَ الاعتقال والتوقيف. بل إن هذا الواقع جعلني، منذ البداية، غيرَ راغبٍ في احتلال موقع المدير المسؤول عن مجلة دراسات، رغم أن التوافقات كانت تسير نحوي. وحينما أصرَّ الزملاء المشاركون في المشروع على ذلك، ونحن جُلسَ بمقهى البرج الفضي (La tour d'agent) ذات مساء، لم أرغبُ في مصارحتهم بسبب تحفظي تجنباً لإثارة أي نوع من الارتياح أو النكوص، فقُبلتُ. وإذا كانت صورة المخزن وحرمة قد سقطتُ في نظري وتقديري في النصف الأول من الستينيات، نتيجة تزوير الانتخابات واعتقالات الوطنيين واغتيالهم، فإن الخوفَ منه انتهى مع تجربة الاعتقال سنة 1979. والمغاربة يقولون: "اللي ما قُتِلْتُ تُسمَّن"، و"مَنْ يركب البحر لا يخشى من البلل".

يضافُ إلى العوامل الخارجية (الكيدية، أو الغبائية) عاملٌ ذاتي يخص العمل المبني على الهواية. فمما لا شك فيه - بل مما يجب الاعتراف به - أن الخروج من مرحلة البحث عن الذات وإثبات الجدارة إلى مرحلة جني الثمار، سواءً كانت شهرةً أو مكاسبَ ماديةً، يؤدي حتماً إلى تأزيم العلاقة بين المشتركين في مشاريع فنية أو ثقافية قائمة على الهواية والتطوع. هذه إحدى ثوابت العمل في الميدان الثقافي والفني في المغرب، والأمثلة كثيرة.

ولعلّ مجموعتنا هي الوحيدة التي لم تنتشر غسيلها، وهو على كل حال نظيف، لن يُزكّم أحداً.

نقطة ضوء

من العناصر الإيجابية المساعدة في توسيع مجال إشعاع مجلة دراسات وتأثيرها في محيطها الضيق وجود الأستاذ عبد الوهاب التازي في عمادة الكلية. كان الأستاذ التازي (وبرغم كل ما يمكن أن يؤاخذ عليه بدويّ ماركسيّ مثلي بعيدّ عن مجاري وادي فاس ورواحه) مُتحمساً للتحديث والتجديد؛ إذا وجد من يُساعد في حَمْل عبئه، ويبادر إليه، تحمّس وساعد. هذا في الوقت الذي كان التقليد مُقنّعا بالإسلام ينتشر كالعرّ في شعبة اللغة العربية. وكان، من جهة ثانية، ذا حَمِيّة وحماسة للغة العربية، في الوقت الذي كانت فيه نواة معادية لسيبويه تتشكل في بعض شعب اللغات، خاصة شعبة اللغة الفرنسية مدفوعة بتيارين متعاونين: التيار الأمازيغي الفرنكوفوني الذي يعتبر انتشار اللغة العربية حكماً بالإعدام على اللغة الأمازيغية، ولذلك يُفضّل مُوقفاً تشجيع الفرنسية، والتيار الفرنكوفوني الثقافي الاجتماعي المتعالي الذي يَسمح تخلف المغرب في جبين اللغة العربية.

لهذين السببين أبدى فرحاً كبيراً بصدور مجلة دراسات أدبية ولسانية، وتعاونَ معها في تنظيم ندوة تحليل الخطاب التي كانت حدثاً علمياً باهراً، أعطى المجلة نفساً قوياً. وعندما بلغَ إلى علمه خبرُ توقّف مجلة دراسات أدبية ولسانية استدعانا لمكتبه مُبدياً أسفه، مستفسراً عن سبب توقّفها. ولأننا كنا قد قررنا حفظَ الملف صيانة لتلك التجربة الرائعة، فقد عزّونا توقف المجلة إلى الصعوبات المادية. وهي إن لم تكن السببَ المباشر الحاسم فقد كانت عنصراً مُثبّطاً للبعض. وعندما علِمَ أن القدر المادي الضروري لاستمرار المجلة زهيدٌ، في حده الأدنى، اقترحَ أن يدعّم استمرار المجلة بشراء خمسين نسخة من كل عدد من الأعداد القديمة والتي ستصدر...

ولم يكن، قبلَ هذا الظرف، قد اشترى منا أكثر من عُشر هذا العدد (خمس نسخ) متذرعاً بأن شراء كمية كبيرة من النسخ سيضُرُّ بروج المجلة، لأن الطلبة سيكفون وقتَها عن شرائها. وكنا نعلم أن ذلك لم يكن سبباً وجيهاً، لأن الكلية دأبت على شراء عدد من النسخ من الكتب التي يُصدرها الأساتذة العاملون بها لاستعمالها في التبادل مع الجامعات العربية. كانت مبادرته تلك ثمينةً بالنظر للمحيط المحافظ العدواني الذي ابتهج بما وصله من خبر توقف المجلة وانتثار عِقدِ مجموعتها المناوئة. جاء موقفه في اللحظة الحاسمة.

... حلقةٌ من حلقات

إذا ما شئنا أن نؤرِّخ لتطور العلم والثقافة في المغرب بمنابرهما، وهذا مشروعٌ ومُفيد، فيمكن القول بأن مجلة دراسات شكَّلت بطبعِتيها (دال وسال) "مرحلةً ثالثةً" من مراحل هذا التطور. كانت مجلة أقلام، في منتصف الستينيات، علامةً على المرحلة الأولى، وهي مجلة فكرية متعددة الاختصاصات تُمثِّلُ مرحلة بروز الفكر الاجتماعي الاشتراكي القومي. بدأ صدورها سنة 1965، ثم جاءت الثقافة الجديدة في منتصف السبعينيات لتكون علامة على مرحلة التداخل بين الفكر الاجتماعي والبنويّة (البنويّة التكوينية)، وقد بدأ صدورها سنة 1974 في امتداد الحركة الطلابية، وبذلك كانت تحملُ هموم الطليعة في مجال الشعر خاصة. ثم ظهرت مجلة دراسات أدبية لسانية، في منتصف الثمانينيات، لتعكس القلق المنهجي والتحول المتسارع في مجال الدراسات الأدبية واللسانية. وهي أولُ مجلة متخصصة في الدرس الأدبي واللساني. بدأ صدورها سنة 1985. جاءت بعدها مجلات أخرى خاصةً في المجال اللساني والسميائي، مثل مجلة علامات.

لقد عكستُ مجلةُ دراسات الانتقال المتسارع، في مجال المناهج، من البنويّة اللسانية إلى نظرية التلقي إلى السميائيات. كما عكست الحوار بين

المدارس اللسانية في بداية انطلاقها. من ملامح هذا الانتقال تخصيص محور لنظرية الانزياح، (في طبعتها الأولى: دأل)، ومحور لنظرية التلقي، (في طبعتها الثانية: سال). وعلى هامش هذا المحور الثاني ستطلق "مائدة التلقي". كما عكست، في أعدادها الأولى الصدام بين مدرستين لسانيتين: النحو التأليفي واللسانيات التوليدية.

تَبَرُّ وتَرَاب

اقترح علي زملاء في الرباط والدار البيضاء، مرات عديدة، إعادة تجربة إصدار مجلة علمية من ذلك الطراز مستعدين لدعمها بكل ما يضمن سيرها واستمرارها. بل اقترح زملاء من بلاد عربية الاشتراك فيما هو أوسع: في جامعة صيفية، يضمّنون نجاحها. غير أنني لم أفكر في هذا الموضوع إلا وتذكرت عائق العوائق وعاهة العاهات وهو/وهي التوزيع، ومع التوزيع أستحضر صوراً مُمَرَّزة مُشْمَرَّة لبعض الدخلاء على هذا العالم. التوزيع هو عاهة العاهات في مجال النشر.

ليس المشكل في الحصول على المادة العلمية وتحريرها وطبعها. فالباحثون المغاربة، بل المغاربة عامة، وكذا الخليجيون، لم يكونوا مشغولين، في الغالب، بالمقابل المادي لما ينشرونه، بل يفضلون مصداقية المنبر على التعويض المادي. أضف إلى ذلك أن استعمال الحاسوب في عملية الطبع، منذ منتصف التسعينيات، سهّل عملية الطبع التي كانت تأخذ شهوراً من الذهاب والإياب بين الراقن في المطبعة والمصحح في فاس أو في أي مكان.

فهذان العنصران - تطوُّع الكاتب وعمل الحاسوب - مُهمَّان بالنسبة لأي مشروع نشر تطوعي علمي ثقافي غير تجاري وغير مدعوم من مؤسسات ذات إمكانيات مادية. خاصة في بيئتنا حيث لا يبقى في مجال الأدب واللسانيات وما جاورهما غير أبناء الطبقات غير الميسورة والفقيرة. فأن تباع مجلة بخمسة

عشر درهما أو عشرين درهما، وتبيع كتابا بنصف أو ثلث الثمن العادي في السوق، كما كنا نفعل، لا بد أن تكون هناك توضيحات: من المؤلف والمحرر والناشر. ولو عُوِّضَتْ هيئة التحرير أدنى تعويض على المجهودات التي بذلتها لما أمكن أن يصدر العدد الثاني من أي من المجلتين.

الحلقة الضعيفة في العملية، تلك التي تجعل المرء لا يجرؤ على خوض التجربة مرة ثانية، هي عالم التوزيع والعرض، عالم التجارة بشكل صريح. فالتوزيع صار يَسْتَبْدُ وحده بحوالي خمسين في المائة من ثمن المبيعات، مع أن عملية التوزيع لا تدوم أكثر من ثلاثة أشهر. ثم تُعاد المرجوعات وأكثرها في حالة سيئة بسبب العرض في الأكشاك تحت تأثير عوامل الطبيعة، من جهة، ونتيجة التعامل معها عند النقل كأى منشورٍ إخباريٍّ عابرٍ مصيرٍ مرجوعاته الإلتلاف كحال الجرائد، من جهة ثانية.

كانت المبيعات تلامس، في البداية، خمسةً وثمانين في المائة، من أول توزيع، ثم أخذت في التراجع شيئا فشيئا حتى لم تعد تتجاوز خمسين في المائة. ومعنى ذلك أنه بدون إعادة التوزيع سيكون هناك عجز في تغطية المصاريف. كان الموزع يقبل حيناً إعادة نسبة محدودة من المرجوعات إلى السوق وحيناً كان يرفض ذلك، خاصة مع تقلص نسبة المبيعات.

لم يكن سحبُ المجلة يتجاوز ثلاثة آلاف نسخة، عدا العديدين المخصصين لنظرية التلقي اللذين سحبنا منهما خمسة آلاف، فكانت المرجوعات كثيرة. وكان سَحْبُ الكُتُب في حدود ألفي نسخة. وليس هناك، فيما أذكر، غيرُ ثلاثة أعمالٍ نَقَذْتُ وأَعِيدَ سحبها، وهي: العدد الخامس من مجلة دراسات أدبية، المخصص لندوة: تحليل الخطاب، وكتاب البلاغة والأسلوبية لهنريش بليت، ترجمة محمد العمري، وكتاب اللسانيات العامة واللسانيات العربية، لعبد العزيز حليبي، وهو محاضرات جامعية.

وقد كنا في جميع الأحوال ملزمين بالقيام بعملية توزيعٍ ذاتيةٍ على

المراكز المهمة. كنا نُعْطِي ما بين فاس والدار البيضاء، ونستعين ببعض الأصدقاء الكرام المتطوعين في توصيل المجلة إلى بعض المواقع البعيدة، باستمرار أو من حين لآخر.

فالمجلة كانت دائماً الوجود في مراكش بفضل الأستاذ النحوي المدقق محمد آمنزوي، في كلية الآداب وفي السوق. كما أعيد توزيعها في أقصى شرق المملكة بفضل تطوع أستاذ اللسانيات المتضلع في اللغات القديمة والحديثة محمد المدلاوي. والأستاذان المذكوران صديقان عزيزان جمعتني بهما التلمذة في المعهد الإسلامي بتارودانت، ثم الحياة الطلابية بظهر المهرار، وترعرعت الصداقة وأزهرت وأثمرت إلى اليوم. وكان يُضرب المثل في المعهد الإسلامي بذكائهما وحدة ذهنيهما.

وحَضَرَت المجلة في وزان بفضل الصديق الأستاذ عبد الإله كنفراوي، وكانت بداية صداقتي له حين كنتُ بصدد تصحيح أوراق إمتحان طلبة السنة الثالثة من الإجازة أواخر الثمانينيات. إذ فوجئت بورقة استثنائية، أعطيها أعلى نقطة جاد بها قلمي إلى ذلك الحين. فبحثتُ عن صاحبها وتعرفتُ عليه، وسأيرتُ مساره الجامعي إلى أن ساهمت في مناقشة دكتوراه الدولة التي أَعَدَّها في مبحث عروضي دقيق. وكانت علاقتنا العلمية قد تَحَوَّلَتْ إلى صداقة متينة. وهو من عينة نادرة، دماثة خُلق وإخلاصاً وكرماً وتضحية بدون حدود. وقد قدم للمجلة خدمةً أخرى جلييلة عندما ربط العلاقة بصديقه الأستاذ شحامي العربي. فهو الذي تطوع بتصميم أغلفة الكثير من أعداد المجلة ومنشوراتها، ولذلك أجدد له شكري، وأعتبره عضواً في هيئة تحرير المجلة. كانت البداية في تصميم غلاف المجلة وملصق ندوة تحليل الخطاب مع الأستاذ محمد الريحاني الذي تطوع بكل أريحية، في الوقت الذي اشترطَ غيره مقابلاً مادياً لم يكن من الممكن الوفاء به في ذلك الظرف. والأستاذ الريحاني زميلٌ من قدماء طلبة كلية الآداب، من أبناء فاس. من العِبَر أن الشَّخصين اللذين رَبطا

المشاركة بالتعويض المادي المسبق بقيا على جوعهما في الكتابة والرسم إلى يومنا هذا.

ووصلت المرجوعات إلى مدينة الجديدة بفضل الصديق العزيز الأستاذ عبد المجيد نوسي وقد كان أول لقاء لي به في حلقة أستاذنا مع الدكتور محمد مفتاح. وأُفحِمَ في العملية حتى أفراد العائلة والأصدقاء العاديين، فهم الذين تَوَلَّوْا أحيانا محاسبة مكتبة الموقَّار بأكادير، وكان صاحبها مثالا للتعامل العصري الأنيق. مرة قلتُ لكميل حب الله، صاحب دار إفريقيا الشرق: إن في أكادير كتبيا عصريا يُشبهك كثيرا، ففاجأني بأنه أخوه. ونفسُ الشيء في بني ملال، حيث اعتمدنا أحيانا على أخي الدكتور عبد الرحيم العُمري، حين لا تسمح الظروف بسفري.

فإذا كانت هذه المجلة قد حققت بطولَةً، كما قال صلاح فضل عنها، حين عَلِمَ أنْ ليست وراءها مؤسسة داعمة أو مُحْتَضِن، فإن الفضل يرجع إلى هذا المحيط، وهذا الاحتضان الذي يمتد من الكاتب إلى الرسام إلى الأصدقاء المساهمين في التوزيع. فإلى كل هؤلاء أجدد حبي وتقديري.

ولا بد من توجيه تحية صادقة إلى كل الكتبيين الذين احترمو مهنتهم، وهم موجودون وكثيرون. منهم الميسورُ المطمئن، ومنهم من يعاني في صبر وعفة، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف. وقد كانت المجلة فُرصةً للتشرف بمعرفة العشرات منهم في جميع أنحاء المغرب.

إنصافا لهؤلاء الكتبيين الشرفاء، وتمييزا لهم عن من ليس من طينتهم، سأسمح لنفسي بذكر بعض طرائف الدخلاء على عالم الكتب.

يوجد في مجال عرض الكتب، كما في جميع المهن، عاطلون بدون موهبة، لم يجدوا حِرْفَةً مستباحة بدون رأسمالٍ غير فتح الدكاكين والشروع في البحث عن ضحايا في إطار "الإيداع من أجل البيع". مثلهم مثل أولئك "العاطلين فطرة وسليقة" الذين يسميهم المغاربة "شناقة". يفتحون كُرَاجَات

يبيعون فيها الدلاح والبطيخ في موسم الصيف، ثم يحولونها إلى حظائر للأغنام يبيعون فيها الكباش والخراف بمناسبة عيد الأضحى، وقبل أن تغادرها روائح الروث والبول يحل الدخول المدرسي فيمدون الطاولات ويعرضون الكتب المدرسية والدفاتر والأقلام والمحافظ. أمنيئتهم الوحيدة التي من أجلها يُصلُّون ويُسَبِّحون، إن هم صلُّوا أو سَبَّحوا خطأً، هي أن يصرف الله عنهم وجوه "المُودعين"، بعد الإيداع مباشرة، بأية مصيبة شاء. قرأتُ مرة في عيني أحدهم بشارع محمد الخامس بالرباط، وعلى جبينه - حين أخبرته أن لا وقت لدي للانتظار لأنني راجع إلى فاس - العبارة التالية:

"ياربُّ، يا كريم، يا مُجيبَ دعاءِ المكروبين: "بُغِيثُ هذا الأستاذ العمري يَتَلَاخُ في مُنْعَرَجٍ وادٍ بَهْتٍ، يَتَلَاخُ فَالْحَافَّةُ ما يَجِيبُ حَدَّ خُبَارٍ".

أقرأ لغةَ الجَشْعِ والطَّمَاعِ والغَبي في حركاتِ الوجهِ والعيون واضطراب اليد والرجل...

سيكولوجية غريبة عند هؤلاء الدخلاء: كلما كثرت مبيعاتك كُتِبَكَ عندهم كلما اسودت صورتك في عيونهم، وتمنوا اختفاءك من الوجود، يماطلون ثم يختفون. فهم لا يفكرون إلا فيما ستأخذه، كأنك ستسرق أرزاقهم. وحين تتراجع المبيعات يعيشون بين عاطفتين متناقضتين: الرغبة في تجريمك، لأنك شغلت حيزاً من المكتبة بدون فائدة، (ويراد لهذه الرغبة أن تكون حزينة)، والرغبة في التنسفي منك وتنفيس عملك، وهي رغبة مشوية بفرح وشعور بانتصار يُعلي راية الغباء. فهم يظهرون الحزنَ ويُكنُّون الانتصارَ ويُعلون راية الغباء.

مرة حاسبت، بمعية حميد لحميداني، واحداً من هذه العينة الغبية حضارياً بطالعة فاس الصغرى، انتهينا من إحصاء المبيعات وتجميع المرجوعات في كيس من الكارطون. وقبل أن يحتسب حصَّته، وهي خمسة وعشرون في المائة، اقتطع نصف المبلغ الإجمالي لصالحه محوِّلاً ثمن

النسخة من خمسة عشر درهما إلى سبعة دراهم ونصف بدون أي تبرير، ثم اقتطع ربع المتبقي أي خمسا وعشرين في المائة وترك للمجلة خمسة وعشرين. كانت عضلات وجهه تتحرك جشعا، وشدقاه يتسعان، وعيناه جاحظتين، كان أشبه بثعبان يفك حنكيه لابتلاع أرنب. لم نستطع فهم منطقته الأحوال الذي لم نصادف مثله قبله ولا بعده.

كنت مُنبهراً بهذا المستوى من الوقاحة. وعندما عجزنا عن اختراق حاجز الجشع وقلة الحياء اللذين غلّفا وجهه وعقله سلمته التواصل والمرجوعات معا دون استشارة مرافقي، وانصرفنا. اندهش الأستاذ لحميداني لهذا السلوك مني. ومن حقه ذلك، لأنه لم يكن يعلم أنني كنتُ أفكرُ في اللجوء إلى إخوته حيثُ يعملُ أحدهم أستاذا بالجامعة، وهو صديق محترم ومناضل معروف. يسكن معي نفس العمارة. كما أنني لم استبعد أن يُراجع نفسه ويكبح جشعه. فنحن نلتقي من حين لآخر عند أخيه، من يدري، ربما استيقظ ضميره. ولكن لا هو وَجَدَ بقية في نفسه من نخوة، ولا إخوته جميعا أفلحوا في إعادته إلى رُشده. وهكذا استولى ذلك الحُثالةُ على مئات الكتب. ولمثله قيل: "إذا لم تستحي فاصنع ما شئت".

هذه عينة. وهناك عينةٌ أخرى ترى الأستاذ الذي يشتغلُ بنشر الكتب مُجرّدَ مرتزقٍ يبحث عن المال، يُمكن تَمَريغُه في أي وَحَلٍ. مرة دخلتُ مكتبَ مديرِ مكتبة كبيرة في الرباط. كان أمامه أستاذان، علمتُ من خطابهما أنهما من كلية الحقوق، من "أصحاب المطبوعات"، وربما من تجارها. قلتُ هذا لأنه كان جريئاً عليهما، وربما قاس حالي على حالهما. وكنتُ أحتقرُ هذا الفرد (أو لُكراد) الذي يمتص دماءَ طلبةٍ لا يجد أكثرهم ما يُنفق.

تسلّم مني "وصل الإيداع" بأطراف أصابعه، لامبالاةً مُتعمّدة. تفحصه لحظة متهجيا عناوين الكتب حتى تعثّر بعنوان: تحليل الخطاب الشعري. كرر كلمة "الشعري" بصيغ مختلفة ثم سألني:

هل هي من الشعر أم من الشعر (فتحا)؟
أحنى الأستاذان رأسيهما حرجاً، وتوقفتِ الكاتبة عن الطقطقة. وحدجني
مُساعده، وكان طيباً لبقاً، بنظرة استغراب.
قلت له: الأمر فيه تفصيل... هذا مرتبط بانشغالات المرء وهمومه،
وعُلُو همته وانحطاطها، فقد قرأنا في الدروس الأولية، في الفلسفة وعلم
النفس، في باب الإدراك والتمثيلات، أن الجائع ينظر إلى الصحيفة في
الواجهة الزجاجية فيرى "الخُبْرَ" بدل "الخبر" مستحضراً صورة الرغبة. فلو
أن حَلَقاً نظر إلى هذا العنوان لما رأى فيه غير الشعر، أما الشعر فلا
شك أن الذي سيفكر فيه، في عصرنا الحاضر، لا يمكن أن يكون إلا حماراً
سواءً سار على أربعة قوائم، أم سار على رجلين.
استأذن الأستاذان في الحال مودعين بصوت عالٍ يداري الحرج:
"نتشاوروا من بعد".

واستأنفتِ الكاتبة طقطقتها. ثم غاب عني دون تعليق. بقيتُ في المكان
لإنهاء المعاملة مع المساعد في صمت تام.
ومرة، على إثر ندوة في المدرسة العليا للأستاذة بمكناس ورواج ما
عرضناه خلالها من مطبوعات، اقترح الأستاذ محمد الوكيل، أحد أصدقاء
الأستاذ لحميداني، أن نترك مجموعة من الأعداد، تجاوزت المائة كتاب،
عند حارس هناك، على أن يستفيد، كالعادة، من نسبة مئوية سخية. ومرت
الأيام وتبخر العياشي وحار الوسيط. ولم أحزن على شيء كان متوقعاً.
وأحياناً لا يتبخر العياشي بل تتبخر الكتب وتتكرر زوجته. من ذلك أني
وضعتُ في مكتبة بالمحمدية قُرْبَ الجوطية كمية لا بأس بها من "عصافير
الصباح"، وكلما زرت المحمدية عرّجتُ على المكتبة، اشترتِ الجريدة
وأتجسس على عصافيري. وذات يوم لاحظت أن آخر العصافير قد غادر
العش، وصادف ذلك غياب الشيخ الأسمر النحيف الذي سلمني الإيداع.

تقدمت إلى القائمة مقامه في المكتبة فأقسمت بشرفها أنها لم ترَ عصفورا واحدا من عصافير الشاعر الصديق محمد الرباوي يحط بمكتبتها. ولم يمض غيرُ وقت قصير حتى مسحَ الله تلك المكتبة فصارت محلا لتحضير المعجنات الشعبية تلتخطها الزيوت من كل جهة.

ومن نوادر التوزيع أن بعض الكُتُبِيِّين يرفضون إجراء الحساب باعتبار أن مجموعة من محتويات المكتبة موجودة في معرض في مكان بعيد، أو في المخزن حيث لا يمكن الوصول إليها بسبب عطب في الإنارة أو غياب مساعد متفرغ. وقد نجح بعضهم فعلا في الاستيلاء على ما وضع عنده. هذا غيظ من فيض.

في نهاية عملية التوزيع، بعدَ توقيف المجلة، بقيت في محفظتي مجموعة من تواصل الإبداع، ولم تبق لدي أية رغبة في الوقوف أمام كُتُبِيٍّ من أجل المحاسبة. فأحرقْتُها جميعا، ونسيْتُ الموضوع.

لقد وظفنا وقتنا ووسائلنا المادية وعلاقاتنا الاجتماعية والثقافية في سبيل هذا المشروع فكان المردود العلمي والمعنوي فوق كل توقع. وفي مثل ذلك قيل: "لا بأس بالغالي إذا قيل حسن".

اختطاف

كان طعمُ ندوة تحليل الخطاب مختلفا عن المؤلف، فهذه أولُ مرة يحتلُّ الخطابُ الإقناعي موقعا إلى جانب الخطاب الشعري والخطاب السردِي. لقد أدركتُ أهمية هذا البعد الخطابي من خلالي بحثي عن بلاغة عامة، من جهة، ومن خلال تدريسي للخطابة في القرن الأول الهجري، من جهة ثانية. وقد استجاب لهذا المحور باحثون من شعب اللغات الحية بموضوعات طريفة. منهم محمد خلاف من شعبة الإسبانية، رحمه الله، ويوسف عبقرِي من شعبة اللغة الفرنسية، أطال الله عمره. وقد نُشرَ قسمٌ من أعمالِ هذه الندوة في العدد الخامس من مجلة دراسات أدبية، ونشر القسم

الآخر في أحد أعداد مجلة كلية الآداب.

كانت ندوة تحليل الخطاب مساهمةً متقدمة في المسار الذي بدأ يتشكل من خلال أعمال باحثين في مجال الشعر والحجاج والسرد. فبعد الإعلان عنها ببضعة أشهر حضرتُ مائدةً مستديرة أشرفَ عليها الأستاذة محمد مفتاح وطه عبد الرحمن وأستاذ آخر بأحد فنادق الدار البيضاء ضمن برنامج التعاون بين كلية الآداب ومنظمة كونراد الألمانية في نفس الموضوعات: الخطاب الشعري والخطاب الحجاجي والخطاب السردى. وكان من توصيات هذه المائدة المستديرة عقد ندوة في موضوع: الوصف والتفسير والتأويل في العلوم الإنسانية. وتكفل الأستاذ طه عبد الرحمن بإعداد ورقة في الموضوع، والتهى لندوة مقبلة.

مضت سنة كاملة ولم يُقدّم أي اقتراح في الموضوع. بادرتُ إلى إنجاز توصيف للموضوع؛ حاولتُ وضَعُ الفكرة في مدار آخر، ضمن نشاط مجلة دراسات سيميائية أملا أن تأخذ طريق الندوة السابقة، ندوة تحليل الخطاب. تقدمنا بورقة في الموضوع لعميد الكلية. وعلى غرار ما وقع في ندوة تحليل الخطاب رُحِبَ بالاقتراح، وبدأ العملُ من أجل توفير الإمكانيات المادية، ومراجعة الجهات التي من المحتمل أن تساهم كالعادة، مثل المجلس البلدي والخطوط الملكية للطيران. وتشاء الأقدار أن يُرقى العميدُ التازي إلى رئاسة جامعة القرويين، ويحل محله زميلٌ من جيلنا، الكاتبُ العام للكلية محمد الشاد. وكان الأستاذ الشاد يتابع التعاون بين المجلة والعمادة السابقة في مجال الأنشطة العلمية والثقافية، ويعلم مقدار الضغوط التي كانت تُمارَس على العميد من طرف المحافظين المتمركزين في شعبة اللغة العربية. غير أنه كان يعلم أيضا أنه لا يتوفر على سندٍ مثَل الذي يتكئ إليه التازي. ولذلك آثر السلامة. أمسك تلك الورقة (المقترح) بأطراف أنامله، كما تمسك ورقة مشتعلة، أو حشرة سامة، ورمى بها إلى شعبة اللغة العربية، فطار

ريشها في الفضاء قبل أن تصل إلى الأرض. لقد اعتبروا ندوة تحليل الخطاب فلتة جاءت على حين غرة، لا ينبغي أن تتكرر.

ولأن الوقاية خير من العلاج. قاموا بتنفيذ البند الأول من منهج الشيخ الرئيس: "ما لا يمكن منعه يمكن تمييزه". تكونت لجنة لتدبير ملف الندوة. واللجنة في عرف الإداريين المغاربة هي "مقبرة المشاريع". أختير الأستاذ لحميداني ضمن اللجنة التي وكل إليها إعداد الأرضية والمآل. فكنث أتابع ما يجري من خلاله، فتبين أن القوم مُصرّون على تمييزها وإفراغها من محتواها العلمي لتصبح مهرجانا خطابيا يستوعب كل غناء من العبت الذي يشتغلون به ولا يجرؤون على نشره. غلفوا عجزهم عن فهم المقصود من الندوة بألفاظ دينية، فغيروا اسم الندوة ومسارها الإشكالي مُصرّين على إبعاد عبارة "العلوم الإنسانية" وحضور "العلوم الدينية" من خلال النص القرآني وما يتصل به.

وحين انتهوا من تجميع المشروع ميّعوا عملية الإنجاز، فدعوا للاشتراك فيها كل من هبّ ودبّ من داخل المغرب وخارجه: كلّما اقترحنا اسم بلاغي أو ناقد جاد أتبعوه بخمسة أو أكثر من عملتهم، حتى صار عدد المشاركين أكثر من ستين. وسارت الندوة في جلسات متوازية، على كل منصة عدد غفير من المعارضين. عُرض فيها كل غثّ، وصاح على كديتها كل ديك، وانتهت إلى النسيان. أصرّ الجميع على عدم نشر الفضيحة خارج أسوار كلية الآداب. ولقياس مقدار الخسارة التي سببها اختطاف هذه الندوة نذكر أن العدد الذي تضمن جزءا من مواد ندوة تحليل الخطاب من مجلة دراسات أدبية نفذ من أول توزيع، وأعيد نشره في طبعة ثانية نفذت بدورها. والله المشتكى والمرجع. "لو ذات سوار لطمتني" لهان الأمر.

صدفة سعيدة

في ظروف إعداد محور جمالية التلقي الذي سيُنشر في العدد 6، 7

من دراسات سال (سنة 1992)، وبحثاً عن ملجاً جديداً، دارَ بيني وبين أستاذي محمد مفتاح حواراً حول أهمية نظرية التلقي وإمكانية تنظيم ندوة في الموضوع، كنتُ أفكرُ في ندوة خارج كلية الآداب التي أصبحت مشلولةً. اقترح الأستاذ مفتاح ما هو أحسنُ: تقديم مشروعٍ لمائدة مستديرة دائمة في إطار التعاون بين منظمة كونراد الألمانية وكلية الآداب بالرباط.

استفدْتُ من الإعداد لمحور التلقي الذي انشغلنا به شهوراً فكتبْتُ تقريراً في الموضوع. هو عبارة عن مقال صغير قام الأستاذ الجيلالي الكدية بترجمته إلى الإنجليزية. ثم تقدم به الأستاذ محمد مفتاح إلى الجهة المعنية فلقي القبول. كانت هذه هي البذرة التي نبتت منها مائدة التلقي والمفاهيم التي نُظِّمْتُ بمراكش على مدى اثنتي عشرة سنة إلى الآن. طبعها الأستاذ مفتاح بطابعه: تداخل المعارف، فدعا إليها أساتذة من جميع التخصصات، وقد لعب الأستاذ أبو حسن دوراً عملياً فعالاً في تنسيق أعمال هذه الندوة واستمرارها. وصدرت أعمالها ضمن منشورات كلية الآداب بالرباط فلقِيتُ عنايةً خاصة من الطلبة الباحثين.

كان كتاب: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، في جانب كبير منه، إحدى ثمرات هذه الندوة. فأكثرُ أسئلته طُرِحَ ضمن موائدها، خاصة القراءة العربية لفن الشعر لأرسطو. وتم استكمالُ العمل فيه مع طلبة الدراسات العليا. وقد قام بعض هؤلاء الطلبة بتطوير بعض فصوله وأغنوها حين حولوها إلى أطروحات دكتوراه متميزة. وقد استدعت هذه الندوة أعلام مدرسة كونستانس الألمانية. "وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا".

لجنة المتاعب

بعد ثلاث سنوات على صدور مجلة دراسات، أي في يوم 11 نونبر 1988، اقترحتُ على مجموعة من الزملاء من شُعبٍ مختلفة إنشاءً

لجنة ثقافية في كلية الآداب تُعنى بتنشيط الفضاء الجامعي، عن طريق إلقاء محاضراتٍ وتنظيم ندوات ومعارضٍ للكتب ورصد إبداعات الطلبة وتشجيعها. كان ذلك الاقتراح ثمرة جس نبض سابقة، ربما سارت جنباً لجنب مع مشروع المجلة، كما سيأتي.

كان من أوائل المحاورين في هذا الموضوع أستاذ اللسانيات بالقسم الفرنسي المرحوم محمد قاضي، وكان يفيض حيوية واستعداداً للعمل العلمي والنقابي. ما إن قرأ الورقة التي أعدتها في الموضوع حتى اقترح تعديلين: أولهما: تغيير اسم "اللجنة الثقافية" لتصير "اللجنة العلمية". تحدثت معي من أعلى، من موقع القديم المتجذر الذي يخاطب الطارئ المجترئ: "نحن أساتذة جامعيون ومهنتنا هي البحث العلمي، ولذلك فالصواب أن تسمى "اللجنة علمية"، وتهتم بقضايا البحث العلمي".

وبعد حوار وصلنا إلى حل وسط؛ قيلَ أن نجمع بين الكلمتين: الثقافة والعلم. ومن هنا جاء عنوان: *لجنة الحوار الثقافي والبحث العلمي*. والتعديل الثاني، عدم قصر العروض على اللغة العربية، كما اقترحتُ أنا، بل تكون اختياراً: إما بالعربية أو بالفرنسية.

قلتُ له: لماذا الفرنسية بالتحديد؟ إذا كان من اللازم تعدد اللغات، فلندخل أيضاً الإنجليزية، ولم لا الإسبانية؟ طرحتُ هذا التوسيع جَدلاً، أو مزايده، لإشعاره بضرورة الاختصار على اللغة الوطنية التي كُنْتُ مُتحمساً لإحلالها الصدارة في العمل الجمهوري، وإقحامها في مَعَمَّان المصطلح العلمي. فلو تمسكتُ كلُّ شعبة بلغتها لتعذر القيامُ بنشاط يستقطب جميع الطلبة والأساتذة. غيرَ أن الفقيه العزيز فاجأني بإشكال لم أكن مؤهلاً للخوض فيه، ولا راغباً في إثارته، موضوع الهوية، فقد زعم أن اللغة الفرنسية داخلة في الهوية المغربية، بخلاف اللغات الأخرى. وهو مستعد لمناظرتي في الموضوع أمام الملاء... نقاش يصرف عن الموضوع.

ولسد باب السّجال حَوْلَ ما يدخلُ في الهوية اللغوية وما يخرج منها
استقر الرأي على أن تكون العروض بالعربية أو الفرنسية اختياراً. ولم أكن
أعلم، في حينه، أنني كنت وإياهُ نسبحُ في فلكين منفصلين. لم اكتشف عمقَ
الخلاف في هذه المسألة ومدى حساسيته إلا عندما نُشِرتُ مقالين حولَ
ضرورة التعريب، في تاريخ لاحق، حيث عَقَدَ لي بعضُ الأساتذة من
النشطاء الأمازيغ ما يُشبهُ المحاكمة ذات يوم في نادي رجال التعليم بفاس.
أزعجهم ما جاء في أحد مقالتي من أن التعريب مُهمة ستُنَجَزُ حتماً، المهم
أن تكون بيدي لا بيدِ عمرو. وكُنْتُ وقتها متخوفاً مما يجري في الجزائر
قبل حل جبهة الإنقاذ، كنت أخشى أن يكون التعريب ورقة في يد
الأصوليين.

ما إن أعلنتُ لجنةُ الحوار الثقافي والبحث العلمي عن برنامجها طالبة
من الباحثين التطوع للمشاركة حتى ثارت زنابير حاسرة وملثمة. بدأوا
الاعتراض في مستوى الشكل:
- لماذا لم تُمَثَّلَ الشعب كلها، أو لماذا كانت تمثيلية بعضها أكثر من
بعض؟

- "من الذي فوّض لفلان تمثيل الشعبة الفلانية؟ العمري نفسه لا يمثل
شعبة اللغة العربية!"

تداركنا هذا الاعتراض بتنظيم جَمْع عام أُعلِمتُ به الإدارة والنقابة
والشُعَب. حضرتهُ مجموعة من الأساتذة، وأُجيبَ فيه عن كل التساؤلات،
كما أعاين الآن في محضر بين يدي. واستجيب للرغبة في توسيع اللجنة
بإضافة بعض الأسماء وتعويض بعض المنسحبين نتيجة التشويش. وعلى
إثر هذا الجمع العام عقدتُ لجنة الحوار الثقافي والبحث العلمي الجديدة
اجتماعاً مع عميد الكلية وسلمتُ الرسالة التالية:

بعد التحية

"يشرف أعضاء "لجنة الحوار الثقافي والبحث العلمي" المنبثقة عن الجمع العام لأساتذة الكلية المنعقد يوم 24.01.1989 أن يتقدموا إليكم بأهداف اللجنة ومجال عملها راجين منكم إطلاع السادة أعضاء مجلس الكلية الموقرين على محتوى هذه الرسالة:

يُعرفُ مجالُ التواصل الثقافي بين مختلف التخصصات والشُعَب في حياتنا الجامعية ركوداً يُحس به الجميع، وذلك برغم ما يبذله الأساتذة الباحثون، كلٌّ بمفرده، أو في إطار جماعي محدود ومنغلق، من جهودٍ وتضحياتٍ جسامٍ في سبيل النهوض بمستوى البحث العلمي وتطويره.

وسعيًا منا لمحاولة تغيير هذا الواقع، بادرت مجموعة من الأساتذة من مختلف الشُعَب إلى تكوين لجنة للحوار الثقافي والبحث العلمي، آخذة على عاتقها التنسيق بين الأطراف المعنية في هذا الصدد (الباحث، الطالب، المؤسسة) علّها تُساهم في تيسير الحوار الثقافي والبحث العلمي، وتوفير ظروفهما بمساهمة الجميع.

وإذ نود أن يكون عملُ هذه اللجنة مكملًا لعمل الشُعَب يُتممه ويُغنيه، وذلك بإتاحة مجالات أخرى للحوار والتبادل، نقترح مشروعًا أوليًا للعمل يتكون من النقاط التالية، التي يمكن تطويرها وتكميلها كما وكيفاً:

1. وضع برنامج سنوي لمحاضرات أو ندوات أسبوعية أو نصف شهرية يلقيها أساتذة الكلية أو غيرهم من الباحثين والزوار الأجانب قصد فتح حوار فيما بينهم من جهة، وبينهم وبين الطلبة من جهة ثانية.

2. عقد لقاءات دراسية بين الأساتذة والباحثين حول محاور محددة تتداخل فيها اختصاصات مختلفة ما أمكن ذلك، وقد تتفرع جلسات (أو موائد مستديرة) عن المحاضرات المخصصة لعموم الطلبة والأساتذة.

3. اتخاذ الإجراءات الضرورية لإعداد المحاضرات الافتتاحية للسنوات الجامعية.

4. السعي لإقامة معارض للكتب بمشاركة الناشرين والموزعين. وذلك في إطار تنظيم مكتب للنشر والتوزيع بالكلية، والسعي لنشر وتوسيع استعمال الوسائل المعلوماتية في البحث العلمي.

5. إقامة معارض للفنون التشكيلية، وعروض مسرحية وسينمائية.

6. التعريف بأعمال الأساتذة وإنتاجاتهم العلمية من خلال عروض تعريفية ونقدية.

7. السعي لتكوين مجموعات للبحث في اختصاصات مختلفة وفي موضوعات دقيقة، والمساهمة في تيسير اتصالها ببيئات عالمية تشترك معها في أهدافها.

مقتضيات تنظيمية

1. تتكون اللجنة من سبعة أعضاء، وتستعين عند الضرورة بكل الفعاليات التي توفرها الكلية.

2. ينتخب الجمع العام للأساتذة أعضاء اللجنة.

3. تعمل اللجنة داخل الكلية بالإمكانيات المتاحة.

4. تسعى اللجنة في حدود إمكانياتها لتحقيق الأهداف المشار إليها أعلاه.

وتدعو اللجنة مجلس الكلية الموقر إلى دعم عملها ومساعدتها في تحقيق أهدافها العلمية لما فيه مصلحة الكلية". انتهى.

انطلقَ العمل في عدة مسارات، وعُيِّنَتْ كُلُّ الكفاءات، والتحق بها جميع أصحاب النوايا الحسنة.

كان من ثمار لجنة الحوار الثقافي والبحث العلمي، في سنتها الأولى،

إلقاء محاضرات عامة أسبوعية، على مدى سنة جامعية في موضوعات مختلفة. لقيت هذه المحاضرات إقبالا منقطع النظير وتفاعلا قويا من الطلبة. كان أغلبها باللغة العربية، وبعضها باللغة الفرنسية دون مشاكل. إنشغلنا بالإعداد لبقية المهام المسطرة، ولم نكن نعلم أن جذوة الغيرة والحد ما تزال متقدة تحت الرماد، بل زاد من توقدها الإقبال على عمل اللجنة من قبل الطلبة والباحثين. تحرك "أصحاب الحسنات" مرة أخرى، فبدأت الاعتراضات في الجوهر:

. "لا محل لهذه اللجنة لأنها تتازع الشعب في صلاحياتها".
. "توقيث المحاضرات في الأيام الدراسية يثير البلبلة ويشغل الطلبة عن دروسهم الرسمية".

وتكثفت الضغوط، وتعددت الجهات المتحسسة المشتكية. استدعاني العميد، وطلب بإلحاح مراعاة الحساسيات وتغيير تاريخ المحاضرات إلى يوم السبت مساء، بعد نهاية الدراسة، فظهر المعنى وتوقف نشاط اللجنة. لقد كان عمل هذه اللجنة حاضراً في ذهني، بكل جزئياته، سنوات قبل تاريخ إنشائها. منذ صدور الأعداد الأولى من مجلة دراسات، ولكني انشغلت عنها بجمع أطراف دكتوراه الدولة التي كانت في خطواتها الأخيرة. تذكرت الآن (2008) هذا الاهتمام وأنا أتصفح محضر اجتماع مجلس الكلية بتاريخ 3 أبريل 1986 حيث جاء في الصفحة الثانية منه:

"وقد اقترح أحد السادة الأساتذة إنشاء نقطة، أو نقط، لبيع المجلة ومنشورات السادة الأساتذة، والقيام باتفاق تبادل البيع مع كليات أخرى. وقد رُحِبَ بهذا المقترح على أن يتم الاتصال والتنسيق مع الكليات الأخرى الراغبة في مثل هذا التبادل". لم يكن ذلك الأستاذ غير العبد الضعيف الذي لا يتوانى في البحث عن المشاكل.

وقد شرع فعلاً، بعد إلحاح على العميد، في تهيبى جناح أرضي ليكون

كالمعرض للكتب. ولا أدري كيف تم التراجع عن الفكرة بعد إعداد المكان، واكتُفي بفتح نقطة للبيع، عبارة عن مكتب ملحق بقسم الاقتصاد. وقد استفادت مجلة دراسات من هذه النقطة لوضع المجلة رهن إشارة الطلبة بتخفيض مهم. ولو كانت النوايا حسنة وتم إنجاز اقتراح تبادل خدمة البيع بين الكليات في جميع جهات المغرب لكان ذلك حدثاً ثورياً تاريخياً، وخدمة للطلبة والكليات لا تقدر بثمن، ولكن لا حياة لمن تنادي، أو بالأحرى: "لا رأي لمن لا يطاع"، كما قال علي بن أبي طالب حين خذله أهل العراق.. هناك من لا يرى أبعد من أرنبه أنفه. وهذا مشروع ما زال ينتظر التحقيق.

نكرة مقصودة؟

يفرق النحاة بين نوعين من النكرة: النكرة غير المقصودة والنكرة المقصودة. وهناك من يغلط فلا يفرق بين نكرة هي أقوى فعلاً من المعرفة ومعرفة أوهى من النكرة.

كنتُ أعتقد أن المجموعة المحافظة (على مصالحها) هي وحدها التي كانت تحارب لجنة الحوار الثقافي إلى أن دخلتُ الشعبة ذات مساء فإذا بي أمام خليطٍ من الخائضين في الموضوع. ولم يصدمني شيءٌ أكثر مما صدمني وجود الزميل أنور المرتجي بينهم. كان جالساً فوق المكتب ورجلاه معلقتان تسبحان في الفضاء. بحثتُ في وجهه عن نسمةٍ رطبة استظل بها من لفحات الخصوم الطبيعيين فلم يأت من جهته غير قیظ الهاجرة في الثلث الخالي .. كان يُنكر تزعمي لهذا العمل المزعج خارج الشعبة دون توكيل من أحد:

قال: "أنت نفسك، من انتخبك؟"

بُهِتْتُ! ما الذي وقع؟ كنت اعتقد أنني أحییْتُ أرضاً مواتاً لا مالك لها! لم أعد أتذكر الصيغة التي قلتُ له بها بأن الأمر يتعلق بواجهة

للنضال، إذ كنت اعتبرُ أني وإيَّاهُ في خندق واحد، فرد علي بقوله (وهذه أتذكرها جيدا لفظا لفظا، لأنها قَصِمَتْ ظهر البعير زمنا طويلا):
"عندما كنا نحن نناضل كنتُ أنتُ نكرة!"

والغالبُ أنه كان يقصدُ أيامَ كنا طلبة في الكلية، إذ رغم انتمائي لجمهور الجبهة الماركسية فقد كان اهتمامي منصبا على القراءة والتحصيل، في حين كان هو زعيما بارزا في فصيل الطلبة الإتحاديين. وبذلك يكون قد عبَّرَ عن حقيقة لم تكن لتستقزني لولا السياق الذي جاء فيه كلامه، لقد قال حقا لستُ أنكره، فالأمور بخواتمها.

كان جوابي مختصرا، ولكن بنفس حدة اللفظ، والمقام وأنا أولي وجهي نحو الباب:

"القافلة تسير!" دون زيادة. انصرفْتُ وأنا أغلي. أحسستُ بخُذلان لم أكن أتوقعه.

يُروى أن أحدُ الخلفاء الأمويين عاتبَ الشاعرَ الهجاءَ جريراً على كثرة مهاجاته للشعراء على اختلاف انتماءاتهم، فكان جوابه: **إني أظلمُ ثم لا أَعَفُ**. ويظهر أنني على مذهب هذا الشاعر وسيكولوجيته.

لقد فاجأني موقف الأستاذ المرتجي، بل آمني لكوننا دائما في صف واحد ضد الرجعيين المحافظين المُقْتَعِنين بالدين. خاصة حين سَعَوْا، بكل جهد، للسيطرة على النقابة والمجالس الجامعية، بعد أن أحكموا سيطرتهم على شعبي اللغة العربية والدراسات الإسلامية، وحشروا فيهما كلَّ من هبَّ ودبَّ من الحواريين والأتباع الفاشلين علميا. وأعتقدُ، والله أعلم، أنني كنتُ لألئك الرجعيين حجرَ عثرةٍ، وغصةً دائمة في الحلق، ولذلك لم يحققوا أمنيتهُم في السيطرة على النقابة إلا عندما غادرتُ الكلية. لقد رشحوا لإبعادي عن عضوية مجلس الجامعة أحسن خيولهم فتركته يتعثرون في الغبار، بفضل الله المطلع على القلوب، وبفضل جماعة من الأخيار خارج

شعبة اللغة العربية، كما رشحوا ضدي في اللجنة العلمية والنقابة دون جدوى.

لعبت مرةً خارجَ ملعبِي!

حاولتُ أحياناً أن أَلعبَ في ملعب غير ملعبِي فذُقتُ حلاوة الرسوب. وقع ذلك مرتين: مرة في الانتخابات الجماعية حينَ ترشحتُ في مقاطعة ليراك، ضمن لوائح الاتحاد الاشتراكي، بإلحاح من الإخوان، فحمدتُ الله على السقوط، لأنه أعادني إلى كتبي التي طويبتها أكثر من ثلاثة أشهر، وهذا ليس في سياقنا الآن.

والمرة الثانية التي رسبتُ فيها كانت في رئاسة فرع اتحاد الكتاب بفاس. والذي هزمني هو الزميل أنور المرتجي نفسه: تناطح اتحاديان فسقط كل منهما في المكان الذي يناسبه، ربح الاتحاد وانهزم الاتحاد. بمنطق ذلك العصر المسألة عادلة، فالأخ أنور عريق في الاتحاد، أما أنا فمازال الزميل (قاف)، من كلية العلوم، يشم في، وفي مجموعة أخرى من العائدين، رائحة الجبهة الماركسية المتلاشية.

انعقد اجتماعٌ من أجل تجديد مكتب فرع اتحاد الكتاب في قاعة بالمجلس البلدي. الجميع يشنكي من الجمود وقلة النشاط. كان الأستاذ المرتجي عضواً في مكاتب سابقة. أما أنا فلم يسبق لي أن جربتُ حظي في هذا الإطار. اعتقدنا في "دراسات سميائية" أن دورنا قد جاء لتشغيل هذا الإطار الجمعوي وإظهار ما يُمكن أن يلعبه من أدوار بعدما لاحظناه من تعثر في عمله.

لم يكن عدد المنتمين لاتحاد الكتاب بفاس كثيراً. اعتقدتُ أن علاقتي بهم جميعاً جيدةٌ أو عادية، وأن في العمل الذي نقوم به في مجلة دراسات تركيبةً كافية. ولأنني سريعُ النسيان، قليلُ تخزين الحزازات والإحْن، فقد قُمتُ بإحصاء الأصوات التي ستصبُّ في صالحِي لرئاسة المكتب فوجدتها

كافية. ومن ضمن ما أحصيتُ خطأ صَوْتَا الصديقين محمد الولي وحنون مبارك مغلبًا الثابتَ على العابر المتغير.

اعتقدتُ أن الأستاذ المرتجي سيعاني، ككل ممارس، من تصويت عقابي: مَنْ يمارس يُقَصَّر ويخطئ فيعاقبُ من طرف الناخبين. وللجديد لذة. غير أن هذه القاعدة غير مطردة في المغرب؛ الناخبون في المغرب كال مصاب بالحمى، يفضلون البقاء على نفس الجهة التي ينامون عليها. كانت الجلسة بمحضر عضو المكتب الوطني، أو رئيسه، محمد الأشعري. قبل اختلاء المكتب لانتخاب الرئيس هَمَسَ في أدنى أحد الظرفاء الفاسيين بابتسامته المزحلقة:

"القضية مخدومة؟!"

ظننتُ أنه ترجم ما يُظهره لي من مودة وتقدير وقام باتصال لصالح، أو لديه معلومات تفيدني، والحال أنه كان يقصد العكس. بلغَ إلى علمه أن الأمر دُبِّر ليلا في نادي التتيس، كما قيل فيما بعد. طلعت النتيجة على غير ما توقعته، وهكذا حَصَدْتُ أولَ "سقوط" لي في تصويت جماعي، سقطتُ بصوت واحد. السقوطُ حالة لم أتعودَ عليها، ولذلك كان لا بد من البحث عن الثغرة التي "دخل منها الماء". توجَّهتُ الأنظارُ إلى الزميلين محمد الولي ومبارك حنون عضوي مجلة دراسات المتوقفة. فاعترفا بأنهما امتنعا عن التصويت لاستواء الكفة لديهما بين صديقين. لَمْ أَلَمْ الزميل حنون، أما الولي فقد عَبَّرْتُ له عن صدمتي، في وقفة مؤثرة معهما بالشارع، بباب النادي، قبيل المغرب. سألني حنون وقتها: لِمَ لا ألومه هو؟! فلم أجد جوابا.

أُنْتُخِبَ الزميلُ أنور رئيسا لفرع اتحاد الكتاب بفاس، فهنأناه بروح رياضية. وأُنْتُخِبَ الأستاذ رشيد بنحدو أمينا للمال، وكُنْتُ والأستاذ لحميداني مستشارين إلى جانب آخرين. كنا معولِّين على تنشيط الفرع. وتهيأنا للشروع

في العمل سوبا بمجرد وضع الاعتماد لدى الجهات الأمنية. وتلك مسؤولية الرئيس والأمين.
وما زلنا، إلى الآن، ننتظر...

ومن الطريف أن صفة "نكرة" التي حلاني بها الزميل المرتجي في السياق السابق ستتكرر معي، بعد أكثر من عقدين من الزمان، مع أخ من الاتحاد أيضا. فعندما كتبتُ عشر مقالات حول تهافت خطاب عبد اللطيف جبرو فيما كان ينشره من قدح في تاريخ المناضل الوطني القومي محمد الفقيه البصري أحد أركان المقاومة وجيش التحرير في المغرب سأله أحدهم مرة، في مكتب مدير المكتبات بوزارة الثقافة: لماذا لا ترد علي؟ فكان جوابه: ذاك مجرد نكرة.

وهذان الأخوان لم يدركا أنهما كانا يمدحاني بما أحبه وأهواه. فأعدى شيء عندي هو التعرض لنظرات الناس، حتى ولو كانت نظرات إعجاب، والاستماع لثنائهم حتى ولو كان صدقا. أحبُّ أن أعمل في الظل ما أستطيع عمله وأنصرف، نحن جميعا منصرفون، المهم أن ننصرف بكرامة.

الطريق إلى أرض البلاغة

1997 - 2005

عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم...

عندما عدتُ من جامعة الملك سعود بالرياض، بعدَ النصف الثاني من العِقد الأخير من القرن الماضي، وجدتُ الجامعة المغربية على أبواب الدخول في النظام الجديد للدراسات العليا، النظام القائم على "طلب الاعتماد" لتكوين وحداتٍ للبحث والتأطير. بدأتُ تكتلات الأساتذة في مجموعات تظهر للعلن. كان طاقم وحدة النقد القديم التي كُنتُ أشرفُ عليها سابقاً قد تفتت بفعل عوامل التعرية.

ولأنني لم أساير العملية الجديدة من بدايتها فقد اعتقدتُ أن أقرب مجموعة إلي هي وحدة النقد الحديث التي كان من المتوقع أن يُسيرها رفيقي في مجلة دراسات الأستاذ حميد لحميداني. خاصة وقد سمعته يقولُ في أحد الاجتماعات الإعدادية أن الأستاذ العمري مؤهلٌ (أو بوسعه) أن يُدرّس "البلاغة والأسلوبية" كجذع مشترك بين كل الوحدات، وهي فكرة جيدة في حد ذاتها. كان بعضُ الأساتذة يقترحون موضوعات تافهة. مما لا يمكن أن يرضوه لأولادهم، فاننقدتُ هذا التوجّه، وبذلك ظلت المسافةُ بيني وبينهم شاسعة، كما كانت.

في هذا السياق قصدتُ مرةً منزل الصديق لحميداني قصدَ تقديم تصوري لمساهمتي في وحدة النقد المرتقبة، وربما المساهمة في وضع تصور لها. ما زال الموضوع مفتوحاً. كنا في بيته، أنا وإياه، ولا ثالثَ لنا. لم أكن أعلم أي شيء عن الشركاء الآخرين المحتملين. كنا في الغرفة الصغيرة نفسها التي اعتدنا أن نراجع فيها حسابات المجلة ونصحح البروفات في وفاقٍ تامٍّ

طَوَالَ سنوات. كنا على وشك تناول الشاي كالعادة، وأماننا بعضُ الحلويات، أخذتُ واحدة منها... تَبَيَّسْتُ قِطْعَةً الحلوَى في يدي لحظَاتٍ ثم أعدتُها إلى مكانها بحركة بطيئة آليّة عندما سمعته يوجّه نحوي، على حين غرة، طَلَقَاتٍ غير معتادة، طَلَقَاتٍ من العيار الثقيل، من قبيل:

"من الأحسن ألا نَجْتَمِعَ أنا وأنتَ في وحدة واحدة".

لم أفهم شيئاً! نحن مشتركون من سنوات في عمل علمي، ما الذي وقع؟! عندما لاحظ اندهاشي وعدم اقتناعي أخرجَ الورقة الحمراء، وأعطاني من الأخير، كما يقال:

"لا أحب من يُدْخِلُ رأسه في"، أي من يحشر نفسه في شؤوني!!

كلام شديد الخشونة، بدون قفازات. طلبتُ منه أن يُوضِّح أكثر، فلم يزد على أن ذكّرني بلحظة كان واقفاً فيها مع أحد خصوم الأمس المناورين، فوقفتُ للسلام عليهما من باب المجاملة وتزجية الوقت. لعله كان يُرتب معه أمراً خاصاً، لا أدري.

كان الموقف محرّجاً، قمتُ على الفور مُنصرفاً فغالبتني دموعُ الغين، تبعني إلى الخارج، مشى بجانبني مسافة داخل الحي. كُنْتُ أتمنى ألا يفعل. ثم سمعته يقول: أبكيتني. فقلت: لا بأس. "ومضى كلُّ إلى غاياته، لا تحزنُ على شيء فإن الحظ شاء".

لم يُصدّق الكثيرُ من الزملاء انفصالنا على ذلك النغم والإيقاع، فطلبوا موافقتي لرثق ذلك الفتق، ولكني رأيتُ أن أي حديث في الموضوع سيخدش ذلك الماضي الجميل الذي جمَعَنَا؛ فضلتُ أن أحتفظ به كما وقع. صدق من قال: القلوب كالزجاج.

ربما كان هناك إحساسٌ لدى البعض أنني عُرِلْتُ، وأن "وحدة النقد الحديث" هي آخر نقطة من اليابسة يمكن أن أضعَ رجلي فوقها إذا ما شئتُ أن أجدَ موطئ قدمٍ في الدراسات العليا بعد أن تم إغراقُ ما يُعتقد أنه أرضُ

شعبة اللغة العربية في الطمي. سُنِّت الأيَّام أن هذا الاعتقاد تجاهلَ معطيات أخرى. تجاهل قوَّة الدفع الذاتية. عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم...

بالنظر إلى الفوائد الجَمَّة التي تَرْتَبُت عن هذا الموقف الذي ألهم الله إليه الصديق حميد لحميداني يلزمني اليوم، بكل صدق، أن أشكره جزيلَ الشكر على ما أسداه لي من خدمة حين رفض أن أكون مجرد ضيف في وحدة النقد الحديث. لقد كنتُ في حاجة إلى هذه الصعقة الكهربائية لكي استيقظ من غفوة وفُتور انتاباني بعدَ عودتي من الرياض، بل قبلَ الذهاب إليه. فمما أذكره أن الزميل لحميداني سألني قبل الرحيل إلى الرياض عن الدافع إلى ذلك، فقلتُ له ما ترجمته: "لم يعد في فاس ما يشدني إليها". جملةً أخرجتنا معاً، ندمتُ في الحال على النطق بها. كنتُ، من بعض الجوانب، كمن استتجد من الرمضاء بالنار، فعدتُ أبحثُ عن أي ظل أركنُ إليه في خُنوع لا يوافق طبيعتي.

"رجعتُ لنفسي فاتهمتُ حصاتي"

قِلْتُ الدُّنْيَا! وقال القدر: لا، اليدُ العليا خيرٌ من اليد السفلى... من هذا المخاض العسير وُلِدَتْ "وحدة التواصل وتحليل الخطاب"، في فاس، ثم "وحدة البلاغة الجديدة والنقد الأدبي"، في الرباط. هما امتداد، لا شك، لوحدة النقد القديم التي حاربها المحافظون، ولكن بطموح أكبر وأفق أوسع: خروجٌ من الأدب إلى الخطاب، وتطويرٌ عملي لمشروع المجلة، وتوظيفٌ عملي لرصيدها وخبرتها. انطلق المشروع في الوقت الميت، بعد أن اعتقد الجميع أنني استسلمت.

بحنُّت عن العميد لأخبره بما قررت فوجدته في مكتب الكاتب العام محمد العلمي، كانت آلة النسخ منهمكة في سحب أسئلة الامتحان، أخبرته أنني عازم على إنشاء وحدة جديدة مستقلة بعنوان: تحليل الخطاب، وذلك

بعدَ أن فضَّل الأستاذ حميد لحميداني "ألا نجتمع أنا وإياه في وحدة" للدراسات العليا.

أبدى استحسانا للفكرة والموضوع، ثم قال، موجها الخطاب إلى نائبه: "تعاونوا في هذا الموضوع، تعاونوا". وفي الحال اقترح الأستاذ عبد الرحمن طنكول إضافة لفظ "التواصل"، فلم أتردد في إعادة الصياغة: *التواصل وتحليل الخطاب*،

ولمزيد من تدقيق المقصود، وترجيح اقتراحي الأول، أضفتُ تحتها: مكونات الخطاب وآليات اشتغاله. وحين رَدَّت الوزارة بالموافقة على المشروع اعتمدتِ الشطر الثاني من العنوان: مكونات الخطاب وآليات اشتغاله، فبقي هذا الالتباس إلى النهاية: هناك وثائق فيها: وحدة التواصل وتحليل الخطاب. وأخرى: مكونات الخطاب وآليات اشتغاله.

كانت الوحدة جديدة على غير مثال، لا تتسع لها أية خانة من خانات الدرس الأدبي والبلاغي كما هما ممارسان في الشعبة. ولذلك وضعْتُها في خانة السيميائيات تاركاً جَمَلَ الأدب والنقد بما حمل. وهكذا قفزت السيميائيات من عنوان المجلة إلى نَسَب الوحدة.

ولذلك كان علي أن استكمل النواة الصلبة لهيئتها التدريسية من خارج شعبة اللغة العربية التي أصبحت غريباً عنها وأصبحت غريبةً عني. انضم إلى الوحدة الجديدة الدكتور غنيمي الحاج من شعبة الفلسفة وعلم النفس محاضرا في علم النفس التواصل، والدكتور حسان الباهي في المنطق، والدكتور إدريس حمادي من شعبة الدراسات الإسلامية محاضرا في المقاصدِ وأُسُسِ التشريع والخلاف، والدكتور محمد الولي عائدا من جامعة الأخوين مدرسا للترجمة، والدكتور عبد الرحمن طنكول من شعبة الفرنسية محاضرا في السيميولوجيا... الخ

وحاضرَ في الوحدة أساتذة آخرون، منهم الصديق العزيز الباحث

العصامي اللامع سعيد بنكراد، وشكيب التازي. كما استقبلت أعلاماً، بعد أن هيأت ملفات شاملة لأعمالهم، منهم الدكتور محمد مفتاح، والناقد السعودي عبد الله الغدامي الذي لم يخف إعجابه الكبير بمستوى طلبه الوحدة. ومن الشعراء الذين استقبلتهم هذه الوحدة واحتفلت بشعرهم الشاعر الفلسطيني مريد البرغوثي. وكانت وحدة النقد القديم قد استقبلت، قبل ذلك، الشاعر منصف المزغني، وهما شاعران متمكانان من لغة الشعر وصنعتة. كانت وحدة التواصل وتحليل الخطاب جديدة على غير مثال. كانت مطلباً للمستقبل. ولذلك استأنس بها عددٌ من الزملاء في وضع مشاريع جديدة، فظهرت وحدات مماثلة في مجموعة من الجامعات، كما ظهر هذا التوجه في مشروع إصلاح التعليم بعد سنوات حيث أضيفت مادة تحليل الخطاب كمادة أساسية، ومادة التواصل في تخصصات مختلفة. كنا نُجيبُ عن سؤال تاريخي بشكل عفوي.

وعندما انتقلتُ إلى جامعة محمد الخامس بالرباط، نهاية القرن الماضي، وشرعتُ في تكوين وحدة جديدة، بتنسيق مع بعض الزملاء، كان المفهوم الجديد للبلاغة قد توضَّح لديّ بما يكفي: العلم الذي يتناول الخطاب الاحتمالي المؤثر تخيلاً وتداولاً، أي علم الخطاب دون زيادة، أي كل ما كنا نقوم به في وحدة التواصل وتحليل الخطاب، وأكثرُ ما كنا نقوم به في مجلة دراسات. فاقترحتُ على بعض الزملاء إنشاء وحدة بعنوان: البلاغة.

غير أن الأستاذ محمد مفتاح الذي كان يعلم جيداً ما اقصدُهُ اقترحَ رفع اللبس عن البلاغة حتى لا يُساء فهمُ المقصود بها، خاصة من لُذُن لجنة الخبرة والاعتماد، مقترحاً إضافة الصفة: "البلاغة الجديدة". ثم رأى أحدُ الزملاء المشاركين في الوحدة ضرورةَ التنصيصِ على "النقد الأدبي" موضوعِ اشتغاله. ومن هذا الحوار جاء اسم: البلاغة الجديدة والنقد الأدبي. وقد جرَّت عليّ هذه الزيادات الكثير من الأسئلة فاجتهدتُ للجواب عنها

والتلاؤم معها تلميذا على الدوام.

تلاحظون، إذن، كم كان ذلك العبد الضعيف، محمد بن عبد الله العمري، مَرِنًا فيما يخص الأسماء. المهم ألا تُسميَ وتُنصرف، وذلك ما وقع في أكثر هذه الحالات، ولا حرج، في كلِّ آخر.

لقد كانت وحدة التواصل وتحليل الخطاب وما جاء في امتدادها تجربة رائعة، كانت بداية مغامرة علمية لبلورة مفهوم جديد للبلاغة... وفي رَحْم هذه التجربة ظهر كتاب: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، وكتاب: البلاغة العربية بين التخييل والتداول، وكتاب: دائرة الحوار ومزالق العنف، ودراسات أخرى. وعن ذلك الزخم من الكتب والدراسات ترتب الكثير من النعم المعنوية والمادية، حتى جاء التتويج بجائزة الملك فيصل العالمية. إن من يُحبُّك سيُحسنُ إليك حتى وإن لم يقصد ذلك.

كان ذاك العمري يقول دائماً لأبنائه والأقربين من نجباء طلبته: كونوا كالماء المتكاثر؛ إن لم يتسرب من الشقوق ليوسعها فاض من أعلى الحواجز، حوّلوا كل حاجز إلى حافز.

ملحق

الرسالة القامعة

رغم كون مجلة دراسات بعيدة كل البعد عن أي تحيز سياسي، مفتوحة لكل الاتجاهات والمناهج العلمية القديمة والحديثة، لا تعادي غير الجهل والخمول، فقد وُجد حتى من بين المحسوبين على الحداثة من ضايقة وجودها، وأعشى عينيه إشعاعها، فبحث عن أدنى مناسبة للقدح فيها بدون بينة.

"بتاريخ 04.03.1992 نشرت جريدة أنوال ضمن صفحاتها الثقافية مقالا بعنوان: ظاهرة حميد لحמידاني (كذا)، استطرد كاتبه (جواد الواسطي!) من مهاجمة الأستاذ لحמידاني إلى نبز مجلة (دراسات سال)، فنعتها بنعوت غير لائقة. وقد رأيت من واجبي، باعتباري مديرا للمجلة، وضع النقط على الحروف". فكتبت المقال التالي الذي نُشر في عدد لاحق من نفس الجريدة (أنوال) بالعنوان والمحتوى التاليين.

"سال"

من حرقه السؤال ونظافة الجواب

محمد العمري

لست أدري هل كان السيد (الواسطي!) يستهدف الزميل الأستاذ حميد لحמידاني ليضع الفيتو على ما تخرّصه من نواياه، أم إن الأخير إنما كان منصّة إطلاق وُجّهت من خلالها قذيفة حقد إلى مجلة دراسات سميائية أدبية لسانية (د.سال).

فهذه اللعبة معروفة حتى في البلاغة القديمة. سماها البلاغيون "الاستطراد". "والاستطراد في اللغة مصدر استطرد الفارس من قرنه في الحرب، وذلك ان يفر من بين يديه يوهمه الانهزام، ثم يعطف عليه على غرة منه، وهو ضرب من المكيدة. وفي الاصطلاح أن تكون في غرض من أغراض الشعر توهم أنك مستمر فيه، ثم تخرج منه إلى غيره... وغالبُ

وقوعه في الهجاء⁶، كالخروج من الوعد إلى الهجاء في قول الشاعر:

إذا ما اتقى الله الفتى وأطاعه فليس به بأس وإن كان من جرم
حين تتوارد على ذهن الكاتب - وهو يذكر "سال" - معاني السيلان
والإسهال، ويتعسفُ تحويلَ كلمة "سال" (وهي من السؤال والمساءلة) إلى
"صال" تمهيدا لإعطائها معنى الكلمة الفرنسية Sale، أي "وسخ". حين
تتوارد كل هذه المعاني نكون أمام حالة سيكولوجية تُنازع العقل والخلق
سُلطتيهما.

إن العقل والخلق، يا سيدي، يقتضيان التبيين حتى لا نصيب قوما
بجهالة. أما الانفعال والاستسلام لرغبة التدمير فكثيرا ما يجعلان النبالَ
تطيشُ في كل اتجاه، ثم ترتد إلى مصدرها كلما صادفت بقعة نور أو مرآة
صغيرة. ونحن بحمد الله ما استطعنا أن ننشئ هذه المجلة ونستمر بها
مستقلة إلا لأننا قبلنا أداء ثمن الاستمرار والاستقلال.

لقد كان على مجلة دراسات القديمة (دال)، والجديدة (سال) أن تجيب،
من أجل الوجود والاستمرار، عن مجموعة من الأسئلة الحاسمة، فأجابت
عنها كلها بأجوبة نظيفة لا غبار عليها، وإليك البيان والعبرة:

1. سؤال النشأة

أ. "سال" هي امتداد لـ "دال" (دراسات أدبية ولسانية) التي ظهرت في
منتصف الثمانينيات، أي في امتداد ظلام القمع الذي غمر المجالين النقابي
والسياسي ليمتد إلى المجال الفكري والثقافي حيث كان من تجلياته الكبرى
توقيف كل المجالات الثقافية والفكرية الإبداعية.

ب. وظهرت مجلة دراسات، من جهة ثانية، استجابة لتطور فعلي

⁶ خزانة الأدب لابن حجة. ص 102/1. (مكتبة الهلال. بيروت. 1987). وقد وجَّهنا
هذه الصورة البلاغية لتتسع لهذه الحالة التي تمت فيها عملية الاستطراد، إذ هُجيتِ
المجلة في سياق هجاء الأستاذ حميد لحميداني، وكأنها غير معنية.

وعملي في مجال البحث الجامعي من خلال منتدى لمجموعة من الباحثين الشباب سهّل التواصل بينهم ماضٍ طلابي في أحضان (أ.و.ط.م)، كما سهله الاشتراك في هموم البحث العلمي والمنهاجي الحديث، من جهة، والاهتمام بالتراث العربي من جهة ثانية. ولم تظهر المجلة إلا بعد سنوات من الحوار كادت تغطي الشطرَ الأول من الثمانينيات كلّه.

عملنا، يا أخي، نظيف لأنه خالص لوجه الله، ومحبة اللغة العربية التي تسكننا. وهو إيجابي لأننا نعتبره جزءاً من معركتنا ضد الجمود والاستلاب معا.

2. سؤال التمويل.

في قضية التمويل عبءٌ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد: بعد استطلاع واسع في مطابع الرباط والبيضاء برققة الزميل حميد لحميداني، وبتكليف وقتها من هيئة تحرير المجلة، تبين أن ما يتطلبه طبع العدد الواحد هو أربعة وعشرون ألف درهم (24 000 درهم).

من يمول، وبأية شروط؟

كانت النظافة، يا سيدي، تقتضي ألا نمد اليد، ألا نرهن شعرة واحدة من لَمّة الحسنة، ومن يُحب لا يُعير محبوبه.

والحل بسيط مثلما هي بسيطة حياتنا نحن البدو، حيث نقضي بما نيسر، ونصنع الأدوات الضرورية انطلاقاً مما هو في متناول اليد. لقد اقترض كل عضو من أعضاء هيئة التحرير حوالي 5000،00 درهم (خمسّة آلاف درهم) من البنك، واستمر يؤديها أقساطاً. ما أكل منها ولا شرب، بسعادة وفخر، وكانت لحظة مخاض سعيدة.

أُقترح علينا الإشهار لتخفيف العبء فنزّهنّا أسماءَ الباحثين المنتسكين في صوامع المعرفة عن صخب البورصة.

وظللنا نحتفظ للمجلة بذلك الثمن الزهيد علماً منا بأن جمهورنا مكون من الطلبة والباحثين الذين لا يجدون ما ينفقون في هذا الزمن الرديئ.

ليرجع السيد المحترم إلى مبيعات المجلة، وقد أثبت أن لديه القدرة على ذلك، وسيجد أن المبيعات لا تغطي نفقات الطبع، ولا يُتدارك هذا النقص إلا بتضحياتنا الخاصة، وتضحيات مجموعة من الزملاء الذين يشتغلون بدون مقابل، ويَهْبُون لإنجاد المجلة بشتى الوسائل، ومنها بيع بعض مرجوعاتها لجمع ثمن العدد بعد العدد، وقد توقفت المجلة فعلا عدة مرات نتيجة العجز المادي، ثم أقلعت من جديد...

ونحن هنا مطوقون بجميل هؤلاء الأصدقاء، وقد كثروا وتقوا بحمد الله، ومطوقون أيضا بفضل وجميل الباحثين الذين فهموا الأمانة فلم يتطلّعوا يوما إلى تعويض مادي، ولم يتقاعسوا في التعاون مع هيئة المجلة. ومطوقون بفضل الصحافة الوطنية التي لم تتقاعس يوما في التعريف بالمجلة وتقديمها لقرائها دون أن تطلب منا الإدلاء بغير اللون العلمي البحت الذي تنطق به صفحات المجلة، وهذه نعمة مغربية نفتخر بها. (هذا في الوقت الذي ضربت فيه التلغزة حصارا على المجلة معروفا عند الزملاء، حيث حُجزت حلقتان كنا سجلناهما ضمن برنامج كومبيوتر 7 للتعريف بالمجلة سنة 1986، ونحن اليوم نعتبر ذلك من لطف الله بنا).

فهل بعد هذه العناية الإلهية من طريق إلى النظافة ترشدنا إليها، أيها الأخ الكريم؟

3. سؤال الاختيار والتوجه العلمي

المجلة ليست عمل فرد، وليست منبرا خاصا يحمل لواء القديم أو الجديد في حرب عبثية. الشرط الوحيد للنشر فيها هو احترام شروط البحث العلمي من حيث الأمانة والدقة. وقد تجلّى ذلك في المادة المنشورة، من القديم والجديد.

نحن، يا أخي، ننشر ما يصلنا من الباحثين ضمن هذه الشروط معتمدين على ذوي الاختصاص فيما يتجاوز اختصاصنا. فالمجلة، من الوجهة العلمية، صورة للبحث العلمي في الجامعة المغربية خاصة،

والجامعات المغاربية والعربية عامة، حسب ما يصلنا، ونحن نراها صورة مشرفة وواحدة.

فلنرجع، الأخ المحترم، بعين الرضا إلى الأعداد الستة التي صدرت لحد الآن من "سال"، وليرقق السنين هذه المرة ما سمحت به عواطفه، وليستعرض أسماء الباحثين الذين يرصعون جبين المغرب نجوما لامعة في سماء العلم، وينيرون ظلمته في الهزيع الأخير من الليل العربي، وليرجع البصر هل يرى من فتور، ثم ليرجع البصر كرتين على الأقل... فسيجد أعلاماً كباراً طوقت سمعتهم المشارق والمغارب، تتشرف المجلة بمساهماتهم العلمية وتشجيعاتهم، وسيجد إلى جانبهم أقماراً من الشباب طوالع بعتاد علمي، ونفوس نبيلة زاهدة، مع اطلاع على لغات وحضارات خارج المجرات المألوفة (خارج الجمود والتقليد العربي، وخارج النعرة الفرانكوفونية)، شباب تشد المجلة على أيديهم بيد عربية ساخنة، ويشدون على يدها بقوة المستقبل الواعد.

إننا، يا سيدي، نعيش في "سال" الرقيقة الظرفية تلاميذ دائمي السؤال، لا نتمرد إلا ضد الجمود والجحود، وقد ابتلينا بهما معا في هذه الأيام. ولكن القافلة تسير، وعزاؤنا موجود عند الأكرمين.

.....

ها نحن قد نزعنا عمائنا فلينظر البادئ ما تحتها⁷.

7. حين هجا أحد الشعراء الماجورين الأنصار بإيعاز من بني أمية بقوله:

ذهبت قريش بالمكانم والعُلا واللؤم تحت عمائم الأنصار

قيم زعيم الأنصار النعمان بن بشير على معاوية، فخلع عمامته بين يديه وطلب منه أن ينظر إذا كان تحتها لؤم فعلا!

الفصل الرابع

المغارة

الزنابير كالنحل:

تلسعُ لسعا موجعا،

تبني خلاياها كما يفعل النحل،

تتوالد وتتكاثر،

ولكنها...

لا تنتج عسلا.

لا تفهم الزنابير لماذا لا يترددُ الفلاحون في سحقها، وتخریب "أعشاشها".

ومن النباتات ما يورق ويزهر موهما أنه سيثمر، ثم إنه لا يثمر،

أو يأتي خَصِيانَ،

غير أنه لا الزنابير هاجمت يوما النحل لثمنعه من صناعة العسل، ولا النخيل
الخصيان، شمال الأطلس، هاجم نخيل واحات درعة أو زيز، في جنوبه، ليمنعه من
الإثمار.

"رب قائل يقول:

نعم يا سقراط، ولكن ألا تستطيع أن تُمسِكَ لسانَكَ

حتى إذا ارتحلتَ إلى مدينة أخرى

ما اشتبك إنسانٌ معك؟

وعسيرٌ جداً أن أفهمكم جوابي عن هذا السؤال".

(سقراط. الدفاع. ص 106)

لعنةُ المخطوطات

وَرَزَااتٌ.. والموشحات!

في يوم من أيام منتصف السبعينيات من القرن الماضي وصلتُ إلى باب القصر الملكي بالرياض على متن سيارة سيمكا 1100 زرقاء جديدة باحثاً عن الخزانة الملكية.

لم يسبقُ لي أن اقتربتُ من ذلك المكان، كانت تُبعدني عنه رهبةٌ مشوية بنفور؛ خليط مما خزنته الذاكرةُ من أجواء بذخ هارون الرشيد وسطوة المولى إسماعيل.

قبل أن أجد بابَ المكتبة وقعَ حدثٌ عابرٌ خلخل تصوري، نال من هيبة المكان. عمّت حالةُ استنفار على حين غرة لإخلاء المكان من المارة. مرتُ سيارةً بسرعة، تعثر راكب دراجة عادية قربَ الباب؛ حارس أو بستاني، انكب على وجهه. تتأثر مُركب من صحنون الألمنيوم كان معلقاً بمقود دراجته. كان رجالُ الشرطة والحرس يلعنون أباهُ دينه وأمه. يحثونه على إخلاء المكان بسرعة لتنظيفه قبلَ أن يصل الموكب. بقي مُكباً على وجهه كأنه يسترجع وعيه أو توازنه. تبين أنه كان مشغولاً بالبحث عن طقم أسنانه الذي اختلطَ بالقطاني المتناثر قرب الباب، تلطخ المكان بالفاصوليا الجافة المصبوغة بالفلفل الأحمر فبدا كأرخبيلٍ من الدم. كنتُ سأتخيل كل شيء إلا عاملاً داخل القصر الملكي يأكل القطاني ويركبُ دراجة عادية بدون فرامل، عجلتان ومِقوداً! هل هذا واقع أم خيال؟! من القصر تخرجُ

الإكراميات والامتيازات و"الأكريمات" وتفوح رائحة الشواء والصنّدل... الخ
استحثني الشرطي الذي تأكد من هويتي، وسبب حضوري، على إخلاء
المكان. تفحصت يسار الباب الرئيسي باحثاً عن باب الخزانة حيث أشار
علي، فلم أر شيئاً. تخيلتُ "الخزانة الملكية" معلمةً معمارية متميزة تظهر
من بعيد. وأنا أقلب نظراً حائراً في كل الاتجاهات رأيت الشرطي يشير إلى
بُويب بسيط يصلح أن يكون مدخلا لغرفة حراسة. وقفتُ قبالة متردداً، ثم
سمعتَه يؤكد من بعيد: هاداك هاداك. فدخلتُ.

كان ذلك المقر أشبه في انغلاقه بجامع قريتنا الصغيرة؛ ليست فيه أية
أبهة تناسب المحيط الملكي؛ هو عبارة عن دارٍ على الطراز القديم. في
"وسط الدار"، أو صحنها، طاولة مستطيلة عتيقة. هذه هي قاعة المطالعة.
حول الصحن غرفٌ مفتوحة على وسط الدار، عبارة عن مكاتب ومخزن
للكتب.

وسط الدار هذا، هو "عين الدار"، كما نسميه في الجنوب، أي ممراً
الضوء والهواء، عينها التي كانت تنظر بها إلى السماء. أغلقتُ عين الدار
بسقف متضعع فابتأس المكان. عرفتُ، فيما بعد، أن المياه تتسرب من
ذلك السقف حين يتوالى سقوط المطر.

في الغرفة المقابلة لباب الدار نبأ حياة تنبعث من الفقيهين الجليلين
المنونى والتطوانى. كانا مُعتكفين في وادٍ غير ذي زرع. تصلني أصواتهما
في ذلك السكون والعياء كما لو كانت أصوات كتاكيت انزوت في الظل من
قيلولة لافحة في واحة معزولة وسط الصحراء. ومن غرفة خارج هذه الدائرة
(أو الدويرية) يأتي صوت مكتوم لآلة كاتبة كسولة، يحاول، في عبث،
تقطيع ديمومة ذلك السكون الثقيل.

كان المحافظ غائباً عندما بدأ السّي قاسم، وهو موظف عتيد بالخزانة
الملكية، يعرض أمامي بانتشاءً واغترباط مخطوطات المسلك السهل في شرح

توشيح ابن سهل لمحمد الصغير الإفرائي المراكشي. لقد استقر العزمُ على تحقيق هذا الكتاب ودراسته برسم دبلوم الدراسات العليا بعد أن حصلتُ على شهادة الدراسات المعمقة، أو شهادة استكمال الدروس، سنة 1974. الغرضُ من هذه الزيارة الأولى للخزانة الملكية هو أخذُ فكرة عامة عن مخطوطات المسلك الموجودة فيها، أملاً في الوصول إلى نسخة المؤلف، أو نسخة اطلعَ عليها، أو نسخة راجعها أحدُ العلماء المعروفين، حسب توجيهات الأستاذ المشرف. ومن يدري، لعلنا نقع على صيد أنمن من المسلك نفسه.

في اللحظة التي أنزلَ أمامي نسخةً متميزة بخط صالح الشرقي، صديق الإفرائي، إنتابني إحساسٌ خاص. كانت النسخةُ بكرةً، لم تُرقم بعدُ. أوراقها متلاصقة لم يلمسها أحد منذ عقود أو قرون. كانت شديدة الهشاشة، ولذلك كنتُ ألتمس أوراقها بحذر وعناية مبالغٍ فيها أملاً في طمأننة الموظف الذي يرقُب حركاتي من بعيد. سحبها من يدي بلطف وحرّك صفحاتها فيما يُشبه التهوية، كانت أصابعه تُمسك بطرفها الأعلى بمهارة مُولدة تُمسك برجلي ولْيَدٍ خرج لتوّه من بطن أمه.

لم أتجاوز الصفحات الأولى حتى وجدتُ تعليقاتِ الإفرائي بخط يده على هامش النسخة. سرّت في جسمي فُشعريرة.. إنها نسخة حية، نسخة وقعت عليها أصابع المؤلف، وعليها بصماته؛ ألمسها فأحسُّ وكأني أصافحه. هذه هي النسخة المطلوبة، هذا الصيدُ الثمين. في نفس اللحظة غمرني الشوق إلى تملكها في الحال، إلى الاختلاء بها في فضاء آخر بعيداً عن أعين الرُقباء. خِفْتُ أن أعود غداً فلا أجِدُ لها أثراً، كما وقع لي مع عدد من نواذر الخزانة العامة.

وأنا أسبح في خضم هذه الأحلام كسر السكون صوتٌ مُقتحِمٌ جريئٌ من مدخل الخزانة، من بابها الخارجي. التفتُ نحو أحد رواد المكتبة من

أبناء الدار البيضاء مستقرا. همس بصوت حذر لم يتجاوز شفثيه:

المحافظ، عب...الفا...!

قالها وانشغلت يده بترتيب ما انتشر أمامه من أوراق مُخفيا بعضَها في محفظته، في الوقت الذي كان شقُ عينه على الباب. دخل المحافظ متأبطا محفظة فارغة دون أن يُسلم على أحد. تفحصَ الجالسين حول الطاولة بضع ثوانٍ. عندما زالت الغشاوة عن بصره، ركز على العنصر الغريب. وقف فوق رأسي يتفحص المخطوط:

ما هذا ..؟ هذا غير مرقم..!

كان السيد قاسم قد أخبرني بأن هذه النسخة ما تزال، مع مخطوطات أخرى، في صندوق وارد من الخزنة الشرقية، من أبي الجعد. انسلَّ المحافظُ إلى مكتبه. دبَّت الحركةُ في الخزنة. نادى أولا السيد قاسم وأغلظ له الكلام. ثم شرع في الصياح موجها تعليماته إلى الكاتبة التي كانت تطفق بعيدا في الجهة الأخرى، قرب الباب الخارجي.. استفسرتُ السيد قاسم عن إجراءات التصوير فأخبرني أن العملية لا تتم في عين المكان، بل في قسم الوثائق بالخزنة العامة، بعدَ الحصول على إذنٍ من المحافظ. ونصحتني بمخاطبته في الحال. دخلتُ مكتب السيد المحافظ مُنحني القامة. قدمتُ نفسي ونسخةً من توصية كلية الآداب بتسهيل المهمة. ثم أعلنتُ عن الغرض: تصوير مخطوطة المسلك السهل لمحمد الإفراني في إطار البحث العلمي. ودون أن يرفع عينيه عن أوراقٍ كان يتصفحها، لعلها مراسلات، طرح علي السؤال التالي:

"مُنين أنت؟ من أين أنت؟

قلتُ بهدوء: من ورزازات "تعام آس".

وقتَها فقط رفع رأسه متفحّصا ملامحي، ثم علّقَ بعفوية: "آش جاب ورزازات

للموشحات؟! " من أوصل أهل ورزازات للخوض في الموشحات!
تمنيْتُ أن تكون مجردَ مداعبة، فقلتُ مداريا حرجي: أنا طالبُ علم، وهذا
موضوعُ للبحث، ليستَ له خصوصية... العلمُ مطلبُ إنساني.
كنتُ أحاولُ ألاَّ يُفْلَتَ مني الزمام فأرْفَسَ الحرثَ والزرعَ كالعادة. فمن أجل
متابعة البحث العلمي وحده أنا مستعد للتنازل مؤقتا، موقتا فقط، عن بعض
كرامتي طمعا في استرجاعها ومضاعفتها بفضلها. كان الوالد رحمه الله يقول:
"اللِّي بُعَا الصَّيْدُ تَيْهَزُ السُّلُوكِي عَلَى كُتَافُو"، من رغب في الصيد لزمه أن
يحملَ السلوقيَّ على كتفيه. وأنا ندرتُ سبعين في المائة من حياتي للبحث
العلمي، والثلاثين الأخرى المتبقية للتشويش على الأغبياء، ومن الأغبياء
المستبدون، هذا قدرِي وقراري.
قاطعني: العلم... العلم؟ هل تعرف شيئا عن الموشحات؟ ما هي
الموشحات؟

أجبتُه بهدوء: على كل حال، أنا في بداية الطريق. الموشحات
منظومات شعرية متنوعة الأوزان والقوافي متكونة من أقفال وأبيات
وخرجات...

قاطعني: حافظُ شي مثال؟
بدأتُ في التعريف بإحدى الموشحات قبل أن أسرد نماذجَ منها، وأنا
أحفظ الكثير، غير أنه قاطعني مرة أخرى قائلا بالنص:
"هذا الساعة حنا مشغولين بتصوير أكثر من ثلاثمائة مخطوط لصالح
الإمارات العربية، ولا يمكن الانشغال بشيء آخر... أرجع بعد ثلاثة أشهر
.. إلّا [إن] كمّلنا".

شكرته، وانصرفْتُ بانكسار وخيبة، ليس بسبب الافتراق عن تلك النسخة
الثمينة التي قد يختطفها غيري بعد أن نفضتُ عنها الغبار، ولكن لأنني
خشيتُ أن أكون قد تحمّلتُ كل ذلك "الإذلال" بدون طائل..

قَصَصْتُ الخبر على أستاذي الدكتور عزت حسن.. صَمَتَ ملياً، كما يفعل عادة كُلاً ما تعلق الأمر بانتقادي لشأن مغربي، ثم قال: سيفعلُ الله بعد عسر يسراً. لا تتوقف عن العمل، هناك الكثير مما يمكن عمله، إنشغلُ بجمع الوثائق. وعندما عبَّرت عن خوفي من ضياع الفرصة قال: تجنَّب الحديث في الموضوع مع أي كان؛ "لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ"، ورَبَّتَ على كتفي مودعاً بابتسامة مُقتضبة.

شُرود

خرجتُ من المكتبة وأنا استرجع مشاهدَ من حدثٍ قديم، حَدِثٍ وقعَ ستُّ سنواتٍ قبلَ ذلك، حرصتُ على أن أتركه طي النسيان طوال تلك السنوات. ذات مساء من شتاء 1968 كنت وحيداً في غرفتي بالطابق الأرضي، أو القبو على وجه الدقة، بالحي الجامعي بفاس. كان مستوى الغرفة منخفضاً عن أرضية الحديقة بما يقارب المتر. كنا نحن الشباب نَنطُ من البالكون إلى الحديقة في يُسر. في الغرفة المجاورة كان يسكن عبدُ الحميد، طالبٌ أنيقٌ بزي فاسي تقليدي. علمتُ، فيما بعد، أنه التحق أستاذاً بجامعة القرويين. لم يكن بيني وبين السي عبد الحميد أي تواصل، كُل ما أتذكره جُبْنُهُ البضاء وطربوشه الأحمر. فبخلاف كل الصخب المتبادل بين سكان الغرف المتجاورة في القبو كان داخلاً "سوق رأسه"، كما يقال، لا يخالطُ بقية الطلبة. كان يتابع دراسته بكلية الشريعة.

المهم.. في ذلك المساء طرقَ بابَ غرفتي شيخٌ مهيبٌ، قال إنه عمُّ "السي عبد الحميد". لم يجده بالغرفة، ويوَدُّ أن أسمح له بالخروج من البالكون بدلَ أن يعود أدراجَه إلى الطابق الأعلى الموصِّل إلى الباب الرئيسي: الطريقُ مُلتوٍ، والشيخُ مُتعب. رحبتُ به وسعيتُ لتسهيل عبوره. كان الطريقُ نحو البالكون مقطوعاً بخيطٍ نَشَرْنَا عليه بعض الملابس الداخلية. حاولتُ فكَّ الحبل لفَسَح الطريق بسرعة فاستعصى، فلم أتردد في قطعه

برغم إلحاح الشيخ في دعوتي إلى التآني. تقدّم نحو البالكون، وقبل أن يحاول التسلق، قرّبتُ كرسيًا من الحائط ليضع عليه رجله، وساعدته على الصعود. إلى هنا ليس في الأمر ما يُحكى، ولكن لا تستعجل. بدّل أن يستوي واقفا على رجله في الحديقة وينصرف لحال سبيله جلس فوق الحائط، ومد رجله داخل الغرفة، وسألني نفس السؤال: "منين أنت؟ من أين أنت؟". أنا من ورزازات.

علق وهو يحرك رأسه كالمتملّ المستغرب: "الأدب غلب النسب"! وتلا قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ". قلتُ: مرحباً..لم أقم بغير الواجب.

ولكنني بقيت دائما أتساءل مع نفسي: كيف يفكر بعضُ الناس أننا، نحنُ المغاربة، شعوبٌ وليس شعبا واحداً. وكيف يكون الانتسابُ إلى ورزازات محتاجاً إلى ما يغطي على نقائصه؟! والحال أن الشمس تصلُ في ورزازات إلى كل الزوايا، وأن لا معنى للتلوث هناك، كنا نشرب من الساقية والواد ونأكل الخوخ والتين من الشجرة مباشرة... "تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ".

خفا حنين وخط الرمل

في انتظار انقضاء الثلاثة أشهر التي وضعها المحافظ حاجزا في الطريق بيني وبين "المسلك السهل"، ورغبة في صرفي عن التفكير في الموضوع، اقترح علي الأستاذ المشرف أن نسافر معا إلى خزانة القرويين، إلى فاس حيث قضى الإفراني قسطاً من حياته طالباً بالمدرسة الرشيدية بالصفارين، لعلنا نحصل على نسخة ذات خصوصيات ترشّحها لأن تكون أحد الأصول المعتمدة في التحقيق: (أ) أو (ب) أو (ج).

كانت الرحلة في "السيمكا 1100 من الرباط إلى فاس فرصة ثمينة للحديث في موضوعات شتى علمية وسياسية وحميمية. فمع السير يَحُلُو الكلام ويتشعب، وتخف درجة التحفظ.

في اليوم الثاني لوصولنا صاحبنا الأستاذ صالح الأشر إلى خزانة القرويين. وهو الآخر أستاذ سوري كان صديقا للأستاذ عزت حسن. تلقينا عنه الأدب العباسي في مستوى الإجازة. كانت محاضراته محبوبة تشد اهتمام الطلبة.

اقتحمنا المدينة القديمة عبر مولاى إدريس. تركنا الصغار في صخبهم الدائم وولجنا خزانة القرويين. عرف الموظفون قُصْدنا من هيئتنا، فسارعوا إلى إخبارنا بعبارة مُحِبَّة بأن المحافظ غائب، ولا جدوى من الانتظار، لأنه راقد في مصحة في الدار البيضاء. رغم أن محافظ خزانة القرويين وقتها، العابد الفاسي، كان مكلفا بتدريس البلاغة في كلية الآداب عندما كنا طلبة بها، فلم يسبق لي اتصال مباشر به، حضرت درسه مرة واكتفيت. اشتهر بطريقته في الامتحان حيث يستمع إلى أعدادٍ غفيرة من الطلبة مرة واحدة، وي طرح أسئلة "مَنْ نُصِبَ ثُمْتُهُ وَمَنْ تُخْطِئُ يُعَمَّرُ..".

ولأنه غائب عن الخزانة فليس من الممكن الاطلاع على المخطوطات. وبكثير من المجاملة والتحايل قبل الموظفان، المكلفان بالمكتبة في غيابه، على مضض، إطلاعنا على جزء من الفهرس بشروط، منها: أولا: أن لا نطالب بالاطلاع على المخطوطات بعد ذلك.. وثانيا: ألا نخبر أحدا بأننا اطلعنا على الفهرس نفسه.

كان الأستاذ عزت حسن، بخبرته الكبيرة كمحقق مخطوطات، ومحافظ سابق للمكتبة الظاهرية بسوريا، يتصفح الجذازات بسرعة فائقة لا تصدق. وكان الأستاذ الأشر يخوض في شتى الموضوعات سعيا لتكسير حالة التوتر التي سيطرت على الموظفين. كان أحدهما يراقبني، فكلما حاولت الاقتراب من

الفهرس إلا ومد يده مههدا بسحبه، فأسحب يدي فيترجع. وكان الموظف الآخر يقف في باب المكتب، في أعلى السلم، مركزا بصره على الباب الخارجي خشية أن تقع المفاجأة.

من يدري؟

لعل العابد الفاسي يتغلب على مرضه فيودع عزرائيل وينقلب راجعا، ولعل عينا من عيونه ترقب ما يجري. كانت لحظة رهيبة بدون فائدة.

رجعنا من فاس بخفي حنين. وقلنا: لعلنا نجد في النهر ما لم نجده في البحر. قد نجد في (قرية) بجعد، أو أبي الجعد، ما لم نجده في فاس العاصمة العلمية للمغرب.

نظراً للعلاقة الحميمة التي كانت تربط الإفراني بالزاوية الشرقاوية فقد توقعنا أن أجد بعض آثاره فيها. المهمة سهلة هذه المرة، ليس لأننا ابتعدنا عن المدن العتيقة حيث تعشش الأشباح والأرواح الشريرة، ولكن لما سنقدمه بين أيدينا كشفيع. فزوجة الصديق المناضل محمد الفكك شرقاوية من هذه الأسرة، والصديق الفكك أستاذ الفلسفة يعرف من أين تؤكل الكتف. شددت الرحال إلى أبي الجعد مرفوقا بزوجتي هذه المرة. "موسيقى رياضية"، كما يقولون. الفكك لا يبدو متفائلا، ومع ذلك لا بد من المحاولة. قضينا ليلتنا في ضيافته، نسترجع ظلال الذكريات، وما جد من أخبار وحكايات. وفي الصباح قصدنا مقر الزاوية مجتمعين في موكب عائلي، نحن الأربعة. طرقتا البوابة الكبرى فخرج البواب، أو الحارس، أو الله أعلم. المهم أن الرجل مخول بالسؤال عن المقصود. سألنا عن المراد، فأجبنا:

- نريد رؤية الشريف.

- في ماذا تريدونه؟

- نبحث عن مخطوطات... الخ

- مرحبا، الشريف يضرب الخط الرملي والخط....الخ

كتمنا الرغبة في الضحك، وتركنا الأمر في غموضه، فتقدم بنا إلى صالة كبيرة مفتوحة على صحن الرياض. وبعد حين حضر الشريف. سلم على بنت الزاوية وزوجها، ورحّب بضيوفهما وضيوفه. وحتى لا يتطور سوء التفاهم ويصير عائقا بيننا بادر الأستاذ الفكّك بتقديمه باعتباري باحثا في التاريخ، ومهتما برجال الزاوية والعلماء الذين زاروها أو كان لهم اتصال بها مثل الإفرائي، صديق الشيخ صالح الشرقي. ربما يكون في مكتبة الزاوية شيء من مخطوطاته... إلخ

ما كاد الرفيق الفكّك ينتهي من التعريف بي وبالمهمة التي جئتُ من أجلها حتى انصرف الرجل، بعصية ظاهرة، إلى أدوات الشاي لإزالة أول عقبة في طريقنا نحو الباب محاولا في نفس الآن إخفاء ما بدا عليه من خيبة وضجر، مكتفيا بالقول:

"هذاك الشيء كله موجود عند السي بنداود، وهو في الدار البيضاء، في الباب الكبير"، بدون عنوان محدد أو رقم تلفون.

بقي بيننا وبين الرجل برّاد الشاي. "رزيّناه فيه" وخرجنا ننكّت على أنفسنا، ونضحك من خيبتنا برغم الحرج الذي وقعت فيه مضيفتنا الكريمة. فلو أنك قلت لأي مسطول: إن ماركسيّين ضُبطا وهما "يضرّبان الخط" في زاوية بجّعد منتصف العقد السابع من القرن العشرين، لاعتقدَ أنهما يسألان متى ستقوم الثورة في المغرب. الفكّك نار على علم في المجال الطلابي خلال السبعينيات، وناشط نقابي مشاكس بعد ذلك، وذلك العمري ما نستكشفه الآن معا.

المهم أننا كلما اقتربنا من المخطوطات إلا ظهرت الأشباح والشياطين. ولا وجود للأشباح والشياطين إلا بوجود السحرة والمشعوذين. وهكذا يتشابه البشر والبقر.

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ

عَدَدْتُ الثَّلَاثَةَ أَشْهُرَ يَوْمًا بِيَوْمٍ، ثُمَّ عُدْتُ إِلَى الْخَزَانَةِ الْمَلِكِيَّةِ مُسْتَجِدًّا
تَصْوِيرَ الْمَخْطُوطِ. أَبْدَى الْمَحَافِظُ ضَجْرًا زَائِدًا لِمُجَرَّدِ رُؤْيَيْهِ لَذَلِكَ الْمَخْلُوقِ
الْمِلْحَاحِ، وَاسْتَجَدْتُ أَنَا بِكُلِّ الْعَبْقَرِيَّةِ الْمَغْرِبِيَّةِ فِي التَّسْوُلِ، عَلَى غَيْرِ عَادَتِي.
قَالَ لِي بِضَجَرٍ ظَاهِرٍ: "سِرُّ جِبِّ لِي التَّزَامُ" مِنَ الْمَكْتَبَةِ الْعَامَةِ الَّتِي
سَتَتَوَلَّى تَصْوِيرَ الْمَخْطُوطِ، التَّزَامًا بِإِعَادَةِ الْمَخْطُوطِ فِي نَفْسِ الْيَوْمِ، ثُمَّ رَفَعَ
فِي وَجْهِهِ مِدْبَّةَ عَرِيضَةٍ شَدِيدَةِ الْخَشُونَةِ قَائِلًا:

"هَذِهِ مَخْطُوطَاتُ سَيِّدِنَا، صَاحِبِ الْجَلَالَةِ، وَأَنَا مُؤْتَمَنٌ عَلَيْهَا. لَا يُمْكِنُ
أَنْ أَتْرِكَ مَخْطُوطَاتِ سَيِّدِنَا خَارِجَ الْمَكْتَبَةِ، وَلَوْ لِلَّيْلَةِ وَاحِدَةً..."
رَغِمَ أَنَّنِي لَمْ اسْتَوْعِبْ مَنْطِقَهُ تَوَجُّهُتُ إِلَى قِسْمِ الْوُثَائِقِ بِالْخَزَانَةِ الْعَامَةِ.
كُنْتُ فِي نَفْسِيَةِ الرَّاعِي الَّذِي رَأَى الذَّنْبَ يَفْتَرِسُ نَعْجَتَهُ فِي الصَّبَاحِ، ثُمَّ عَادَ
فِي الْمَسَاءِ يَبْحَثُ عَنْهَا فِي الْحَظِيرَةِ! اتَّصَلْتُ بِالتَّقْنِيِّ الْمَسْئُولِ عَنِ
التَّصْوِيرِ، فِي قِسْمِ الْمَخْطُوطَاتِ وَالْوُثَائِقِ، طَالِبًا تَعَهُدَهُ بِإِرْجَاعِ النُّسخَةِ قَبْلَ
نَهَايَةِ الْمَدَاوِمَةِ. نَظَرْتُ إِلَيَّ نَظْرَةً اسْتِغْرَابًا:

"هَذَا مُسْتَحِيلٌ، الْمَسْأَلَةُ تَتِمُّ بِالتَّصْوِيرِ الشَّمْسِيِّ، فِيهَا تَحْمِيضٌ وَتَنْشِيفٌ
لِمَنَاتِ الْأَوْرَاقِ، هَذَا مُسْتَحِيلٌ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ. مَنْ طَلَبَ مِنْكَ هَذَا؟ الَّذِي طَلَبَ
مِنْكَ هَذَا إِنَّمَا يَرِيدُ التَّخْلَصَ مِنْكَ، بَغْيٌ يَجْرِي عَلَيْكَ".
أَمَامَ حَيْرَتِي، مَا الْعَمَلُ؟ اقْتَرَحَ عَلَيَّ عَرْضَ الْمَسْأَلَةِ عَلَى مَحَافِظِ الْخَزَانَةِ
الْعَامَةِ، "إِنْ شَاءَ أَنْ يُعْطِيَكَ التَّزَامًا شَخْصِيًّا عَلَى الْوَرَقِ. الْمَهْمُ أَنْ يَصِلَ
الْمَخْطُوطُ. سَنَحْتَفِظُ بِهِ حَتَّى نُصَوِّرَهُ".

بِالِاتِّصَالِ بِالْأُسْتَاذِ الْقَبَاجِ مَحَافِظِ الْخَزَانَةِ الْعَامَةِ، رَحِمَهُ اللَّهُ، دَخَلْتُ عَالَمًا
آخَرَ بَعِيدًا عَنِ عَالَمِ الْأَشْبَاحِ، فَسَبَّحَانَ مَنْ "مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٌ
سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أَجَاجٌ".

كنت قد اطلعتُ سابقاً على كتاب محمد بن العباس القباچ: الأدب العربي في المغرب الأقصى (1929)، وعلمتُ شيئاً يسيراً عن مساره السياسي الوطني، ولكن لا شيء من ذلك طمأنني قبل مواجهته. فالإدارة المغربية عديدة في إخراج الميت من الحي. استقبلني بانتباه كبير وعناية فائقة، وجلس ببساطة يحدثني عن الإفرائي مركزاً على نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، وعن عمل ليثي بروقانسال... وكلما حاولتُ التدخل لإظهار جدارتي وإبراز قيمة المخطوط الذي يشغلُ بالي توقفتُ عن الكلام واستمع إلي بانتباه حتى أحس بالخجل فأتوقف متيحاً له الاستمرار في بسط فكرته.

تحدثتُ عن المأزق الذي وقعتُ فيه بتحفظٍ كبير متلافياً أي تقويم لسلوك المحافظ ع. فا. وعندما انتهيت من بسط الإشكال، وقبل أن أقدم أي مطلب أو اقتراح أخذ ورقةً وكتب عليها "طلب إعارة" باسمه وصفته لصالح الخزنة العامة. رفع رأسه وقال لي: عندك سيارة؟

قلتُ بحبور: "نعم أس. نعم سيدي موجودة.."

قال: ستوصلُ (فلانا) إلى الخزنة الملكية، وتنتظره بعيداً حتى يعود إليك. ثم تذهبان معا مباشرة إلى المختبر لتسليم النسخة للمصور وأداء ثمن التصوير، والله يعينك.

ونحن في الطريق إلى الخزنة الملكية، وفي لحظة انتظار العون بموقف السيارات، استعرضتُ كل السيناريوهات السيئة التي يمكن أن يلجأ إليها من يُصير على الرفض. وإذا كان بعض الظن إثماً فإن بعضه من الحزم. بقيتُ بين اليأس والرجاء إلى أن رأيتُ الموظفَ خارجاً من الخزنة الملكية وبيده المخطوط المطلوب، فانتابتنى مشاعر متناقضة بين الرغبة في الفرح والإحساس بالغبن.

جلس الموظفُ بجانبني، طلبتُ منه التأكد، قبل الانطلاق، من أن الذي

بيده هو المطلوبُ فعلاً. لا يصدق! المسلك هو نفسه! توجهنا معا إلى قسم الوثائق حيث سلّمنا المخطوطة للتصوير، ولم ينسَ مرافقي أن ينقل إلى المصور ما لاحظته من اهتمام المُحافظ بالموضوع حتّى له على مزيد من العناية. كان تصوير نسختين من المسلك يتطلب 450 درهماً، أي ما يساوي، وقتها، أجرّة موظف في السلم السابع.

بعد أسبوعين وضعتُ النسختين في محفظتي وخرجت من قسم الوثائق التفت يمينا ويساراً غير مصدق.. هل ودّعتُ المحافظ إلى الأبد؟ ربما..

عندما شرعتُ في تخريج النصوص وتوثيق الإحالات وقفتُ مدة عند إحالة الإفرائي على كتاب نثير فرائد الجمان، لابن الأحمر. لم أصادف ما يدل على أن الكتاب مطبوعٌ. ثم علمتُ من الفقيه المنوني، رحمه الله، أن هناك نسخة في ملك الفقيه التطواني، وهي حالياً بين يدي المحافظ على سبيل الإعارة.. يا الله! هل سأطرقُ بابَه من جديد؟ لا مفر. دخلتُ مكتبَ المحافظ قصيرَ القامة، محنيَ الرأس، خفيضَ الصوت أكثر من المرة الأولى. أخبرني أن النسخة بين يدي كاتبته، لم تنته بعدُ من رقعها لاستخراج نسخة خاصة به.

وبعد شهر عدتُ إلى الخزّانة لبعض التدقيقات، آملاً، في الوقت نفسه، أن أطلع على النسخة، ولو للحظة، في عين المكان. وأنا منهمك في تصفح أحد المخطوطات دخل المحافظُ فتوجّه إليّ ببعض الانشراح غير المعهود. أخبرني أن الكاتبة انتهت من رقع المخطوط، وسيعيرني نسخته الشخصية إلى أن أنتهي منها، فهي أوضح وأسهل من المخطوط، ولكنه لم يحدد متى سيكون ذلك. سعدتُ بعرضه واعتبرتُ أن موقعي في الخزّانة الملكية سائرٌ نحو الأحسن. فلا شك أن الرجل اطمأن إلى جدّتي، وعقد العزم على مساعدتي. وعندما انصرف إلى مكتبه التفتُ نحوي أحد الزملاء الباحثين وأخبرني كتابته، وهو يسترقُ النظر نحو مكتب المحافظ، بأن نسخاً قليلة من الكتاب دخلت منذُ

أسبوع من الجزائر بتحقيق رضوان الداية، وهي موجودة بمكتبة كذا. جمعت أوراقى على الفور خوفاً من نفاذ النسخ، اقتنيت نسخة محققة من الكتاب، ولم أَعُدْ للسؤال عن مَرْفُونة المحافظ. فهمَ ما وقع فنسيتى ونسيتَه إلى يوم القيامة.

التَّخْيِيرُ الْمُحْيِرُ!

حين انتهت رحلة البحث عن المخطوطات واستقرَّ الرأي على تحقيق المسلك السهل ودراسته فوجئت باقتراح بدا لي غريباً من أستاذي العزيز الدكتور غزت حسن، قال لي:

"ها نحن قد أكملنا الخطوة الأولى، حصلت الآن على شهادة استكمال الدروس، وتحت يديك موضوعٌ صالحٌ للتسجيل برسم دبلوم الدراسات العليا. اعتقدُ أن مهمتي في مصاحبتك قد انتهت. من مصلحتك، الآن، أن تسجِّل بحثك مع أحد الباحثين المغاربة المختصين في الأدب المغربي.. فلانٌ أو فلان.. ذكر ثلاثة أسماء.

لم أستوعب الموقف بسهولة: افترضت أنه كان يريد أن يرفع عني الحرج، أو يضع أمامي حرية اختيارٍ قد أكون متحرجاً من ممارستها لسابق فضله علي، فأصْرَرْتُ على إشرافه على بحثي، فأصر على الرفض مقدماً عدة أَعذار، وطلبَ مني المحاولة عارضاً مساعدته خارج الإشراف دون حدود.

فكَّرتُ في الإشراف المزدوج، فنزلتُ عند رغبته. كان الدكتور عباس الجراري أولَ من خاطبته في الموضوع، وكنت مازلت أحتفظ منه بصورة المثقف الطليعي المتعاطف مع اليسار الطلابي، فنحن ما نزال في 1974. ذلك المثقف الذي صنف المثقفين المغاربة في بداية السبعينيات، إلى تكنوقراط؛ بدون تصور أيديولوجي، ومرتبقة؛ يعملون مع المخزن، وينجزون خطته، وطليلة ثورية صاعدة من طلبة الجامعة؛ في طريق التبلور.

أوقفته، ذات مساء، بباب قسم الوثائق والمخطوطات. عرضتُ عليه الموضوعَ فعلق عليه باستعجال: "المسلك السهل مليءٌ بالأدب، ابحثَ ربما

تجدُّ ما هو أحسن..". حاولتُ، بعدَ ذلك، الاتصالَ به تلفونياً لتحديد موعدٍ فلم أوفق، ربما كنت مستعجلاً أو مفرطاً الحساسية.

وذاًت يوم، وأنا أبحثُ عنه في الكلية، صادفتُ أستاذنا محمد بن تاوَيْت النحوي التطواني، وكان الثاني في لائحة المبحوث عنهم. عرفني من أول نظرة، فانفرجت أساريره. سألتني عن سبب التسكع في هذه المدينة الجاهلِ أهلها. حملتُ جزءاً من حمولته الثقيلة، من كتب ومطبوعات وملابس وأغراض أخرى، وسرنا في اتجاه محطة السنيام للحافلات. عرضتُ عليه المشروع فلم يُعره اهتماماً. اقترحَ علي تحقيقَ فهرس اليوسي، لا بد من تحقيق فهرس اليوسي. كان فهرس اليوسي ومحاضراته من أول ما اطلعتُ عليه، ولكنهما لم يَشُدَا اهتمامي، لأنني كنتُ أبحثُ عن نص نقدي بلاغي، حسب رغبتني، وحسب توجيه الأستاذ عزت حسن، حفظه الله. ففي البلاغة "أجرٌ ونفعٌ" كما سنتثبت الأيام: كتبُ الأخبار والثقافة العامة ليست محلَّ اهتمامي الأكاديمي. اليوسي الذي يهمني هو صاحب الرسالة الكبرى والرسالة الصغرى.

لا مجال لمناقشة الأستاذ ابن تاوَيْت فقد فرغ من أمر الاختيار (فهرس اليوسي ولا شيء غيره). وانتقل إلى السؤال عن بعض "الجحوش" و"الحمير" المذكَّرين والمؤنَّثين الذين كانوا يتلقون عنه النحو في فاس. كان الأستاذ ابنُ تاوَيْت يُعيد على الطلبة طلاسَم كتاب المُغني في النحو لابن هشام حول أدوات الاستفهام: هل، وأي، وغيرها. وكان الطلبة يضطرون لاستظهار أبوابٍ من المغني إلى حدود يوم الامتحان ثم ينسونها، فيصيرون حميراً كما قال. كنتُ أتسلَّق مع أحد الطلبة سفحَ غابة "عين الشقف"، وهو يقرأ علي من كراسة النحو: معاني "أي"، وأنا أُرَدِّد بعده. وضع رجله في حفرة فتدحرج وهو يصيح: أي أي أي..؟!!

فعلَ الله خيراً بي وبالأستاذ بنتاوَيْت حين لم يوافق مباشرة على المسلك السهل، لأنني والأستاذ ابن تاوَيْت، رغم احترامي له، ومحبتة لي، باعتباري

"بدويا قحاً"، وحماراً أصيلاً، مثلُ أواني الفخار؛ لا بد أن يفصل بينها حاجز رَخْوٌ وإلا كَسَرَ بعضها بعضاً دون عمدٍ أو إصرار.

التقينا، بعدَ ذلك، في رحاب الكلية دون أن يُثير أيُّ منا موضوع التسجيل والإشراف. ربما نسي الحكاية أساساً، وربما أوهمتُ نفسي أنه نسيها. لذلك لم استشعر أي حرج أو ارتياب عندما عُيِّن عضواً في لجنة مناقشتي.

قبل المناقشة بشهور جاءتني منه رسالة. طلب أن ألتحق به في تطوان. حملها الأستاذ أحمد ممنون الذي التقى به في كلية الآداب بالرباط. قال ممنون إن الأستاذَ غاضبٌ مني إلى درجة أنه ألحقني بحظيرة الحمير الذين علفهم في فاس فأصبحوا يركلونه في الرباط.

وكما يُمكن أن يقع لكل طالب يستدعيه أحد الفاحصين لرسالته . على غرابة هذا السلوك . فقد توقعتُ الأسوأ، ولم استهن بالأمر. اغتيمتُ عطلةً نهايةِ الأسبوع وأخذت الحافلة مباشرة من البيضاء إلى تطوان. ومن محطة الحافلة إلى منزله. وجدته، رحمه الله، وحيداً في زاوية من الصالون، أمامه آلة كاتبة عتيقة سلحفية اللون والشكل، لمسها مرة فَرَنْتُ رنيناً حاداً فتحتي عنها. كان الجزء الأول من أطروحتي فوق "السَّداري" (الكنبة)، والجزء الثاني مفتوح بين يديه.

أحضر إبيرقا من الشاي كروي الشكل متعدد الألوان. وقبل أن يناولني كأساً منه بادرني بالقول: "ذكرتُ أنك لم تتمكن من الاطلاع على نسختي الموجودة بمكتبة تطوان(؟) لقد وجدتُ أحدهم حافَ عليها. الآن هي مرقَّمةٌ مُسجَّلة، يجبُ أن تعود للاطلاع عليها.."

تخيلتُ أن العملية ستوقف المناقشة حتى أرجع إلى نسخته وأعيدَ طبعَ الأطروحة، فأصابني شيء من القلق والحزن. ولكي استطلعَ ما يفكرُ فيه قلتُ له:

سآخذها، إن شاء الله، بعين الاعتبار عند المناقشة وحين طبع الكتاب. فلم يعلق، فحمدتُ الله. "بعضُ الشرِّ أهونُ من بعضٍ". وعندما عدتُ إلى النسخة وجدتها لا تقدم ولا تؤخر فنسيتها، في المكتبة العامة عشرون نسخة خير منها.

انبسط قليلاً، فتحدثتُ عن مَجْمع اللغة العربية بدمشق، وسلمني عددين من مجلته، وتحدثتُ عن الجراري و"معرفته"، ومحمد الفاسي و"سطوته"..ولعن كل اللصوص الذين سرقوا جهوده في التعريف بالأدب المغربي والأندلسي..الخ

اعتقدتُ أننا عدنا إلى الصفاء، فسألته، عن انطباعه العام حول ما أنجزته، فقال: أنجزتُ خمسين في المائة فيما يخص التحقيق، أما مقدمتك فجيدة. وفيها ما لن يسر بعضهم، ومن هنا خرج، مرة أخرى، لمحاكمة اللصوص والمتطفلين في نظره على الأدبين المغربي والأندلسي.

حين هممت بتوديعه، قربَ الباب الخارجي، فاجأني بالسؤال التالي:
. أنت درستُ عندي في فاس؟ أنت من تلاميذي؟

قلتُ: نعم... درسنا عندكم كتاب المغني..

قال: ما اسمي؟

قلتُ: الأستاذ محمد بن تاويت.

قال: إذن لماذا تقول في رسالتك: "ابن تاويت التطواني؟"

قلتُ: لغرض التمييز عن ابن تاويت الطنجي.

قال: اسمي لا يلتبس بأحد...

لطيفة: أخبرني أحد الأصدقاء، في مرحلة إعداد الدبلوم، أنه ينوي التسجيل مع الأستاذ ابن تاويت في موضوع القصة المغربية أو شيء من هذا القبيل. فنصحته بأن يسجل معه تحقيقاً، فهو مدقق في هذا المجال وسيفيده. قال ضاحكاً: أستاذنا في حاجة إلى من يُحقِّقه. إذا قيلَ أن أحققه

تحت إشراف أحد غيره كان ذلك في غاية الفائدة.

رحمة الله عليه، لقد تعلمتُ من مناقشته لي مقدار الغبن والضيم الذي يمكن أن يُحسَّ به طالبٌ باحثٌ أمامَ مناقش يسُدُّ عينيه عن مزايا عملٍ بُذل فيه جهد مُخلص، ساعياً، بكل الوسائل، إلى إرباكه لإيقاعه في الخطأ، ومنعه من التعبير عن رأيه. لقد خطأنِي في مسألة كنتُ فحَصْتُها بعناية مع الأستاذ المشرف، تتعلق بالضرورة الشعرية، وعندما حاولتُ التوضيح رفضَ الاستماع، قال: "اِرْكُزْ (وهي عبارة إذلال يستعملها حفظة القرآن حين يخطئ أحدهم)، ثم أضاف: "إن لم تسكتُ سأبقى معك هنا إلى الصباح". وفعلاً استمرت المناقشة من الثالثة مساءً إلى حوالي العاشرة ليلاً، وحين جاء مرسولٌ من العميد يستعجله صرفه بغِلْظَةٍ وعُنف.

كان الأستاذُ المشرف يُلَوِّح بيده، يُشير عليّ، من حين لآخر، بالسكوت وعدم التعليق. وعندما زُرْتُهُ في منزله، بعد ذلك، حاولتُ أن أُعلق على تلك الجلسة المتعبية، فأغلق الباب قائلاً: لقد نلتَ حقك، لو حضرتُ مناقشة الديباجي لحمدتُ الله على ما وقع. هنا فهمتُ إصرار الدكتور عزت حسن على التسجيل مع مشرف مغربي فيما يخص موضوعاً في الأدب المغربي، فقد كان البعض يرى في إشراف المشاركة على تحقيق مخطوطات مغربية مزاحمة لهم غير مشروعة، وكان هو متحفظاً يرفض الخوض في هذا الموضوع، وفي كل موضوع يمس الشأن المغربي. وهو مَن وجَّهنا أصلاً لتحقيق التراث المغربي.

لا شك أن من حضر تلك المناقشة من غير المختصين قد خرج بذهن مشوّش. والحال أننا حين نقارن ذلك التحقيق – بعد كل هذه المسافة الزمنية التي تفصل بيننا وبينه، وبكل تجرد – بما أنجزه المحققون المغاربة من كتب تاريخ الأدب المغربي نجده من بين أجودها وأنفعها، إن لم يكن أدقها. وقد اعتنى به الدارسون ونوهوا به، والكمال لله. أما التقديم فيكفي أن

نعلم بأن الجزء الذي طُبِعَ منه تحت عنوان:

الإفراني وقضايا الثقافة والأدب في مغرب القرنين 17 و18.

تسلَّقَ بجسمه النحيل الخالي من الزوائد والشحوم سُلَّم تصفياتِ جائزة المغرب سنة 1992 حتى بقي في مواجهة كتاب ضخم، ولم يُفصل بينهما إلا بتدخل أحد الأعضاء الذي أخبر اللجنة أن القانون لا يسمح لإصاحبه بالحصول على تلك الجائزة قبل مرور خمس سنوات على حصوله عليها سنة 1990 عن كتاب البنية الصوتية. وقد أسِفْتُ لسلوك ذلك الصديق دون أن أعبر عنه، كنتُ أفضِّل أن يحصلَ عليها علميا، رغم صغره، ثم تُسحبُ منه لتلك العلة التنظيمية.

لصوص المكتبة الوطنية

عندما انتهتُ محنة المكتبة الملكية وتسلمتُ صورة المخطوط توجهتُ إلى مكتب الأستاذ القباج، محافظ الخزنة العامة، لأشكره. لم يتركني أطيل في الكلام. قال مقلبا يده بما يدل على تهوين الأمر: "هذا واجب، هذا واجبنا، ماذا نصنع هنا إذا لم نسهِّل مهمة القراء والباحثين؟ فينْ غاديا هاد لبلاد؟" فهمتُ مرمى كلامه ومغزاه فقلتُ: "والله، يا أستاذ، لقد سمعتُ كلاما أنزَّه مسامعك عن سماعه..."

قاطعني: انسَ ذلك، "إلى درتُ فيهم راسك ما غادي نديرْ وألو، هاداك شَي لِّي بَعَاؤُ" (إن اتبعت أهواءهم لن تحقق هدفك، ذاك ما يودون). ثم ختم اللقاء قائلا: "إذا احتجتم لأي مساعدة في تسهيل عملكم بالمكتبة فمرحبا".

لم يمضَ غيرُ وقت قصير حتى ظهرتِ الحاجةُ لخدمات الأستاذ القباج، وكانت الاستجابة فوقَ ما يُتوقع. بعد تسجيل دبلوم الدراسات العليا عملتُ من أجل الانتقال من الفقيه بن صالح إلى الرباط للاقتراب من المكتبات وخزائن الكتب، في حين كان القدرُ يعمل في اتجاه حلٍّ وسَطٍ، فانتقلتُ إلى الدار البيضاء.

كنتُ أَسْتَغِلُّ يومَ السبت للذهاب إلى المكتبة العامة في الرباط لتوثيق

تخريجات التحقيق وتجميع مادة التقديم، ولم يكن بالدار البيضاء غير المكتبة البلدية، وكانت في منتهى الفقر. كان نظام الاستقبال في مكتبة الرباط عقيماً حيث يذهب الوقت كله في انتظار إخراج الكتب، إن وجدت. وما ترجعه في الصباح لا تجده في المساء، يبقى مركونا، أو مركوما في مكان ما حتى يُقَيِّض الله له من يُعيد به إلى مكانه، وقد لا يُقَيِّضه.

كنتُ أتقاسم هذه المعاناة مع مجموعة من الزملاء القادمين من الدار البيضاء. طُرح المشكلُ على الأستاذ القباج فأعطانا امتيازاً غير متوقع. أصبح بإمكاننا الدخولُ إلى المكتبة والخروجُ منها في أي وقت، من الصباح إلى المساء طوال أيام الأسبوع. يكفي الاتصالُ بالشاوش المقيم في المكتبة، بـ رزوق. أصبح با رزوق يُدخلنا من الباب الخلفي. مع تخصيص قاعة خاصة نحفظ فيها بما نستخرجُه من وثائق وكتب حتى ننتهي منها نهائياً. مع أحمد زيادي وبـ رزوق - ذلك الرجل الأسمر البشرة، الفاره الطول، الطيبُ السريرة - تحوّل الفضاءُ إلى جو من المرح، نكاتٍ وضحكاتٍ، وصارت قصةُ تصوير المخطوط مجرد نكتة وموضوع للتندر. كنتُ أتتهم أحمد زيادي بالتغريب بـ رزوق، فقد كان يلبس سِلْهاماً وَبِرّاً مائلاً إلى الحمرة، وطربوشاً مُفلطحاً، فيبدو كأمر من القوقاز أو تترستان. فيتلقاه بـ رزوق بالتكريم والإجلال وتعظيم السلام منصرفاً عنّا، كان يعتبره أميرنا والمخاطبَ الأولَ من بيننا. يضربُ رجله على الأرض ويُعطي سلاماً عسكرياً بعد أن مُنع من تقبيل اليد.

استأنستُ ببعض موظفي المكتبة واستأنسوا بي فبدأوا يُعلّقون على أسباب تضجري من غياب الكثير من الكتب المسجلة في الفهرس. قال لي كبيرهم: يا سيدي، ليست المسألة مسألة فوضى، ولا حتى سوء تنظيم، وإن كان لذلك نصيب، المسألة أن المكتبة لا تسترجع ما يستعيرُهُ الكبار. لقد فقدت المكتبة من تأسيسها إلى الآن ستة عشر (16) ألف كتاب، استعارتها شخصياتٌ من الدولة لا تتأهلها المُساءلة، وزراء الداخلية والتعليم والثقافة

وغيرهم. منهم شخصيات وطنية كبرى: "اللوائح عندنا، ولكن من يستطيع استرجاع هذه الكتب؟ لقد فشلت كل مساعي المحافظ". وذكر لي كل اسم وعدد الكتب المحجوزة عنه.

هذه هي الظروف التي كتبت فيها واحدا من أوائل مقالاتي، وربما يكون أولها وأكثرها حدة. نُشر بجريدة المحرر. تحدثت فيه عن ظروف الاشتغال في المكتبة الوطنية. فباحتساب تعطيلها في الصيف، وكل المناسبات الوطنية والدينية، فضلا عن نهاية الأسبوع، وبالنظر إلى التأخر في الدخول والإسراع في الخروج يتأكد أنها لا تشغل عمليا أكثر من شهر ونصف في السنة.

وتحدثت عن الكتب المفقودة والأخرى التائهة أو المزيّنة لمكاتب الموظفين. وكان من جملة ما استفزني مباشرة أنني طلبت الترجمة الفرنسية لرحلة شريف تاساوت المعروفة ب: رحلة الوافد في أخبار الوالد، ترجمة غوستينار. واعتبرت الحصول على هذا الكتاب فرصة ثمينة، لأنه يتضمن حديثا حيا عن الإفرائي ومعاراته مع فقهاء مراكش، كتبه أحد معاصريه المعجبين به إعجاب الطالب النجيب بالأستاذ الكفء. وصادف أن الموظف الذي أحضرها ينتسب إلى نفس المنطقة. عبّر عن مفاجأته بوجود كتاب يتحدث عن بلدته المنسية، تاساوت. وعندما عدت، في الأسبوع الموالي، اختفى الكتاب. افترضت أنه احتفظ به في مكان ما، فغضبت غضبا شديدا. وبدل أن أطلب كتاباً آخر أنشغل به جلست لكتابة ذلك المقال الذي ظهر في نفس الأسبوع.

كان من نتيجة هذا المقال إعادة جُل الكتب الموزعة في المكاتب إلى أماكنها. وكنت أنتظر توضيحا أو بيان حقيقة فيما يخص الضائع من الكتب فلم يحدث. والله أعلم كم رجع منها الآن 2009.

لم تكن الفوضى التي تعبت بالمكتبة العامة تقف عند قسم المطبوعات - التي يمكن تعويض الضائع منها بالافتناء أو التصوير، في أغلب الحالات - بل تعدته إلى قسم الوثائق.

لقد تعذر علي أن أصدّق ما يُقال لي من أن المخطوط الفلاني غير موجود في مكانه اليومَ وغداً وبعد غد، وطوال السنة. فالمخطوطات لا تُعار، حسبَ علمي، قصارى ما في الأمر أن تكون في قاعة المطالعة أو الصيانة أو التصوير ثم تعود إلى مكانها، إلا في المغرب فإن المخطوطات تُغيّر مكان إقامتها بسهولة: اليوم في مكتبة عامة وغدا في مكتبة خاصة، وبعد غد في الجوطية، سوق المتلاشيات. انفجرت ذات يوم ودفعْتُ بكل ما لدي من حجج، ولما لم يجدْ مولاي الطاهر، ذكره الله بخير إن كان ما يزال حياً، جواباً لأسئلتني الملحة أحالني على المحافظ المرحوم الأستاذ إبراهيم الكتاني، الرجل الوطني المشهور. تحدث الأستاذ الكتاني عن حالة التسريب التي كان عليها القسم، وذكرَ بمحاولاته للحفاظ على ما تبقى. ثم أمر مولاي الطاهر بمرافقتي داخل القسم لمعاينة الواقع.

قال مولاي الطاهر، وهو يستعرض الأرقام فوق الرفوف: أنت تبحث عن "عُقود الجمان في شرح قلائد العِقيان لابن زاكور؟". قلت: نعم، هذا واحد من المخطوطات التي أبحث عنها، وليس كل ما أبحث عنه.

قال: ستري كل شيء بعينيك، لكي تتأكد أننا لم نُخفِ عنك شيئاً. تتبّع معي تسلسل الأرقام بشكل بيداغوجي إلى أن قال:

- هذا هو الرقم الموجود قبل رقم القلائد؟

- نعم.

- وهذا هو الرقم الذي بعده؟

- كذلك.

- المفروض أن ما تبحث عنه هو هذا؟

- نعم..

في الموقع المفترض للكتاب كانت توجد قطعة من الخشب

(الكُونتريلاكي) كُتِبَ عليها رقم عقود الجمان والعنوان.

قال: الكتاب خرج من المكتبة مع سبعمائة مخطوط آخر أيام كان محمد الفاسي وزيرا من أجل إقامة معرض في ثانوية ابن عباد بمراكش، ولم يعد. "هل تستطيع أنت أن تعيده لنا؟ سنكون لك من الشاكرين".

لقد رُفِعَ الأمر إلى المجلس الأعلى مباشرة، ثم عَرَضَ الأستاذ الكتاني حكم المجلس الأعلى على جلالة الملك: فكان الجواب. "هذا الرجل (كذا)... عندما يموت ستعود الكتب".

بعد ذلك أخذ موظفٌ بيدي إلى باب قسم الوثائق، وأشار إلى بناية ملحقة بالقسم، على يسار الخارج منه، نسَجَ العنكبوتُ على بابها وجدرانها: هذه الدار مغلقة منذ اثنتي عشرة سنة، لا يستطيع أحد الاقتراب منها لنفس الجهة والسبب.

كان هذا الواقعُ المؤلمُ من أسباب تفكيري في الابتعاد عن الأدب المغربي وعالم المخطوطات أَنَحْتُ لنفسي مجرىً جديداً في اتجاه آخر. هذا ما فعلته. وقد سهَّلَ ذلك كَوْنُ تحقيق المسلك السهل أقحمني في البلاغة أكثر مما جرنني نحو تاريخ الأدب المغربي. ولذلك فقد اعتقدتُ، عند الانتهاء من تحقيق المسلك السهل، أنني ودَّعْتُ عالمَ المخطوطات، وأن لا تَلَاقِيَا. وقد تَرَجَّحَ اختيَارُ البُعد عن المخطوطات والأدب المغربي أنني كُفِّتُ عند التحاقِي بكلية الآداب بفاس بتدريس الأدب القديم، أدب صدر الإسلام والعصر الأموي. كان الأدب المغربي القديم، في كلية الآداب بفاس، مغارة مظلمة لا يدخلها غيرُ الأستاذ عبد القادر زمامة، وهو لا يَرُد السلامَ على الجيل الجديد من الآفاقيين إلا همهمةً. ثم صار بعضُ الشبان الجدد يبادرونه بالهمهمة إن هم صادفوه عابرا من باب المكتبة: هم هم، فيرد عليهم: هم هم هاهاها.

من كل ذلك فهمتُ كيف تحولَ الكثيرُ من المشتغلين بالمخطوطات إلى

سجاد تدوسه الأقدام.

عدتُ إلى دار لقمان

شئتُ ما شئتُ... وشاعتِ الأقدارُ أن تعود..

شاعتِ الأقدارُ أن أطرقَ بابَ الخزانة الملكية، مرةً أخرى، بعدَ ربع قرنٍ لأعاینَ طبعةً جديدةً عصريةً من أشباحِ عالمِ المخطوطات، أشباحٍ في ريعانِ الشباب. كان أحدها متكرراً في جُبةٍ بيضاء وبلغةٍ تقليدية، أتخيلها أميلُ إلى لونِ عقربٍ أصفر، لم يرَ الشمس قط.

في سنة 2000 طلبتُ مني المنظمة العربية للتربية والثقافة إنجازَ تراجمٍ لأربعةٍ من أعلامِ العلماء في إطارِ الموسوعة العامة لأعلام العرب والمسلمين: الزمخشري والحمدي وابن جابر والعميدي.

لم تكن أعمالُ هؤلاء الأعلام جميعاً مطبوعة. وللزمخشري وحده أكثرُ من أربعين مخطوطاً بالخزانة الملكية، كان لا بد من استقصائها.

كانت الخزانة الملكية قد خرجتُ من الدويرة القديمة التي كانت مكونةً فيها إلى مقرٍ جديدٍ مؤهلٍ من حيث البناية والمرافق: ثريات بلورية في السقف وسجادٌ في الأرض، وبين الأرض والقف فراغٌ في فراغ. لم يُسمح لي بتجاوز مدخل المكتبة ولا برؤية مديرها رغم التعبير عن رغبتني في ذلك. بل وُجِّهْتُ إلى ملحقةٍ للخزانة بعيدة بالجهة المقابلة مخصصة للقراءة، ومنها تُحمل الطلباتُ، ويُنتظرُ مجيءُ الكتب. وُضِعَ أعقدُ تنظيمي من وضع الدويرة القديمة.

توجهتُ إلى الملحقة في الضفة الأخرى. استقبلني الموظفُ المسؤولُ عن قاعة المطالعة بحفاوة. شابٌ في مقتبل العمر، يفيض نشاطاً وحيوية. دَكرني بمشاركتي في ندوة نظمها اتحاد كتاب المغرب تكريماً للدكتور محمد مفتاح. حضرته عارضاً، بجانب رئيس الاتحاد عبد الرفيح الجواهري، وحضرها مُتلقياً ضمن جمهورٍ منتقى. تسلم مني الوثائق اللازمة لإعداد

بطاقة المكتبة. استأنست بالمكان، وحاولت نسيان الكوابيس الماضية.
بعد عدة زيارات كنتُ على وشك استكمال الاطلاع على المطلوب من
الخزانة الملكية. وفي أحد الأيام كنتُ واقفاً داخل قاعة المطالعة، أتصفح أحد
المراجع المعروضة هناك في انتظار إحضار ما طلبته من مؤلفات
الزمرخري. فجأة انفتح القمقم، وطلع منه شبخ إنسان:
. آآش كدِير هنا؟

بدا لي الأمرُ أشبه بمداعبة أو ممازحة من شخص يعرفني. تفحصتُ
وجه الشبخ الواقف أمامي عَلَيَّ أتبيّن ملامح تلميذ من قدماء تلاميذي، أو
طالب من طلبتي، دون جدوى. أجبتُ السائل:
- أتصفح هذا المصدر في انتظار ...
قاطعني بحزم واشمنزاز: ممنوع، ممنوع، ما تتشوف...الخ
تفحصت الواجهة، نظرتُ نحو المدخل، لم أجد ما يدل على
المنع..ماذا؟

قلت: أين علامة المنع، ما هناك ما يدل على المنع؟
انحنى الشبخ نحو الأرض ورفع شريطاً رقيقاً من الورق، شريطاً مغبراً
متبيساً. عرّضه أمام بصري، فقرأتُ فيه ما يفيدُ منع استعمال تلك المراجع.
هنا فقط علمتُ أن الأمرَ جدُّ، وأن هذا الجني الأصفر قد طمِع فعلاً في أن
يَمسَحَ ببذلتني النظيفة وسَحَ حماقاته الاجتماعية.
قلتُ له: الورقة، كما ترى، ساقطة في الأرض، لم أرها، ولا أحد نبهني
إلى المنع. هذه معاجم وأمّهات، والعادة في جميع أنحاء العالم أنَّ الأصول
والمعاجم المعروضة في قاعة المطالعة موضوعةٌ رهن إشارة القراء...إلى
آخر مرافعة صاخبة كان الغرض منها إسماعُ الصوت لا إقناع ذلك الأصم
الذي لم يكن يزيد إلا عناداً.

تركته وخرجتُ من القاعة خروج مودّع. كان الموظفون مسمرين في

أماكنهم، بعضهم يُطلُّ في حرج من وراء السواري والرفوف. علمتُ من رهبتهم وسلبيتهم أن الأمر يتعلق بشيطان حقيقي لا قبَل لهم به. أخذتُ بطاقتي الوطنية من مكتب الاستقبال، لاحظتُ أن الموظف المغلوبَ على أمره تلكأ في تسليمها، ربما كان يتوقع أن يكون هناك تدارك للموقف أو توجيهٌ من الشبح المُفتحم. وحين تسلمتُ بطاقتي كان العفريت قد استقر بمكتب قرب الباب، وبدأ يدون ما يدون على ورقة، التفتُ إليه قائلاً: مكائنك أنت في الدرك لا في المكتبة، (معذرة لرجال الدرك، فالأمر لا يحمل تنقيصاً، بل هو مجرد وضع لكل في موقعه). كان ذلك آخرَ عهدي بالمكتبة الملكية. استكملتُ الترجمات المطلوبة في مكتبة آل سعود بالدار البيضاء في جو رائق، واستقبال فائق، من قبل الباحث محمد الصغير جينجار الذي تعرَّفْتُ عليه لأول مرة في ذا السياق. فسبحان مَنْ مَرَجَ البحرين مرة أخرى!

بعد سبع سنوات التقيتُ صدفَةً بموظف الخزنة الملكية الذي كان قد استقبلني وتسلم مني الوثائق، التقينا في معرض الكتاب بالدار البيضاء، فسألته عن تلك البطاقة، فأخبرني أنها ما تزال هناك تنتظرني. سألته عن شَبَح الإنسان الذي ظهرَ لي ذلك اليوم، فتحقَّق في الكلام: الله يهدي الجميع، كل يلقى فعله.

في "الحارة"،

هناك.. على الضفة الشمالية لنهر درعة....

هناك، حيث كل شيء معرَّضٌ لأشعة الشمس وأصواتِ العصافير

لم يبق للأشباح موقعٌ مظلمٌ صامتٌ تسكن إليه غيرُ زوايا ذلك الجامع

الطيني الصغير.

كان يبدو كمجمّع أسرار؛

أنسبها لصناعة الأوهام مغسلُ الأموات.
هناك، في زاوية مظلمة، يداومُ حصيرٌ صغيرٌ خشنٌ من سَعَفِ النخل.
يُحمل عليه الموتى إلى "المدينة"، ثم يعود إلى عزلته المظلمة منتظراً مسافراً
جديداً يُحرره من عطالةٍ تدوم الشهورَ والسنوات.
لذلك لا يكادُ أحدنا يخرجُ من طورِ الطفولة ويودعُ خيالاتها حتى يقتحم تلك
الأماكن الصغيرة ويستأنس بها مودعا عالم الأشباح؛ يتعامل مع كل ما يتبدى
له في صورة بني آدم وحواء على أنه إنسان، لا من رهط هاروت وماروت.
هذا التصور الفطري السليم، هو الذي يجعل الناس يميزون رعايا سليمان من
الجن بأذنان الأبقار وقرون الثيران كلما اختاروا أن يُظهروهم في هيئة إنسان.
فالخرافة خرافة سواء بقيت في الخيال والذاكرة أم انتقلت إلى الورق على شكل
كتابةٍ وصور.

كان من الصعب علي، بعد ذلك وقد تجاوزت الخمسين، وقرأتُ ما تيسر
عن الأساطير والخرافات، أن أتخيل روحاً شريراً، أو شيطاناً رجيماً في هيئة
إنسان كامل؛ بلا ذنب ظاهر ولا قرون ناتئة ولا أظلافٍ عراضٍ، يسيرُ بين
الناس، ويتجول بين الكتب. ومع ذلك حدث.

"الله يَخرِبُ بيتَ اللصوص!"

في أواخر سنة 1978 انتهيتُ من تحقيق كتاب المسلك السهل وما يرافق
التحقيق من تقديم ودراسة. لم يبقَ غيرُ إدخال بعض التصحيحات مما استدركه
الأستاذ عزت حسن في قراءته الأخيرة الشاملة. وكان قد قرأ العمل مجزئاً خلال
أربع سنوات.

خرجتُ ذات مساء من المكتبة البلدية بالدار البيضاء ووضعتُ كل الأوراق،
بما فيها البحثُ وأوراقُ التعريفِ، وأوراق السيارة، في حقيبة يد وضعتها في
صندوق السيارة. توقفتُ بشارع محمد الخامس لاقتناء حزام منحوس من أحد

الهنود، الحزام الذي تركته مُعتقلا في الدائرة الخامسة للأمن. كانت السيارة في موضع غير مرخّص مقابل لباب المتجر، فكانت عيني لا تفارقها. لم تدم العملية أكثر من دقيقة، أو دقيقتين.

عُدت إلى السيارة وانصرفت دون أن ألاحظ أي تغيير. وعندما توقفتُ بباب المنزل وحاولت إدخال المفتاح في قفل الصندوق استعصى. شيء غير طبيعي! سرّت قشعيرة في جسدي. ضغطتُ عليه فانفتح بدون مفتاح. ظهر المكان الذي كانت فيه الحقيبة فارغا، بل أعمق من بئر. ذهب جُهدُ خمس سنوات من العمل الدؤوب المضي.

لم يكن التصوير وقتها ثقافة، وكانت صورة الصفحة الواحدة تكلف أكثر من درهمين، ودرهم ذلك الزمن يساوي أكثر من عشرة من دراهم اليوم. هذا إن وجدت من يصور لك كتابا.

لجأنا إلى الشرطة فوعدنا عميد الأمن بالمقاطعة الرابعة، قرب السوق المركزي، خيرا. كان متقائلا، بل متيقنا من استرجاع الحقيبة، ماذا سيعمل اللصوص بالأوراق؟ وللرجل سوابق كثيرة في استرجاع المسروقات من شارع محمد الخامس، المنطقة التجارية الأكثر حساسية في الدار البيضاء. فسّر لي شيخ "الحي المحمدي" - الذي توسّط عند العميد - ذلك بكون "لصوص شارع محمد الخامس معروفين، هم أنفسهم حراس العمارات والسيارات. مباح لهم سرقة كل ما هو متحرك، من حقائب النساء وجيوب المغفلين والسيارات، أما إن سرق شيء ثابت (واجهة زجاجية أو شقة..الخ) فهم المسؤولون. لا بد أن يظهر السارق. هذا الشارع كله مخبرون. هكذا تصوّر الشيخ وهو يحاول إخراجي من خواطر وتداعيات عادت بي إلى عهد الطفولة.

أما أنا فقد طار خيالي إلى أول محاولة لصيد الفراخ. ساعدني الوالد في نصب فخ في أحد الحقول قرب وادي درعة، وسني دون السادسة. وبعد انتظار مُضنّ، لم أتعوّد عليه، انطبق الفخ على عصفورٍ نادرٍ كثيرٍ

الألوان، يزور المنطقة في فصل الشتاء. أسرعْتُ إليه متجاهلاً دعوة الوالد للتريث. فتحتُ الفخَّ قليلاً وأدخلتُ يدي للإمساك به، فطار في الفضاء. تتبَّعته حتى اختفى مُتَمَنياً أن يضيق به الفضاءُ فيعود. تخيلتُ أنني أملكه، وعليه أن يعود.. إذا عاد سيعود المسلك! علَّمني الوالد، بعدها، أنه لا يجوز فتح الفخ قبل الإمساك برجل العصفور من أحد ثقب الشبكة. نسيْتُ هذه الوصية مرةً أخرى فطار العصفور الذهبي. كنتُ أرى المسلكَ يطيرُ في الفضاء فتتبعثر أوراقه كألف جناح.

عندما عدنا في الموعد الذي ضربه لنا عميد الشرطة سُمِحَ للشيخ بالدخول وحده هذه المرة، فعلمتُ أن العصفور لن يعود. عاد الشيخ وقد تغيرت لهجته وملامحه. لم يقل شيئاً، ولكن صديقَه الذي توسطَ عنده استنتج: أنهم "هم الذين أخذوه ظانين أنه يحتوي منشورات نقابية، والله أعلم".

كان الإعداد لإضراب 1979 على أشده. كانت السيمكا 1100 تجوب منطقة "الصخور السوداء" و"الحي المحمدي" و"عين السبع" و"البرنوصي" متوقفةً بباب هذه المؤسسة التعليمية أو تلك لإيصال البيانات والاستدعاءات. ما أكادُ أتوقف حتى يكون العطار بوغالب قد قفز إلى الرصيف واقتحم إحدى المؤسسات. بقدر ما كنتُ متحفّظاً صعبَ التواصل لأول وهلةٍ كان هو مُفتحاً يُورِّع القُبَل والأحضان ذات اليمين وذات الشمال. كان المديرون والحراس العامون، أو أكثرهم، خاصة المنتمين منهم لهيئات سياسية أو نقابية أخرى (الاتحاد المغربي للشغل والاتحاد العام للشغالين) يتشائمون من رؤية هذه المركبة بأبواب مؤسساتهم، ولا شك أنهم يُبلِّغون عنها في الحين.

قلتُ للدكتور عزت حسن: أشكركَ، لقد استفدتُ كثيراً، وهذا هو المهم. ليست لدي رغبةٌ في إعادة تلك الصخرة إلى قمة الجبل، تعبْتُ ويئست. قال ذكره الله بخير:

"الله يخرب بيت اللصوص!"

- عُدِ الآنَ إلى منزلك، استرخِ مدة شهر، ثم نلتقي. لا تفعل شيئاً في هذه الفترة. انسَ الموضوع. سيجعل الله خيراً.

لم يمض أكثر من عشرة أيام من ذلك الشهر حتى أحسستُ بالملل والرغبة في العمل، في الكتابة بالتحديد. فبدأت في ترجية الوقت بنسخ النص المراد تحقيقه من جديد، مع إدخال بعض التعليقات في وتيرة متراخية. وتبين لي أن الأمر لن يتطلب هذه المرة خمس سنوات. فقد نشطتِ الذاكرةُ بشكل غريب. وصرتُ كلما واجهتُ مشكلةً معينة استرجعتُ كلَّ الإجراءات التي اتُّخذت في حلها منذ سنوات، بل استرجعتُ الألفاظ والجمل.

أعدتُ العمل من البداية إلى النهاية، فخرج في حلة أبهى. وبدلَ أن أناقش سنة 1979 ناقشت سنة 1981. وصارتُ مادةً المسلك السهل، قواعدَ وأمثلةً، محفوظةً عندي. وتلك مزية أخرى. وبين التاريخين محنة المحن: السجنُ والاعتقال. سرقة أخرى، سرقة الحرية. "الله يخرب بيت اللصوص"، لصوص المخطوطات ولصوص الحرية.

صادفتُ مرةً الأستاذَ عمر أفاً بباب كلية الآداب بالرباط. وهو - مثلي - من قدماء طلبة المعهد الإسلامي بتارودانت وأساتذته. فسألني عن عنوان بحثي، فأبدى تفاؤلاً بالعنوان: المسلك السهل، وعندما سمع شيئاً يسيراً من قصتي معه قال: بل هذا مسلك صعب! واقترح علي تغيير العنوان ليصير: المسلك الصعب في تحقيق المسلك السهل.

للصوص ألوانٌ متفاوتة القتامة، والجلادون لونٌ واحدٌ: قتامة في قتامة. عندما يسلبُك اللصوص درهمك أو بطاقة تعريفك، وعندما يستولي الطغاة على قطعة الأرض الصغيرة التي تضعُ عليها قدميك، ولا يبقى لك غيرُ شدِّ الرحال، تمسِّكُ بحقك في ترتيب ذاكرتك، وتسريح أحلامك في الفضاء الرحب.

2-

أشواك مجانية

إجهاض 1

عندما التحقْتُ بكلية الآداب بفاس أستاذًا مساعدًا، سنة 1981، وجدتُ
شعبةً اللغة العربية في لحظةٍ انتقاليةٍ شاذة. غادرها شيوخُ النقد والأدب
المؤسسون لها من المشاركة: أمجد الطرابلسي، ومحمد نجيب البهيتي،
وصالح الأشر، ثم قباوة(بعد وصولي). وغادرتها الطليعةُ الأولى من الأساتذة
المغاربة: محمد بن شريفة، ومحمد برادة، وأحمد الياوري، وعباس
الجراري... الخ وغادرها ذلك الصنفُ المتوقِّد من طلبة الاتحاد الوطني لطلبة
المغرب. وبذلك صارت رماداً بارداً بعدَ نارٍ حامية.

وجدتُ الأستاذ عبد السلام الهراس وقد أصبح رئيساً مؤبداً للشعبة وحولَه
مجموعةً من المساعدين منقسمين بين مؤيدٍ له ومطالبٍ بمغادرته لرئاسة
الشعبة التي آلت إليه بالتَّعَصُّيب؛ غيابُ مرشَّح منافس. كانت سنةٌ وُصولي
سنةٌ هُدنة في انتظار الانتخابات القادمة، ولكن أصدقاء المطالبة برحيله
كانت حديثَ المجالس.

وقد زاد الأمرُ تعقيدا بتدخل الاعتبارات غير العلمية، الدينية والإقليمية، في
عملية استقطاب الأساتذة المساعدين لسد ذلك الفراغ، كانت نُكَّتْ مباريات
الإلحاق ما تزال طرية. هذا دون أن نتحدث عن تجربة تكوين المكونين وما
سيشوبها من تجاوزات خطيرة على مستوى الكلية ككل .

ومع هذا الواقع النُّكوصي كانت هناك بعضُ مظاهر الانفتاح الفردي
على المناهج الحديثة والاهتمام بالأدب الحديث. كان التقارب بين النقد
الأدبي والفلسفة قد بلغ شأوه من خلال لقاء حول كولدمان ومن حوله، وبدأ

التقارب مع اللسانيات من خلال الاحتفال بياكبسون والشكلانيين عموماً. كان هذا الانفتاح يُثير شكوك المحافظين الخائفين على اقتحام مواقعهم غير الحصينة، فيبحثون في الانتماءات الدينية لهؤلاء الأعلام، ويرتاحون من وجع الرأس.

مرّت السنة الجامعية الأولى في التعرف على الميدان: التعرف على الطلبة وحاجياتهم، والشعبة وإعاقاتها، والنقابة وهمومها: من أول انتخاب صرّت عضواً في المكتب النقابي، بليتّ مستمرة. أما الإدارة فقد كانت في الضفة الأخرى، وراء خط بارليف.

بقيت العلاقات داخلَ الشعبة مقنّعة بقناع المجاملات والاسترضاء تأليفاً للقلوب إلى أن اقترحت وزارة التعليم، سنة 1983، أول تعديل للبرامج، أول إصلاح. اقترحت مخطّطاً عاماً وتركّت للأساتذة - وهم على الحالة المذكورة - حرية اختيار المواد وإعطاء المحتويات.

كانت شعبة اللغة العربية بحكم نشأتها واعتمادها على أساتذة من المشرق العربي، وعلى ما يرد من ذلك الشرق نفسه من مراجع، غارقة في أخبار الأدب القديم وتراجم الشعراء. ذلك النوع من التاريخ الذي كان يتلقى الضربات في الجامعة الفرنسية على يد بارت والشكلانيين الجدد لصالح تاريخ الأشكال الأدبية الذي سألحوا المساهمة فيه بعدة مؤلفات. كان يبدو من الخطة المقترحة أن الوزارة تتوخى فتح الطريق لدخول الأفكار والمناهج الجديدة حسب مدى استيعابها في كل كلية وشعبة، ولكن قوى المحافظة كانت طاغية يُكبّلها العجز عن مسايرة المستجدات في مجال نظرية الأدب ومناهجه، في حين كان الصّفّ الحداثي مطبوعاً بالأثنية وقلة النضج.

كثرت الاقتراحات، وتناقضت الرغبات، ودبت الريبة إلى النفوس. فكان أن شكّلت لجنة مهمتها اقتراح خريطة المقررات. مرة أخرى أجد نفسي عضواً من أعضائها، إلى جانب إبراهيم أزوغ، وحמיד لحيداني، ومحمد

الحناش. ولا أذكر بقية من كان معنا في هذه اللجنة لأن النقاش دار، في الغالب، وبجدة بين الثلاثة الأوائل.

كان الأستاذ حميداني (أستاذ السرديات والنقد الحديث) يحاول أو يوسّع حصة الأدب الحديث باعتباره ندًا وقرينًا للأدب القديم، وكان الأستاذ أزوغ (أستاذ الأدب القديم) يحمل توصية صارمة بإبقاء التوزيع على ما كان عليه لصالح الشعر القديم مُنطلقًا من العصور: العصر الجاهلي والعصر الإسلامي والعصر العباس، والشعر الأندلسي، والشعر المغربي القديم. ويُطالب البعض من ورائه بإضافة ما سمّوه "أدب العصور المتأخرة". يُرتّبون لائحة الآداب القديمة قبل أن يلتفتوا إلى الأدب الحديث على الإجمال. بل تجاوزوا ذلك إلى الاحتياط على ما نصّ عليه الإصلاح، مثل مناهج الدراسة الأدبية التي افتعلوا لها مادة من النقد القديم تعسفًا، ضدًا على قصد واضع البرنامج.

كان الاقتراح الجديد المضادّ يقتضي تقسيم الأدب مبدئيًا إلى قسمين: إلى قديم وحديث، وبعد ذلك يُفْتَنُّ كُلُّ منهما إلى أجزاء: شعر، رواية، مسرح... الخ. كان المحافظون يرون في هذا الاقتراح، على وجاهته، إدخال أكثرهم في بطلالة مؤكدة، لأنهم غيرُ مستعدين لتغيير ما بأنفسهم، ولذلك قاوموه بشراسة. وبذلك لزم أن ينتظر المغرب عقدين من الزمن بالتمام والكمال (من 1983 إلى 2003) ليدخل تجربة إصلاحٍ قسرية تتفي بعض ذلك الغُثاء الذي حاولنا التقليل منه فَوُجِّهنا بكل أساليب العنف والمكر.

لم أَسْتَطِعْ أن أكون في موقع الحَكَمِ المُحايد، لأن القسمة المقترحة من المحافظين كانت تتجاهل الواقع والمستقبل، كما أنني لم أكنُ أجدُ معنى لقراءة قديمة خارج المعرفة الحديثة. كنت وقتها أميل إلى الموازنة النقدية بين القديم والحديث. ومع اشتداد الصراع بدأتُ أبدو للمحافظين، كما أبدو الآن لبعض العنصريين، عنصرًا مُرتدًا وولدًا عاقًا. فأنا أدرس الأدب القديم، بل القديم الإسلامي، وأدافع عن الحديث والحداثة! إنها الخيانة

الكبرى. بل سمعتُ من شَبَّهني بابن الراوندي؛ الفيلسوف العربي الذي يُقال أنه ألف مائة كتاب، أتلَّفها خصومُه، لتمرُّده على السائد من الأفكار. عَجَز معارضوه عن مقارنته بالحجة والبرهان فأحرقوا كتبه.

لقد أدى الصراعُ حول القديم والحديث إلى تعميق الانشقاق داخلَ شعبة اللغة العربية وخروجه من لغة الرموز والإشارات إلى لغة الصدام والمشاحنات. فجدَّد مطلبُ ضرورة تخلي الهراس عن الرئاسة نظراً لانشغاله عنها بأمره الخاصة واستعمالها كبضاعة للمقايضة، كما يرى المناوئون له.

استيراد الغزْمة المصرية

عندما صدرتُ مجلة دراسات أدبية ولسانية، مُنتصفَ الثمانينيات، زادت حساسيةُ الموضوع، رأى فيها المحافظون تلميعاً لخصومهم فزادوا تحدياً وشراسة. كان وضعُهم العلمي غيرَ مُريح رغمَ العناد.

حاولتُ رئاسةُ الشعبة تحقيقَ بعض التوازن مع التحدي الجديد فاستدعتُ بعضَ رموز القدامة المشاركة، فأعزَّفتُهم في وحلٍ أرض يجهلون مسالكها وحفرها. أذكر من طرائف ذلك أنني ذهبتُ مع بعض أعضاء هيئة تحرير مجلة دراسات أدبية ولسانية إلى فندق plm، بفاس أواخرَ الثمانينيات، للسلام على زغلول سلام، ورمضان عبد التواب، ومن معهما من شيوخ الأدب واللغة المشاركة المشاركين في ندوة: الوصف والتفسير والتأويل، وتعريفهم بمجلة دراسات أدبية. كنا، في هيئة التحرير، مهتمين بالتعريف بالمجلة في المشرق العربي. لم يكن هؤلاء الضيوف الشيوخ يعرفون انتماءنا إلى القلعة الحداثية "الملعونة". ونظراً لاهتمامنا بهم اعتقدوا أننا من المجموعة المحافظة التي أوهمتهم أنها تخوض حرباً مقدسة ضد مغتربين من الماركسيين الضالين، "أصحاب المناهج الرومية"، كما كان يسميها الشيخ الرئيس. فتحدثوا أماناً عن أولئك الضالين (أي عنَّا)، وحرصونا على مقارنتهم وخنق أنفاسهم، أي مقارعة أنفسنا!

أذكرُ أن رمضان عبد التواب قال بالحرف، وهو يقصدنا دون أن يعلم:
"دُولُ إْحْنَا فْ مَصْرُ بِنَضْرِبْهُمْ بِالْكَزْمَةِ".

نظر بعضُنا إلى بعض! وتركناهم في غيهم يَعْمَهُونَ. وعندما ذكرتُ هذا
الخبر للباحث المصري صلاح فضل، في مناسبة لاحقة، قال:
"بل هو الذي ضُرب هذه السنة بالكزمة على وجهه وقفاه".

كانت قد انفجرتُ في وجه رمضان عبد التواب، وبين يديه، فضيحةُ
سرقته لأحد الكتب المطبوعة، اكتفى بتغيير مقدمته، ثم وضع اسمه بدلَ
اسم المؤلف الحقيقي، فذهب الله بما تبقى من نوره.

كان الأساتذة المشارقة الذين يَسْتَدْعِيهِم الرئيس زائرين، أو يقترحهم
عاملين، أو مشاركين في الندوات، يُقَيِّمون مستوى الشعبة ويحددون توجُّهها
العلمي والأيدولوجي من خلال معرفتهم به، وحكمهم عليه. ولذلك كثيراً ما
يُصدمون حين يُحاصرون بأسئلة من طراز جديد لم يسمعوا به، لا هم ولا الذي
أحضرهم. وقد اعتذّر رمضان عبد التواب نفسه، حسب ما رده الأستاذ أحمد
العلوي، بأنه قاس مستوى أساتذة الشعبة ككل على مستوى رئيسها، فلم يهيئ
نفسه للمساغة في الموضوع الذي جاء للمحاضرة فيه، حيث اكتفى بالقراءة من
مذكرة مهترئة مضت عقود على تحريرها. إنها خُدعة المناصب، فالناس
يعتقدون أن رئيس الجامعة، أو عميد الكلية، أو رئيس الشعبة أَعْلَمُ ممن تحت
إِمْرته، لأن الجامعة مكانٌ للعلم لا تجدي فيه الورثة ولا تزوير الانتخابات. وهذا
صحيح في الأوضاع الطبيعية في الأمم المتقدمة، أما في الأوضاع الملتبسة
المضطربة، كحال المغرب، فإن الزَّيْد كان الأسرع طُفُوًّا إلى السطح، ويحتاجُ
الأمرُ إلى وقتٍ وجُهدٍ لكي تَسْتَوِيَ الموازينُ ويذهب الزُّيْدُ جُفَاءً، وقد وقع الآن
بحمد الله: ذهب الغناء إلى حضيض النسيان.

تلك كانت بداية معركة وجودية طاحنة في شعبة اللغة العربية بفاس؛
تخبو حيناً ثم لا تلبث أن تصعد إلى السطح. استعملت فيها أسلحة محرمة!

الغزاة...؟

بعدَ حصولي، في أواخر الثمانينيات، على دكتوراه الدولة، التي تُخَوِّل لقب أستاذ محاضر مؤهل للإشراف، وبعد إصدار مجموعة من الأعداد من مجلة دراسات أدبية ولسانية، وبعد نشر أول كتاب لي (في بلاغة الخطاب الإقناعي)، وبعد ستَّ عشرة سنة من التدريس، اعتقدتُ أنني جاهز للمساهمة في الدراسات العليا. كيف لا والمجال مفتوح لغير المؤهلين من مُساعدين ومُلقِّين من الثانوي لم ينشروا حتى ملابسهم فوق سطوح منازلهم، كما قال الأستاذ صابر مرة، ذكره الله بخير!

بادرتُ إلى إنشاء "وحدة النقد القديم" للدراسات العليا، مع أحد الزملاء المؤهلين، بكلية الآداب بفاس، وذلك لسد فراغ ملحوظ في هذا المجال. كانت الوحدات القليلة المفتوحة في الأدب القديم والمغربي حُكراً على الشيوخ ومن نال رضاهما واحتفى بحماهما، ولو بدون أهلية جامعية: ربع جامعي! لم تكن هناك وحدة للنقد الأدبي والبلاغة برغم أهمية الموضوع. لم يَدُرْ بخلدنا أننا كنا، باقتراحنا هذا، نَقْتَحِمُ جَمِيَّ محروساً، أو نستولي على عقار مُحَقَّق، فالعملُ العلمي اجتهداً وتضحيةً، ومجاله مفتوح لمن يستطيع أن يضيف. لا أحد يُمكن أن يزاحم أحداً أو يحجر عليه. ومع ذلك فوجدنا بما يفاجئ به من يضع يده على عش الزنابير: تنور في وجهه وتوسعه لسعاً.

ثارت ثائرة رجل من جيلنا؛ كان يرى نفسه كبيراً، وكُنَّا نحنُ نزيهه بميزان المقام الذي يجمعنا، أي بميزان البحث العلمي والعمل الجامعي، فنجدته في حجمنا، لا نَعْمِطُهُ حقاً، ولا نعرفُ له تميُّزاً ولا فضلاً. بل الواقع الذي لا يُدفع يشهد بأنه كان واعداً، ثم صار يتراجع باستمرار حتى اضمحلَّ أو كاد يضمحلُّ في مجال الدرس الأدبي. فمن دبلوم مستور، برغم كل النقوب

التي تتخَرَّمه منهاجياً، إلى أطروحة دكتوراه عارية تشكو لربها حرَّ الصيف وقرَّ الشتاء، عملُ حاطبٍ ليلٍ، ورحلةٌ مُنبَتٌ، لا أرضاً قَطَعَ، ولا ظَهراً أبقي، لتنتهي الرحلة بالخروج من دائرة الأدب والنقد نهائياً.

رَدُّ فعلٍ غريبٌ غيرُ متوقع من زميلنا في الشعبة الشاهد البوشيخي. فما إن علم هذا الزميل بوضعنا طلبَ إنشاء وحدة للدراسات العليا في النقد الأدبي لدى عمادة الكلية - كما هو معمولٌ به في النظام القديم للدراسات العليا - حتى "سَحَنَ" رئيس الشعبة شحنا واقتحم به مكتب العميد عبد الوهاب التازي من أجل عرقلة العملية وتوقيف الدخلاء عند حدهم.

كنتُ قد خاطبتُ الزميل البوشيخي، منذ سنة خلت، وأنا أتهياً لمناقشة الدكتوراه، في موضوع التعاون من أجل فَتْح وحدة للنقد الأدبي القديم فردَّ علي ببرودة، ومن طرف شفتيه مُصَعِّراً خده كعادته: "حتَّى تُناقشَ ويَكُون ما يَكُون...".

شاع خبرُ الاعتراض على مُقترحنا فحلَّ جوُّ من الارتباك فضاء الشعبة، وبدأ الجو يتسمم من جديد. وقَبْل أن نعلم ما جرى بالضبط استوقفني الهراس برواق باب الشعبة، واقترح علي إنشاء وحدة في البلاغة كيفما أشاء، ومع مَنْ أشاء، باستثناء "حاء"، وأن يتولى البوشيخي ومن معه إنشاء وحدة النقد القديم متى شاءوا، فذلك تخصُّصه، وهو مصرٌّ على الانفراد به. إن لم يكن متفرغاً له اليوم فسيتفرغ له غدا، المُهمُّ أنه يرفض أن يفتح له غيره. رفضتُ هذا الاقتراح في الحال مُراعاةً لما بيني وبين حاء من التزام، ونظراً أيضاً لكون فكرة وحدة البلاغة لم تتضجَّ عندي بعدُ، وعموماً فليس ذلك العمري من يرمي سلاحه ويفر من أرض المعركة.

رغم كل الخلافات مع الهراس ومن حوله من "الباحثين" الذين يجمعهم الخوف من كل ما هو حديث ومُجْهِد - مثل البنيوية التكوينية، ونظرية النلقي، وغير ذلك من رطانة الأعاجم التي نخوض فيها - فإن الخلافَ معه ممكن

ومتحضر إلى حد ما؛ كان سيستمر مُقنَّعا، كما كان، في مد وجزر. فقد كان بوسعه أن يلعبَ دورَ العازل بين الأواني الفخارية. أما وقد أصرَّ البوشيخي على إزاحتنا، بأي ثمن كان، فقد وَضع الشيخُ الهراس في موقع الاختيار الصعب. في موقع الثالث "الموضوع". أصبح من الواجب على الهراس أن ينزع يده من يد "خيار الجاهلية" الذين لم يضمن إسلامهم لِيُمكنها حيث هي، في يد حلفائه الطبيعيين أصحاب "الزحف المقدس". وبذلك خرجَ من موقع "المُدبِّر" الذي يُحرِّك القطع من الخلف إلى المُنفذ الذي يأخذ الأمور بيده. سمعتُ الهراس يَحُثُّ أحدَ أبناء الرشيدية مرة على الإسراع بالمناقشة قائلا: إنكم تؤخرون الزحف.

لِنَتَرَكِ الهراسَ حيثُ وضعهُ علمهُ وعملهُ، ولنَعُدْ إلى معركة "وحدة النقد القديم". تأكَّد خبرُ عرقلة مشروع إنشاء وحدة النقد القديم، فطلبنا مقابلةَ العميد أنا والزملاء محمد حماد وحميد لحمداني مرفوقين بنائبه الأستاذ محمد السريغيني الذي كان متعاطفا معنا.

حاولَ العميد مُصطنعا بعضَ الضجر - كعادته حين يريدُ زعزعة خصمه - أن يقنعا "بالتخلي لهم" (هكذا) عن وحدة النقد القديم متذعرا بموقف رئيس الشعبة الداعم "لهم"، دون الدخول في متاهات، لا وقتَ لديه للخوض فيها. فرأى رئيس الشعبة مرجَّح لكفة البوشيخي. وكنتُ طوالَ الوقت صامتا فيما يُشبه الغُصَّة، محاولاً في الوقت نفسه استجلاء ما جرى بينه وبين الآخرين متوجساً من صفةٍ بينه وبين الهراس تكون قد وضعتنا خارج السياق. وكان الحديثُ عن مثل هذه الصفقات متواترا، فالإداريون يقايضون.. إن بعض الظن إثم، التفتَ العميدُ نحوي، في أقصى يمينه، وقال بصوت ما زال يرنُّ في أذني: "أشْ نَنَقُولُ الأستاذَ العمري؟".

نظرتُ إليه ساحباً نفساً عميقاً، وقلتُ: ماذا أقول؟ إذا كان هذا موقفكم فماذا

بقي لي أن أقول، كنا نعول على موقفك...؟ إذا كان الهراس والبوشيخي هما من يقرر في الكلية فلهم ما شاعوا... ليفعلوا ما شاعوا... نحن جننا نحتكم إليك باعتبارك المسؤول عن المؤسسة...!

قبل أن أنهي كلامي أخذ ورقة صغيرة، بحجم الكف، من مذكرة أمامه وكتب عليها جملة قصيرة، من قبيل:

يُنشئ الأستاذ محمد العمري ومن معه وحدة للنقد القديم، وللاستاذ البوشيخي ومن معه أن ينشئوا وحدة أخرى إن شاعوا (أو متى شاعوا).

سلم الورقة لنائبه قصد تبليغ قراره النهائي في المسألة إلى المعنيين.

اعتقد العميد، واعتقدنا معه، أن هذا الحل الوسط كفيلاً بإنهاء النزاع، غير أنه لم يكن ليرضي أناسا يفكرون في "الزحف" على الدراسات العليا وتأميمها تمهيدا للاستيلاء على النُخب على نحو ما وقع في بعض البلاد العربية التي سبقت إلى هذا الطريق: الغاية تبرر الوسيلة.

لذلك لا تستغرب ما ستقرأ من تماديهم لاحقا في العمل بكل الوسائل لتوقيف تلك الوحدة، أو عرقلة سيرها ومعاقبة الطلبة الذين انتسبوا إليها. استنفذ الهراس كل طاقته، أو ما تبقى منها، في محاولة إجهاض مشروعنا ثم سلم الملف إلى خلفه في رئاسة الشعبة، علي حمودان.

لجأ البوشيخي والرئيس الجديد إلى النقض، إلى المجلس الأعلى، ضد العميد هذه المرة. فبدون توقُّع من أحد طرحوا القضية على أنظار مجلس الكلية. اتهموا العميد نفسه بالتدخل في الاختصاصات العلمية والتربوية للشعبة، وذلك بالموافقة على وحدة لم توافق عليها!

كنا نناضل نقابيا وبشدة، على مستوى الكلية، من أجل استقلال الشُّعب، وممارستها لاختصاصاتها البيدغوجية، غير أننا تُفاجأ أننا كلما استخلصنا حقا حولناه إلى حبل ولقوه حول أعناقنا. كما وقع في قضية المنح والتفرغ. نزعناهما من يد العمادة لنضعها في يد هؤلاء، فسقط في أيدينا.

كان ردُّ العميد، كما جاء في محضر المجلس، قامعا لهم مُدِيناً لسلوكهم. ولا بد لكل من يُخوضُ في الظلام أن يلذغه عقرب أو ثعبان، قصرَ أو طال الزمان. أجاب العميد بأن العمادة تدخلت لإصلاح خَللِ قانوني، ورفع حيف مهني، وذلك بإعادة الأمور إلى نصابها، حين بلغها أن الشعبة تُسند التدريس في الدراسات العليا للمساعدين غير المؤهلين المشغولين بأطروحاتهم، ونُقصي الأساتذة الدكاترة المؤهلين المتفرغين من تلك الأعباء، وهذا مخالف للقانون. حجة دامغة بالمعنى اللغوي للكلمة، ولكن ما زال في قوسهم سهمٌ، وهم مصرون على رميه في أي اتجاه.

كلام العميد صورةٌ للواقع، لا مُزايَدة فيه، فقد كانت الوحدات الموجودة مليئة بالمساعدين الذين لا يُسمحُ لهم القانون بالتدريس في الدراسات العليا. وكانوا يقومون بذلك العمل في تكتم وسرية، ويُرَوِّغون منا كما يروغ الثعالب لمجرد إشارة أو سؤال. كانت الدراسات العليا في كلية الآداب بفاس كالاتجار في المسروقات في "سوق الغول" بالدار البيضاء، حيث تجري العملية في الظلام، بعد صلاة المغرب، اعتماداً على حاسة اللمس وحده. أخبر أحد رواد هذا السوق أنه اشترى مرة طنجرة ضغط كبيرة ما زالت ساخنة بأقل من سنتين درهماً، وعندما فتحها وجد بها حوالي نصف كيلو من اللحم نصف ناضج.

انتهى سُلَمُ التقاضي، وتابعت القافلة طريقها، وأنهت وحدة النقد الأدبي القديم سنتها الأولى بنجاح زاد من حنق المناوئين، فكان الانتقال إلى الخطة العتيدة: "ما لا يُمكنُ منعه يُمكنُ تَمْيِيعُه"، بل يجب تَمْيِيعُه وتفجيرُه من الداخل. لتحقيق هذا الهدف أطلق "البوشيخي ومن معه" وحدة ثانية منافسة، سموها "وحدة النقد القديم 1"، ودفعوا وحدتنا نحو رقم 2. فأوقعوا الطلبة، وكل من يستعمل عقله، في ارتباك.

وهذا سلوك يحتاج إلى تدخل علماء النفس لفهمه. هناك من الناس من أصيبَ بعدوى الوحدانية؛ لا يقبل غير "رقم 1" اعتماداً على مؤهلات كامنة،

غير ظاهرة.

وبموازاة هذه الخطة وتحسباً لفشلها - وذلك ما وقع - بدؤوا عملية تخريب من الداخل. قام "الرئيس الجديد" للشعبة بتعيين أحدهم أستاذاً في وحدة النقد التي أشرف عليها، وكنت أنا رئيسها قد انتهيت من تكوين طاقم هيئة التدريس باختيار أحسن الأساتذة دون اعتبار لغير الكفاءة العلمية، وانطلق العمل في انسجام وهدهو.

لم يكلف العياشي - وهذا الاسم الحركي لعضو الكوماندوس المتطوع لهذه العملية التخريبية من وراء الخطوط - نفسه الاتصال برئيس الوحدة للاطلاع على المواد المقررة فيها أو غير ذلك مما يقتضيه التنسيق، قبل أن تقتضيه المجاملة وعزة النفس. بل حمل حقيته الأنيقة ذات يوم، وهي ماركة مسجلة، يعتني بها كثيراً، واقتحم القاعة على الطلبة، وحاول تدريسهم كرهاً وبالقوة.

انتبه الطلبة إلى أن الزائر لم يأت البيوت من أبوابها، فرفضوه. وتطورت المواجهة بينه وبينهم، فاستعان بقوات الدعم والتدخل السريع. جاء رئيس الشعبة نفسه وقال للطلبة ما جرح كرامتهم مما أنزه عنه قلبي، فصدّوه عنهم وتمسكوا برفض الدخيل.

وأنا أقول اليوم، بعيداً عن تلك الأجواء: لو أن الأستاذ المذكور، وهو وقتها شابٌ وسيماً، لا أقل ولا أكثر، سجّل نفسه، من ذلك الوقت إلى الآن، في لائحة الباحثين من خلال منشوراتٍ محترمة - أو كيفما كانت - لكنني اليوم نادماً متأسفاً نيابة عن الطلبة الذين لم يتعاملوا معه، لأنهم سيكونون قد ضيعوا فرصة اللقاء بعالمٍ أو مشروع عالم، ولكنني بحثتُ، بعد حوالي ثلاثة عقود، عن أثر هذا "الباحث" في حظيرة المؤلفين فلم أجده له أثراً يُذكر، كما لم أجده لمن جندوه، فعلمتُ أن الله ألهمَ الرافضين له إلى الموقف الصواب. فالوقت ثمين، والعمر قصير. وعمل العقلاء منزّه عن العبث.

ما كنتُ أظن...!

المؤسفُ هو أن تلاميذ هذه "المدرسة" التي صارعناها، داخل شعبة اللغة العربية وخارجها، مقتنعون، أو انتهوا إلى الاقتناع، بأن البحث العلمي ليس من مهامهم. ولذلك كتبَ أحدهم، وهو من شُعبة الدراسات الإسلامية، في ملفه العلمي الذي قدّمه أمام اللجنة العلمية قصدَ الترقية، أواخر القرن الماضي، وكان فارغا مائة في المائة، وكنتُ عضواً منتخباً في تلك اللجنة: "ما كنتُ أظنُ أن الترقية ستكون بالبحث العلمي".

وكيفَ يتحقق البحثُ العلمي وقد كان مُنازعُنا يُشرفُ على ستِّ وسبعين رسالة وأطروحة مرّة واحدة، وفي نفس الوقت، والثاني على بضعة وأربعين، ضدّاً على القانون والمنطق، ويناقش عدداً آخر خلال السنة الواحدة، مما يتعدى طاقة البشر. هذا فضلاً عن الإشراف والمناقشة خارج التخصص. من الطريف أنهم طالبوا مرة، في اجتماع لمجلس الكلية، بتقديم تعويض مادي عن الإشراف، فما كان مني إلا أن طالبْتُ بمحاكمة من يُشرف خارج تخصصه بنفس الفصول التي يحاكم بها طبيبُ الجهاز الهضمي الذي يجري جراحة على العيون.

عندما اشتد الصراع نقل الشاهد البوشيخي نصفَ "عتاده وآليات مقاولته"، العلمية وغير العلمية، إلى ورش آخر، إلى شعبة الدراسات الإسلامية، فأصبح مُتَحَكِّماً فيها. بل أنشأ فيها وحدة للدراسات العليا والدكتوراه رغم أنه لم ينشر شيئاً يؤهله للإشراف في الدراسات الإسلامية، كما يقتضي دفتر الاعتماد في هذا المجال.

والسؤال هنا هو: كيف كانت العمادة توافق على إشراف الأستاذ على عشرات الرسائل في نفس الوقت، وكيف كانت الوزارة تُعطي الاعتماد لفتح وحدات الدراسات العليا لغير المؤهلين ضدّاً على القانون؟ كانت مؤامرة خطيرة على التعليم العالي مارسها العمداء والخبراء والمقررون الذين خانوا

الأمانة لحسابات غير علمية.

أما النصف الثاني من ذلك العتاد الثقيل فقد نقله إلى ما أسماه: معهد الدراسات المصطلحية، الذي أنشأه داخل الكلية. وهو معهد مازلنا ننتظر منجزاته بعد تقاعد أصحابه، فنسمع جعجة ولا نرى طحينا. وكيف يكون طحين لرحى تطحن قرونا؟

إن كل ما أنتجه البوشيخي، وما أشرف عليه، من رسائل بالعشرات، يدلُّ على سوء فهم لما تعنيه كلمة "مصطلح". ف"الصحراء" مصطلح، و"الحسن" مصطلح، ليس في الجغرافيا وعلم الجمال على التوالي، ولكن في النقد الأدبي! وقد انتقدتُ هذا التوجه وبينتُ ما يعتوره من خللٍ، في مقال بعنوان: المصطلح العلمي والنسق المعرفي، ملِّحاً على الطبيعة النسقية للمصطلحات وكونها تتعارف أكثر مما تُعرَف، وأنها ورقة أو غصنٌ من جذع شجرة. وما لم يُمسك بالنسق لا يمكنُ الحديث عن مصطلح. أقول هذا وأنا أعلمُ أن التفكير النسقي هبةٌ إلهيةٌ غيرُ متاحة للجميع.

بعدَ العرضِ الذي قدمته في مقر مكتبة القاهرة سنة 1998 في هذا الموضوع مشيراً إلى هذا الخلل في عمل الباحثين العرب، ومنهم المغاربة ضارباً المثل بعمل البوشيخي، قال لي الأستاذ محمد مفتاح فيما يشبه العتاب: "جائبُ معاك البوشيخي حتَّى لَهْنَا!؟"

وجوابي الذي لم أنطق به وقتها - صونا لما بيني وبين الأستاذ محمد مفتاح ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، إن شاء الله، من تقدير ومودة - هو أنني استعمل السلاح المشروع: البحث العلمي، للرد على عدوانٍ غير مشروع أُستعملت فيه أسلحةٌ محرمة. فهل هناك تسامح وإنصاف أكثر من هذا. نحن باحثون يريد البعض أن يُنحينا بأصوات الأغلبية الخاملة التي تتنقع بالتراث والدين في جامعة بدون تقاليد علمية راسخة. الحمد لله أن المسائل العلمية، كما قال ياكبسون، لا تحسم بالتصويت والأغلبية.

لجنة علمية، سرية

كلما جاءني طالب (أو طالبة) يشكو من حرمانه من حقه الذي يخوِّله له موقعه في الترتيب العلمي، أو السطو على منحته بعد إعلان اسمه إلا وتذكرتُ محنةَ طالبة أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي مع عينة من "العلماء" كانت تتحكم في خبزة الأوقاف في القرويين، فكانت تحرم منها الطلبة الذين يقصدون مجلسه في جامعة القرويين بفاس. لجأتُ أحياناً إلى الإدارة لمعالجة ما يمكن معالجته، واكتفيتُ في غياب ذلك، في أحيان أخرى كثيرة، بحثهم على التحدي والصمود.

وكنْتُ أقول بتحدٍّ: "...يا بى الله إلا أن يُنمَّ نوره...".

وحين بَلَغَ التعسُّفُ حدَّه قرروا منعي من الإشراف على الدراسات العليا بشتى الأساليب، ومن أغربها وأكثرها فجاجة اعتبارُ المباحث الأسلوبية البلاغية التي أشتغل بها، ومازلتُ، خارجةً عن مجال اهتمام شعبة اللغة العربية، كما وقع حين قدَّم الطالبُ الباحثُ عمر أكَان تقريره للتسجيل قصدَ تحضير دبلوم الدراسات العليا في موضوع:

"نظرية الانزياح في الأسلوبية المعاصرة".

ولم يكن لي بهذا الطالب الباحث سابق معرفة، بل الذي قاده نحوي هو اهتمامُ مجلة دراسات سميائية بنظرية الانزياح في الشعرية عامة والشعرية البنيوية خاصة، منذ عددها الأول. وشجعني على قبول الإشراف عليه، من أول لقاء، تركيئةُ الزميل عبد الرحمن طنكول له، وكونه قد دخل عالم التأليف والنشر قبل الإقدام على التسجيل.

جاءَ في رسالة من رئيس الشعبة، بعد استشارة "لجنته العلمية"، وهي لجنة سرية لم يسبق لنا انتخابها، ولا سبق للشعبة أن أعلنت عنها:

"أن الموضوع الذي وقع عليه اختيارك [أي: نظرية الانزياح في الأسلوبية المعاصرة]. تكتفه عمومية مطلقة لا يمكن تبنيها في مشروع

علمي موفق، وأنه بذلك وبسواه يعتبر غير داخل في حاق ما تتبناه الشعبة من تخصصات، ولا منتم إلى قريها". (من رسالة بتاريخ 25 فبراير 1992).

أنصحُ القارئُ ألا يُضَيِّعَ وقته في البحث عن أمرين:

أولهما معنى الكلمتين "حاق" و"قري"، فليس وراءهما غيرُ تقعرٍ لغوي

ينبئ - كما هو العادة - عن فقرٍ فكري، وخواءٍ معرفي،

والثاني هو "المشروع العلمي" لهذا الرئيس الجريء الذي يطلب من طالب في بداية مشواره أن يقدم مشروعاً علمياً متكاملًا في تقرير أولي. ها نحن في نهاية مشوار الرئيس، فما هو مشروعه العلمي؟ نتمنى أن يخبرنا اليوم بالمشروع الذي أنجزه خلال أربعين سنة، المشروع الذي تقاضى عليه أموالاً طائلة من الدولة برسم "تعويضات البحث".

أما أن يكون البحث في "نظرية الانزياح في الأسلوبية المعاصرة" غير دقيق فهذا دليلٌ جهلٌ بالموضوع. لقد هيأت مجلة دراسات أدبية ولسانية محوراً في الموضوع شارك فيه باحثون من المغرب وخارجه بمقالات ودراسات دقيقة، ولم يعترض أحدٌ على علمية الموضوع.

أمام هذا الحيف المكشوف اضطررنا، مرة أخرى، إلى تحكيم العميد، فغير المنكر، وسُجلت الرسالة رغماً عنهم.

دفعني فضولٌ شديدٌ إلى البحث عن "اللجنة" التي أفتت بعدم دخول الأسلوبية ونظرية الانزياح في اختصاص شعبة اللغة العربية - ذلك أنني مُتيقنٌ من أن السيد علي حمودان بريءٌ كل البراءة من هموم الأسلوبية والانزياح وما يتصل بهما من قضايا تُسببُ الصداق - اختصاصه الأول، كما هو مسجل في مذكرات الطلبة، هو مناخُ الجزيرة العربية وتضاريسها تمهيداً لدراسة الشعر التي سينجزها يوماً ما...

بدأتُ في جسّ النبض. كان أعضاء تلك اللجنة كائنات افتراضية؛ يروغون مني كما يروغ الثعلب قبل أن يختفي في الأحراج، ويلج أي جحر.

مَنْ أَمْسَكَتْ بِذَنْبِهِ مِنْهُمْ، قَبْلَ وُلُوجِ الْجُحْرِ، تَرَكَ رَغْبَهُ فِي يَدِي:
يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً وَيَرَوِّعُ مِنْكَ كَمَا يَرَوِّعُ الثَّعْلَبُ
لَجَأَتْ إِلَى تَاكِتِكَ الْإِتْهَامَ وَكَأَنَّ مُبْلَغًا أَسْرَّ لِي بِمَا وَقَعَ، جَعَلْتُ الْقَضِيَّةَ
مَوْضِعَ سَوْأَلٍ مَعَ كُلِّ مَنْ أَشْكُ فِيهِ. فَجَاءَ "قَالَ الْمَرِيبُ خَذُونِي". اعْتَرَفَ وَلَمْحِ
لِلضَالَعِ مَعَهُ: كَانَا يَتَنَاقَشَانِ فَقَطْ، لَا يَتَعَلَّقُ الْأَمْرُ بِفَتْوَى. وَالْمُؤَسَفُ أَنْ يَكُونَ
مِنْ بَيْنِ مَنْ وَلَّغُوا فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ شَخْصًا كَانَ قَرِيبًا مِنِّي، وَأَكْبَنُ لَهُ احْتِرَامًا،
بِحُكْمِ أَنَّنَا مِنَ الْمَعْهَدِ الْإِسْلَامِيِّ بِتَارُودَانْتِ. أَذْكَرُ أَنِّي تَعَرَّفْتُ عَلَيْهِ، أَوَّلَ مَرَّةٍ،
فِي هَيْئَةِ تَحْرِيرِ مَجَلَّةِ الْمَعْهَدِ الَّتِي كُنْتُ مَدِيرَهَا فِي السَّنَتَيْنِ مِنَ الْقَرْنِ
الْمَاضِي. وَعِنْدَمَا التَّحَقَّقْتُ بِكَلِيَّةِ الْآدَابِ بِفَاسَ وَجَدْتُهُ هُنَاكَ قَبْلِي مُلْحَقًا مِنَ
الثَّانَوِيِّ، وَأَقَمْتُ فِي بَيْتِهِ ضَيْفًا عَلَيْهِ عِدَّةَ أَيَّامٍ، وَاسْتَعْمَلْتُ سَيَارَتَهُ R4 فِي
التَّنَقُّلِ. وَاسْتَمَرَّ بَيْنَنَا جَوْ مِنَ الْاحْتِرَامِ إِلَى أَنْ وَقَعَ مَا اعتَبَرْتُهُ طَعْنًا مِنَ الْخَلْفِ
فِي عِزِّ الْمَعْرَكَةِ. كَيْفَ تَغَيَّرَ الرَّجُلُ ضَدِّي إِلَى هَذَا الْحَدِّ؟ تِلْكَ قِصَّةٌ عَوِيسَةٌ،
وَقَعَ فِيهَا هُوَ وَغَيْرُهُ مِنْ ذَوِي النِّوَالِ الْحَسَنَةِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْعِزْمِ.

لَا بَدَّ أَنْ أَشْكُرَ هُنَا أَسْتَاذِي الدَّكْتُورَ عَزْتَ حَسَنَ الَّذِي حَذَرَنِي مِنَ
الْإِلْتِحَاقِ بِالْجَامِعَةِ قَبْلَ الْإِنْتِهَاءِ مِنْ إِنْجَازِ دَبْلُومِ الدِّرَاسَاتِ الْعَلِيَا، وَالْقُدْرَةِ
عَلَى التَّدَافُعِ بِالْمَنَاقِبِ. فَقَدْ وَجَدْتُ أَكْثَرَ الَّذِينَ دَخَلُوا بِدُونِ مُؤَهَّلَاتٍ جَامِعِيَّةٍ
- وَمِنْهُمْ عَنصَرَانِ جِيدَانِ مِنْ رِفَاقِي فِي الْمَعْهَدِ الْإِسْلَامِيِّ - رَهِينَةً فِي يَدِ
مَشْغُولَةٍ بِهَمُومٍ أُخْرَى غَيْرِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ. قَالَ لِي بِالْحَرْفِ: "اصْبِرْ قَلِيلًا،
إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا يَجْرِي هُنَا (أَيُّ فِي الْجَامِعَةِ)، لَنْ تَتَحَمَّلَهُ... لَا تَسْتَعْجِلْ...،
سَنَةً وَاحِدَةً وَتَدْخُلُ بِشَهَادَتِكَ مَرْفُوعَ الرَّأْسِ... وَأَوْصِيكَ حِينَ تَلْتَحِقُ: لَا
تَتَحَالَفَ فِي الْجَامِعَةِ مَعَ الْأَغْيِيَاءِ...".

قَالَ مُحَمَّدٌ بِوَحْمَدِي مُعْتَذِرًا:

لَمْ أَقُلْ بِأَنَّ الْإِنْزِيَّاحَ لَا يَدْخُلُ فِي اخْتِصَاصِ الشَّعْبَةِ، بَلْ قُلْتُ إِنَّهُ لَيْسَ
"نَظَرِيَّةً" بَلْ هُوَ مُجَرَّدُ "مَفْهُومٍ".

قلتُ له: المهم ليس الاختلاف في هذا الأمر: نظرية أم مفهوم؟ بل المهم هو السياق الذي تدخَّلَ فيه، وهو إعطاء مبرر لرفض تسجيل طالب باحث مع العمري، هذا هو السياق، وأنت تعرفُ المقصودَ. والانتزاح، بعد ذلك، نظرية، لأنه اقترح لتفسير "الشعرية" تفسيراً شاملاً، وهذا معنى النظرية وشرطُها. ولا عبرة برأي من يُلغي عقله ليرضي من لا يُفرِّق بين الكلية والجوطية (وسوق المتلاشيات).

وعلمتُ من خلال الحديث معهُ أن شخصاً آخر، هو ذلك العياشي نفسه، ولَّع بدوره في هذه القضية. وتشاء الأقدارُ أن نلتقي نحن الثلاثة: العمري وبوحمدي والعياشي، في منصة ندوة مناهج الدراسة بين الوصف والتفسير والتأويل، ويخوض بوحمدي، يا للمفارقة، في موضوع شعرية كوهن (أي في لب نظرية الانتزاح) معتمداً على مقال منشور في مجلة "المعرفة" السورية فيخبط خبط عشواء، لأنه لم يطلَّع على الكتاب قطعاً، ولم يعلم أنني كنت قد ترجمته بالتعاون مع محمد الولي واستوعبتُ مضمونه، ويخوض العياشي في موضوع لا يُقننه من البلاغة القديمة، شغلي الشاغل. قال ذاك العمري، غفر الله له: وقع الثعلبان في الفخ.. سجَّلَ نفسه في لائحة المناقشين من المنصة على غيرِ عادة. كَشَفَ سوءَ الفهم ووضع النقطَ على الحروف، فتعقدت المسألة أكثر مما كانت. هكذا تلتقي الخطوط، وتتقاطع الصدف، وكأننا نحكي قصة من نسج الخيال، العالم ضيق.

نقطة نظام مُكَلِّفة

في محاولة للخروج من فوضى الارتجال والحيف قضينا الشهور الطوال في محاولة صياغة قانون للشعبية، وصلت بنودُه ستة وتسعين بنداً. ثم بيَّنت الأحداث أننا كنا في وهم. كان البوشيخي لا يكف عن ترديد محفوظة قديمة: "كل حادث حديث". في هذا السياق انعقد اجتماع حاشد للحسم في قضايا حساسة، امتلأت جنبات الشعبة على غير عادتها، واحتد النقاش،

وَكثُرَ اللَّغَطُ والمغالطات. رفعتُ يدي مطالباً بنقطة نظام؛ لم أقاطعُ أحداً ولا اعتديتُ على حق أحد.

نقطةُ نظام سلوك حضاري تعودنا عليه في اجتماعاتنا النقابية، شيءٌ عادي عندنا، بل محبَّبٌ، فهو بديلٌ للفوضى المترتبة عن مقاطعة الآخرين. أما عند شيخ الشعبة فإن نقطة نظام رمزٌ من رموز الحداثة، وسلوك نقابي وحزبي يَمَقُّهُ. فهو يُذَكِّرُهُ بمراراتٍ قديمة، يذكره بمحمد عزيز لحبابي رحمه الله، ويذكره بجحافل الماركسيين الذين شددوا عليه الخناق طوال السبعينيات.

كان يلبسُ جُبَّةً بيضاءَ خفيفة، بل شفافة، وكان الشيبُ قد كسا رأسه ولحيته، فالتبسَ أعلاه بأسفله. وقف منتصباً على حين غِرَّةٍ وسطَ جمهور الشعبة، فاشترأبت إليه الأعناق، وتفحصته الأحداق. جمع جُبتَه من أطرافها، وارتفع بها نحو الأعلى حتى تجاوز ما كشفته بلقيس حين ظلمتُ نفسها؛ انكشف ساقاه وفخذه. كان كالخائض في لجة أو نهر. رفع رجله في اتجاه وجهي في حركة أكثر رشاقة من حركة لاعبٍ تيكوندو متمرسٍ في أعلى درجات لياقته البدنية قائلاً:

"هاهي نقطة نظام، خذ نقطة نظام!"

! قالها ملوحاً بيده نحو وسطه أمامَ ذهول الجميع.

رأيتُ الأستاذات الحاضرات ينسحبن في الحين، كُنَّ خمسة فيما أذكر. كُنَّ صفاً واحداً بجانب الباب، فانسألن دون تعليق. من بينهن زوجة العميد الجديد. وقُلَّ مَنْ عاد منهن، بعد ذلك اليوم، لاجتماعات الشعبة.

جَرِيّاً على عادتي في مثل هذه المواقف السريالية، عندما يضع الخصم نفسه في موقع الحرج، فإنني لم أقدمُ لسيادته، ولا للمُحَرِّجين من سلوكه، قشةً من كلام أو حركة يتعلَّقون بها للخروج من الهوة التي أنزلهم إليها. تركتُ المشهد الغريب يملأ الشاشة وحده، لم أزد على أن قلتُ بالحرف: "آ

الأستاذ الهراس، لم تأتِ بجديد، هكذا أنت وهكذا كنت، وهكذا ستبقى".
لما تأكد أنه فشل في جري إلى مشاحنة أو اشتباك قام منسحبا من
الاجتماع. تبعه بعض من مُريديه، وبعد هنيهة عادوا به. جلس صامتا، لم ينبس
بكلمة إلى نهاية الجلسة، ثم انصرف. كان يعلم خطورة ما بدر منه، فاخفى
متحاشيا طريقي. ولم يعد له ذكر بعدها في رئاسة الشعبة.

ومرت شهور قبل أن أراه. ليس في الشعبة أو الكلية، بل على شاشة
القناة الأولى للتلفزة المغربية. سمعته يقدم برنامجا دينيا، كان يتحدث فيه
عن أبي بكر الصديق. وقفتُ مُنتبها بكل جوارحي لسماع ما فتح الله به
عليه، قائلا في نفسي ما قالت قريش حين سمعت حسان بن ثابت يهجوها
ويُعدّد مثالبها التي لا يعرفها حسان.

سمعته يقول: "كان أبو بكر معروفا في الداخل والخارج"... الخ
لم أفهم، لا أنا ولا من حضر من الأساتذة، معنى "الداخل" و"الخارج"
في عهد أبي بكر. وكانت قريش قد قالت: "لقد قال ابن أبي قحافة الشعر
بعدنا"، أي بعد الخروج من مكة، وذلك لما وجدته في شعر حسان من
مثالبها التي لا يعرفها غيره.

لم يسبق لي، والشهادة لله، أن سمعتُ الشيخ الهراس يخوض في مسألة
علمية جادة، أو يُلقي محاضرة، أو يقدم عرضا في ندوة، أو يناقش صاحب
مُدخلَة إلا ما كان من فُتُوكاته ونُكُتِه أثناء مناقشة الرسائل والأطروحات الجامعية
التي كان يُشرف عليها أو يشارك في مناقشتها. كانت له مواهب أخرى.

نقد ذاتي!

بعد كتابة هذا الفصل بشهور اكتشفتُ في الشبكة العنكبوتية وجها آخر،
وتقييما آخر، لزميلنا الشاهد البوشيخي، تقييما كان غائبا عنا، لم نأخذه
بعين الاعتبار حين قارعنا الرجل مقارعة الند للند. اكتشفتُ هذا الوجه
متأخرا في موقع oujdacity.net. هناك يصرح أحد المريدين ، قائلا:

"وَلَيْتَنِي كُنْتُ أَسَاوِي شَعْرَةَ مِنْ لَحِيَّتِهِ!"
 أي من لحية زميلنا البوشيخي! وإذا ما ضُرِبَتْ هذه القيمة في الكتلة
 (أو الحزمة) كما هي منشورة اليوم على اليوتيوب عرفت مقدار الثروة
 المجمدة، هذا إذا لم تكن العملة المعتمدة في التقويم ضعيفة.
 لاشك أنك عجبت من قول المريد(؟). سيزول عجبك حين تعلم مناسبة هذا
 الكلام، فمعرفة السبب تُبطل العجب. مناسبة احتفال المريد بلحية الشيخ هي
 محاضرة ألقاها الشيخ البوشيخي في موضوع: الهوية الإسلامية والعولمة،
 نظمتها جمعية النبراس يوم 03.01.2008. وصل فيها المحاضر إلى تعريف
 جديد باهر للعولمة! صدّقه المريد ولخصه مُضَمَّنًا كلام الشيخ:
 "العولمة (في نظر الأستاذ البوشيخي) أضخم غول لَعَبَدَةِ الْعَجَل؛ فهي
 العجل، له رأس وله ذراع، هي الأبنك، وسلاحه المصطلحات، وثقافته
 وحضارته ثقافة وحضارة العجل"، وقد رأى الأستاذ (حسب عبارة المريد) أن
 "شكل العجل ينطبق على شكل العولمة"⁸.
 وبالنظر في تطبيقات النظرية العجولية ومرجعياتها في تعجيل المجتمع
 والحضارة الحديثة نفهم، بل نتفهم الحرب المقدسة التي وُوجه بها مشروعا
 التحديثي الذي كانت مجلة دراسات علامة بارزة في طريقه الشاق، فتلتمس
 له العذر. إذ ما دامت العولمة عجلًا فنحن الحداثيين مُجَرَّد خدم له:
 سامريون. ومن هنا أيضا يمكن أن نفهم حديث الشيخ الهراس عن "المناهج
 الرومية" التي نسعى لإدخالها في برامج الشعبة، فقد كان يقيسنا على
 الدجاج الرومي الاصطناعي الرخيص الذي لا يساوي شيئا أمام الدجاج
 البلدي الغالي الثمن الذي يرى فيه نفسه وعشيرته العلمية.

⁸ - <http://www.oujdacity.net/oujda-article-8997-fr.html>

ليست الرغبة والكفاءة كل ما تحتاجه للقيام بعمل خير في المغرب، بل إنك تحتاج، قبل ذلك وبعده، إلى شيء من الجرأة، وأحياناً الشراسة.. الشكر لله الذي زود الورود بأشواك، وزود صانعة العسل بالأسل... هناك مقابلان في اللغة العربية لكلمة "الجهل": العلم والحلم. ولذلك فالعلم من طينة الحلم، يحتاج إلى "مبادرات تحمي صفوك أن يُكذّر":
ولا خير في حلم إذا لم تكن له بؤادر تحمي صفوه أن يُكذّر
لا تستطيع أن تُخلص للعلم في بيئة عدوانية دون أن تتبّت لك مخالفات وأنياب، قانون طبيعي.

- 3 -

ملف أسود

مد وجزر

عندما تخرج من مكتب شعبة اللغة العربية، في الطابق الأول من الجناح الغربي للكلية، تجد في مرمى بصرك، بالطرف الأقصى للجناح الجنوبي، مكتب العميد وملحقاته. وفي ملتقى الجناحين يوجد المسجد ومكتب النقابة جنباً لجنب. العبور من الشعبة إلى العمادة يتم من طريق المسجد والنقابة؛ طوبوغرافيا أشبه باستعارة تمثيلية.

بعد التحاقني بكلية الآداب بفاس بشهور أخبرني العميد عبد الوهاب التازي أنه لم يتوصّل بملفي الإداري: ربما طلبه ولم يتوصل به، أو شيء من هذا القبيل. فطلبت منه ألا يطلبه مرة أخرى، وإن حدث، لا قدر الله، أن توصل به، فمن الأنفع لمستقبل العلاقة بيننا أن يتركه مغلقاً. قلتُ له: دعنا نربط حاضرتنا بماضيها، فأنا كنت، كما تعلم، طالبا عندك، ولو اطلعت

على ملفي الإداري وعلاقتي بالرؤساء لوُلِّيت منه فرارا ولمُلِّت منه رعبا. لقد دخلت تلك العلاقة في الاعتبار فمَهَّدت للتعاون بشكل إيجابي زادَ توطُّدا وإنتاجا باندماجه، بدون تردد، في التعاون مع مجلة دراسات التي كان يرى فيها مقاومة فعالة لنزعتين: نزعة محافظة مقنعة بالدين، ونزعة طائفية فرانكوفونية معادية للغة العربية، كما سبق.

ومع ذلك لم تكن العلاقة معه دائما على ما يرام، فقد كان موقعي النقابي، والفكري عامة، يُوصِّل دائما إلى التصادم مع تصوره باعتبار الجيل والانتماء الاجتماعي، وما تفرضه عليه الظروف من مرونة تصل أحيانا إلى حدود الإخلال بالحقوق.

لعل أول مرة انزعج فيها مني كانت حين دخلنا مكتبه نحن أعضاء المكتب النقابي، أوائل الثمانينيات، من أجل مراجعته فيما بلغَ إلى علم النقابة من تجاوز في منح التفرغ خارج ترتيبات شعبة الفلسفة. كان الأمر يتعلق بالأستاذ م.س الذي ألحقَ من الثانوي وفُرِّغ في الحال، أي تفرغ على حساب الشعبة قبل أن يشرع في العمل، في حين كان عددٌ من المساعدين العاملين في الشعبة ينتظرون دورهم. وكانت هناك حالةٌ أخرى في شعبة التاريخ والجغرافيا، لا أذكرُ تفاصيلها، كانت أقلَّ فجاجة، على كل حال، من حالة م.س. الذي ذهب للتفرغ قبل أن يدخل الشعبة!

كانت المسألة حساسة، ولذلك ما إن أُثيرت حتى ثار وأرعد وأزبد. وكنتُ مقررا للجلسة فتعمدت الانشغالَ عنه بتسجيل ألفاظه العنيفة المتحدية. وعندما لاحظتُ أنني مُتمادٍ في التسجيل، توقفت عن الكلام لحظة...، حَدَجَنِي بنظرة استغراب:

- ماذا تكتب؟

- أجبت به ببرودة: أُسجِّل جوابكم لننقله بأمانة لمجلس الأساتذة!

- باقي ما قلنا والو...!!

قام من مقعده بسرعة، واختطف المذكرة من يدي، ونزع منها الورقة المكتوبة وكومها ورمى بها في سلة المهملات. ثم جمّد في مكانه لحظة قبل أن يعود إلى السطر ويستأنف الكلام بلهجة أخرى أكثر هدوءاً، كمن يريد أن يُفشي سرّاً.

عاتبني على التعامل معه بهذه الطريقة:

- "أنت كنت طالبا عندي، وهذا (المرتجي)، وذاك (حماد) و.. كلكم كنتم طلبة عندي؟

- نعم، وممتنون لذلك...

- "إذا جنّك غدا في حاجة أراها في يدك، في متناولك، وأنت في موقعي هذا كيف ستصرف؟... هذه الحالة التي تثيرون كل هذا الضجيج من أجلها تدخّل فيها أستاذي أنا.. أستاذي الذي أحترمه ولا أردّ له طلباً، الدكتور عزيز لحبابي .. تدخّل لصالح باحث توسّم فيه خيراً.. هذا يقع في جميع بقاع الأرض أعباد الله!.."

وبعد أن لاحظ حُسن إنصافنا، قال: أنا في موقع الكلّ ينظر إليه، ويطلب مني ما في يدي وما ليس في يدي، هناك أناس لا يستطيعون ردّ طلبهم.. وأتذكر أنه قال بالحرف:

"خَلَوْ لِي عَشْرَةٌ فِي الْمِائَةِ وَ دِيرُوا الصَّفَّ عَلَى الْبَاقِي، عَلَى تَسْعِينَ فِي الْمِائَةِ".

وانتهت الجلسة بالتراضي لأننا كسبنا مكاسب أخرى مهمة نتيجة صفاء الجو، منها تجهيز قاعة الأساتذة رغم عدم وجود اعتماد مادي، وذلك بتخريجه من تخريجات المغاربة وفتاواهم الإدارية. تحتاج، في إدارة عوراء مثل الإدارة المغربية، إلى أن تبني سوراً غير مبرمج سلفاً، ومرأياً للحافلة، لكي توفّر تجهيز قاعة الأساتذة بعصارة القهوة ومتطلبات أخرى. وتحتاج أن تحوّل مدخول قاعة الأساتذة إلى صندوق باللونين الأبيض والأسود. الأبيض يدعّم بعض العمال

الذين يعملون في ظروف مأساوية، والأسود يغيب في الضباب.
كان تقديري للمرحوم عزيز لحبابي كبيراً، ولا شك أن الأمر كان كذلك
عند كل الزملاء أعضاء المكتب النقابي، ولذلك لم يُعلق أحدٌ، بعد هذه
المكاشفة، لا داخل الاجتماع ولا خارجه... انتهى.

بمناسبة ذكر الفيلسوف عزيز الحبابي، أذكر أن جهاتٍ علميةً بدأت
لاحقاً في جمع توقيعات الباحثين لدعم ترشيحه لجائزة نوبل باعتباره
فيلسوفاً عربياً متميزاً. وفي هذا الإطار سلّمنا العميد التازي، أنا والأستاذ
حميد لحميداني، لائحة لأخذ توقيعات أساتذة كلية الآداب الراغبين في دعم
ترشيحه. رحبنا بالمبادرة واعتبرناها عملاً علمياً ووطنياً. سارت عملية
التوقيع بشكل عفوي داخل الكلية إلى أن دخلتُ شعبة اللغة العربية ذات يوم
وعرضتها على الشاهد البوشيخي في مجموعة من حواريه. نظر إليّ
مُصعراً خده كالعادة، وقال من أنفه:

"التازي هو اللي عطاكم هذا الشي !!!"

انسحب في الحال، وتبعه الآخرون دون أن يوقع أحد منهم. حاولتُ أن
أفتح نقاشاً مع بعضهم فاكشفْتُ أنهم مشحونون بحقد قديم، يعود إلى موقف
الحبابي العميد من شيخهم الهراس حين رفض التحاقه بالكلية مشككاً في
شهادته.

كانت حادثة تفريغ م.س عابرة لم تترك أثراً سيئاً. كانت، على كل حال،
قضيةً جماعية، قضية الشعبة والنقابة ككل. وبخلاف ذلك فربما تكون
علاقتي بالإدارة قد تأثرت، ولو إلى حين، بحدث آخر يخصُّني، وربما يكون
قد سجّل في أعماقي شعوراً بالغبن ظل يعمل في صمت مُلّوِّنا مواقف:

في 30 فبراير 1982، أي بعد حوالي سنة من التحاقني بالكلية، تقدّمتُ
بطلب تسجيل أطروحتي لنيل دكتوراه الدولة بكلية الآداب بفاس، أي بكليتي
التي أعمل فيها، وأعتقدُ أن لي حظوةً فيها. كُنْتُ أنوي دراسة: مرثي

العرب، من الجاهلية إلى نهاية القرن الأول الهجري. كنتُ شديدَ الاهتمام بشعر الموت في تلك المرحلة المطبوعة بالصراع والفقد. قضيتُ أكثر من سنة في إعداد التقرير؛ فليتُ خلالها كلُّ الدواوين والمختارات وكتب المراثي والتاريخ والأخبار، وأُعجبتُ بعيون الشعر العربي المدبَّج في موضوع الفقد أيما إعجاب. قرأ الأستاذ عزت حسن ذلك التقرير بعناية ووقعه بالموافقة. وبدأتُ في جمع المادة العلمية مُعتقداً أن التسجيل مُجردُ إجراءٍ شكلي.

وعندما وضعتُ طلب التسجيل لدى العمادة حدث ما لم يكن في الحسبان، رُفض طلبي بكل برودة! التبرير الذي همس به في أذني أحد الإداريين المقربين من العميد هو أنه لا يريد فتح الباب "للآخرين"! أما التعليل الرسمي المكتوبُ على طُرة الملف الأصفر الذي حمل الطلب، كما أراه الآن، فلا يعدو هذه الجملة الغامضة بخط رديء، خط إحدى الكاتبات فيما يبدو: "ليس أستاذنا عندنا!"

الضميرُ يعودُ على الأستاذ المشرف عزت حسن. وهذا ما أكدهُ رئيسُ الشعبة بعد أن راجع العميد. تعني هذه العبارة: "لا نعرفه"، كما تعني: "لا نعتز به". وكلاهما باطل، لأن العلماء لا يُعرفون بالمجالسة في المقاهي - كما كان الشأن وقتها في فاس - بل بالمؤلفات، وللدكتور عزت حسن منها ما يسدُّ الأفواه. أبديتُ كلَّ ما أستطيعُ من تظلم واحتجاج، ثم اضطررتُ إلى تغيير الموضوع والمشرف والجامعة، والانتظار سنة أخرى قبل التسجيل بجامعة محمد الخامس بالرباط، والخير فيما اختاره الله.

وبعدَ هذه المحنة فُتِحَت الأبوابُ للتسجيل والمناقشة بفاس بدون قيود ولا ضوابط، بل وقع ما لا يمكن الحديث عنه...

بداية القطيعة

تلك كانت مجردَ أحداثٍ عابرةٍ سرعان ما نُسيَت، أو تحولتُ للعمل في اللاشعور فاسحة الفرصة للتعاون العلمي، أما الحادثة التي هزَّت العلاقة

بيني وبين العميد التازي، وختمتها بالتوتر حتى النهاية، بل كادت تؤدي إلى متاعب كبيرة، فهي "قصةُ توظيف النسوة اللاتي وجدن من يتوسط لهن". ربما صُدم أكثرُ الحاضرين في اللقاء مع وزير التعليم في المدرسة العليا للتكنولوجيا بفاس، أواخر تسعينيات القرن الماضي، بحدة تدخله، حين قلتُ بالحرف: "إن الجامعة أفسدت بتوظيف الأخوات والزوجاتِ والصاحباتِ... ومنح التفرغات والمنح غير المفيدة لمن لا يُنتج... في حين كانت الجامعة في حاجة إلى المحاسبة على أي درهم تمنحه". ربما كنتُ أتخيلُ أن الوزير سيتحرى في هذا الأمر وهو ساخن، والحال أن "وزراءنا يطلبون السلة بلا عنب". ذهب الوزير ولم يعد.

لنعدُ إلى البداية: كان الخطباء يتوالون على منصة فاتح ماي بملعب الخيل بفاس عندما اقترب مني وسط الزحام أحدُ أساتذة الشعبة، وكان اتحاديا وعضوا في المجلس البلدي قبل أن يتكسر، أي يتهرّس. التصق بي وأسرَّ إلي بأن الإدارة، شرعت في توظيف تسع نسوة، منهن زوجات وأخوات لأساتذة وأعيان، دون موافقة الشعبة، أو بتأمر مع رئيسها. طرحتُ القضية في الشعبة فكان هناك إجماعٌ على رفض هذه التوظيفات. وتكونت لجنةٌ لمتابعة هذا الملف متكونة من محمد العمري (مرة أخرى)، وعلي حمودان، وحמיד لحميداني، ومحمد الدناي، ومبارك حنون، وزاكي كنون. وصل الخبر إلى العميد التازي فانزعج أشد الانزعاج. حرك وسائله لخلخلة المجموعة فتخلخت... كثرت الغيابات والأعذار: تقلص عدد الحضور إلى أربعة...

حاول محمد العمري وعلي حمودان وحמיד لحميداني ومحمد الدناي صياغة رسالة إلى العميد فوقف حمارُ الشيخ في العقبة. وقفنا أنا وحمودان على طرفي نقيض، ففي الوقت الذي كنتُ أتصورُ أن الرسالة مجردُ مدخلٍ لمعركة طويلة ومنتشعبة، وأنها إذا كانت من الناحية الشكلية موجهةً إلى العميد، فهي موجهة، في العمق، للوزارة والصحافة والرأي العام الوطني، لأن مصيرها، إن لم

يتراجع عن قراره، أن تُوجَّه للوزارة وتنتشر على الملأ. ولذلك ينبغي أن تُصاغ صياغة إدارية هادئة وحجاجية مقنعة، لا بد أن تكون رسالة بليغة لا تُلأم عليها. فهو رئيس المؤسسة على كل حال. أمّا هو فقد اعتبر المناسبة مواتية لكتابة رسالة تهديدية هجائية لا تراعي ما تقتضيه الشكليات الإدارية من تحفظ. لم يستطع الزميلان الآخران لحميداني والدناي إقناعه بالعدول عن لغة القذف، فتعثر عمل اللجنة. ولا بد من الاعتراف، ونحن بشر، أن غياب الآخرين وما نَمَّ عنه من تكثيف الضغوط يَبْطِئ الهمم، وجعل الملف ثقيلاً. الناس معادن.

من المفارقات أنني دخلتُ مكتبَ نائب العميد، في تلك الظروف، فوجدتُ ذلك الأستاذ (الذي أثار المشكلَ في فاتح ماي) يُهامسُه في أمر ما. وعند دخولي غيّر الموضوعَ وانشغل بالترحيب بي مانحا خده الأيمن والأيسر بسخاء. وعندما خرج أخبرني الأستاذ النائب أن صاحبنا كان يتدخل لصالح واحدة من اللائحة التي بلّغ عنها، وهي قريبةُ مسؤول محلي كبير، التحقّت فعلاً بالكلية من الثانوي. هكذا بعضُ الناس: "يبيعون القردَ ويضحكون على من اشتراه".

في هذا الطرف (أواخر 1988) استقبل العميدُ "لجنة الحوار الثقافي والبحث العلمي" التي كنتُ أنسّق عملها. كانت الجلسة متوترة دون أن يدري أحدٌ من الحاضرين سبب ذلك التوتر: رَفُضَ آلِيّ ميكانيكيّ لكل ما طلبناه من دعم، دون رفض للفكرة في حد ذاتها. وعندما وقفنا للانصراف وقف العميد عند الباب كالمودّع، على غير عادته، وبمجرد ما هَمَمْتُ بالخروج أمسك بكُم قميصي مؤخراً خروجي. وبعد أن بقينا وجها لوجه والآخرين في الجهة الأخرى من الباب، قال:

ما الذي بلغني؟ شي لجنة ما لجنة؟ شي رسالة ما رسالة؟
قلتُ له باختصار: سيكتبون إليك رسالة وتُجيب عنها بما تريد. مهمة اللجنة هي صياغة رسالة تبعا لتوصية مجلس الشعية.

قال في غضب شديد: لا.. لا.. ما تكتبوا لي ما نكتب ليكم!!
لم تصله الرسالة ولكن المسألة لم تخمد، ما زال متوجسا. عندما نَظَّم
حفلا لافتتاح المقر الجديد للمكتبة. لاحظ وُقوفي مع بعض الزملاء، أذكر
منهم محمد العلمي وعبد العزيز حليلي. ترك ضيوفه فجأة وانضمَّ إلى
حلقتنا، وكانت هامشية. ودون مقدمات قال وهو ينظر إلي: أحكي لكم
نكتة: التقى أبكمان، فرفع أحدهما إصبعه نحو الآخر، فما كان من الثاني
إلا أن رفع نحوه إصبعين. فماذا يقصدان؟
لم يبادر أحدٌ من الزملاء بالجواب لغرابة الموقف، وفجأة التدخل. بادر
هو نفسه بالجواب:

قال الأول: سأخوّر إحدى عينيك (أي سأفقوها)، فأجابه الثاني: إن
خوّرت إحدى عيني خوّرتُ عينيكَ معا. وهكذا انتقلنا من الحوار إلى
"التخوار"، ومن معاني التخوّار، أيضا، في الدارجة قولُ أي شيء بدون
مناسبة.

الآن يمكن أن يُفهم ما اعتّبره البعض خطابا عنيفا في مجلس الوزير.
لقد وصلنا إلى تخوّار الأعين. كان الوقوفُ في وجه الفساد يقتضي التنازلَ
عن كل الامتيازات والترقيات والمنح والساعات الإضافية الحقيقية، وعدم
الطمع في الوهمية، والزهدي في بطائق السفر، ثم التحسُّب لما هو أسوأ.

أعراض الجنون (في المغرب)

ومرت الأيام، وأنسى الزمن ما أنسى وترك ما ترك، والتقينا في اجتماع
آخر ومن نفس المستوى.

حضر إلى جامعة فاس، في أواخر القرن الماضي، موظفون سامون
من وزارة التعليم السعودية في إطار التعريف بالتعليم العالي السعودي
وتوثيق أواصر التعاون العلمي مع المغرب. كانوا في زيارة للجامعات
المغربية يرافقهم معرض للكتب. عُقد الاجتماعُ بنفس المكان، المدرسة العليا

للتكنولوجيا، حضره مجلس الجامعة ومجالس الكليات، وكان في المنصة رئيساً جامعتي محمد بن عبد الله، والقرويين، والمسؤولون السعوديون. وكان الأستاذ التازي قد تولى رئاسة القرويين.

عندما أخذتُ الكلمة لاحظتُ أن العميد التازي أمسك رأسه بكلتا يديه في وضع من يتوقع سوءاً. كانت مداخلتى عادية؛ تتعلق بانغلاق السوق السعودي في وجه الكتاب المغربي، رغم اهتمام القارئ السعودي بهذا الكتاب. وقد ذكرتُ ما سبق لي من محاولة الحصول على الفصح لمجلة دراسات، ثم ما لاحظته أثناء إقامتي بأرض الحرمين من غياب الكتاب المغربي من جدة إلى الرياض. وقد كان تعقيبُ المسؤول السعودي على كلامي إيجابياً، واعدة بالخير، مذكراً بأن القارئ السعودي يعرف كتبتي ويهتم بها، والخير أمام.

وبيتُ القصيد هو أنني خرجتُ - عندما انفضَّ الاجتماعُ - أسيرُ مع الصديق مولاي هاشم العلوي نحو موقف السيارات فإذا بسيارة رسمية سوداء تقترب منا وتتوقف، والأستاذ التازي بجانب سائقه يفتح الباب ضاحكاً موجهاً الكلام إلى مولاي هاشم قائلاً:

"عندما طلب الأستاذ العمري الكلمة قلت: يا حافظ، يا ستار، ها هو غادي يفلق ثاني شي واحد....".

وبالعربي الفصيح: ها هو سيفلق رأس أحدهم.

المعروف أن الذي يَفْلِقُ الرؤوس هو المجنون الذي يرمي بالحجارة في كل اتجاه. وقد أصبحتُ في كلية الآداب فعلاً مثل المجنون. أحسستُ بهذا الجنون بعمق. بعد ذهاب التازي عن العمادة. في أحد اجتماعات مجلس الكلية حيث اقترحتُ الإدارة، وقوفاً عند رغبة الموظفين الإداريين، جعلَ الامتحان يمتد أسبوعين كاملين. وكان آلاف من المعلمين وأساتذة الإعدادي والثانوي يشاركون في تلك الامتحانات قادمين من جميع أنحاء

المغرب. أكثر من خمسين ألف تلميذ سيتوقفون عن الدراسة، وآلاف من المدرسين سيعانون من ظروف الإقامة بفاس لمدة نصف شهر، في حين كانت العملية فيما مضى تمر خلال ثلاثة أيام، يمكن أن تكون في نهاية الأسبوع فيقلص الضرر إلى أقصى حد.

رفضت ذلك الإجراء الأخرق بإصرار. كان العميد ونائبه وثلاثة من الأساتذة يدافعون، ويرثون علي بالتناوب، وكان باقي أعضاء المجلس محرجين بين المتطفين. لا أذكر أن أحداً ركب أكثر من جملة مفيدة في استنكار ذلك الإجراء الأخرق غير المرحوم محمد ألوزاد الذي تدخل مرتين أو ثلاثاً ثم يئس فسكت. ولذلك ما إن خرجت من الاجتماع حتى بدأت أسأل بعض الأصدقاء عما إذا كنت ما زلت في قواي العقلية: لماذا قبل الأساتذة هذه الجريمة؟

بيان للتاريخ

عندما وصلت الحربُ إلى ما وصلت إليه وَجَّهْتُ رسالةً إلى عميد الكلية أحيطُهُ علماً، وأطلب منه تطبيق القانون. رسالة جامعة، تُلخّص تلك الأجواء. هذا نصها بالنقطة والفاصلة، عدا ما وُضع بين معقوفين للبيان:

محمد العمري فاس في 18.06.1992

أستاذ محاضر. شعبة اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة سيدي محمد بن عبد الله

إلى السيد المحترم قيود كلية الآداب والعلوم الإنسانية،

جامعة سيدي محمد/فاس

تحية طيبة، وبعد

الموضوع: سير الدراسة بالسلك الثالث. تخصص: النقد القديم2.

يؤسفني أن أحيط سيادتكم علماً بأنني كثيراً ما أحضر لإلقاء محاضراتي على طلبة السلك الثالث، (نقد قديم 2) فأجد السيد علي حمودان رئيس شعبة اللغة العربية حاجزاً الطلبة بمدخل الملحقة، أو بباب القاعة، الشيء الذي ضيع علينا الكثير من الوقت، وكدر جو العمل.

وقد علمتُ من الطلبة أنه يناقشهم كل مرة في عدم حضور محاضرات الأستاذ السنوني العياشي، ويتوعددهم وينعت الوحدة بأفبح النعوت. بل تجاوز في المرة الأخيرة 06.06.1992 تعنيف الطلبة إلى مهاجمتي شخصياً بكلام لا يليق أمام الطلبة، دون أن يصدر مني أي رد فعل.

سيدي القيود المحترم، إن وصول الأمر إلى هذا الحد قد جعلني أحس بضرورة طرح القضية أمامكم مذكراً بالخلفيات التالية:

1. إن وحدة النقد القديم2 تُؤطّر، كما تعلمون، من طرف الأساتذة: د. محمد حماد، و د. محمد العلمي، وعبد ربه محمد العمري [ألحق بها، بعد كتابة هذه الرسالة د. محمد الدناي]. وهي مكتفية لا تشكو نقصاً في حدود

ما يتطلبه القانون، وتقتضيه طبيعة العمل في الدراسات العليا التي نأبى لها أن تكون مجردَ سنة خامسة مثقلة بالملخصات، كاتمة لأنفاس الطلبة حيث تُفترض مشاركتهم.

2- لم يُناقش رئيسُ الشعبة مع أساتذة هذه الوحدة قطُّ اقتراحَ السيد السنوني العياشي للتدريس بالوحدة، ولم يُسَقَّ مع أعضائها قط، لا إدارياً ولا علمياً، كما تقتضي الأعراف الجامعية في الدراسات العليا. هذا زيادة على أن السيد السنوني كان منشغلاً خلال السنة بأطروحته وبالسفر إلى الخارج لمناقشتها، ولم يحاول الاتصال بالطلبة إلا بعد فوات الأوان. وفي إطار توزيع العمل نذكر بأن السيد السنوني مسجلٌ للتدريس بوحدة الأدب القديم¹، ويعمل بها، وأن جهودَ الواحدٍ منّا لا تكاد تفي، في حال أخذ الأمور مأخذ الجد، بما يتطلبه تخصصٌ واحدٌ.

إن وحدة النقد القديم² التي بذلنا جهوداً تعرفونها لإنشائها منذ ثلاث سنوات قد واجهت المعارضة الشديدة من طرف السيد رئيس الشعبة ومن وراءه، وتعلمون سيدي القيدوم، أن القضية قد أثّرت أمامَ مجلس الكلية، وقد سُجِّلَ في محضر المجلس الموقر أن رئيس الشعبة يهملش الأطر والكفاءات لصالح ما دونها، وانطلقت الوحدة بعد ذلك.

4. لقد مورس الكثيرُ من التشويش على هذه الوحدة منذ سنتها الأولى. وفي السنة الموالية أُنشئت وحدةٌ منافسة في نفس التخصص قصد المضايقة والتشويش. بل أخذ من الوحدة الأولى، التي أنشأناها، رقمها (1) وأعطى للوحدة الجديدة المتأخرة زمناً، وأعطيتُ وحدتنا رقم (2)، فكان في ذلك خلط، خاصة بالنسبة للطلبة [عند التسجيل].

واليوم يُراد نسف هذه الوحدة من الداخل عن طريق إدخال عناصر غير منسجمة.

5. يضاف إلى ما ذُكِرَ العراقيُّ الكثيرة غيرُ العلمية التي يضعها السيد رئيس الشعبة في طريق تسجيل رسائل الدراسات العليا لطلبة الوحدة أو غيرهم من الطلبة الذين نشرف عليهم. وقد وصل الأمر إلى حد مكاتبة الطلبة مباشرة

دون علم المشرفين ومخاطبتهم فيما ينبغي عمله وما لا ينبغي، وذلك في اختصاصات غير اختصاصه، فإن عدا ذلك استفتى ذ.المساعد في المحاضر، بل في أستاذ التعليم العالي، فأسفر ذلك كله عن مجموعة من النوادر يندى لها الحبين. لقد أفتى رئيس الشعبة نفسه في إحدى رسائله إلى الطلبة أن الأسلوبيات لا تدخل في اختصاص شعبة اللغة العربية(!)

سيدي القيدوم المحترم، إن المماثلة في توقيع طلبات التسجيل [في الدراسات العليا] تستهدف، فيما تستهدفه، حرمان الطلبة المرشحين للتسجيل معنا من المنح بحجز ملفاتهم حتى تتاح الفرصة للمسجلين معه، أو مع من إليه. ولو بحثتم في ملفات هذه السنة نفسها لوجدتم صاحب الميزة محروما، و"المقبول" [أي الضعيف الذي لا ميزة له] ممنوحا، وهذا لا يتناقض مع الأعراف الجامعية فحسب، بل هو، في نظري، تلاعب بالثروة الوطنية الفكرية والمادية.

سيدي القيدوم المحترم،

أ. احتراما منا للأعراف الجامعية التي تقتضي احترام الكفاءات باعتبارها ثروة وطنية، كما تقتضي احترام وجهات النظر واعتبار التنوع عنصرا بناء..
ب. وصيانة للأمانة الملقاة على عاتقنا في عدم إهدار ثروة الأمة المرصودة للبحث العلمي لا لغيره..

ج. اعتبارا للمسؤولية التي يطوقكم بها الواجب، ويحددها القانون المنظم للدراسات العليا والبحث العلمي الجاري به العمل حاليا، حيث تُعتبرون المسؤول الأول المباشر عن الدراسات العليا.

اعتبارا لكل ذلك نطلب من سيادتكم التدخل لتطبيق القانون المنظم للدراسات العليا في السلك الثالث وتسجيل الرسائل والأطروحات وتوزيع المنح بعيدا عن الحسابات القويّة.

والله موفق، ونقبلوا فائق التقدير والاحترام

محمد العمري

الفصل الخامس



في فضاءات الموت

قال ملك بن الرِّب، وقد لدغته حيةٌ وأحسَّ بالسُّم يسري في جسده مُقرباً
أجله:

تذكَّرتُ من ييكي علي فلم أجدُ

سوى السِّيفِ والرُّمَحِ الرُّدَيْنِيِّ باكِياً

وأسودَ محبوباً يجرُّ عنائه

إلى الماءِ، لم يتركْ له الموتُ ساقياً

الأسودَ المحبوك: كناية عن الفرس، وفي رواية أخرى: أسودَ خنديد. ولطالما
سحرتني صورة الفرس وهو يجرُّ عنانه تائها بعد موت صاحبه. فالفرس
والفرس شقان لنواة واحدة، هما أسرة واحدة.
حين يُعرَّض هذان البيتان للقراءة يضع كل قارئ فرسه الخاص الضائع محلَّ
فرس الشاعر. يمكن أن يكون الفرس بناتٍ وأبناءً صغاراً، ويمكن أن يكون زوجةً
أوحبيبة.. وعموماً هو كلُّ ما يُيكي على فقده.

ومعنى قوله "من ييكي علي": من سيبكي لفقدي، من سينألم لضياعي، من
سيفقدني، وليس معناه: من سيُشفقُ لحالي، كما هو شائع. إن من يواجه الموت في
هذه السياقات العاطفية العنيفة لا يتألم لنفسه - بخلاف ما كنتُ اعتقدُه قبل التجربة

- بل يتألم لما سيُصيبُ أحبَّاهُ بعده من حزن، وما قد يتعرضون له من ضياع... وهذا لا ينفي أن هناك من يُحبُّ نفسه فقط، فلا يحزنُ إلا لما يُصيبُ ذاته، إما لتشوُّه في تركيبه العاطفي، أو في علاقاته بمن حوله، حيث لا يبقى الأبناءُ أبناءً ولا الحبيبُ حبيباً. هذا ممكن ولكني تأكَّدْتُ أنني لستُ يقيناً من هذه الفئة البئيسة. إذن، إذن:

لا تحسبوا رقصي بينكم طرياً، فالطيرُ يرقصُ مذبوحاً من الألم!

أبو الطيب المتنبي

في أواخر التسعينيات، إنَّرتُ عودتي من الرياض مباشرة، بدأ إحساسي بأن هناك عياءً غيرَ عادي يسري في جسدي. كنتُ، قبلَ ذلك، أفيضُ حيوية. كانت لدي طاقة زائدة أصرفها رياضةً ومشاكسةً. لا أُطبق الكسالي الخانعين جسماً أروحياً أو عاطفياً، وأتعامل معهم بفجاجة، ودوانية أحياناً، أفلُّها السخرية. أحسستُ بانكسارٍ، بترجع في حرارة جسمي وارتخاءٍ في عضلاتي. جمودٌ أو خمودٌ غيرَ عادي. أردتُ أن أفنِّع نفسي بأن ذلك راجعٌ إلى توقفي عن ممارسة الرياضة بانتظام.

فآخر رياضة مارسْتُها، إلى حدود النصف الثاني من الثمانينيات، هي المصارعة الرومانية اليونانية. بل مارسها معي بعضُ أبنائي بقاعةٍ ملحقة بملعب كرة القدم بفاس: كمال وسامي. وقبلَ ذلك مارسْتُ رياضة الكاراتي طوال السنوات التي قضيتها في الفقيه بن صالح، أربع سنوات. وقبلَ ذلك مارسْتُ رياضة ركوب الدراجة على النحو العنيف المُرهِق الذي وصفته في الأشواق: كنتُ أقطع المسافة الفاصلة بين ورزازات وتارودانت، وهي أكثر من ثلاثمائة كيلومتر، في يوم ونصف. هذا فضلاً عن ممارسة كرة القدم كمُدافع صلب، دونَ مهارة: يعبثُ بأرجل اللاعبين أكثر مما يُداعب الكرة.

لم يكن التوقُّف عن ممارسة الرياضة كافياً لتفسير ما أحسستُ به من

وَهَنَ. استشرتُ بعضَ الأطباءِ فكانتِ سهامُهم تطيرُ حولَ الهدفِ ولا تصيبُهُ، تحومُ حولَ السببِ ولا تقعُ فيه، يُقدِّمونَ مقوياتَ وفيتاميناتٍ لمحو آثارِ فيروسِ فتاك. بدأتُ تراودني فكرةُ الاستسلامِ لتقدُّمِ العُمُرِ، والتلاؤمِ مع الوضعِ الجديدِ. لقد ذهبَ الشبابُ إذنَ بعدَ أن مُدِّدَ سنواتٍ بالممارسةِ الرياضيةِ. بالرياضةِ يمكنكُ أن تعيشَ مرحلةَ شبابٍ أطولَ، ولكن لا شك أن الكهولةَ قد سُرقتِ مني، لم تَدُم طويلاً! قالَ لنا الفقيهُ السوسي مرَّةً وهو يشخصُ مراحلَ العمرِ: الكهولةُ تبدأُ بعدَ الصعودِ إلى قِمَّةِ جَبَلِ العُمُرِ. قد تكونَ القِمَّةُ منبسطحةً فنسيرُ مسافاتٍ ومسافاتٍ قبلَ أن نبدأَ في النزولِ، وقد تكونَ حادَّةً فيبدأُ الهبوطُ مباشرةً. مع الشيخوخةِ نتجِهَ نحوَ السفحِ، وفي لحظةِ الوصولِ ننزلقُ تحتَ السطحِ.

هل كانتِ قِمَّةُ جبلي حادَّةً بهذا الشكلِ: هل كنتُ أعيشُ عُمرًا بدونِ كهولةٍ؟ هل خرجتُ فعلاً من الشبابِ إلى الشيخوخةِ، أم إن هناك عَطَباً ما؟ الصدفةُ وحدها ستُجيبُ عن هذا السؤالِ.

في ربيع 1998 زرتُ طبيبَ الأمراضِ الجلديةِ من أجلِ حَكَّةٍ بسيطةٍ كانت قد استجابت للعلاجِ، ثم ما لبثتُ أن عاودت الظهورَ بعناد. اقترحَ عليّ، أدامَ الله توفيقَه، تحليلاً للدمِ لبيانِ ما إذا كان الأمرُ يتعلّقُ بخللٍ في وظائفِ الكبدِ، ولعلهُ لاحظَ مؤشراتٍ أخرى لم يذكرها لي.

عندما تقدّمتُ لأخذَ نتيجةَ التحليلِ استغرِبتُ سلوكَ الممرضةِ، فقد استخرجتِ النتيجةَ الخاصةَ بي من بينِ مجموعةٍ من الأغلفةِ، وبدلَ أن تسلّمها لي سلّمَتها لصاحبةِ المختبرِ. ناولتني صاحبةُ المختبرِ الورقةَ باهتمامٍ مُريبٍ، غيرَ معهودٍ قائلةً:

"هناك احتمال، احتمال فقط... لوجودِ التهابِ الكبدِ... يحتاج الأمرُ إلى تأكيدِه بتحليلاتٍ أخرى... قد يكون الأمرُ مجرد حساسية... حتى نؤاّر

الزيتون، وهذا موسمه، يُعطى مثل هذه الأعراض المرتبطة بالحساسية..قد يكون نتيجة التهاب دوائي..."

لحد تلك اللحظة ما زالَ خطرُ التهاب الكبد c بعيداً عن تصوري، ما زال الأمر في حدود قلق عام ناتج عن هذه الحركات، وهذا الاهتمام الزائد. تفحصتُ التقرير قبلَ التوجه به إلى طبيب الأمراض الجلدية؛ لم ألاحظ شيئاً غريباً، الشيء الوحيد غير العادي هو كميةُ أحد الأنزيمات (transaminase)، كانت زائدة على السقف المحدد لها قليلاً. وهذه الاختلالات البسيطة مألوفة عندي، لم تعدُ ترهبنني...

سينقلبُ الوضعُ رأساً على عقب بعد قليل. لقد أخذتُ نتيجةَ التحليل طريقاً آخر تُسيّثُ معه الحكمة المزمّنة، ولم أعد أشعر بوجودها. ما إن وقع بصر الطبيب المختص في الجلد على كلمة transaminase وترقيمتها حتى حرك رأسه صعوداً وهبوطاً. رفع سماعة التلفون، لم يكن في حاجة إلى سماع ما أفضّه عليه من كلام صاحبة المختبر. أخذ لي موعداً في نفس اللحظة مع طبيب مختص في الكشف الباطني، هو الذي سيشرح لي محتوى التحليل. عليّ أن ألتحق به في الحال. استقبلني الطبيب الشاب بعناية زائدة، بدون مقابل، أعطاني كلّ الوقت، وأفرغ أمامي كل حصيلته العلمية النظرية، وكانت ما تزال طرية، حتى أُرعبني:

المرضُ خطيرٌ. فيروس فتاك، يمكنه إذا انطلق بعنف أن يخرب الكبد في وقت قصير، ونسبةُ الشفاء منه محدودة، الدواءُ فاحشُ الغلاء وانعكاساته مُخرّبة، والسن المتقدم يُعقّد المسألة. وأنا في السادسة والخمسين من العمر..الكثير من الناس لا يتحملون الدواء..و..و..الخ

تخيلتُ الموتَ يترصّدي من كل مكان، يحاصرني ويزحف نحوي. لا أتذكر كيف خرجتُ من عيادة الطبيب في الطابق الثالث. وصلَ المصعد

إلى الطابق الأرضي وأنا شارد لا أعلم أين أنا، ظللتُ مسمراً في مكاني. فتح أحدُ الزبناء باب المصعد. فظهرتُ لي أرضية الشارع منبسطة، والشمسُ ساطعة. خرجتُ منه وركبتي تَتَوَّانِ بحملي، المكان يَمِيد، ومدى التوقع أبعدُ من البعيد. ومن الجهة الأخرى لموقف السيارات رأيتُ فاطمة تنتظرنِي. انتفضتُ في الحال، وغيّرتُ ملامحي. كانت صورةُ ابني الأصغر، أربعَ عشرة سنة، تقفُ أمامي، الآخران يُمكنُ أن يُوقفا الدراسات العليا ويواجهها الحياة، كيفما كان الحال. الصغير مشكل، وفاطمة كيف ستواجه كل تلك الأعباء؟

صورة الأبناء الصغار والبنات عامة هي التي أُوهِتُ صلابَة جميع الأصدقاء والزملاء الذين عاشوا هذه التجربة الأليمة. لقد كنتُ أتخيلُ أن الإنسان لا يمكن أن يفكر، وقتَ الشدة، إلا في نفسه حتى عشتُ هذه التجربة، وسمعتُ شهادات آخرين عانوا نفسَ المُعاناة. زاد هذا الشعور رسوخاً حين قرأتُ قصةَ تلك المرأة الأسبوية التي أدخلتُ رأسها في فم التمساح لإتقاذ ابنتها الصغيرة التي وضعها بين فكيه، فأفلتتا بمعجزة.

في الثامنة مساء اتصلتُ بأخي الأصغر الدكتور عبد الرحيم لأستشيرَه في مُقترح طبيب الجهاز الهضمي بضرورة الشروع فوراً في العلاج قبل أن ينتشر الفيروس ويخرب الكبد. أجابني، وهو في بني ملال، بجملة واحدة: في الصباح نلتقي باكراً في باب المستشفى الجامعي ابن سينا في الرباط، هناك وسائل لمكافحة هذا المرض، لي زملاء أطباء مصابون بهذا الداء منذ سنوات، أحدهم في مستشفى ابن سينا نفسه. الأمر يحتاج إلى تأنُّ.

في صباح اليوم التالي وجدته ينتظرنِي بباب المستشفى الجامعي. ونحن نتجول في أقسام المستشفى بين أصدقائه وأصدقاء أصدقائه التيقنا الطبيب المصاب، وكان ما يزال في طور العلاج. أخبرنا بوجود مصابٍ آخر من الأطباء بنفس المستشفى في طور العلاج أيضاً، قادنا إلى أحد الأساتذة

الجراحين الكبار هناك. التمسًا منه أن يوقع لي طلبًا لإجراء تحليل شامل اسمه bilan belge، رأيتُ نتيجته عند أحدهما، وهو تحليل يُنجز في بلجيكا، فيه عشرات النتائج.

خرجَ مرافقاي لإحضار المطبوع المتعلق بالعملية، وبقيتُ في مكتب الأستاذ الجراح. انتهزتُ فرصة تفرّغه لي، وما أظهره من اهتمام بحالتي، فطرحتُ عليه السؤال الذي ظل يشغلني: . ما هي احتمالات العيش بالنسبة للمصاب بهذا المرض، ما دامت نسبة الشفاء محدودة؟

قال لي بكل هدوء: مَبْدئياً الأعمارُ بيد الله، والسؤال الأجدر هو: ما هي احتمالات الوفاة؟

وقَف فجأة. مَدَّ يديه إلى الرَّف العلوي من الخزانة على يمينه وأنزل أمامي، فوق المكتب، رزمة من اثنين وثلاثين ملفاً، مجموع الملفات التي يتابعها بالعلاج أو المراقبة البَعدية: "هؤلاء كلهم مصابون بالتهاب الكبد الذي يُحتمل، يُحتمل فقطُ لحد الآن، أنك مصابٌ به، لم يَمُتْ أحدٌ منهم لحد الآن. منهم من شُفي نهائياً، ومنهم من يتابع العلاج، ومنهم من حالته مستقرة، أي أن الفيروس نائِمٌ حالياً، وقد يبقى على هذه الحال سنين طويلة، فهو تحت المراقبة، لم يمت منهم أحد. يمكن أن يموتوا بحادث سير أو سبب آخر، الله أعلم..."

مع ما سمعته من أخي ومن حال الطبيبين المصابين، وأحدهما يمشي أمامي بحيوية، ومن ملفات مرضى الأستاذ الجراح بدأتُ أسترجعُ هُدوئي، بدأ الأملُ في الحياة يعود.

بعد تحديد موعد للحضور من أجل أخذ عينة الدم المفروض إرسالها إلى بلجيكا، في السادسة صباحاً، من يوم الخميس المقبل، بدأنا البحث عن أحد المختصين المشهورين في الموضوع، وفجأة ظهر أحد زملاء الأخ

القدماء، وهو يعمل بنَّاجاً في المستعجلات. أخبرناه بالخطوات التي اتخذناها، وأخبرنا هو، من جهته، أن هناك طبيباً جديداً في قسم الكشف الباطني ذكر مزاياه في الاختصاص والمواظبة. قال:

مَنْ اتَّصَلْتُمْ بِهِمْ، أَوْ تَبَحَّثُونَ عَنْهُمْ، أَكْفَاءٌ وَمَهْتَمُونَ بِالْمَوْضُوعِ لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي الْإِهْتِمَامُ أَيْضاً بِالْحُضُورِ، فَالْمَهَامُ الْإِدَارِيَّةُ وَالْأَسْفَارُ قَدْ لَا تَكُونُ فِي صَالِحٍ مَنْ يَعَالِجُ أَمْرَاضاً تَتَطَلَّبُ الْمَتَابَعَةُ اللَّصِيقَةُ مِثْلَ التَّهَابِ الْكَبِدِ، خَاصَّةً إِذَا كَانَ الْمَرِيضُ يَسْكُنُ فِي مَدِينَةٍ بَعِيدَةٍ عَنِ الرِّبَاطِ، مِثْلَ فَاسٍ؛ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَرَابِطَ بِالْمُسْتَشْفَى حَتَّى يَعُودَ الطَّبِيبُ.

تغير الاتجاه نحو البروفسور م. ع الذي تابع حالتي حتى أذن الله بالشفاء. بالنسبة للأخير ليس هناك، لِحَدِّ الْآنَ، مَوْضُوعٌ لِلْحَدِيثِ عَنْ مَرَضٍ بَعِينِهِ؛ لَا بَدَّ، أَوَّلًا، مِنَ التَّأَكُّدِ مِنْ أَنَّ الْأَمْرَ يَتَعَلَّقُ بِالتَّهَابِ الْكَبِدِ. وَالْإِتِّحَاقُ الْبَلْجِيكِيُّ الْآنَ، فِي نَظَرِهِ، مَجْرَدُ تَبْذِيرٍ لِلْمَالِ وَالْوَقْتِ، وَالْوَقْتُ ثَمِينٌ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ. وَحِينَ نَتَأَكَّدُ مِنْ وَجُودِ الْفَيروسِ يَبْدَأُ الْحَدِيثُ عَنْ ضَرُورَةِ الْمَعَالَجَةِ أَوْ الْإِكْتِفَاءِ بِالْمِرَاقَبَةِ، الْعِلَاجُ لَيْسَ مَسْأَلَةً آلِيَّةً تُبْتَدَرُ مَعَ أَوَّلِ مُؤَشِّرٍ، وَلَيْسَ نُزْهَةً. وَهَكَذَا سَارَتْ عَمَلِيَّةُ اسْتِيعَابِ الْمَفَاجَأَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا. لَيْسَ الْمَوْتُ حَتْمِيًّا إِذْنِ كَمَا تَوَقَّعْتُ بَعْدَ الْبَيَانَاتِ الْأُولِيَّةِ الَّتِي تَلَقَّيْتُهَا عَنِ الْفَيروسِ بِفَاسٍ، وَلَيْسَ غَدًا عَلَى كُلِّ حَالٍ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ لِأَيِّ سَبَبٍ آخَرَ، هُنَاكَ وَسَائِلُ عِدَّةٍ لِلْمَقَاوِمَةِ.

من هذا اليوم الطويل في جنبات المستشفى الجامعي ابن سينا، ومن الحديث الطويل مع الأساتذة، المعالجين منهم والمصابين تعلمتُ أن جزءاً من علاج هذه الأمراض الخطيرة يوجدُ في الحديث عن المرض، في جعل الموضوع مُبْتَدَلًا..

وهكذا طوى عزرائيلُ الذي ظل مُنْتَصِباً أَمَامِي لِاتِّحَاقِ الْمَطْلُوبِينَ ذَلِكَ الْيَوْمَ (أَوْ ذَلِكَ الشَّهْرَ، أَوْ تِلْكَ السَّنَةَ... الخ) وَانصَرَفَ، وَعِنْدَمَا هُمْ بِدُخُولِ عَالَمِهِ

الخاص التفتّ نحوي وقال: إلى اللقاء، "ها أنت معروف". وها أنذا مازلت حيا بعد أكثر من عشر سنوات من ذلك الامتحان، لم يعد يهمني إلى متى. لقد استهلكْتُ رأس المال، وكلُّ ما أعيشه الآن ربحٌ.

قرأتُ، بعد ذلك، الكثير عن المرض في المجلات الطبية والكتب وعلى الأنترنت. وتحدثتُ عنه إلى الأبناء والأقارب والأصدقاء وكل من أصادفه، كلما كانت المناسبة مواتية، وذلك باعتباره مرضاً مثل كل الأمراض الخطيرة التي يمكن التغلبُ عليها بالوقاية قبل الابتلاء، والعلاج تحت رقابة طبية صارمة عند الابتلاء. ولذلك قصّدتني كل المعارف الذين ابتلوا به بدون حرج، وعملتُ كل ما في وسعي لأطمئنهم من خلال ما جمعتُه من خبرة في متابعة العلاج وتدبير الجانب المادي الضخم الذي لم يكن "الصندوق الوطني لمنظمات الاحتياط الاجتماعي" المعروف اختصاراً بـ cnops واضحاً ولا حاسماً في تحمّله كما عليه الحال اليوم، بل إن الدولة نفسها كانت تجبي - بدون رحمة - أكثر من 1800 درهم من المرضى كضرائب وجمارك زيادة في إنهاكهم، وعقاباً لهم على ما أصابهم، كانت دولتنا حليفاً للمرض، كما هي حليف للشيطان في الكثير من المواقف. وقد صُغتُ سؤالاً في هذا الصدد وقدمناه لأحد البرلمانيين، أخبرنا أنه قدمه كتابة. وربما كان أحد الأسباب التي أوصلتُ إلى إعفاء هذا الدواء من الضرائب فيما بعد.

يُقال أن نسبة ثلاثة في المائة من المغاربة مصابون بهذا المرض، أي ثلاثمائة ألف. والواقع لا يعلمه إلا الله. فهو مرضٌ صامتٌ. وقد لاحظتُ مدى انتشاره وصمته وصمتِ المصابين به عندما قامت إحدى الجمعيات بعملية مراقبة بسيطة في إحدى الإدارات العمومية بالمحمدية، وذلك بأخذ عينات من دم الموظفين. فبعد مدة اتصل بي ثلاثة ممن اكتُشِفَتْ إصابتهم بالمرض، ولعل هناك آخرين غيرهم لم يتصلوا. وقد لاحظتُ أن أكثر المصابين يفضلون ألا يتحدثوا للآخرين عن المرض لاعتبارات اجتماعية

وعائلية تستحق الاعتبار، أهمها عدم التشويش على البنات والأبناء الصغار المنهمكين بسعادة في دراستهم... ومما يُسعد المرء أن جميع المبتلين الذين التزموا بالعلاج التزموا علمياً استرجعوا حيويتهم وحياتهم العادية، سواء اختفى الفيروس نهائياً، وهو الغالب الأعم، أو ظل كامناً مقموراً، وهو استثناء.

ومما يشغل المصاب حديثاً بهذا المرض، ويتمنى أن يسمع ما يُطمئنه بشأنه، دون سؤال منه، هو مدى تأثير هذا الوباء على الحياة العائلية عامة، والزوجية خاصة.

من حسن الحظ أن هذا الداء لا يدعو إلى تغيير أي شيء من الحياة العادية داخل الأسرة. فهو لا ينتقل إلا عن طريق نقل الدم من جسم لآخر، عن طريق التحاقن أو استعمال أدوات جراحية ملوثة غير معقمة أو الوشم والوخز بأدوات الحلاقة، وما إلى ذلك. بخلاف الفيروس B الذي ينتقل عن طريق العلاقات الجنسية. وبعض الناس يتوهم أن A و B و C درجات من نفس الفيروس والواقع أنها أصناف مختلفة. وبالمناسبة فإن A هو الذي ندعوه "بوصفير".

حين أكدت التحليلات المخبرية اللاحقة أن الأمر يتعلق بالفيروس الفتاك بدأت في إجراءات الانتقال إلى كلية الآداب بالرياض. للاقترب من الطبيب المعالج. والاستقرار سكناً بمدينة المحمدية حيث الذكريات والعلاقات العائلية للزوجة والأولاد.

دخلت العلاج بوزن الفيل وخرجت منه بوزن الديك، فقدت ثمانية وعشرين كيلوغراماً في أقل من ستة أشهر. والسبب في ذلك أن المرأة يفقد الشهية بعد شهرين أو ثلاثة من العلاج. يُصبح أشهى المأكولات بطعم التراب، وتضمّر العضلات، وتتضعع الرغبات. على كل حال لم أفقد

شعرَ رأسي ولا حاجبي، ولا عمّت الحكّة المزعجة جسدي، كما وقع لبعض المرضى. وقد سمعتُ مرة مريضة تحكي لأخرى في قاعة الانتظار بمستشفى ابن سينا عن معاناتها مع الحكّة، حيث تطلي جسمها كاملاً بالحناء أملاً في تخفيف آلامها. والحقيقة أن من يقرأ لائحة التحذيرات من انعكاسات المرض ويأخذها بعين الاعتبار سيُفضّل الموت دون عناء العلاج، ما دامت النهاية واحدة..

ليس فيروس C فصيلة واحدة، بل يضم عدة فصائل من حيث العناد والصلابة، ومقاومة الدواء. ولذلك تتفاوت المدة الزمنية الضرورية للعلاج من ستة أشهر إلى أربع وعشرين شهراً أو أكثر. وبالرغم من أن الفصيلة التي أصبتُ بها كانت في أدنى سلم الترتيب عناداً ومقاومة للدواء فإنّ المشكلة كان يكمن، بالنسبة لي، في عدم تحمّل جسمي للدواء أصلاً. فقد كان أحدُ الدوائين المستعملين يُفكّ الكريات البيضاء إلى أدنى الدرجات، إلى الدرجة التي تتركُ جسمَ المريض بدون مقاومة للأمراض، أي شبيهاً بالمصاب بالسيدا، يصبحُ عرضة لأن يفتك به أي مرض عابر.

خفّضنا كمية الدواء إلى النصف، أملاً في أن ترتفع نسبة الكريات بدون جدوى، ثم إلى الثلث، فانتتهت الدورة العلاجية، سنّة أشهر، بدون نتيجة. ما زال الفيروس في مكانه. الأستاذُ المعالجُ مقتنع بأن الدواء سيعطي نتيجة، ولذلك لا بد من جولة جديدة مع المرض. سنغامر هذه المرة بزيادة كمية الحقنة حتى ولو نزلت نسبة الكريات البيضاء إلى أدنى من 850 التي كانت حدّاً أدنى في الدورة الأولى. عوّلنا على النزول إلى 650 في الدورة الثانية، قيل أن هناك توجهها علمياً لقبول هذه المغامرة. من حسن الحظ أننا لم نصل إلى هذا المستوى الحرج، إذ سرعان ما انتفض الجسم وزاد من الإنتاج، فارتفعت الكريات إلى 1400، وهذا الرقم نفسه مازال دون العتبة الدنيا في الأحوال العادية. واستمر هذا الحال إلى نهاية العلاج، وكانت النتيجة، بحمد الله، إيجابية هذه المرة. ثم استمرت المراقبة

سننتين. وبعدها قال الأستاذ المعالج مطمئناً: أنا وإياك في يد الله.

في تلك الهوة الفاصلة بين الجولة الأولى والثانية من العلاج وصلت من الإنهاك الجسدي والمادي والنفسي إلى الحضيض، خاصة وقد رُفض ملف تمديد العلاج من طرف الكنوبس snops مرتين. فأصبحتُ أطلبُ فقط بما لم أستهلكه من الدواء في الجولة الأولى. رفضتِ الموظفةُ المكلفةُ بتقديم الملفات أن تفهم أنني لم استوفِ الدواءَ اللازم للجولة الأولى، فهم لم يُغطوا أكثر من شهرين من ستة أشهر. وأنا لم أعد أطلب بدورتين علاجيتين، بل بما تبقى من الدورة الأولى. أطلب بما لم أتسلمه من الدواء، على أن أتدبر أنا تغطية الباقي. كتبتُ وشرحتُ ولكن لا قلب لمن تنادي. وربما كان الأمرُ يتطلب . والله أعلم . معاملة لم أفهمها كما قال لي كثيرون من المرضى. تأكد لي، فيما بعد، أن المسؤولة لم تكن تعرضُ ملفي على اللجنة الطبية. كانت تكفي في كل مرة بكتابة ما ترجمته: "رُفض من طرف اللجنة الطبية". جملة مكررة بخط رديئ.

والحجة هي أنك ما دُمت لم تتسلم الدواء في التاريخ المحدد لتسلمه فقد سقطَ حقك فيه، وعليك أن تبحث عن ركن تتكى فيه حتى يعود عزرائيل ليتفاهم معك، لأنها هي مشغولة بمن "يдахنها". بعضُ الظن إثم، ولكن مع غياب المنطق لا بد للخيال أن يسير في أي مسار.

إن مع العسر يُسرأ. صحيح أن عدد الزنابير والشياطين في المغرب يُضاعفُ عددَ النحل والملائكة عشرَ مرات، ولكن هذه المجموعة القليلة الصالحة كثيراً ما يلهمها الله فتتدخل في الوقت المناسب. وهذا هو حالنا في جميع الميادين. ولولا ذلك لكانت سفينة المغرب قد غرقت نهائياً من زمان. إنها تسير مهيضةً الجناح، تعبث بها الرياح، ولكنها ما زالت تسير. قد تصل يوماً. وقد تبقى في عرض البحر تتلاعب بها الأمواج. من يدري؟ قد

تحدثُ المعجزة فنصير مثل الشعوب التي تحترم نعمة الله، تحترم العقل. عندما وصل بي الإنهاكُ إلى أنني لم أعد أقدر على الصعود إلى الطابق الثالث حيثُ أسكنُ مؤقتًا، بعد الانتقال من فاس إلى المحمدية، صادفتُ في باب العمارة، ذاتَ مساء، الصديق الوفي الأستاذ علال بلعربي أستاذ الفلسفة، والكاتب الوطني، بعد ذلك، للنقابة الوطنية للتعليم. كان مشمراً عن ساعديه يغسل سيارته المرسيديس 240 التي ستأتي عليها يد آثمة، فنُسرق، ولا يظهر لها أثر.

سألني عن حالي مع المرض، وقد لاحظَ ما صرْتُ إليه من هزال. قلت له بشيء من الهزل: لقد وصلتُ ترجمتي الآن إلى الفقرة التي تتكرر في تراجم الأدباء والعلماء، حيث يُقال: "ولد سنة كذا، وفعل كذا وكذا... وفي سنة كذا تكالبت عليه الأمراض فانتقل إلى جوار ربه، أو إلى رحمة الله".

فأنا الآن في منطقة "التكالب"، والانتقال قريب، إن شاء الله. واسترسل الحديث إلى مسألة تهرب الكنويس من تغطية الدواء. ألمه الأمر فتحرك بشهامته المعهودة، ووفائه المتأصل، فكان له فضلُ إقناع التعاضدية بمشروعية مطلبي في استكمال العلاج. فأخذ الملفَ طريقه في غيبة صاحبة الحسنات التي كانت في عطلة.

كان الأستاذ بلعربي قد سمعَ بي قبلَ أن يراني. ففي السنة التي غادرتُ فيها ثانوية الكندي بالفقيه بن صالح إلى الدار البيضاء (1976) حلَّ هو بتلك الثانوية أستاذاً للفلسفة فرأى وسمع. وبعد سنوات، في أوائل الثمانينيات، سنلتقي بمدينة المحمدية حيثُ خاضَ تجربة تسيير الشأن المحلي، بعد الاكتساح الذي حققه الاتحاد الاشتراكي في المحمدية سنة 1983. ما إن تعرّف عليّ وتعرفت عليه حتى سرنا وكأنا أصدقاء من زمان، دام له الأمن والأمان.

عندما رجعتُ السيدةُ صاد من عطلتها، والملف في خطواته الأخيرة،

وقفتُ أمامها لاستخلاص نسخةٍ من رخصة الحصول على الدواء، نظرتُ
إلي بارتياح، ثم قالت: ملفُّك مرفوض.. رفضته اللجنة الطبية؟!
قلتُ: لقد أُعيدَ فيه النظر، لقد قُبِلَ...

حدَّجَتني بنظرة باردة متفحصة مدى سلامة عقلي، ثم استدارت بحركة
عنيفة نحو إحدى المساعدات طالبة استخراج ملفي لاستجلاء الأمر!
ولعلَّها أُحسَّت أن قامتي بدأت تستوي مرة أخرى، وأناي أصبحت أطول من
اللازم مرة أخرى، فلم تجد شيئاً تعينني به إلى الحجم الذي ترضاه لي غير قولها:
"خَرَجَ بَرًّا... نُسِّنَ بَرًّا".

يجب الاعتراف بأنها وضعت، منذ أسابيع، ورقةً على باب مكتبها تمنع
الدخول، ولكن الواقع بخلاف ذلك، فالمكتبُ ضاحٍ بمن هَبَّ ودَبَّ، ومن
بقي بالخارج، من أصحاب الملفات العويصة، لا أحد يسأل عنه أو يكلمه.
من عاهات المغرب أن المسؤولين، من أعلاها إلى أسفلها، يحولون
حقوقَ الناس إلى إكراميات وهبات وصدقات، لتكون اليدُ العليا خيراً من
اليد السفلى، أو إلى رشاوى من أجل ضمان الولاء وانتظار خدمات مقابلة.
ولذلك تجد المواطن المغربي، وهو يتقدم لاستخلاص حق من حقوقه
معقوفَ القامة مُنحني الهامة، يستعيرُ لغة المتسولين:
الله يرحم والديك.. الله يجازيك بخير...

إلى آخر هذا المعجم المنافق المتذلل الذي لا تجد له مرادفات في لغات
الأقوام المتحضرة. أما إذا وجَدته منتصبَ القامة، عالي الهامة، يتحدَّث إلى
الموظفين بدون تلعث، وهم منشرحون له، يبتسمون في وجهه، قائلين:
"محلُّكم هذا، نحن في الخدمة..." فاعلم أنه دهَنهم دهنا حتى رطبهم ترطيباً،
عملاً بالحكمة "دَهَنَ السَّيْرَ إِسِير". سَدَّ تَلْقَى فِعْلُهَا"، كما قالت موظفةٌ شابةٌ
تعمل معها وهي تراقب الموقف: "هذا قرار اللجنة، ما الذي أصابها، ماذا
تريد؟".

أنا وإن كنتُ لا أعطي رشوة، بل لا أعرف كيف أفعلُ ذلك، فإنني كثيراً ما أحاولُ استعارةَ لغة المتسولين دون مهارة.. أتسَوَّلُ باللغة الفصحى فيكشفونني بسهولة. إذا استعملتَ لغةَ المتسولين (الله يرحم الوالدين، الله يجازيك بخير...) وحالك ومظهرك يشيان بك، يقولان بأنك قادر على الدفع، فإنك بعملك هذا تستفز الزنابير. لهذا السبب اشمأز المرتشون دائماً من المعلمين، وسموهم "شكرا"، لأنهم يكتفون بتقديم هذه الكلمة لمن يقضي حاجاتهم الإدارية البسيطة: مثل عقود الازدياد، عند التوظيف، وشواهد الحياة، بعد التقاعد، وترجموها إلى الفرنسية فقالوا: "ميرسي (merci) ما توكل ما تكسي"، وفي رواية أخرى: "ما تغذي ما تعشي".

في قاعة الانتظار الخاصة بالأمراض الباطنية، في المستشفى الجامعي أو في المصحات الخاصة التي انتقلنا إليها في أعقاب الطبيب المعالج، يستطلع المبتلون بهذا الداء أحوالَ بعضهم، والغالبُ أن يتشمَّ الواردُ الجديدُ أمثاله من المصابين ويتشممونه بلُطف وحنان، كما تتشمم الكلابُ الصغيرة بعضَهَا في صالون الحلاقة. يحاول كل واحد كشفَ سرائر الآخر والاستفادة من تجاربه. الكل يريد معرفةَ الجديد في الميدان، والإمكانيات الموجودة في الجهات الأخرى، من الدار البيضاء إلى القاهرة ونيوديلهي وطوكيو. انفعَل أحدُهم مرة فقال: أنْ تُعالِجَ في الرباط أو باريس أو واشنطن لا فرق، الفيروس معروف والدواء معروف، يصل الجديد منه إلى الدار البيضاء قبل أن يوزَّع في لندن، يوزع كما توزع الصحف. ما لم يصل الأمرُ إلى زرع الكبد فالعلاجُ واحدٌ في كل البلاد؛ وما يُحكى من خوارق هنا أو هناك مجرد شعوذة مؤذية.

البعضُ يفضِّلُ الاستماعَ والاكتفاء بما يصل إلى أذنه من وشوشات الآخرين أو ثرثرة بعضهن، والبعض الآخر، مثلي، يبادر بكشف حاله تسهيلاً للتواصل. هناك احتياطٌ، في الغالب، من إشراك الفضوليين من مرضى

الجهاز الهضمي الذين كانوا يبدون لمرضى الإلتهاب الفيروسي مجرد طفيليين مُدللين أو مزاحمين. دخلتُ هذه الحلقات المغلقة مُستمعاً ثم خرجتُ منها فقيها مُفتياً. وعندما انتقلتُ، بعد شفاء الكبد، إلى علاج الجهاز الهضمي صرتُ منبوذاً لا أدري ما يجري بين المصابين بالفيروس C. إن الأمر أشبه بتنظيم سري.

هناك إرهابان لا يمل المرضى من الحديث عنهما في تلك الأجواء: خطورة المرض، وعدم نجاعة الدواء إلا في حدود نسبة محدودة، وتكلفة العلاج الفاحشة التي تتجاوز بضعا وعشرين ألف درهم شهريا لمدة قد تمتد إلى السنتين أو أكثر.

هذه امرأة في الخمسينيات سمعتُ بمعجزة مصرية، في جامعة عين شمس، فذهبتُ هناك، أقامت عند قريبة لها تسعة أشهر بدون فائدة. والمشعوزون في مصر كثيرون مثلُ نظرائهم في المغرب، بل هم أكثرُ وأمهز. وهذا رجل في حالة سيئة سمع عن العلاج بلسعات النحل في فاس، فأوقفَ الدواء واحمر جلده من اللسع، فعاد وقد "قات فيه الفوت"، أو كاد. وتلك ثرثرة دلكتُ جلدها بالحناء من شدة الحكة وتسأل عن مخرج. وذاك كولونيل متقاعد قادم من أقصى شرق المغرب، يُحرّك شفّتيه بصعوبة، يريد أن يتحدث معي رأساً لرأس دون أن يسمع الآخرون، لعل فيروسه تمرّد على الدواء. تحدث عن كلفة العملية الجراحية واحتمالات نجاحها. استعرض تجربة المرحومة الأستاذة العيادي التي ماتت بعد فشل زرع الكبد فزاد تشاؤمه. وهذا قاض معتزل في غرفة شبه مظلمة بجانب المرحاض، دخلتها خطأ فوجدت كرسيًا فارغا فجاورته رغما عنه، وفككتُ عقدة لسانه بصعوبة، لا يريد أن يراه أحدٌ كما أخبرتني الممرضة... نماذج متنافرة يضطرّها تهديد الفيروس إلى الخروج من جلودها إلى الالتقاء والتحاور.

انتهت الجولة الثانية من العلاج بانتصار الأمل، لقد اختفى الفيروس، وبقي أن تستمر مراقبته مدة سنتين. ولكن عواقب المرض لم تنته. كانت المدام ص ستحرم المغرب، باسم اللجنة الطبية المفترى عليها، من أحد المشوشين الذين يلعبون دور الذبابة المتسلطة على الحيوان الكسول، كما قال سقراط. بعد كل هذا العناء وأكثر عدتُ لتحليل منطق المخزن وأوهام الأصوليين!

غاب الفيروس الكبيدي ولم تنته المعاناة من عواقبه. في خضم الحرب مع التهاب الكبد، وقبل الانتهاء من علاجه، ذهبت شهية الأكل نهائيا فانهارت الأمعاء. فاض المعى الغليظ دماً. كان الطبيب المعالج في رحلة طويلة خارج المغرب. بحثتُ عن أستاذ مختص في الدار البيضاء، وجدتُ المختص وأضعتُ الطبيب. ذلك أن الطبيب قديماً كان يُسمى حكيماً. والحكيم يجمع معاني المهارة واللباقة وحسن التأتي. أما صاحبنا فكان شاباً وقحاً كثير الادعاء، يُنقص من هُم أحسن منه علماً وخُلُقاً دون موجب. وكان، إلى ذلك، متفقد الجشع مُتسرعاً؛ يعرض في كل اتجاه. تخيل أنه، لسرعته وتسارعه، وضيق صدره، أجرى عملية تنظير المستقيم rectoscopie في ممر صغير بباب العيادة تابع للمحاسبة لن يتجاوز عرضه المتر. أمام باب لا يسد إلا ليفتح على قاعة الانتظار، من الداخل والخارج. المهم وجدني في حالة ضعف شاملة فتحملت حماقته وجشعه، "الله غالب".

أما الآن فأشعر بالرغبة في تشنيف مسامعه بعبارة الفقيه الداودي على شاشة التلفزة المغربية حين سأله أحد الوقحين العابثين سؤالاً محرّجاً أخرجه من وقاره، إذ اكتفى بالقول، على ما أذكر: "أما السائل الفلاني، فلعنة الله عليه".

جاء في حوار تلفزيوني مؤثر مع الطبيب الروائي شريف حتاتة، زوج نوال السعداوي، أن الأطباء مؤهلون، أكثر من غيرهم، للإصابة بالغرور، وكثيرا ما يصابون به، لأنهم لا يلتقون مع الناس إلا وهم في حالة ضعفهم، فيحسبون أنهم متفوقون على الآخرين. والمفروض في "الحكيم" أن يسمو فوق هذا الاعتبار، وإلا لما كان هناك من فرق بينه وبين حاملي السلاح في نظرهم للمدنيين "السيفيل".

المهم، كشف التحليل عن ظهور مرض جديد من الأمراض المزمنة التي لم يهتد الطب، لحد الآن، إلى معرفة أسبابها، ولا إلى الطريق إلى علاجها. كل ما هو متاح أنواع من مضادات الالتهاب، إن أفادت في إيقاف النزيف، وإلا دخل المريض في تعقيدات تنتهي باستئصال المعى الغليظ كليا في أحسن الأحوال، وإنهاء حياته مُعاقاً. إنه التهاب الأمعاء النقرحي النازف RCH. تفرح المعى الغليظ وبدأ ينزف دما في غمرة الهزال وانعدام الرغبة في الأكل.

بعد ستة أسابيع من العلاج المكثف بأقراص البانتازا pentasa توقف النزيف، واستمر العلاج الوقائي خمس سنوات. ولكن المعى الغليظ فقد مناعته وصار لا يعمل إلا في إطار حماية في منتهى القسوة مع أدوية مختلفة. ولذلك صار من المتعذر علي الدخول في أي التزام، أو برنامج مضبوط. صرْتُ أعيش حسب رغبات المرض ونزواته.

والواقع أن التهاب الأمعاء الغليظة إنما انضاف إلى قرحة المعدة التي بدأت معاناتي معها من أوائل الثمانينيات. ابتلعت الكثير من الأدوية ومضادات الحموضة بدون جدوى، وعندما اكتشفت الباكثيريا المسببة للقرحة، ونال مكتشفها جائزة نوبل، تخيلت أن الشفاء منها صار حقيقة واقعية. ومن سنة 1995 وأنا مع تلك الباكثيريا في لعبة القط والفأر: أتناول المضادات الحيوية ومضادات الحموضة المخصصة لمحاربتها فتختفي سنة أو سنتين، ثم لا تلبث أن تظهر أعراضها فيؤكد التحليل وجودها، وفي سنة 2006

استعملتُ وصفة pylorid 400 فلم تعد تظهر في التحليل دون أن تختفي كل أعراضها، وإن كانت بشكل أخف. "بَعْضُ الهَمِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ".

تراودني من حين لآخر . خلال العقد الأخير . رغبةً في العودة للاعتكاف في مكتبي، فأشفق على نفسي من تلك الجلسات الطويلة المضنية. وذات صباح لم استطع مقاومة تلك الرغبة. كانت الأوراق والملفات والكتب مكدسة فوق بعضها تكدس المشاريع الموقوفة المتعلقة بها. ما إن بدأت في ترتيبها حتى بدأ القولون يدق في جانبي الأيسر كعادته، وتعددت المطارق حتى عمّت الجهاز الهضمي. استلقيت على الأريكة وأستمعتُ إلى صوت من الأعماق ينادي:

"كفى.. لا جدوى من ترتيب هذه الأوراق، ما الفائدة من كل هذا التعب، ما الفائدة من الانشغال بكل هذه التفاصيل التي لن تفيد أحدا؟ انتهت لعبتك. أليس من الحكمة إذن، بعد كل هذه المعارك، وضع السيف في غمده، وركنهُ في الصندوق العتيق ليظل مُهْمَلاً في تلك الزاوية المعتمة؟

كلُّ ما هناك رماحٌ وسيوفٌ ونبالٌ معلقةٌ الآن على طول جدار التاريخ، تساقطت في الطريق، تساقطت من يدٍ صلبة أو مرتعشة على السواء. ما الفائدة من ترتيب هذه الأوراق؟ دعها تأخذ أي طريق تختاره لها رياح هذا الخريف...

يا لها من رحلة بلا سفينة،

بلا ضجيج،

بلا زحام،

بدأتُ بلا اختيار لتنتهي بلا اختيار.

لقد علّمتني هذه الأمراض أن هذه "الحمالة" أو "الناقلة"، هذه الآلة التي

ندعوها جسداً، وننعتُّها أحياناً بأسوأ النعوت، ويحلُّم بعضُنا بقمعها والانفصال عنها، جزءٌ لا يتجزأ من الروح والعقل، الوجدان والفكر. ما يعكّر أحدها يعكّر الآخر. وقديماً قيل: من علامات سلامة *البدن* ألا يعرف المرء أين تقع معدنته وأمعائه، ويمكن أن يقال أيضاً أن من سلامة *الكيان* ألا يعلم المرء الفرق بين بدنه وفكره ووجدانه. أما حين يعجز الفكر عن حمل الرغبة، ويعجز الجسد عن حمل الفكر فإن الكيان يتفكك ويصبح في تنازع كما وصف مطران في قصيدته المساء:

دَاءٌ أَلَمٌ، فَخِلْتُ فِيهِ شِفَائِي	من صَبَوْتِي، فَتَضَاعَفَتْ بُرَحَائِي
يَا لِلضَّعِيفِينَ! اسْتَبْدَا بِي، وَمَا	في الظُّلَمِ مِثْلُ تَحَكُّمِ الضُّعَفَاءِ
قَلْبٌ أَذَابَتْهُ الصَّبَابَةُ وَالْجَوَى،	وَعِلَالَةٌ رَثَّتْ مِنَ الْأَدْوَاءِ
وَالرُّوحُ بَيْنَهُمَا نَسِيمٌ تَنَهَّدِ	في حَالِي التَّصَوُّبِ وَالصُّعْدَاءِ
وَالْعَقْلُ كَالْمِصْبَاحِ يَغْشَى نُورُهُ	كَدَرِي، وَيُضْعِفُهُ نُضُوبُ دِمَائِي

تأتيك الرغبة فيشتعل العقل فيحرقُ الجسد حتى لتظن أنك تفكر بجسدك. وقديماً قال الكندي، أو فيلسوف آخر، حسب اختلاف الروايات. حين سمع المعاني العميقة في شعر أبي تمام، وتبين قدرته على الابتكار في المواقف الحرجة: "هذا الفتى يموت قريباً"، لأنه "ينحت من نفسه". وفي رواية أخرى أن عقله وقريحته *يأكلان جسمه كما يأكل السيف غمده*. وهذه صورة في منتهى البيان لما نريد. ومرة وجدتُ الأستاذ طه عبد الرحمن، أستاذ المنطق، يشكو من المعدة فتحدثت معه عن القرحة التي كنتُ أيضاً أشكو منها، ومدى علاقة ثورانها بالحالة الانفعالية والذهنية، فقال: أنا أسمىها القريحة. فالقرحة بنت القريحة. والقريحة: الحرقه. أما حين تأتي الرغبة فيشتغلُ الجسدُ مباشرةً، في انفصال عن العقل، فإننا ننزل درجاتٍ نحو الحضيض.

كظمتُ غيظي مرة في أحد اجتماعات شعبة اللغة العربية أوائل

الثمانينيات، إذ كنت حديث العهد بها، ولم تنته الجلسة إلا وأنا أحسُّ بدوار انتهى بي في مصحة الضمان الاجتماعي الزيراي بالدار البيضاء حيث قضيت أسبوعاً تحت العناية نتيجة نزيف كاد ينهي حياتي. قال الطبيب حين عرف أسباب النزول: تَعَوَّدَ على الضرب على الطاولة ورد الصاع صاعين، وإلا فعلينا وعليك السلام، "ما كُلَّ مَرَّةٍ نَسَلُمُ الْجَزَّةَ". ونفذت وصيته بالحرف، إذ وَجَدْتُ هوى في نفسي.

لا أدري كيف تَصَالَحُ سُكَّانُ منطقتي بورزازات مع الموت. طوال طفولتي، على ضفة وادي درعة، لم أر قط رجلاً يبكي ميتاً، لم أر قط امرأة تَلْطِمُ خدها أو تصيح. ثم أُطِرَ هذا المسلك دينياً، فقليل إن البكاء على الميت يؤرِّقه في قبره، فَكَفَّ الناس دموعهم رحمةً بالموتى. المهم أنك لن تر هناك شيئاً من مشاهد البكاء الفلكلوري الذي أُرعبني أول ما التقيتُ به في الواجهة البحرية، من الشاوية إلى بني عمير. وعلى قدر التصبُّر واللامبالاة إزاء الموت الطبيعي كان هناك جزعٌ وخوفٌ شديد من "القتل"، القتل يؤدي إلى القتل، إلى الحرب إلى "الكسر"، بمعنى النفي. "الكسرة" هي خروج القبيلة من ديارها بعد هزيمة، قد تعود إليها وقد لا تعود أبداً.

وأنا طفل صغير سمعتُ عمتي الوحيدة، رحمها الله، تستنسر الوالد عن الأجر الذي أعده الله للمطمئنين من عباده الذين يشترون كفنهم في حياتهم، ويحملونه معهم بدون جزع في حُلَّهم وترحالهم، وسألته عن لقاء عزرائيل، وعن الأسئلة التي يطرحها على الميت. أجاب بما يتطلبه السؤال شرعاً، ثم خرج كعادته من الجد إلى شيء من الهزل، فسألنا نحن الأطفال الفضوليين عن الجواب الذي سنجيب به عزرائيل لو سألنا هذا السؤال الفلسفي المخصص للأطفال:

ما الفرق بين رأسك ورأس الحمار؟

أُسْرِعَتِ الوالدةُ بالتحذير: "إياكم أن تقولوا: الأذنين". فمن قال بأن الفرق بين رأسه ورأس الحمار هو طول الأذنين سيضره سيدنا عزرائيل، ملك الموت، بمطرقة ضخمة تُشَتُّ رأسه كما يُشَتُّ قلوبُ السكر حتى يختلط بالتراب.

تَدَخَّلْتُ عمتي لإنقاذ الموقف: الجواب الصحيح، يا أحباب الله، وأنتم لا حرج عليكم، هو أن تقولوا: الفرق بين رأسي ورأس الحمار هو: فهمٌ، وعقلٌ، وتمييزُ الكلام، وردُّ الجواب.

وماتت العمَّةُ فجأةً ربعَ قرن بعد ذلك. جاءت من هولاندا حيث كانت تقيم مع ابنها الفار (منذ 1964) من قضية شيخ العرب. جاءت لقضاء رمضان بالدار البيضاء. تركتها صباحا وذهبت إلى المكتبة العامة بالرباط. زارت إحدى صديقاتها من الورزازيات. وفي المساء جَلَسْتُ أمام التلفاز تشاهدُ مباراة في كرة القدم بين المغرب وبلد آخر، حسب ما قيل لي، وفي الاستراحة صَلَّت، ثم طلبت من بنت صديقتها أن تدلك أصابع رجلها! لماذا؟

لأن الموت - كما قالت للطفلة ممازحة كعادتها - كان يتسرب إليها من بين الظفر واللحم. لم تنته البنتُ من عملية الدُّلكِ حتى مالت العمَّةُ على جانبها. لم أُصدق ما سمعته حينما عُدْتُ في المساء. بل بقيتُ أكثر من سنتين لا أُصدِّق أنها ذهبتُ نهائياً، لا أُصدق أنها لن تعود. كُنْتُ أعتقد أن ذلك راجع لكوني وحيدَ العمَّة. هذا غير صحيح. هذا الشعور لازمني سنين كذلك بعد موت أخي الأكبر السي محمد الفقيه. أتخيلُ أنه في رحلةٍ قصيرةٍ ستنتهي بعودته يوماً. وأعاني اليوم نفسَ الشعور بعد موت أختي أمينة التي تكبرني بسنتين، تلك التي حركت "باب المراثي" في "الأشواق".

مع كل هذا الإحساس بالفقد، ومع كل ذلك الألم المُمض، فإن موتَ

الآخرين ليس هو الموت الذي نواجهه ونحن محمّلون بمهمات وتبعات. لقد
اقتنعتُ بأن مواجهة الموت في عز القوة، وانتشار العاطفة، شيء آخر،
ولذلك إرتعشتُ.

الفهرس

زمن الطلبة والعسكر

10- 5	لماذا نكتب سيرة ذاتية؟	تقديم
78-11	رحلة في زمن الانقلابات	الفصل الأول
177 - 79	الطريق إلى السجن المدني	الفصل الثاني
242 -179	فضاءات القلم	الفصل الثالث
310 - 243	المغارة	الفصل الرابع
334 - 211	رعدة في فضاءات الموت	الفصل الخامس

المؤلف

محمد العمري من مواليد 1945 بقرية الحارة. منطقة سكورة. ورزازات.
باحثٌ جامعيٌّ في البلاغة وتحليل الخطاب، وكاتبٌ متابعٌ للشأن السياسي والثقافي والاجتماعي من الداخل (الانتماء).
تَوَجَّ مساره العلمي بالحصول على جائزة الملك فيصل العالمية سنة 2007، وقبلها جائزة المغرب للكتاب سنة 1990.
مدير مجلتي: دراسات أدبية ولسانية، ودراسات سيميائية.
له مؤلفات عديدة، منها:
- أشواق درعية، العودة إلى الحارة. سيرة ذاتية. إفريقيا الشرق. الدار البيضاء.
- البلاغة العربية أصولها وامتداداتها. إفريقيا الشرق (طبعان).
- البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول. إفريقيا الشرق.
- الموازنات الصوتية. إفريقيا الشرق (طبعان).
- تحليل الخطاب الشعري. الدار العالمية. الدار البيضاء.
وفي موقعه على الأنترنت كتب أخرى، وعشرات من المقالات السياسية والثقافية والاجتماعية التي تجمع بين الحجاج والتخييل الساخر.
الموقع: www.medelomari.net

ظهر الغلاف



زمن الطلبة والعسكر الذي أنتج كلَّ المآسي
والفضاعات التي نحاول الآن التطهّر منها، بعدَ
عقود من المعاناة، زمنٌ فريد، لن يتكرر برغم كل
مخاوف الردة التي تساوَرنا! هو زمنُ الانقلابات:
انقلابُ الطلبة على أنفسهم، ثم على الأحزاب
السياسية... وانقلابُ العسكر على المخزن ... إنه

زمنُ العقوق وقتل الأب قبلَ أن يتحول إلى زمن خيبة وانكسار، وتعبيد
الطريق للخطاب الأصولي المتطرف الذي كان ينبثق في المدارس والجامعات.
زمنُ الطلبة والعسكر "زمنٌ مُقتطع" — كما يُقال في لغة كُرة السلة — من
مُسلسل الصراع بين المخزن وبين طليعة "الحركة الوطنية" التي ناضلت من
أجل الاستقلال ثم تحولت إلى معارضةٍ تجر ذبول الخيبة.

تُحكي هذه السيرة كيف عبرت ذاتٌ حاضرةٌ وغائبة، مؤمنةٌ ومرتابة،
جماعية ومفردة، هذه المسالك الوعرة الشائكة قادمة إليها من الهامش. إنها
إحدى الروايات عن حياة جيل الاستقلال في ملتقى العقدين السادس والسابع
من القرن الماضي وما بعد ذلك: جيل الخيبة والمغامرة والانكسار. رواية
حمراء تشتاق إلى روايات بألوان أخرى..